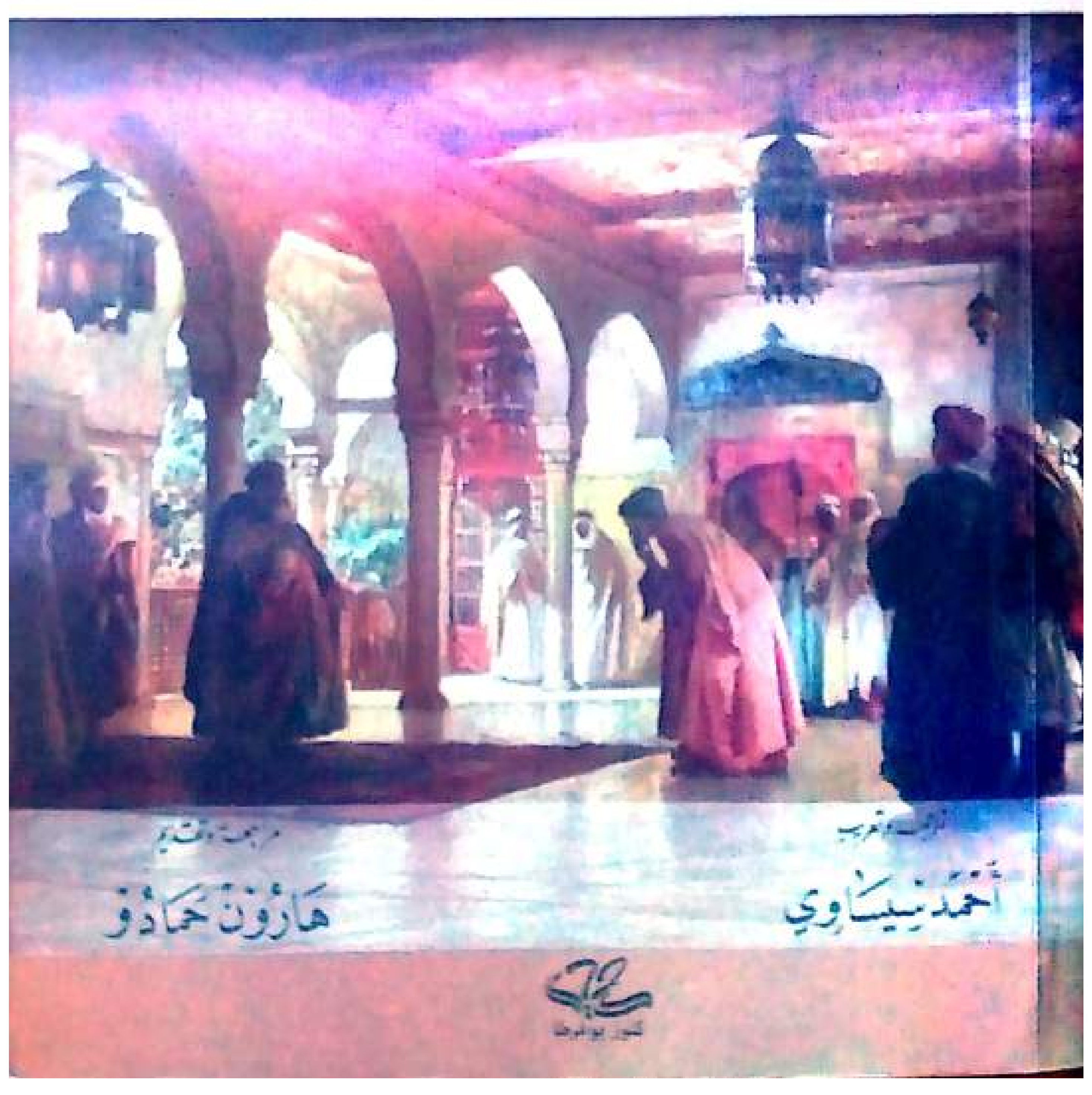
أوجان فايسات

Eugène Vayssettes

تاريخ قسنطينة

خلال الفترة العثمانية

1517 - 1837



ترجمة وتعريب

أحمد سيساوي

مراجعة وتقديم

هارون حمادو

أوجان فايسات

Eugène Vayssettes

تاريخ قسنطينة

خلال الفترة العثمانية

1517 - 1837

ترجمة وتعريب

أحمد سيساوي

مراجعة وتقديم

هارون حمادو



كنوز يوغرطا

للنشر والتوزيع



كنوز يوغرطا
للنشر والتوزيع

«قِيمَةُ المَرْءِ مَا يُحْسِنُه»

عنوان الكتاب: تاريخ قسنطينة خلال الفترة العثمانية (1517-1837)
المؤلف: أوجان فايسات (Eugène Vayssettes)
الناشر: دار كنوز يوغرطا للنشر والتوزيع - هارون حادو
الطبعة الأولى
الحجم: 16×24
عدد الصفحات: 337

ISBN: 978-9931-9557-02
الإيداع القانوني: أكتوبر، 2019

صورة الغلاف: لوحة زيتية بعنوان «استقبال سفير في قصر قسنطينة»، حوالي سنة 1880
للفنان الأمريكي «فريدريك آرثر بريدغمان» (1847-1928)
Reception of an Ambassador (Palace of Constantine), Algeria
Frederick Arthur Bridgman (1847-1928)

العنوان على الغلاف: بقلم الخطاط التونسي عمر الجمني
الصفحة 284: إعادة رسم من إنجاز الفنان حمزة سلامي

دار كنوز يوغرطا للنشر والتوزيع

حي الياسمين، رقم 29 - طريق عين الباي - قسنطينة - الجزائر

هاتف: 0542 14 02 95

e-mail: konouzjugurtha@gmail.com

تنويه

«تاريخ قسنطينة تحت السيطرة التركية 1517-1837» هي الترجمة الحرفية لعنوان هذا الكتاب في نسخته الأصلية باللغة الفرنسية:

Histoire de Constantine sous la domination turque 1517 - 1837

للمؤلف «أوجان فايسات» (Eugène Vayssettes) (1826-1899)؛ الذي يُعَدُّ أحد أبرز الباحثين المهتمين بالتاريخ الجزائري في عصره.

يُعتبر هذا الكتاب من بين أهم المصادر الأساسية التي وثّقت لفترةٍ هامةٍ من تاريخ الجزائر امتدت على ما يزيد عن ثلاثة قرون؛ وهي الفترة العثمانية.

وبإمعان النظر في العنوان الأصلي للكتاب، نجده يوحي بنظرةٍ ضيقةٍ لتلك الفترة؛ حيث تم حصرها في «سيطرة» (domination) من طرف عنصرٍ إثني مُعيَّن هو العنصر «التركي»؛ وهو ما يختزل تلك المرحلة الطويلة والهامة من تاريخ الجزائر بما تحمل من إيجابياتٍ وسلبياتٍ، وتفاعلاتٍ اجتماعيةٍ وسياسيةٍ وثقافيةٍ في مجرد «سيطرة تركية». ويعود السبب في ذلك إلى التوظيف السياسي لهذا العمل التاريخي بما يخدم المصالح الاستعمارية الفرنسية، وذلك من أجل إيجاد مبرراتٍ للاحتلال الذي طالما اعتبروه حلولاً محل الوجود التركي الذي سبقهم.

ولكن دراستنا الدقيقة لهذا العمل الضخم، من خلال ترجمته وتعريبه، جعلتنا ندرك هذه المغالطة التاريخية؛ فارتأينا أن نضع لهذه الترجمة عنواناً يتَّسم بالموضوعية، ويتناسب مع حقيقة تلك الفترة التاريخية الفارقة؛ وهو:

تاريخ قسنطينة خلال الفترة العثمانية

1837-1517

ترجمة الكتاب

بحكم اختصاصه في تاريخ الجزائر خلال الفترة العثمانية، وفي خضم قراءاته الكثيرة في هذا المجال، أولى الأستاذ أحمد سيساوي -رحمه الله- لهذا الكتاب عناية خاصة، فشرع في ترجمته وتعريبه خلال عام 1984، فأنجز منه جزءاً غير يسير قبل أن ينقطع، ثم يستأنفه سنة 2007؛ حيث كلفني بإتمام ترجمة الجزء المتبقي مع مراجعته وتنقيحه.

في مسار إنجاز هذا العمل؛ اعترضتنا صعوباتٌ جمة، ولعل أبرزها كانت إعادة نقل كافة الرسائل والعقود والوثائق الأخرى التي تضمنها الكتاب إلى اللغة العربية انطلاقاً من الترجمة الفرنسية التي قام بها مؤلف الكتاب؛ وذلك مع حرصنا الشديد على الاقتراب قدر الإمكان من نصوصها الأصلية التي يستحيل وجودها بسبب ضياعها إلى الأبد.

كما أننا سجلنا افتقاد صاحب الكتاب إلى حلقة من سلسلة تتابع البايات ضمت أربعة بايات متتابعين؛ وهم على التوالي علي بن حمودة، وحسين شاوش، وعبد الرحمن بن فرحات، وحسين المدعو دنغزلي باي. لم يذكر فايسات سوى أسمائهم وتواريخ تعيينهم؛ فرجعنا إلى دراسة قام بها الأستاذ مولود ڤايد، ونقلنا عنه المعلومات الشحيحة التي أوردها عنهم.

قراءة نقدية للكتاب

يرى الأستاذ أحمد سيساوي أنه رغم عيوب المدرسة العسكرية التي ينتمي إليها المؤلف؛ إلا أنها شكلت أرضيةً لجميع المؤرخين لدراسة البايلك، وذلك لافتقارنا للمصادر الأصلية.

وعلى العموم فإننا نجد أن عمل «أوجان فايسات» (Eugène Vayssettes) (1826-1899) يتميز بالدقة والموضوعية العلميتين، ولكنه لا يكاد يخلو من بعض الأحكام التي تعكس مواقفه الشخصية؛ الإيجابية أحياناً، والسلبية في أحيانٍ أخرى؛ والتي طغى عليها الفكر الاستعماري الذي طبع المدرسة السانسيمونية[1].

ولدى قيامنا بعملية مسح كاملٍ لهذه الدراسة نجد أن الكاتب أبدى في عديد المرات إشاراتٍ إلى حقائق لا يمكن إنكارها؛ كوصفه للحالة الثقافية في قسنطينة قائلاً: «لقد كانت قسنطينة في القرن السادس عشر مركزاً للتنوير، مثلما كانت بجاية تحت حكم بني حماد، وتلمسان تحت حكم المرينيين؛ حيث كانت الدراسات الإسلامية تعتبر شرفاً كبيراً، إلى جانب الآداب والشعر»، واعترافه أيضاً بفضل الشرق على الغرب في قوله: «بدون شك، بينما كانت هذه الحركة العلمية والأدبية والفنية تشع من بغداد إلى قرطبة ومن القاهرة إلى فاس كانت أوروبا كلها غارقةً في الظلمات؛ فحملت هذه الحركة مشعل الحضارة في الشرق والغرب، وحضّرت لدينا مرحلة النهضة». وفي السياق نفسه، نجده لا ينكر مكانة

---

1. المدرسة السانسيمونية (Saint-Simonisme): هي مدرسة فكرية ذات توجه اقتصادي واجتماعي وديني، أسسها الفيلسوف والاقتصادي والعسكري الفرنسي «سان سيمون» (Saint-Simon) (1760-1825). وهي ترتكز على فكرة إنشاء «تشاركية بين الناس» في إطار مساواةٍ تامةٍ للحد من «استغلال الإنسان للإنسان»، وذلك «بتحسين ظروف حياة الفئات العريضة والفقيرة» بالاعتماد على التعليم كوسيلةٍ لإزالة جميع الفوارق بين الناس، ونشر الحضارة في المجتمعات المتخلفة. ولقد تم توظيف هذه المدرسة في المشاريع الاستعمارية الفرنسية.

الجزائر بين الدول خلال عصرها الذهبي؛ فيقول: «... لم تفتأ الجزائر، بالنسبة للأوروبيين، تكون الجزائر المحاربة؛ الجزائر المنيعة التي لا تُقهر، كما كانت تتصف بكل كبرياء».

ومن شدة إعجابه بالحس الحضاري لدى صالح باي وبالنهضة التي قام بها، أورد جملةً من الملاحظات للثناء على إنجازاته؛ حيث يقول: «... آخر ما تبقى من عصرٍ آخر لا يمكن أن يختفي تماماً إلا بفعل مطرقة الحضارة الحديثة لتحل محل يد الزمن البطيئة جداً في عملية التهديم»، وفي موضع آخر: «... كان بمثابة الشرف العظيم لروح المبادرة والتنظيم لدى الباي صالح». وختاماً لتلك الفترة اللامعة من حكم صالح باي عقَّب قائلاً: «في نفس الوقت الذي كان يحاول فيه نشر ذوق البناءات الجميلة بين الأهالي، وإيقاد شعلة الدراسات في أنفسهم، لم يكن صالح باي يهمل بتاتاً التشجيعات التي يوليها للزراعة وخدمة الحقول».

ولدى وصفه وفاء سكان قسنطينة، لم يستطع إخفاء شعوره المتأرجح بين الإحباط والعجرفة بسبب فشل قوات بلاده الغازية أمام صمودهم؛ فقال: «إنها حقيقةٌ تُحسب لصالح هؤلاء السكان الأوفياء لوطنهم؛ والتي فشلنا نحن أمامها في مرةٍ أولى، في حين أن النصر كان يتبع رايتنا أينما حللنا. ولا يتخلف القسنطينيون عن التذكير بهذا الماضي التليد، بشيءٍ من الفخر، كلما أُثيرَ الحديث عن حروب الأزمان الغابرة».

وأمام الإنجازات التي قام بها الحاج أحمد باي، آخر بايات بايلك الشرق، لم يُخفِ الكاتب إعجابه وانبهاره بها؛ حيث يقول: «خلال سنوات السِّلم والفراغ القصيرة هذه؛ استطاع أن يشيِّد بجانب داره، وبمصاريف كبيرة، ذلك القصر الذي يُعتبر الصرح الوحيد للسلطة التركية بالجزائر الجدير باجتذاب أنظار أوروبي؛ حيث ينتشر الرخام بوفرةٍ، وتذكِّر بساتين البرتقال والليمون فيه بالحدائق الساحرة لبغداد مدينة الألف أعجوبةٍ وأعجوبة»، ولكنه سرعان ما يردف بما ينم عن أفكارٍ شخصية لا تجد مبرراً لها سوى خدمة مشروع الغزو بعيداً عن الروح العلمية التي تُميِّز كاتباً مثله؛ فيقول معقباً: «فهناك، وبانتشائه بعبق الحرم، كان ينسى، في أحضان مئة جاريةٍ، عبء شؤون الحكم الثقيل، وكان

يستسلم، دون قيد، إلى هيجان أهوائه الشهوانية. ورغم هذا؛ فإن ملذات الحب المهيّجة لم تكن أبداً تُضعفُ هذه النفس الفولاذية. فقد كان يقترب من النساء بمزاجٍ عنيف؛ غير أنه لم يكن يحبهن ولا يحترمهن، ولم تكن حياتهن تعني له شيئاً، وكان قلبه لا يحس أبداً بتوسلات ودموع عشيقةٍ ناحبةٍ قد جعله مزاجه أو نزوته يعذبها أو يقتلها». وفي الموضع نفسه؛ لا يخفي النوايا الاستعمارية التي كانت تخفيها فرنسا، فيقول: «لكن الأحداث الجسيمة التي كانت تتحضر وراء البحار، سرعان ما كانت ستأتي لتغير مسار أفكاره، وتصرفه لفترةٍ عن إصلاحاته الداخلية، وتنتزعه من ملذات الحرم».

وعلى صعيدٍ آخر، لم يتوان فايسات في كتابه هذا عن تمجيد الحضارة الغربية الذي هو من صميم أهداف الحركة السانسيمونية التي ينتمي إليها؛ حيث يثني على أحد أعيان مدينة قسنطينة قائلاً: «وهو... واحد من العرب الذين استوعبوا جيداً أفكارنا الحضارية، وعرفوا كيف يضعوها حيز التطبيق». ونلحظ جيداً أنه لم يكتف بتمجيد تلك الحضارة، بل نراه ينظّر لها حين يقول: «ولا يعتبر الخطر كبيراً إذا عرفنا كيف نستبدل ذلك بمعارفنا الحديثة؛ لأن تجديد الشعب، ليس تحديداً هذا الجيل ولكن الأجيال القادمة، لا يكون إلا بهذا. ولكن إعادة تشكيل ماضٍ عندهم طالما رفضناه لصالحنا سيكون منافياً للحضارة، وهو الدور الذي ليس على فرنسا لعبه في هذا البلد الذي صار بالنسبة لكثيرٍ منا وطناً ثانياً». وفي سياق ذلك التمجيد، يبدي افتخاره الذي لا ينبغي أن يرد في عملٍ علميٍ كهذا؛ كقوله: «أما بالنسبة لنا، نحن الذين ندرك بشكلٍ آخر قوانين الشرف والولاء، نعيب هذه العجرفة الحقيرة التي أبداها الباي بوحنك».

وفي المقابل، يورد الكاتب، في مواضع عديدة، إشاراتٍ تهدف إلى ازدراء الحضارة المحلية السائدة آنذاك في الجزائر؛ فيقول في معرض دراسته لقبيلة الزمالة: «وعلا شأنهم بالقيمة التي ترتبط برجل الحرب على حساب الحِرَفي أو العامل في بلادٍ حيث الحضارة لم تعترف بتفوق القوى العلمية على القوى الهمجية»، قبل أن يستطرد واصفاً أفرادها: «فالشراسة التي كانوا يظهرونها في قتل ونهب القبائل البائسة المستهدَفة دليلٌ على تغلب حس الضراوة لدى العربي

على حساب الشعور بالأخوة الوطنية». وفي السياق ذاته يقول: «إنه من الغريب أن نرى امرأةً فارسةً تقود وتسود قوماً يحتقرون الجنس الأنثوي». ويبالغ الكاتب في ذلك الازدراء حتى يقول واصفاً مدينة الجزائر: «مدينة القراصنة ومرسى كافة الضمائر المجرمة أو المضطربة». ومن خلال انتقاده لصالح باي، يظهر بغضه للجزائريين بصفة عامة؛ حيث يقول: «إن صالح باي، بمزاياه الكبيرة، كان بعيداً على أن يكون منزهاً عن العيوب الملازمة لمزاجه الخاص ولجنسه»، حتى يقول جازماً: «فلدى الشعوب البربرية، كما نعلم، لا تقاس عظمة الأمير بمدى المحبة التي يمكن أن يخلقها بل بمدى الرعب الذي يوحي به اسمه».

وعلى العموم فإن عمل فايسات لم يَخْلُ من الإشارات التي تترجم نزعته العدوانية التي تندرج ضمن التأسيس والتنظير للمشاريع الاستعمارية. ويظهر ذلك جلياً في اعترافٍ صريح؛ كشف الكاتب من خلاله عن النية التي كانت تُبيِّتها فرنسا للاستيلاء على الجزائر متذرعةً بحادثة المروحة، ومحاولاً إعطاء صبغةٍ إنسانية ودينية للغزو الغاشم، ومعترفاً، في الوقت ذاته، بقوة الجزائر وكبريائها؛ فيقول: «وبعد نصف قرن، ارتفع ذلك النداء نفسه ليجمعهم مرةً أخرى حول مدينة الجزائر ليصدوا المسيحي اللعين أيضاً. غير أن الغازي هذه المرة كان فرنسا الـمُهانة التي جاءت لطلب تصحيح شتيمةٍ شخصيةٍ، والانتقام، في الوقت نفسه، للإنسانية قاطبةً على ثلاثة قرونٍ من القمع والعار. لقد كانت مهمتها مقدسةً، وفي طيات رايتها حملت الحضارة الجديدة. وإلى أن انتصرت، لم تفتأ الجزائر، بالنسبة للأوروبيين، تكون الجزائر المحاربة؛ الجزائر المنيعة التي لا تُقهر، كما كانت تتصف بكل كبرياء».

ونجد الكاتب يحرص على تبرير الاحتلال بطريقةٍ تفتقد للحس العلمي الذي يُفترض أن يتحلى به؛ فيقول: «إنه الداي نفسه الذي أدت إهانته لقنصلنا «دوفال» (Deval) إلى سقوط الجزائر تحت غزونا. ولكن إذا كانت مثل هذه الإهانة يمكن أن تجد لها عذراً لدى قانون الناس؛ فإنه يجب التذكير بأن حسين داي لم ينفك يكرر بأن الإهانة التي وجهها إلى القنصل لم تكن إلا بنية إهانة فرنسا». ويزيد على هذا بإيجاد ذريعة أخرى، ليس فقط لتبرير غزو بلاده

للجزائر، بل لإضفاء الشرعية أيضاً لذلك العدوان الغاشم؛ فيقول: «شرفٌ آخر، إذاً، لفرنسا التي خلّصت أخيراً أوروبا من تلك الأعباء». وتأكيداً لهذا، يقول في موضع آخر: «إن بأخذ فرنسا على عاتقها قضية الإنسانية المغتصَبة والـمُهانة في ما لا ينبغي المساس به؛ وهو حقوق الأمم، قد قررت معاقبة الجزائر آخر معاقل القرصنة الحديثة. فالإهانة التي وجهها الداي لممثلنا دوفال كانت بمثابة الشرارة التي وضعت النار في البارود. فقد تبع ذلك إعلانٌ للحرب، وبعد ثلاث سنواتٍ تراءى الماريشال بورمون على سواحل مدينة الجزائر على رأس الأسطول الفرنسي. وفي 14 يونيو 1830، تم إنزال الجيوش في سيدي فرج».

ولا يخفي فايسات انتشاءه بسقوط الجزائر في يد السطات الغازية التي كان هو لسان حالها حين يقول: «أمنياتٌ جميلة كان الرد عليها بعد أقل من قرنٍ برفرفة العلم الفرنسي على أسوار قصبة الجزائر»، وأيضاً في قوله: «ولكن رغم الجهود المتظافرة للأتراك والعرب الذين جاءوا من كل مناطق الإيالة؛ رفرف العلم الفرنسي في يوم 5 يوليو من العام نفسه على قصبة الجزائر، ليشير لأوروبا المتفاجئة بنهاية القرصنة البربرية، وللشعب المهزوم بقدوم حضارةٍ جديدةٍ على هذه الأرض».

وبقصدٍ أو بغير قصد، نجد الكاتب يفصح عن أساليب بلاده الاستعمارية الرهيبة لدى ازدرائه للسكان المحليين؛ حيث يقول: «فالشراسة التي كانوا يظهرونها في قتل ونهب القبائل البائسة المستهدَفة دليلٌ على تغلب حس الضراوة لدى العربي على حساب الشعور بالأخوة الوطنية؛ وهو الأمر الذي لمسناه في أيامنا هذه، ومنذ عام 1830، كلما استعملنا قبيلةً لمعاقبة قبيلةٍ أخرى». وفي السياق ذاته، ومن أجل التنظير لفكرة الاستيطان، وفي معرض تحليل وشرح تطور قبيلة الزمول، يأخذ على السلطة العثمانية استعمالها لتلك الفكرة دون التأسيس لها؛ فيقول: «إنها... نابعةٌ من الفكرة الاستيطانية الوحيدة التي جرَّبها الأتراك في هذه البلاد؛ هؤلاء الذين طالما استغلوها ولكن لم يؤسسوا لها شيئاً». ثم يؤكد ذلك بطريقةٍ أخرى جاءت في شكل اقتراحاتٍ أو توصياتٍ للإدارة الاستعمارية؛ حيث يقول: «وهنا رأينا توغل فكرة الاستيطان في السياسة

التركية؛ تلك الفكرة التي أخذناها عنها ربما مجاناً، ولكن لم يكن ممكناً أن تكون أقل خصوبةً في نتائجها إذا وجدت تطبيقاً أكثر اتساعاً». وكمباركةٍ لنجاح عملية الاستيطان والتوسع من أجل الهيمنة على البلاد، يقول: «وفي 2 ديسمبر 1854، فتحت تقرت أبوابها لنا، ورفرف العلم الفرنسي على قصبة عاصمة وادي ريغ».

هارون حمادو
أكتوبر 2016

توطئة الكاتب

لقد قام عددٌ من المؤرخين القدماء والمعاصرين بالتعريف، بما فيه الكفاية، بسيرتا في عهد ماسينيسا ويوغرطا وأباطرة الرومان. وقام آخرون، وتحديداً «شيربونو» بتعريف الجمهور ببعض الأطوار المختلفة التي عاشتها هذه المدينة خلال الفترة العربية.

وحتى نحن فقد وضعنا في «كشف الجمعية التاريخية للجزائر»[1] (Bulletin de la Société Historique d'Alger)، تحت عنوان «تاريخ آخر بايات قسنطينة» (Histoire des derniers Beys de Constantine)، بداية عملٍ، تحتَّم علينا قطعه لظروفٍ قاهرة، قبل أن نكمله، ولكنه لم يكن يغطي سوى ثلاثة أرباع قرنٍ تقريباً.

وعند استئنافنا لهذا العمل كان يحذونا أملٌ بأن نتمكن من إتمام هذا البحث الأول؛ الذي استطعنا أن نكمل على الأقل جزءاً منه. فالاطلاع على عديد الوثائق الأصلية الثمينة، وبعض المخطوطات الجديدة، وبعض الكتب والمقالات المنشورة منذ 1862 حول ماضي الجزائر سمح لنا، ليس فقط، بالتمكن من مراجعة ثمرة ما قد كتبناه سابقاً حول الإدارة العامة للإقليم وحول آخر باياتها، ولكن بالرجوع، أيضاً، إلى الحلقة الأولى من تلك السلسلة التي تربط قسنطينة بالسيطرة التركية.

إن غالبية العمل إذاً تبقى غير منشورة، وحتى تلك التي نُشرت قبلاً في المجلة الإفريقية (Revue africaine) قد تعرضت لتعديلاتٍ لدرجة أنها أصبحت تشكل دراسةً جديدة. وعلى كل حال، فإننا لا نستطيع فصل أي جزءٍ عن الآخر دون أن يختل الكل.

إن هذا الاعتبار المزدوج يفسر الاهتمام الذي أرادت «الجمعية الأثرية لقسنطينة» (Société archéologique de Constantine) تخصيصه لهذا العمل بإدراجه كاملاً في مجموعتها للوثائق والمذكرات (Recueil de Notices et Mémoires).

---

1. انظر الأعداد 14، 15، 16، 20، 21، 24، 26، 33، 35 من «المجلة الإفريقية» (Revue africaine).

مقدمة الكاتب

يبدو أن تاريخ قسنطينة تحت السيطرة التركية أحرى بالدراسة لأنه أقرب إلينا، ولأننا لا نعرف عنه الكثير فعلاً. إن الأتراك؛ الذين كانوا هنا سابقينا المباشرين؛ كانوا يحسنون استعمال السيف أكثر من استعمال القلم، والعربي المنضوي تحت طغيانهم العنيف قد نسي تماماً نتاجات الذكاء لكي لا يفكر إلا في إنقاذ ممتلكاته أو حياته من ضراوة المضطهد. إذا كانت الدسائس والانتفاضات مستمرةً خلال ثلاثة القرون الطويلة هذه؛ فما من صوتٍ أو كتابةٍ تجرأت على الظهور للاحتجاج على كل هذا الاستبداد والحكم المطلق. لقد كان الأب يروي لابنه ما تلقاه عن جده؛ فصارت الأحقاد وراثية، وبقيت الأحداث التاريخية من أسرار العائلات. ومنذ ذلك العهد تتالت أجيالٌ عديدةٌ، وذهب الجيل الذي يمكن أن يروي تصرفات حكومةٍ لم تعد موجودة، وما هي إلا سنواتٌ قليلةٌ وتلتزم كلها الصمت الأبدي. وسيضيع ما رأته وما عانته إلى الأبد إذا لم نسارع إلى استنطاقه.

ولإنقاذ هذه الذكريات من النسيان الذي يأخذ كل يومٍ ورقةً منها؛ بادرنا منذ سنة 1857 بتثبيت كل المعلومات الشفوية التي يمكن أخذها من أفواه الشيوخ الأهالي الذين كانوا شهود عيانٍ، وكثيراً ما عايشوا هذه المأساة الدموية الطويلة.

لقد كتب محمد البابوري، وهو شخصيةٌ متعلمةٌ نوعاً ما من قسنطينة، في 1848 مخطوطاً بطلبٍ من شيربونو؛ الذي ساهمت دراساته العلمية في التاريخ المحلي بالكثير من الوثائق الثمينة، فزوّدنا بالعناصر الأولى لعملٍ أصبح أكثر جاذبية لنا يوماً بعد يوم ريثما نتوصل إلى اكتشافاتٍ جديدة. وهكذا توصلنا، شيئاً فشيئاً ودون أن نشعر، إلى القيام بكل البحوث التي من شأنها إلقاء الضوء على هذا الماضي المجهول أو غير المنشور.

لهذا راجعنا رسمياً المجموعة الضخمة التي تنشرها الحكومة كل سنةٍ تحت عنوان «جداول المؤسسات الفرنسية بالجزائر» (Tableaux des

(Établissements français en Algérie؛ التي احتوت الأجزاء الأولى منها على الإدارة السابقة للبلاد؛ حيث زوّدتنا مقالاتٌ عديدةٌ لـ «ساندر رانغ» (Sander-Rang)، و«كاريت» (Carette)، و«فالسن إيسترهازي» (Walsin Esterhazy)، و«أوربان» (Urbain)، و«فارنيي» (Warnier) بإسهاماتها القيمة، كما اطلعنا أيضاً على «الفترات العسكرية في القبائل الكبرى» (Les époques militaires de la Grande Kabylie) لـ «بربروغر» (Berbugger)، و«التشريفة» (Tachrifat) لـ «دوفولكس» (Devoulx)، و«بحث في تاريخ قسنطينة» (Essai sur l'histoire de Constantine) لصالح العنتري، وعدة مقالاتٍ لشيربونو، واعتمدنا مؤخراً على «الحوليات التونسية» (Les annales tunisiennes) لـ «ألفونس روسو» (Alphonse Rousseau)، و«بنيون الجزائر» (Le pégnon d'Alger) لبربروغر، وتأريخاتٍ أهليةٍ قديمة؛ ومخطوطٍ للشيخ مصطفى بن جلول، ومجموعةٍ من الوثائق التي استُدعينا لترجمتها، وأخيراً «الغزوات» التي أفادتنا خصوصاً في إعادة تشكيل الفترات الأولى من الاحتلال التركي، وتثبيت الترتيب الكرونولوجي، بشيءٍ من اليقين، لهذا الجزء المهم من التاريخ الذي أهمله المؤرخون المحليون.

ومن دون شك ظل عملنا بعيداً عن التمام؛ فهو يضم فجواتٍ كثيرةٍ بسبب بعض الأحداث التي تبقى أسبابها أو نتائجها مجهولةً بالنسبة لنا. ومع ذلك فإننا نعتقد بأنه، حتى على هذه الحالة، يمكن أن يكون مفيداً للذين سيحاولون فيما بعد إعادة تركيب قِطَع ذلك الماضي الذي لا يتجلى لفضول الباحث إلا شيئاً فشيئاً بأجزاء طالما تخضع للصدفة.

تنظيم الجهاز الحكومي العثماني

لفهم الأحداث الآتية ارتأينا وجوب التقديم لها بنبذةٍ قصيرةٍ عن تنظيم الجهاز الحكومي للعثمانيين في إيالة الجزائر، بالتركيز خصوصاً على ما يتعلق بإقليم قسنطينة. فالمبدأ المكوّن لهذه السياسة الأوليغارشية؛ التي استطاع العثمانيون، من خلالها، بحفنةٍ من الرجال البقاء لأكثر من ثلاثة قرون سادةً للبلاد؛ كان يعتمد على تركيز كافة السلطات العسكرية بين أيدي المحتلين، وعلى الإبعاد الصارم للأهالي عن كل مشاركةٍ في السلطة العليا.

إن أول محاولةٍ لإقامة حكومةٍ للبلاد من البلاد دخلت حيز التطبيق منذ بداية الاحتلال من طرف خير الدين كانت خطيرةً جداً؛ مثلما سوف نراه في بداية هذا التأريخ؛ لدرجة أن من جاءوا بعده لم يتجرؤوا على تقليده.

فمؤسسة المخزن التي تبدو للوهلة الأولى أنها تشكل استثناءً لهذا المبدأ لا تخالفه أبداً؛ لأن القادة العرب المكلفين بجزءٍ من السلطة كانوا دوماً مسؤولين عن إدارتهم أمام القادة العسكريين الأتراك. لقد كانوا وسطاء للسلطة وليسوا أصحابها الحقيقيين، وكان مؤسسو هذه الأوليغارشية؛ عروج أولاً ثم خير الدين من بعده؛ قد رأوا بأنه يجب اختيار من خارج البلاد من سيحكمونها.

الباشا أو الداي

كان على رأس السلطة باشا أو داي مقره في مدينة الجزائر. وكان المنصب انتخابياً، ويتم إعلان تعيينه رسمياً من طرف سفيرٍ لدى الباب العثماني؛ الذي يوافق عليه دائماً. لقد كان إجراءً بسيطاً احتراماً لممثل الخلافة الإسلامية. ومن جهةٍ أخرى، فإنه لم يكن يعترف بسلطة السلطان، وكان يقيم علاقاتٍ سياسيةٍ مباشرةٍ مع القوى الأجنبية. ولم يستقر هذا النوع من الحكم بصورةٍ نهائيةٍ إلا مع بداية القرن الثامن عشر. واستطاع الباشاوات الأوائل، الذين خلفوا خير الدين، الإبقاء على الحكم سليماً مع العهد بتنفيذ

السادس عشر نافسهم على السلطة إلى قائمقامات. ولكن منذ نهاية القرن السادس عشر نافسهم على السلطة الآغا، قائد القوات، وأيضاً أعضاء الديوان، ولم يمضِ إلا وقتٌ قليلٌ حتى ضعفت سلطتهم وأصبحت صورية. واستطاع الدايات، القادة المنتخبين لهذه الميليشيا؛ التي يمكن اعتبارها أكبر تمثيلٍ لحكومة لم تقم إلا على النشاط القمعي للقوة طيلة ثلاثة قرون؛ من امتصاص كل شيء. ولم يعد منصب الباشا إلا وظيفةً عاطلةً خطيرةً وجب زوالها مع الوقت. وكان آخر باشا بعثه الباب العالي هو إبراهيم باشا؛ الذي لم يصل إلى الجزائر؛ حيث أرغمته العاصفة على الرسو في القل، ومات هناك سنة 1711 (أنظر المجلة الإفريقية، ص207، عام 1858). ومنذ ذلك الوقت أضاف الداي لقب الباشا إلى منصبه.

البـاي

كان تراب الإيالة مقسماً إلا ثلاثة أقاليم أو بايلكات:

- قسنطينة في الشرق؛
- وهران في الغرب؛
- التيطري في الجنوب.

ويدير كلاً منها بايٌ (أو حاكم)، يعيّنه الداي ويخضع لإرادته.

يتلقى هؤلاء الموظفون بعثةً هامةً من القوة السائدة ويستخدمونها بِحُريّة، ويقودون ميليشياتٍ نظاميةٍ وغير نظاميةٍ خاصةٍ بالإقليم، ويقومون بجمع الضرائب. كل ثلاث سنوات، عليهم الذهاب بأنفسهم إلى مدينة الجزائر لحمل الدنوش أو الضريبة؛ الذي سوف نتعرض إليه لاحقاً بتفصيل أكثر. وبعد القيام بهذا الواجب يعودون إلى عواصمهم حيث يمارسون سلطة مطلقةً نوعاً ما حتى اليوم الذي تُسحب فيه منهم القيادة بعنف، بسبب ريبةٍ أو نزوةٍ من الباشا. ويُرمون بالقوة في سجنٍ مظلم، أو يُقتلون في أغلب الأحيان.

ويُعيَّن بايات قسنطينة أحياناً من بين الأتراك القاطنين بالمدينة، وأحياناً من بين الذين يقطنون مدينة الجزائر، أو من نقطةٍ أخرى من الإيالة. وفي ما يلي الرسميات المستعملة لتنصيبهم.

عندما يكون الباي الجديد قاطناً في قسنطينة، يرسل الباشا تعيينه مباشرةً مع القفطان أو ثوب الشرف إلى آغا النوبة، وإلى ديوان القصبة، مع أمرٍ بتنحية الباي الحاكم، والشروع في تنصيب الباي الجديد. وحينما يتوجه الآغا والديوان إلى دار الباي (دار الحاكم)، يدخلون إلى الأجنحة دون الإعلان عن أنفسهم، فيحتجزون شخص الباي ويزجون به في السجن.

بعد هذا الإبعاد على الطريقة التركية، يأتون بالمنتخَب الجديد الذي يأخذ مكانه على العرش، وتصطف حوله جماعة العلماء، وأعيان المدينة وأعضاء الديوان. عندئذٍ يقرأ الباش كاتب، الواقف الوحيد، بصوتٍ مرتفعٍ وواضح؛ بحيث يُسمع حتى من الخارج، أوراق الاعتماد التي تحمل تعيين الباي الجديد. ثم يُلبس الباي قفطان الشرف، فتُقرع الطبول، وتطلق المدافع قذائفها، ويخرج «البرَّاح» (المنادي الشعبي) ليعلن اسمه عبر الشوارع والساحات العامة. وفي الوقت ذاته، تُبعث الرسائل الرسمية إلى القياد وشيوخ الإقليم في مختلف الجهات لإعلان التغيير الذي حدث. وابتداءً من ذلك اليوم يستلم الباي مهامه ويأخذ زمام الأمور.

أما إذا اختار الباشا البايَ من صفوف ميليشيا مدينة الجزائر؛ فإن الباي في هذه الحالة يأتي ومعه أوراق اعتماده والقفطان. غير أن الباشا، وبكتابٍ سرّي، يرسل أمراً مسبقاً إلى آغا النوبة وديوان القصبة بتوقيف الباي الحاكم وسجنه أو قتله، فيُنفِّذ الأمر فوراً. ثم ما إن يتم الإعلان عن قدوم الباي الجديد؛ حتى يخرج العلماء والأعيان والديوان للقائه وتحيَّته، ثم يلبس القفطان. وبعد قراءة قرار اعتماده، يدخل المدينة وسط قرع الطبول، وأصوات المدافع مسبوقاً بالبراح معلناً للسكان اسم سيده الجديد.

تكوين المخزن

يحيط بالباي كبار موظفي الحكومة أو المخزن، وهم على التوالي بصلاحياتهم الرئيسية[1]:

1. **الخَليفة***: يشرف على شؤون الأوطان (مناطق السهل)، ويمتد نفوذه على كامل الإقليم، ويأتمر القياد بأوامره، ويتصرف في كل الميليشيات النظامية لجمع الضرائب وإبقاء السكان طائعين. وعليه الذهاب مرتين في السنة إلى مدينة الجزائر، في فصل الربيع والخريف، لتسليم الدنوش عندما لا يذهب الباي بنفسه. وتقع تحت إدارته المباشرة تسع قبائل تمدّه بمئتي فارس. أما في مدينة الجزائر؛ فإن هذه المهام هي من اختصاص الآغا.

2. **قايد الدار**: مكلف بالإدارة وشرطة المدينة، ويزوّد الميليشيات بمؤنها الشهرية، ويجهّز القوات عندما تقوم بالحملات، ويدير القسم الأكبر من أملاك البايلك الريفية، والعقارات المصادرة في المدينة. ويترأس عملية تخزين الحبوب الواردة من العشور، وتجميع التبن والزيت والشحوم والحطب، ومستحقات أخرى للدولة لدى الغارمين. وتحت رعايته، كان يتم تموين رجال المساجد وموظفي المدينة الآخرين. وأخيراً فقد كان قاضياً، دون الباي، في كافة الجنح والجرائم داخل المدينة؛ فيحكم بالضرب بالعصا أو التغريم دون تمييز، أما الجرائم التي تستوجب عقوبة الإعدام فكانت تُعرض على الباي.

---

1. بالرغم من أننا لا نتحدث هنا إلا عن تنظيم بايلك قسنطينة، فإن هذا التنظيم ينطبق إلى حدٍ ما على الإقليمين الآخرين.

*. وتُنطق هذه الكلمة حسب اللهجة الجزائرية بسكون «الخاء»، وغالباً ما تنطق هذه الكلمة على النحو التالي: «الخْليفة»، وهذا دليلٌ على تأثير اللهجة الجزائرية على المصطلحات الإدارية التركية. وربما تكون هذه المصطلحات قد أثرت في المجتمع الجزائري لدرجة أن هناك أسماء أعلام جزائريين «خليفة»، كذلك «باش آغا»، وهذا يدل على قوة الحكم التركي والمركز الرفيع للحكام الأتراك؛ مما جعل بعض الجزائريين يسمون أبناءهم بهذه الوظائف بعد زوال الحكم العثماني. (المترجم)

3. **النقّاد (أمين الخزانة)**: بيده كافة المصالح المالية، ويشرف على جميع النفقات، ويراقب فرض وجمع الضرائب بالإضافة إلى تجميع الدنوش.

4. **آغا الدايرة أو قايد الدواير**: كان أحد قادة فرسان المخزن، وكان يقود القُوم في حملاتهم، وكان مكلفاً بكل ما يخص هذه الفرق غير النظامية. تقع تحت إدارته تسعة وثلاثون قبيلة، وله أعلامٌ خاصة، وغالباً ما يكلّف بحملاتٍ صغيرةٍ ضد القبائل المدانة.

5. **الباش كاتب، أو الكاتب العام**: يحرر الرسائل الرسمية الأكثر أهميةً لسياسة الباي، ويحتفظ بسجل المداخيل بكل أنواعها؛ النقد، والخيول، والبغال، والأبقار، والأغنام... إلخ؛ المحصَّلة من كامل الإقليم، ويسجل خروجها، ويراجع الرسائل المحررة من طرف الكُتّاب الآخرين، ويختمها بختم الأمير. كما يحرر أيضاً رسائل تعيين الموظفين الآخرين، ويدير خارج المدينة إقطاعاً كبيراً جداً مؤلفاً من ثلاثة وعشرين قبيلة. يساعده ثلاثة كُتّاب مكلفين بتحرير المحاضر الرسمية الخاصة بالقضايا المعروضة على الباي، والمراسلات العامة مع الشيوخ والقياد.

6. **الباش سيار، أو رئيس السعاة**: ينقل مراسلات الباي إلى الباشا، ويسلمها له شخصياً، ويتلقى الردود الممكنة عنها إن وُجدت. كما يصاحبه كلما ذهب لدفع الدنوش.

7. **الباش سايس**: كان تحت مراقبته كل ما يتعلق بالحراسة، وصيانة وتكاثر خيول وبغال البايلك.

8. **شُوّاش الكرسي**: وعددهم اثنان، من أصلٍ تركي، ويقومون بوظيفة الجلاد. وعندما يخرج الباي يسيرون أمامه ويحيون الناس باسمه. إنهما وسيطان غريبان لتبادل عبارات السلام والمحبة بين حاكمٍ ورعاياه. ويمكن لهذه النقطة وحدها تمييز السياسة التركية.

ويحمل هؤلاء الموظفين الكبار؛ الذين ذكرنا ألقابهم واختصاصاتهم؛ اسم المخازني (رجل الحكومة). فكان لهم حق الاقتراب من الباي ومصاحبته في كل خرجاته؛ ويشكلون مجلسه الخاص، وكان حضورهم ضرورياً عندما ينظر في قضايا الناس.

ويمكننا أيضاً اعتبار بعض الموظفين جزءاً من المخزن؛ وهم قايد العواسي (قايد الحراكتة)، قايد الزمالة (قايد الزمول)، والباش حمبة؛ وهي وظيفةٌ مأخوذةٌ عن بلاط تونس من طرف الباي الأخير، الحاج أحمد، لخلق منصبٍ لصاحبه المقرب بن عيسى[1].

يأتي تحت هؤلاء الموظفين السامين الذين يشكلون الإدارة العليا للإقليم؛ موظفون آخرون من درجةٍ أدنى لا ينتمون إلى المجلس، ولا يتصل بهم الباي مباشرة إلا إذا تطلب الأمر إعطاءهم أوامر شخصية. وهم:

1. **آغا الصبايحية**: يقود الصبايحية، ويقع تحت سلطته المباشرة عدة شواشٍ يقومون بدور المساعدين.
2. **شاوش محلة الشتاء**: مكلف بتزويد القوات المكونة لمحلة الشتاء بالمؤن، والخيام، والحطب... إلخ؛ التي يتلقاها بنفسه من قايد الدار.
3. **الباش علاّم**: قائد حمَلَة ألوية الفرسان الذين كان عددهم سبعة، ويمشون مباشرةً بعد الباي عندما يخرج في المحلة.
4. **الباش طبال، قايد الطبول**: ويخرجون مع حملة الألوية ويمشون خلفهم.
5. **الباش مكاحلي**: قائد الحرس الخاص بالباي، ويحمل أسلحة السيد في المناسبات العامة، ويقود الفرسان الذين يكونون دائماً في خدمته. ويتكون إقطاعه من سبع قبائل.
6. **الباش خزناجي**: مكلف بحراسة القوافل الخاصة بنقل أموال الضرائب، وكذلك بتهيئة البهائم الضرورية لنقل أمتعة الباي في خرجاته.
7. **الباش مانقا**: مكلف بتوفير البهائم اللازمة لنقل المدافع عندما يقرر الباي القيام بغزوةٍ مفاجئة.

---

1. الحمبة في تونس هو نمط من الدرك يعود تشكيله إلى الباي محمد طاباق؛ الذي منذ تقلده الحكم في 1678 اختار 400 جندي من الميليشيا ليكوّن حرساً خاصاً يعسكر بالقرب منه.
انظر Alphonse Rousseau, Annales tunisiennes, p.61

8. **قايد مهور باشا:** ويسمى أيضاً خوجة الخيل، مكلف بإسراع سير الخيول والبغال. وكان يصحب الخليفة إلى مدينة الجزائر عندما يذهب لدفع دنوش الربيع، وكان مكلفاً بنقل أمتعة الحامية القادمة من هذه المدينة للتعسكر في قسنطينة.

9. **الباش سراج:** قائد اسطبلات الباي. كان له شرف مسك الرّكاب عندما يركب الباي، ويدير خمس قبائل.

10. **خدم القصر، وهم أهمية أقل، وأهمهم:**

- قايد المقصورة، مدير القصر.
- الباش فرّاش، قائد رجال الخيام.
- قايد الجبيرة، مكلف بالعناية بمحفظة الباي؛ وهي عبارة عن كيس جلدي مُعلّق بسرج الباي.
- قايد السبوانة، مكلف بحمل المظلة.
- قايد السبسي، مكلف بالغليون.
- قايد الطاسة، يحمل الفنجان الفضي الذي يشرب فيه الباي أثناء السفر.
- الباش قهواجي، وله امتياز تقديم القهوة.
- قايد الدريبة، البواب الأول، خصي، أسود في الغالب.

إدارة قسنطينة

على رأس الإدارة الحضرية كان قايد الدار؛ الذي ذكرنا آنفاً أهم اختصاصاته. وكان تحت إمرته أمناء الاتحادات الحرفية، والمقدم أو زعيم اليهود، وعددٌ كبيرٌ من الموظفين المحليين.

كان يوجد في قسنطينة حوالي عشرين اتحاداً، يوجد على رأس كل منها أمينٌ مكلفٌ بمراقبة العمال وحل النزاعات التي تنشأ بينهم، ولا يجوز لأحدٍ ممارسة مهنةٍ إلا بترخيصٍ من الأمين. ومن بين الأمناء نجد أمين الخبازين وأمين الفضة؛ اللذين كانا أكثرهم أهمية.

قايد الباب، مأمور الباب: يُجبي رسوم الدخول والجمارك على الحبوب والبضائع التي تدخل المدينة، وكان تحت إمرته خوجة أو كاتب وعشرة عمال. يقيم مع كاتبه في دكان يقع في طرف السوق الكبير ناحية باب الواد؛ الذي كان الباب الرئيسي، وكان باب الجابية وباب القنطرة محروسين من طرف أعوانه. وكان يُستأجر هذا المكان بمبلغ سنوي قدره 10000 ريال؛ أي حوالي 25000 فرنك. (شيربونو، حولية 1856-1857، ص95)

قايد السوق: مفتش الأسواق.

قايد الزبل: يسهر على نظافة الشوارع والأسواق.

قايد القصبة: في مدينة الجزائر يُدعى المزوار، مكلف بشرطة المدينة؛ وخصوصاً أثناء الليل، وبتنفيذ الأحكام ضد المجرمين، كما كان يراقب البغايا أيضاً. ويقوم مع خليفة الليل أو حارس الليل بدورياتٍ بمساعدة زمرةٍ من القبجية (جمع قبجي) أو رجال الشرطة. وهو أول من كان يدخل في الصباح على الباي ليقدم له تقريراً عن أحداث الليلة.

البرّاح، المنادي العام: يعلن في الأسواق أوامر الباي أو قايد الدار، ويرافق المحكوم عليهم إلى التعذيب، ويمشي مع شواش الباي عندما يخرج هذا الأخير.

الباش حمار، قايد البغالين: يمد الحملات بالبغال عند الحاجة.

وأخيراً، وكيل بيت المال، يدير لصالح الفقراء الأملاك الشاغرة أو التي ليس لها ورثة، وكان مكلفاً بمراسم الدفن وحراسة المقابر، وله خزينة منفصلة عن الخزينة العامة.

القضـاء

كان القضاء تحت إشراف قاضيين، أحدهما مالكي لغالبية السكان، والآخر حنفي للأتراك والكراغلة وبعض العرب. ولهما حق الحكم في القضايا المدنية، كالسجن والضرب بالعصا والتغريم، ولكن الباي ينفرد بحق الحكم بالحياة أو الموت.

تتألف المحكمة من مفتي، وهو الرئيس الشرفي، وعدلين يشرفان على تحرير العقود القضائية والتوقيع عليها، وأخيراً نائب ينوب عن القاضي في حالة غيابه. بالإضافة إلى هذا، وبما أن القانون المدني في الحياة الإسلامية يتصل اتصالاً وثيقاً بالقانون الديني، فإن القضاة كانوا مختصين كذلك بتحرير كافة الشهادات والعقود المدنية مثل الزواج والبيع والخلافة والتقسيم، إلخ. وهذا ما يتطلب عندنا تدخل موثق[1].

القاضيان والمفتيان والعدلان والناظر يشكلون المجلس. وتجتمع هذه المحكمة كل يوم جمعة لتحكم في القضايا الخطيرة برئاسة الباي أو قايد الدار، ويكوّن أعضاؤها هيئة العلماء، وهم المفتون والفقهاء.

1. لقد احتفظ التشريع الفرنسي في الجزائر بهذه الوظائف، حيث يقر (المادة 44 من المراسيم الملكية بتاريخ 31 ديسمبر 1859 و14 جانفي 1860) بأن العقود المدنية بين المسلمين تتم حسب خيار الأطراف، عن طريق قضاة أو موثقين.

العبادة

قبل مجيء الفرنسيين، كان بقسنطينة حوالي مئة مسجد ومؤسسة دينية، والتي تُسمى جامعاً أو مسجداً، أو زاوية حسب أهميتها وخصوصيتها. يوجد في كل مسجد إمامٌ لأداء الصلاة، وحزابين لقراءة القرآن، ومؤذنٌ يؤذن للصلاة من أعلى المنارة، وشيخ ناظر أو مديرٌ لأملاك الحبوس التي تخصص عائداتها فقط لصيانة المنشآت، ووكلاء أو أعوان مكلفون بجمع الإيجار على هذه الأملاك[1].

وأخيراً يجب ذكر شيخ البلاد؛ تلك الشخصية التي تعتبر المسؤولة عن الدين، والمرابط الخاص بقسنطينة. فكان لبيته حق الجوار، وكانت أملاكه الضخمة معفيةً من الضرائب. كان يدير حبوس مكة والمدينة، ويحمل لقب أمير الركب أو قائد قافلة الحجيج. هذه الوظيفة؛ التي كانت قبل استقرار الأتراك في الإيالة تابعةً لعائلة عبد المومن، انتقلت إلى عائلة أولاد بن لفقون، وبقيت فيهم حتى يومنا هذا.

---

1. تعود نشأة أغلبية هذه المؤسسات إلى منشآت دينية أقامها الأثرياء. وحسب الأهداف التي بُنيت من أجلها يمكن تصنيفها في ثلاث مجموعات مختلفة:

بعض المؤسسين يريطون تشييدهم لمسجد للمصلحة العامة. وعليه يؤسسون لصالحه حبوساً تعود مداخيله إلى نفقات صيانة البناء نفسه والأشخاص العاملين فيه، ويجردون أنفسهم من كافة الحقوق ويوكلون إدارته إلى ناظر. ولقد انتقلت هذه المساجد وحبوسها، بمحض إرادة مؤسسيها، إلى الأملاك العامة كنتيجة طبيعية لحلول الحكومة الفرنسية محل الأتراك.

وفي حالات أخرى، يقوم شخصٌ ببناء مسجدٍ لغرض المنفعة العامة أيضاً، ولكنه يحتفظ لنفسه، ما دام حياً، ولذريته من بعده حق إدارة وتسيير المسجد والحبوس المرتبط به دون أن يستخدم ناظراً للتسيير والمراقبة. وهذه هي المجموعة الثانية.

وأخيراً، كان بعض الأشخاص يقومون ببناء مصليات تسمى تحديداً مسجداً أو زاوية بهدف استغلالٍ شخصي؛ حيث لا يستعملها إلا أفراد العائلة وعددٌ محدودٌ من أصدقائهم. ويلحقون بها إماماً مكلفاً بتعليم أبنائهم، كما يخصص مكان لأضرحة المؤسسين وذريتهم. وهذه هي المجموعة الثالثة.

لم يكن هذا التصنيف سهلاً للفهم بالنسبة إلينا عندما أردنا تحديد حقوق الدولة من حقوق الأشخاص في هذه المؤسسات الدينية وفي ممتلكات الحبوس المرتبطة بها.

مداخيل الولاية

تتكون المصادر المالية للإقليم من:

1. الضرائب،
2. أملاك البايلك.
3. حقوق التولية، والغرامات، والمصادرات وضرائب أخرى غير منتظمة.

الضرائب

كانت على عدة أنواع كما يأتي:

- الحكور: ضريبة مالية قدرها 25 فرنك على كل جابدة، أو قطعة أرض يحرثها ثوران مربوطان إلى عربة في الفصل الواحد، تتراوح مساحتها بين 10 و15 هكتار، أو أكثر حسب طبيعة الأرض[1].
- العشور: وتؤخذ على محصولي القمح والشعير.
- الشُّكة: ضريبة التبن.
- الغرامة: ضريبة مالية تُفرض على القبائل البعيدة عن عاصمة الإقليم. ولندرة العملة النقدية تؤخذ في الغالب عيناً مثل الخيول، والأنعام، والجمال، إلخ.

أملاك البايلك

تضم الأملاك المحلية وأملاك البايلك المباشرة. تتألف من عدة أنواع مختلفة من العقارات؛ وهي كما يلي:

راتب البايلك: مروج أو أراضي البايلك، تُزرع من طرف القبائل المجاورة المطلوبة لهذه الغاية، أو من طرف الخماسة (مزارعين بالخمس) الذين يحصلون على خُمس المحصول كأجرٍ عن عملهم.

1. الجابدة، حسب ملاحظة أخذناها من المجلة الإفريقية، تتوافق مع الزويجة في إقليم الجزائر. وتضيف هذه الملاحظة: «وقد حددت الزويجة، بعد خبرة بقرار من البلاط الملكي، تقريباً كما يلي: في السهل 12 هكتار، وفي الساحل 7 هكتارات، وفي الجبل 5 هكتارات».

العزل: أملاك تؤجر لخواص، أو تعطى كإقطاعات تمثل مرتبات أو مكافآت لبعض الموظفين، أو لمرابطين ذوي تأثير. **الجوابرية**: أملاك يفرض عليها الجبري؛ وهي إتاوة سنوية ثابتة مهما كانت مساحة الأرض المزروعة. وأخيراً **الحبوس**: ملكيات غير قابلة للتحويل، تابعة للمساجد والمؤسسات الدينية الأخرى، ويديرها وكلاء تحت إشراف الشيخ الناظر.

إذا أضفنا إلى هذه الضرائب والعائدات العقارية حقوق الدولة، والغرامات، والمصادرات، وضرائب أخرى غير منتظمة؛ نجد أن مداخيل الخزينة يمكن أن تصل على الأكثر إلى ثلاثة ملايين. من جهة أخرى، ولتوضيح الأفكار حول هذا الموضوع أكثر، نعطي التشكيل الكامل للديوان مثلما وجدناه في مخطوط الشيخ مصطفى بن جلول، الذي يبدو أنه كان على اطلاع كبير بهذا الموضوع، لأن وظيفة الباش كاتب كانت وراثية في عائلته. ولكن قبل هذا لا بد من ذكر أسماء الموظفين المخصصين لإدارة عائدات البايلك، وهؤلاء الموظفين هم:

قايد العشور، مكلف بتقدير حجم الأرض المحروثة وتحديد الضريبة حسب مساحتها. ويشغل هذه الوظيفة إثنان؛ واحدٌ في الشرق والثاني في الغرب.

قايد الجبري، مكلف بجمع الضريبة العينية المسماة الجبري المفروضة على أراضي الدولة. ويقوم بهذه الوظيفة عونان تحت إمرة قايد الدار.

قايد عزيب الجمال، مكلف بمراقبة جمال البايلك.

قايد عزيب البقر، مكلف بمراقبة قطيع البقر.

قايد عزيب الجلب، مكلف بحراسة قطيع الغنم.

وأخيراً، **الباش خزناجي وقايد مهور باشا**، اللذين حددنا اختصاصاتهما سابقاً.

الدنوش

الدنوش أو دفع الضريبة السداسية الإقليمية لدى خزائن الدولة في مدينة الجزائر يحصل، كما سبق ذكره، مرتين في السنة؛ في الربيع وفي الخريف.

يتألف الدنوش العادي؛ أي الذي يدفعه الخليفة، من أموالٍ نقديةٍ وإتاواتٍ عينيةٍ مختلفةٍ كما يأتي:

مئة ألف ريال بسيطة[1]، وخمسون حِجراً (أنثى الحصان)، ومئة بغل مختارة، وثلاثمئة ثور، وثلاثة آلاف خروف، وعشرون قِربة سمن، وعشرون وزنة مُحَوَّر[2]، وعشرون وزنة فِرْيك[3]، ومئة قفة تمرٍ مختار، وخمسون قفةٍ من الزيتون الجيد، وجلود أُسُود، وجلود فهود، وبرانيس الجَرِيد، وحِيَّاكٌ * للغطاء، ومَسْبَحَات عنبرٍ ومرجان، ومُستخلصاتٌ مختلفة، وطرابيش حمراء مصنوعةٌ في تونس.

ولكن من كل هذه الضريبة لا يدخل إلى الخزينة حتى نصفها؛ حيث تمتص هدايا الباشا وكبار الموظفين القسم الأكبر.

للباشا عشرة آلاف ريالٍ بسيطة، ومئتا محبوبٍ من الذهب[4]، وخمسون حِجراً، وعشرة بغال، وخمسون ثوراً، ومئتا خروف، وقربتان من السمن، ووزنتا مُحَوَّر، ووزنتا فْريك، وخمسة وعشرون قفة تمر، وخمس قِفاف زيتون، وأربعة برانيس، وأربعة حِيَّاك، ومسبحتا عنبر، ومسبحتا مرجان، وجزءٌ من مستخلصات الورد والياسمين، وجلدا أسود، وجلدا فهود، وأربع دزينات من الطرابيش الحمراء.

للخزناجي، والباش آغا ووكيل حرج باب الجزيرة؛ لكل منهم ألفا ريال

---

1. يساوي الريال بسيطة 2,5 فرنك، أي ما يعادل 250000 فرنك.
2. دقيق رقيق جداً يصنع به أحسن الكسكس.
3. تُقطع السنابل وهي لا تزال خضراء، وتُحرق في الفرن ثم تُكسر جيداً، والعرب يأكلونه بشراهةٍ كبيرة، ويُحضر مثل الرز. وأصلها في اللغة العربية «الفَريكة» (المترجم).

*. جمعٌ مفرده حايك؛ وهي كلمةٌ عاميةٌ تعني غطاءً من الصوف.

4. المحبوب: قطعة ذهبية قيمتها 4,05 فرنك.

بسبطة، ومئة محبوب، وحجربين، وبغلين، وعشرة ثيران، وخمسون خروفاً، وقربة سمن، ووزنة محور، ووزنة فريك، ودزينة طرابيش حمراء تونسية، وبرنوسان، وحايك، ومسبحة عنبر، ومسبحة مرجان، ودهون، وخمسة وعشرون قفة تمر، وعدة قفاف زيتون، وجلد أسد، وجلد فهد.

أما خوجا الخيل، ووكيل بيت المالجي، ووكيل الباي أو ممثل الباي المعتمد لدى بلاط الجزائر فيأخذ كل منهم ألف ريال بسبطة، وخمسين محبوباً، وحجراً، وبغلاً، وقربة سمن، ووزنة محور، ونصف وزنة فريك، وخمس قفاف تمر، وزيتوناً، وبرنوساً، وحايكاً، وستة طرابيش، ومسبحة عنبر، ومسبحة مرجان وبعض المستخلصات.

يجب أن تُسلَّم هذه الهدايا من طرف الخليفة نفسه بفارق يوم واحد بدءاً بالباشا، ولكل الموظفين السامين السابق ذكرهم الذين يدعونه إلى مأدبة بهذه المناسبة.

بالإضافة إلى هدايا أخرى أقل قيمة من السابقة يقدمها بنفسه لعدة موظفين ثانويين، مثل الخوجات الأتراك والعرب، ووكلاء حرج دار السلطان، والخزندارات، ومماليك القصر والصبايحية، والمترجم، وآغا الكل، وآغا دار السركاجي، والمزوار، وقايد الزبل. وأخيراً يجب الاعتراف بتفاني خدم هؤلاء السادة الكبار في خدمتهم وحراستهم، وذلك بتوزيع أموال لا تقل عن خمسة آلاف أو ستة آلاف ريال. أما الفائض من الضرائب فيعود للدولة، ومثلما ترى فحصتها ليست الأكبر، لكنها هي أول من يتلقاها.

وبدورهم فإن الذين أخذوا لا يتركون الخليفة يذهب خالي الوفاض؛ فيبعث الباشا للباي عباءة كرمز لتجديد توليته، ولباساً كاملاً، وبندقية، وجواداً ويطغاناً*. كما يُحمّله أيضاً الموظفون الكبار الآخرون بالهدايا؛ فمنهم بالمسدسات، ومنهم بالبنادق وأشياء ثمينة أخرى؛ كلٌّ حسب وظيفته ودرجة كرمه.

---

*. اليطغان (Yatagan): سيف تركي.

وفي اليوم الثامن بعد وصوله يغادر الخليفة مدينة الجزائر عائداً إلى قسنطينة مباشرة. وما إن يُعلَن عن قرب وصوله حتى يخرج الباي وحاشيته لاستقباله إلى غاية المسلة، خلف كدية عتي؛ فينزل الخليفة ليحيي الباي ويسلمه ثوب الشرف والهدايا الأخرى التي يحمل، ثم يدخل الموكب إلى المدينة وسط هتافات الجمهور وأصوات قرع الطبول والمدافع. ويُجدَّد الاحتفال بالتولية في دار الباي، ويخلع الباي العباءة القديمة ويهديها للخليفة؛ الذي يعود بسرعة إلى بيته.

وفي دنوش الربيع يجلب الخليفة معه قوةً بعدد ستين خيمة حتى يخلفون محلة السنة السابقة، وليساعدوا في العمليات العسكرية وتحصيل الضرائب؛ وهو ما سنذكره لاحقاً.

عندما يقوم الباي شخصياً بتقديم الدنوش؛ وهو ما يتم في ربيع كل ثالث سنة، تكون الإتاوات أكثر من مضاعفة بالنظر لحجم الهدايا التي يجب عليه تقديمها.

وأخيراً هناك خاصيةٌ أخيرةٌ يجب الإشارة إليها، والتي تبين أن الأتراك كانوا دائماً يعترفون ضمنياً باستقلالية القبائل. فعندما يصل الموكب المكلف بإيصال الدنوش إلى الذراع الأحمر على أراضي أولاد مقران المتزعمة لبني عباس، كانت تؤخذ عنوةً إتاوةً من الثيران والغنم من أموال الدنوش لصالح الزعماء الجبليين لهذه المناطق، وذلك للتمكن من عبور ممر البيبان أو أبواب الحديد دون التعرض لأي خطرٍ أو هجوم. طالما وُضع الأتراك في المحك من ناحية المبدإ بسبب بسالة هؤلاء الجبليين الشرسين، ما داموا توصلوا إلى الرضوخ في صمتٍ لهذا التصرف المهين.

إدارة الولاية

كان يحد إقليم قسنطينة في عهد الحاج أحمد، وفي الوقت الذي سقطت فيه تحت سلطتنا، من الشمال البحر الأبيض المتوسط، ومن الجنوب الصحاري غير المأهولة، ومن الشرق الحدود التونسية ابتداءً من وادي سوف مروراً بتبسة وغرب الكاف إلى طبرقة، ومن الغرب سلسلة البيبان حتى قرى بني منصور (لم تكن بجاية وواد الساحل ضمن هذا الإقليم)، وإلى أقصى الجنوب كان يحده من الغرب المراكز الصغيرة لسيدي هجرس وسيدي عيسى؛ التي تفصلها عن إقليم التيطري.

ينتمي سكانها إلى ثلاثة أجناس تتميز عن بعضها البعض بالطباع والسلوك واللغات، وهي كما يلي:

1. العرب، الذين يسكنون على الخصوص في المناطق الجنوبية من الإقليم.
2. الشاوية، المستقرون في المناطق الوسطى.
3. القبايل، يسكنون في القسم الشمالي، على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وكذلك في جبال الأوراس.

ينقسم السكان إلى عروش أو قبائل، يدير كل منها قايداً أو شيخاً كبيراً يعينه الباي. وتنقسم القبيلة إلى فرق على رأسها شيخ، وتنقسم الفرقة بدورها إلى دواوير (مجموعة خيام موزعة على شكل دائرة)، وينقسم الدوار إلى عائلات أو خيام، ويكون الشخص الأكبر سناً والأكثر مالاً هو الزعيم.

يتبع القايد الباي مباشرة؛ فيراسله، ويتلقى أوامره، ولا يرتبط بأية علاقة إدارية إلا به وحده. يقوم بدور الشرطة، ويوقف الأشرار، وينظر في الخلافات التي تنشأ بين مرؤوسيه، ويسهر على أمن الطرق، ويرأس توزيع الأراضي لحرثها، ويساعد رجال البايلك في توزيع الضرائب، ويبقى مكلفاً بالتحصيل بصفته جابٍ لها، وأخيراً فإنه يجمع فرسان القبيلة ويمشي على رأسهم عندما يُطلبون للخدمة. ويساعده في أداء مهامه طالبٌ أو كاتب، وباش مكاحلي، وزُمالته، ويقع تحت سلطته شيوخ فرق القبيلة.

وفي قبائل الذواودة (وهم أشراف) التي لا تقبل الأرستقراطية القوية فيها زعيماً أجنبياً؛ كانت السلطة وراثية ضمن عدة عائلات متنافسة أو متحالفة. وفي هذه الحالة يحتفظ زعيم القبيلة بلقب شيخ.

وفي ما يلي أهم القياد أو الشيوخ الكبار في الإقليم مع عدد القبائل التي يديرونها:

- شيخ الحنانشة: 12 قبيلة.
- شيخ العرب: كل زاب بسكرة و11 قبيلة من الرحل.
- قايد الحراكتة: الذي يأخذ اسم قايد العواسي، والذي نظراً لأهميته يقطن في قسنطينة حيث كان له مجلس صغير: 32 قبيلة صغيرة تتألف كلها تقريباً من الشاوية.
- قايد الحنانشة.
- قايد الزمول، وهي قبيلة عسكرية: يدير الزمول وحوالي 20 قبيلة.
- قايد الأوراس: 42 قبيلة.
- قايد عامر الشراقة: 6 قبائل.
- شيخ الدير، أو شيخ أولاد يحيى بن طالب، ناحية تبسة.
- شيخ بلزمة: 13 قبيلة.

كل هذه القيادات توجد ناحية الجنوب.

ويضم الساحل والجنوب الغربي:

- قايد أولاد براهم: 11 قبيلة.
- قايد سكيكدة: 9 قبائل.
- قايد زردازة: عدة قبائل قبائلية.
- شيخ زواغة: 4 قبائل.
- شيخ فرجيوة: 6 قبائل.

- قايد عبد النور: 31 قبيلة.
- قايد التلاغمة.
- قايد عامر الغرابة: 5 قبائل.
- شيخ قصر الطير، ريغة.
- شيخ أولاد مقران يدير مجانة: 13 قبيلة.
- قايد أولاد دراج في الحضنة.

عموماً فإن قائمة زعماء الإقليم، الذين ذكرنا أهمهم يمكن أن تتلخص كما يلي:

- 11 موظف يحمل لقب شيخ.
- 22 موظف يحمل لقب قايد.
- 4 قياد يحكمون مدن تبسة، وميلة، وزمورة ومسيلة.

في المجموع 35 موظفاً باستثناء القبائل التابعة مباشرة للبايلك.

هكذا كان تنظيم عاصمة وبايلك قسنطينة. ولكن هذا التنظيم القائم على استبداد القائد وشراء الوظائف، غير التام والمفتقد للتأثير المباشر وللمراقبة؛ كان أضعف من أن يدعم سياسة الأتراك الدموية والنشيطة، ويبقيهم في بلادٍ جلب إليهم طغيانهم فيها الكثير من الكراهية لو لم يكن لهذا التنظيم وسيلةً قويةً وسبباً وجيهاً؛ هما القوة الشعبية وحق السيف العنيد. وهذه القوة العسكرية هي التي بقي أن نتعرف عليها.

القوة العمومية

كانت لهذه القوة الشعبية غايتان متميزتان عن بعضهما؛ وهما ضمان ممارسة السلطة المركزية بإخضاع البلاد لحركتها المتظمة من جهة، ومن جهة أخرى السهر على هدوء القبائل والمحافظة على النظام.

وكوسيلة للقوة الشعبية من أجل ضمان عمل السلطة المركزية كانت:

1. الميليشيا.
2. الزمول.
3. دايرة المخزن.

ويتضمن الفرع الآخر للقوة الشعبية الدايرات العاملة تحت مختلف الموظفين، وزمالات الشيوخ والقياد أو الدايرات المزارقية.

1. الميليشيا

قبل استيلاء الفرنسيين على الجزائر كانت الميليشيا تتألف من الأتراك فقط، وبالكاد كان يُقبل بعض الكراغلة. ويتم تجنيد الأتراك على شواطئ التركيتين*؛ وخاصةً في القسطنطينية و«سميرن»** (Smyrne). فيُنقلون من هاتين المدينتين إلى الجزائر؛ حيث يُلحقون بأحد الفيالق المؤلفة للأوجاق، ويصبحون، دون تكوين مسبق، جنوداً في الميليشيا. وعلى هذا الأساس يتلقون كل أربعة أشهرٍ منحةً مالية، وبعد ثلاث سنوات تصبح هذه المنحة شهرية.

ويمكن للكراغلة (من أب تركي وأم أهلية) تسجيل أنفسهم كجنود، وبهذا ينالون نفس الرواتب والتدرجات مثل الأتراك.

يقسم عمل الميليشيا في السنة إلى خدمة النوبة أو الحامية، والخدمة في المحلة أو قوة المحلة.

تتألف كل نوبة من عدة سفرات أو زُمَر تضم من 15 إلى 20 رجلاً. وهذا، حسب «التشريفة» لـ «دوفولكس»، ما كان عليه عدد ومواقع النوبات

*. التركيتان: المراد بها تركيا الآسيوية وتركيا الأوروبية.

**. مدينة تاريخية صارت تسمى حالياً إزمير. (المترجم)

في إقليم قسنطينة في 1829:

نوبة قسنطينة	5 سفرات	73 رجلاً
نوبة عنابة	5 سفرات	71 رجلاً
نوبة بسكرة	4 سفرات	72 رجلاً
نوبة بجاية	3 سفرات	44 رجلاً
نوبة تبسة	2 سفرات	29 رجلاً
نوبة جيجل	2 سفرات	29 رجلاً
نوبة حمزة	سفرة واحدة	15 رجلاً
المجموع	**22 سفرة**	**333 رجلاً**[1]

كانت هذه النوبات مخصصةً فقط لحراسة المدن أو المراكز الموكلة لها، ولم يكن بمكنها مغادرتها تحت أي عذر. وكانت تُجدد كل سنةٍ مع بداية فصل الربيع.

توجد في كل نوبة مجموعتان مقبلتان (بومباجية)، ومجموعة مدفعين (طوبجية). وتبقى هذه المجموعات باستمرار في المدن الملحقة بها، ولا تستبدل أبداً الحاميات مع النوبات؛ فكان عليهم مصاحبة الباي في حلاته أينما احتاج إلى خدماتهم. ويحمل قائد النوبة اسم آغا النوبة[2].

تقدم المحلة خدماتها مرتين في السنة؛ مرةً في فصل الربيع وأخرى في فصل الخريف. فهذه الطوابير المنطلقة من مدينة الجزائر موجهةٌ لضمان تحصيل الضرائب في الأقاليم الثلاث. وكانت تتألف من عددٍ من الخيام تأوي كل واحدةٍ منها تسعة عشر رجلاً، كما ينضم إلى المحلة مجموع القوات التي تقدمها الزواوة.

---

1. في الوقت الذي كان فيه «بايسونال» (Peysonnel) يقوم برحلته في الجزائر في 1724 و1725، كانت هناك نوبة من سفرتين في القل. (أنظر حول رحلته هذه العمل الذي نشره «ديرو دولامال» (Dureau de la malle)، ص473).
2. في ما يخص تسليح الفرق ومستلزماتها ومنحها ومؤنها وهداياها السنوية، انظر «التشريفات» لدوفولكس، ص30 وما يليها.

يتألف فيلق الزواوة من الجنود المتطوعين أساساً من القبائل القبايلية التي تحمل هذا الاسم. وفيما بعد صار يُقبل، دون تمييز، كل من يريد الانضواء تحت راية الميليشيا.

وكان عدد خيام حامية الشرق ستون خيمة، مقسمة كما يلي:

فيلق الباي، 20 خيمة.

فيلق الخليفة، 20 خيمة.

فيلق بجاية، 20 خيمة.

من بين الألف وخمسمئة (1500) تركي الذين يصلون سنوياً في فصل الربيع ليجوبوا الإقليم، ويجبوا الضريبة؛ يعود منهم ألفٌ ومئتان وخمسون (1250) رجلاً إلى مدينة الجزائر في فصل الخريف، ويقضي منهم مئتان وخمسون (250) فصل الشتاء في قسنطينة؛ إما معسكرين في القصبة، أو مخيمين على أبواب المدينة على ضفاف وادي الرمال؛ وهو ما يُطلق عليه اسم محلة الشتاء. يغادر هؤلاء المئتان والخمسون رجلاً مع شيخ العرب في فصل الخريف لجمع الإتاوات في الصحراء، ويعودون في فصل الربيع.

2. الزمول

كان الزمول أو رجال الزمالة الذين يشكلون في إقليم قسنطينة أقدم وأقوى خيالةٍ في المخزن؛ يقيمون في سهل مليلة الجميل، على طريق قسنطينة إلى باتنة. لقد كانوا يشكلون قبيلةً حربيةً يحمل قائدها العسكري والإداري لقب قايد الزمالة. وبأمرٍ من الباي كانوا يحملون السلاح، ويركبون خيولهم ويدعمونه؛ سواءً لمعاقبة المتمردين أو لتسهيل تنفيذ الأحكام الإدارية. ولكل خمسين خيال تقريباً كان يُعيَّن شاوشاً لا يمارس سوى سلطةٍ عسكريةٍ بحتة. وفي عهد آخر باي، الحاج أحمد، كان عددهم أكثر من 500 خيال يقودهم 10 أو 15 شاوشاً حسب ما تتطلبه الظروف.

3. الدايرات

ينضوي تحت هذه التسمية كل رجال الحرب من القبائل الأخرى غير قبيلة الزمول. ومثل الزمول، كان يجب عليهم حمل السلاح كلما تطلب الأمر ذلك، لكن امتيازاتهم كانت أقل اتساعاً، وعوض إعفائهم تماماً من الضرائب كانوا يدفعون الخُمُسَيْن. كان قائدهم العسكري والإداري هو آغا الدايرة، لكن هذا الموظف كان يقيم في قسنطينة، وعليه يبقى الشيوخ هم الإداريون الفعليون لقبائل الدايرات. وتضم هذه الخيالة حوالي ألف رجل، يقودها عشرون أو ثلاثون شاوشاً. وهذه أهم مجموعات الدايرات والنقاط التي تحتلها:

1. في وادي بوسلة، بين عين الخشبة وجيلة: يحملون اسم دايرة الواد.
2. في السْرَى، جنوب ميلة: يسمى هؤلاء الفرسان دايرة السراوية.
3. في واد زناتي، على أرض تنازلت لهم فرقة عنها.
4. في قسنطينة نفسها، حيث يُجَنَّد حوالي خمسون فارساً.

بالإضافة إلى كون هذه القبائل حربية أساساً؛ فإن بجانب كل شيخ كبير أو قايد كان يوجد عددٌ معين من الفرسان يُعرفون بدايرة المزارقية (الرماحين) في القيادات الكبيرة، والزمالة في القيادات العادية؛ لا يدفعون، مثل رجال المخزن، إلا خُمُسي الحكور، ومعفون من الغرامة التي تُعتبر دوماً ضريبة المنهزمين.

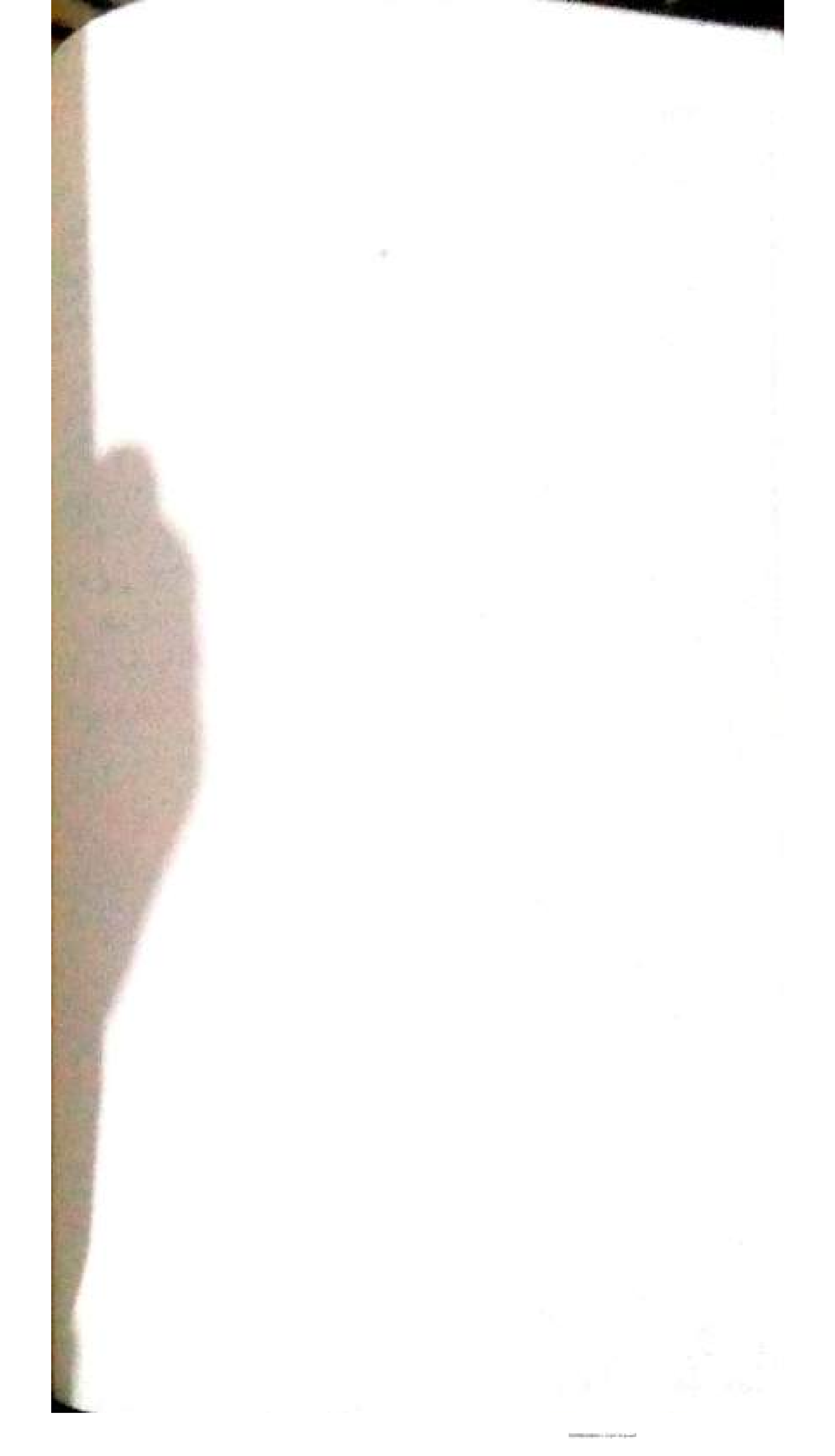
وفضلاً عن هذا فإن فرسان المخزن مهما فعلوا فإنهم لا يتلقون منحاً أبداً، وعندما يوظفون في جباية الضرائب النقدية والغرامات؛ كان لهم الحق في عُشْر المبالغ المجموعة. هذا العُشْر يدفعه لهم الغارمون، وأما في الغزوات فكانت تُترك لهم الغنائم، وبعد انتهاء حملتهم يعودون إلى بيوتهم ليتفرغوا لزراعة الأرض والاهتمام بقطعانهم.

أما بالنسبة للقبايل فيُؤكِّد بأنهم كان بإمكانهم تجنيد من 15 إلى 20 ألف جندي من المشاة، إلا أن أكبر تجمعاتهم لم تتجاوز أبداً عدة آلاف رجل.

وعموماً فإن قوات الإقليم كانت تصل إلى 22000 جندي من المشاة، و23000 فارس، في المجموع 45000 رجل. ولكن حتى لو استدعيت جميع هذه القوات فإنها لم تصل أبداً إلى أكثر من 5000 أو 6000 فارس، وحوالي نفس العدد من المشاة.

وأخيراً، ولضمان سلامة المواصلات، كانت توجد على الطرق الرئيسية خنقاً أو مخيمات يقودها شيوخ مسؤولون في نطاقات معينة عن أمن المسافرين والقوافل. وكانت هذه الخنق من قسنطينة إلى الجزائر كالتالي: بير البقيرات، ذراع الطبال، قارب، مجاز الحمار، سطيف، تاغرورت، سيدي مبارك، الذراع الأحمر، أراضي مجانة، بني منصور، دحوس، حمزة، بن هني، ذراع البغال، الحوش في المتيجة، ثم الجزائر.

نظن أننا عرّفنا بما فيه الكفاية بالتنظيم الإداري والعسكري للإيالة تحت الحكومة التي سبقتنا، وكانت هذه النبذة ضرورية لإدراك الأحداث التي سوف تأتي. والآن لنَر كيف وُلدت هذه الحكومة.



الفــتـرة الأولــى

من 1514 إلى 1647

بدايات احتلال قسنطينة من طرف الأتراك

في الفترة التي كان يمهّد فيها الإخوة بربروس لإرساء السيطرة العثمانية في الجزائر؛ وذلك بانتزاع جيجل من الجنويين سنة 1514، كانت قسنطينة، ومنذ نهاية القرن الخامس عشر، قد صارت مستقلةً نوعاً ما ولا تخضع إلا لزعماء تختارهم هي أو تقبلهم بكل حرية؛ هذا رغم أنها لم تزل تتبع اسمياً لأمراء الدولة الحفصية في تونس الذين حكموها لأكثر من ثلاثمئة عام.

ولكن متى وكيف انتقلت المدينة تحت سلطة وإدارة المحتلين الجدد بصفةٍ نهائية؟ إنها المسألة التي لا توجد الإجابة عنها في أي مكان. فلا التأريخات الإسبانية، ولا الأساطير المحلية، ولا القصص المتوارثة تقليدياً أضافت لنا شيئاً جديداً في هذا الموضوع. وحتى كتاب «الغزوات» الموجود في كتابات الأب «فونتور دو بارادي» (Venture de Paradis)؛ والذي قام بنشره «ساندر رانغ» و«دينيس» (Denis) سنة 1887 تحت عنوان «تأسيس إيالة الجزائر» (Fondation de la Régence d'Alger) لم يضف شيئاً كذلك؛ فاسم قسنطينة لم يُذكر ولو مرةً واحدةً في هذا العمل.

ولكن ليس ممكناً أن نقبل بأن مدينةً بهذه الأهمية تبقى خارج الأحداث السياسية الكبرى التي كان هذا الجزء من إفريقيا مسرحاً لها؛ وبالتالي سنأخذ المعلومات المستقاة من كتاب الغزوات كبدايةٍ لتاريخ هذه الفترة.

منذ عام 1517، أي غداة احتلال مدينة الجزائر الذي كان حوالي شهر يوليو من عام 1516 [1]، نجد أن بابا عروج، وهو أكبر الإخوة بربروس، اقتسم مع أخيه خير الدين حكم البلاد المسيطَر عليها.

ورد في الصفحة 94 من الجزء الأول: «لقد استولى هذا الأخير على القسم الغربي واستقر في «تدلس» (Tedlès) أو دلس (Dellis) مصحوباً بالقوات التي كانت ضروريةً لفرض احترام سلطته وإخضاع الولايات الثائرة التابعة لهذه المقاطعة، وعيَّن أربعة مساعدين في مختلف مراكز حكومته».

لم يخبرنا الكاتب عن المراكز التي عُيِّن فيها هؤلاء المساعدون الأربعة، ولكن يُعتقد بأن قسنطينة قد استقبلت واحداً منهم. ولعل ما يدعم هذا الرأي هو ذلك العقد التوثيقي المحرر في 1528 (بين 15 و25 سبتمبر) من طرف قاضي المدينة الذي جاء فيه أنه في هذا التاريخ كان «الفحص الأبيض» أو حامة قسنطينة مرتعاً للأسود والحيوانات المفترسة، ومخبأ للصوص وقُطّاع الطرق والمجرمين، وهذا بعد قلب القوة العثمانية».

هذا العقد الذي يعود الفضل في الإشارة إليه إلى «بريسني» (Bresnier) (انظر Chrestomatie arabe, p.407, deuxième édition)؛ يشير بطريقةٍ إيجابيةٍ بأنه قبل عام 1528 بفترةٍ طويلةٍ «حاول الأتراك، ولكن دون جدوى، بسط سيطرتهم على قسنطينة؛ التي سرعان ما طُردوا منها». ويضيف: «وحسب كل الاحتمالات، يكون الطرد المُشار إليه هنا حدث حوالي عام 1520».

باعتمادنا على هذه الفرضية، نجد أن محاولة الأتراك الأولى لبسط نفوذهم على قسنطينة لم تدم سوى فترةٍ قصيرةٍ تراوحت بين عامين أو ثلاثة أعوام على أقصى تقدير، إضافةً إلى أنها كانت بطريقةٍ غير مباشرة. وعلى أية حال، فقد كانت قسنطينة خلال هذه الفترة تتبع على الأقل اسمياً لمملكة تونس، ولم يكن هناك أي موضوع خلافٍ ليُعكّر صفو العلاقة التي كانت بين الإخوة

1. انظر العمل الهام الذي نشره بربروغر تحت عنوان:
Pégnon d'Alger, ou les origines du gouvernement turc en Algérie.

بربروس والسلطان مولاي محمد؛ الذي كان يتربع على العرش آنذاك، وبالتالي لم يكن لخير الدين أي سببٍ يدفعه للاستحواذ على جزءٍ من أراضي الأمير الذي ساعده حتى ذلك الوقت بكل ما يستطيع. ولكن الخلاف الذي سرعان ما نشب بين الرجلين كان من شأنه أن يفضي، عاجلاً أم آجلاً، إلى نتيجةٍ كهذه، كما سنرى لاحقاً. ورغم هذا؛ فإنه في سنة 1528 وحتى عدة سنوات قبل ذلك لم تكن سيطرة خير الدين معترفاً بها في قسنطينة.

قُتِل بابا عروج في شهر مايو 1518 لدى هروبه من الجيوش الإسبانية التي طردته من تلمسان؛ تاركاً الحكم لأخيه خير الدين الذي خلفه على رأس كامل البلاد المسيطر عليها.

لقد كان أول إجراءٍ اتخذه خير الدين غداة استقرار حكمه في مدينة الجزائر هو تشكيل قيادتين؛ واحدةٌ في الغرب وعلى رأسها محمد بن علي، وأخرى في الشرق ويتزعمها أحمد بن القاضي.

هذا الأخير الذي سوف نرى لاحقاً كيف ينافس في فترةٍ ما خير الدين نفسه. لقد كان واحداً من شيوخ العرب، وحسب كتاب الغزوات فقد كان يقيم بين عنابة والقالة، وحسب «ساندوفال» (Sandoval) فقد كان يسيطر على جبال جيجل. وفي عام 1514 ألحقه بابا عروج بسلطته. ومنذ ذلك التاريخ صار هذا القائد يدعم القرصان الشهير في جميع حملاته، ولم يكن تخليه عنه لحظة مقتله بعد هزيمته على يد قوات «مارتن أرغوت» (Martin Argote) إلا للنجاة بحياته. وأصبح خير الدين يعامله بشيءٍ من البرودة اعتقاداً منه أن ذلك الهروب كان بمثابة تخلٍ عن القضية، ورغم هذا فإن أحمد بن القاضي لم يتردد في وضع نفوذه الذي اكتسبه داخل البلاد في خدمة خير الدين كما خدم أخاه من قبل.

ولكن سلطان تونس، مولاي محمد، الغيور من التنامي المستمر لقوة الأتراك، والمتخوف من تهديد جيرانه لعرشه، مثلما حدث لسلاطين تلمسان؛ كتب إلى ابن القاضي لإخراجه من حزب خير الدين. لم تعرف هذه المحاولة الأولى أي نجاح؛ حيث أن القائد العربي أجابه باعتزازٍ بأنه لن يخون أبداً

قضية صاحب الفضل عليه. لقد كان جواباً ينم عن كبرياءٍ وفخر، ولكن إن صدَّقته الأحداث اللاحقة. قام مولاي محمد بتأسيس هيئاتٍ جديدةٍ، وبينما كان خير الدين منشغلاً باسترجاع تلمسان؛ استطاع أن يستميل ابن القاضي إلى جانبه، وتحصل منه على وعدٍ بأن يقدم له يد المساعدة وقت الضرورة.

بناءً على هذا الوعد استطاع سلطان تونس إدخال جيشٍ كبيرٍ إلى إقليم مدينة الجزائر، بعد هزيمةٍ في المواجهة الأولى ضد الأتراك، وتحصن في جبال فليسة. طارده الأتراك قبل أن يُبادوا عن بكرة أبيهم بخيانةٍ من طرف ابن القاضي؛ الذي أعلن الثورة منذ ذلك الحين مستميلاً كل العرب بوعدهم بجائزةٍ قدرها قطعتين ذهبيتين لكل من يأتيه برأس تركي، وفجأةً وجد نفسه السيد المطلق لكامل إقليم الشرق. (Sander-Rang, p.162, vol. 1er)

يُعتقد أن هذه الأحداث قد جرت في نهاية العام 1519، إذا اعتبرنا أنه في الفترة الزمنية منذ وفاة عروج في مايو 1518، كانت حملة «هوغو دي مونكاد» (Hugo de Moncade) على مدينة الجزائر في أغسطس 1518، وسفارة خير الدين لسليم، سلطان القسطنطينية، تهنئةً له على فتحه الجديد[1]، واسترجاع تلمسان من مولاي عبد الله المخلوع.

1. لا نعرف المصدر الذي اعتمد عليه بربروغر في كتابه «تاريخ إيالة الجزائر» (Histoire du pégnon d'Alger) (ص.71) حتى يضع هذه السفارة زمنياً قبل حملة «هوغو دي مونكاد»، رغم أن كتابي «الغزوات» و«الزهرة النيرة» اللذين ترجمهما روسو بوردان العكس. ربما يكون فعل ذلك اعتماداً على اعتقاد هايدو. وللأسف، نحن لا نعرف هذا الكاتب إلا عن طريق مقولاته العديدة التي نقلها المؤرخون المعاصرون، ومصادرنا الخاصة وتلك التي تحوزها حالياً المكتبة الولائية لقسنطينة؛ التي، نظراً لحداثة إنشائها، لم نتمكن من معاينة تلك الوثائق بقدر ما كان الشأن بالنسبة لوثائق أخرى كانت مهمة جداً في دراستنا وفي مقارنتها من أجل توضيح الشكوك التاريخية التي كانت تظهر في كل مرة. غير أنه في هذا الموضوع سنورد ملاحظة استعرناها من كتاب «دوروتالي» (de Rotalier) حول «تاريخ الجزائر» (Histoire d'Alger (p.158, 1er vol.))، والتي تتفق معها تماماً. هذا نصها:

«يفترض هايدو أن هذه الأحداث المهمة (قبول سيادة مدينة الجزائر من طرف الباب العالي) قد وقعت قبل حملة مونكاد، ولكنه خطأ حتماً؛ لأن هذه الحملة حدثت بعد شهرين أو ثلاثة من وفاة عروج. فخير الدين لم يجد متسعاً من الوقت ليناقش هذا الأمر مع الباب العالي، ليتلقى جيشاً من ألفي رجل. وعلى هذا يجد هايدو نفسه متناقضاً مع «ساندوفال» وأيضاً مع المخطوطة العربية «الغزوات»». ويبدو لنا هذا التفنيد حاسماً.

في غمرة نشوة هذا النصر قام أحمد بن القاضي بمحاصرة خير الدين في مدينة الجزائر، ولكن أمطار الشتاء لم تسمح له بمواصلة الحصار، وتوصل الطرفان إلى تسوية سلمية شرط أن يدفع طرف ابن القاضي للأتراك ضريبةً سنويةً على ست دفعات. بعد تسديد الدفعتين الأوليين وانتهاء فصل الشتاء (فتكون بالضبط في ربيع 1520) حضَّر ابن القاضي حملةً جديدةً على مدينة الجزائر كلَّف بها أخاه حسين؛ الذي لم يستطع أن يصمد طويلاً. حيث أن الأتراك خرجوا إليهم هذه المرة وباغتوهم وعادوا إلى مدينة الجزائر منتصرين.

وبعد ذلك بفترةٍ قصيرةٍ أرسل خير الدين قوةً مؤلفةً من خمسمئة رجلٍ لإدخال مناطق الشرق إلى حظيرة الطاعة، والقضاء على عصبة ابن القاضي؛ الذي صارت ثورته بالنسبة لعرب هذه المنطقة بمثابة إشارةٍ لنهضةٍ شاملة. لقد أوكل هذه الحملة إلى رفيقه القديم في السلاح قارة حسن؛ الذي لم يجد صعوبةً في إحلال النظام، كما أرغم ابن القاضي على التراجع إلى الأراضي التي ورثها عن أجداده بين عنابة والقالة. هنا يقع حدثٌ هامٌّ بالنسبة لقسنطينة؛ والذي يجب التوقف عنده قليلاً.

ينقل العديد من المؤرخين المحدثين، بالاعتماد على «هايدو»، بأنه خلال هذه الحملة استولى قارة حسن على مدينة القل مُخضعاً جميع القبائل هناك إلى سلطته، كما أرغم مدينة قسنطينة؛ التي كانت حينئذ مُشَكَّلَةً على نمط جمهورية، على الاعتراف بسلطة باشا الجزائر. والسبب الذي قدمه هايدو لتفسير كيف أدى استسلام مدينة القل إلى خضوع أهالي قسنطينة؛ هو أن القل كانت تمثل الميناء الذي يستقبل جميع التجار المسيحيين الذين يتعاملون مع قسنطينة؛ فيشترون منها الأصواف والجلود وما إلى ذلك، وكانت تجارةً تدر على المدينة أرباحاً معتبرة. وبذلك أدى سقوط هذا المرفأ إلى الخضوع الحتمي لمدينة قسنطينة[1].

غير أن مقطعين مما كتب ليون الإفريقي (2e vol, 9 et 10, édition

1. استعرنا هذا القول من مقال لبربروغر حول هذا الموضوع في Revue africaine, année 1856, p.401، والذي سوف نعود إليه.

de 1830) ورد فيهما أنه بين سكان القل وسكان قسنطينة لم تكن توجد أية علاقاتٍ أو تكاد، وأن تجارة هذه المدينة مع الأوروبيين كانت عبر سكيكدة وسطورة؛ التي كانت ميناءها الطبيعي. وفي الواقع، لقد ورد في مقال «كولو» (Chollo) قوله: «لقد أبقوا على أنفسهم أحراراً (ويقصد سكان مدينة القل)، وذلك بمقاومة قوات ملوك «تلنسن» (Telensen) وأيضا سيد قسنطينة التي تفصل بينها وبين مدينة القل جبالٌ عاليةٌ على مسافة مئةٍ وعشرين ميل».

وفي المقال الموالي، وبالحديث عن سكيكدة؛ التي يسميها سُكَيْكِدَة، يضيف: «ولكن، ولأن بها ميناءً جيداً، أسس فيها سيد قسنطينة بعض البيوت والمحلات لصالح تجار جنوة[1] الذين يتعاملون في هذه البلاد. ومن ذلك المكان وحتى مدينة قسنطينة نرى طريقاً مرصوفاً بحجارةٍ سوداء كما لم توجد حتى في إيطاليا».

هذا ما يؤكده «مارمول» متحدثاً عن سطورة التي يسميها «إيستور» (Estore): «وهنا يقع ميناء قسنطينة» (vol 2e, p.432). فالتبرير الذي قدمه هايدو يبقى إذاً بعيداً على أن يكون مقنعاً.

وبالرغم من هذا، فلا يمكننا التخلي عن حسن نية المؤرخ المتعلقة بمقارنة التواريخ؛ ولذلك سنعمد إلى التحقق ما إذا كان تبرير هايدو يدعم هذا التقارب.

متابعةً لترتيب الأحداث السابقة، لم تكن حملة قارة حسن قبل نهاية عام 1520 أو بداية عام 1521؛ وعليه فإن الوثيقة الأصلية التي نشرها بريسنبي، والتي عرضنا سابقاً مقتطفاً منها، قد أقرَّت بشكلٍ قاطعٍ بأنه في شهر سبتمبر 1528 كانت الحدائق والحقول الواقعة في الفحص الأبيض خارج المدينة قد صارت بعد قلب القوة العثمانية مرتعاً للحيوانات المتوحشة ومخبأً للصوص.

مهما تكن كثافة النباتات التي تزخر بها الأرض الإفريقية؛ فلا يمكننا بأي حالٍ من الأحوال الاعتقاد بأن تتحول حدائقٌ غنَّاءٌ إلى مرتعٍ للأسود خلال ثمانية أو عشرة أعوام، وبالأخص على عتبات مدينة.

1. وردت في طبعة 1830 (النسخة الفرنسية) كلمة (Genevois)؛ وهو حتماً خطأ مطبعي، ولا نتردد في قراءتها (Génois).

لا بد إذاً أن تكون القوة العثمانية قد زالت منذ فترةٍ أطول من هذه حتى يتسنى للمكان التحول إلى ما أصبح عليه. بالإضافة إلى ذلك، فإنه يُحتمل أن تكون هذه السلطة قد استولت على البلاد لمدة سنةٍ أو سنتين على الأقل لأن النص يحدثنا عن قلب؛ وهي اللفظة التي تُعبِّر عن وجود سلطةٍ مؤسَّسةٍ بقوةٍ ولمدةٍ طويلةٍ نسبياً. وإذا نسبنا تأسيس هذه السلطة إلى قارة حسن، وذلك بربط التواريخ، نكون قد وضعنا الطبيعة في تناقضٍ مع نفسها؛ لأنه، كما ذكرنا سابقاً، لم تكن حملته ضد القل تعود إلا لنهاية العام 1520. وبين هذا التاريخ و1825 تكون الفترة قصيرةً جداً لتبرير كثافة الأشجار والنباتات التي أصبحت عليها منطقة الحامة.

هذا، ولم يصلنا أي حدثٍ تاريخي بعد سنة 1520 يُفسِّر متى وكيف تَمَّ قلب السلطة العثمانية. ولكن بالرجوع إلى سنة 1517، تاريخ أول محاولةٍ لاحتلال قسنطينة من طرف الأتراك، نجد تفسير قلب نظامهم بغزو الأراضي الجزائرية من طرف جيوش سلطان تونس في 1519 تبعاً لما سردناه سابقاً. ولا شك أن قسنطينة بكل إقليمها قد زوَّدت الحملة القادمة من تونس بأقوى مقاتليها المتطوعين، وأدى نجاح هذه الحملة إلى تأسيس حلفٍ بين مولاي محمد وسكان قسنطينة؛ الذين طالما كانوا رافضين لسيطرته، وحتى الأتراك الذين استطاعوا فرض أنفسهم إما بعنصر الجِدَّة أو المفاجأة؛ فقد طُردوا من المدينة حتى قبل الانتصار الذي تحقق بعد خيانة ابن القاضي لهم.

وفي الأخير، يبقى شكٌّ طالما ترددنا في الإفصاح عنه لأنه لا يفضي سوى لضحد التبرير الذي يدعم الفرضيات حول المحاولة الأولى لاحتلال الأتراك لقسنطينة برمته. إننا نريد الحديث عن الوثيقة التي ترجمها بريسني. يرتكز هذا الشك على كلمةٍ واحدةٍ؛ وهي كلمةٌ أساسيةٌ في العقد الذي مازلنا نعتبره لحد الآن ذا أصالةٍ لا خلاف فيها. وليكن واضحاً أن ترددنا راجعٌ للشك الذي أثرناه بكل تحفظ.

إن الوثيقة التي ترجمها بريسني هي نسخةٌ لوثيقةٍ أصليةٍ كانت ترجع يومها إلى ثمانيةٍ وثمانين سنة، وكانت باليةً ومطموسةً إلى درجة أن الناقل

نفسه قد اعترف أنه، نظراً لهذه الحالة، وجد نفسه مجبراً على ترك العديد من المقاطع فارغة. وعليه، فإن هذا الناقل أو الناسخ؛ الذي عاصر الوجود العثماني، وبسبب عدم تمكنه من قراءة العبارة، أو ربما بسبب هفوةٍ منه، قد كتب الدولة العثمانية بدل الدولة الحفصية؛ التي يُحتمل أنها كانت في الوثيقة الأصلية؟

سيكون من المجازفة والاعتباط بأن نعتمد على التخمين حول فرضيةٍ كهذه إذا لم يكن لدينا ما نبرر به عدا الإهمال المحتمل لذلك الناسخ. فعلينا إذاً أن نفصح عن الأسباب الأخرى التي دفعتنا إلى احتمال وجود خطإٍ في النسخة المنقولة.

في خضم محاولة تحديد، بصفةٍ دقيقةٍ، بداية هذا الاحتلال العثماني الذي أدى القضاء عليه إلى تخريب الحامة؛ توصلنا إلى إقران ذلك بالعام 1517، غير أن في هذه الفترة لم يكن بَعْدُ الإخوة بربروس هم الممثلون للسلطة العثمانية. من المعلوم أنهم كانوا قراصنةً أتراكاً مدعمين من قراصنةٍ آخرين، ولكن دون تكليفٍ محددٍ من الدولة العثمانية أو تبعيةٍ تربطهم بالباب العالي. لقد كانوا مجرد قراصنةٍ يعملون لحسابهم الخاص. وبعد فترةٍ؛ أي غداة الحملة الفاشلة لـ «هوغو دي مونكادا» على مدينة الجزائر (أواخر أغسطس 1518)، بادر خير الدين بإهداء غزوه لسلطان القسطنطينية؛ الذي رد عليه بالقبول. إذاً فَلَيْس من المنطقي أن نجد في عقدٍ عام عبارة قلب السلطة في فترةٍ لم تكن أصلاً هذه السلطة معترفاً بها رسمياً داخلَ البلاد.

بالإضافة إلى هذا، كيف يمكن تفسير ضرورة ملاحظة في 1528، من خلال عقدٍ موثقٍ، حالة مكانٍ تعود لأقل من عشر سنوات والتي يمكن أن تكون معروفةً لدى كل معاصري تلك الفترة؟ وأيضا لماذا تحديداً أن بعض الشهود المستمَع إليهم قد أدلوا شهاداتهم بالتواتر، وبعضٌ آخر بالملاحظة المباشرة؟ حيث أن النص يقول: «إن شهادة الذين نقلوا هذا، إما بالتواتر أو بالملاحظة المباشرة، تؤكد دقة الأحداث المذكورة؛ وهو ما لاحظناه هنا». ألا يكون من المعقول أكثر أن يكون دليل ذلك التخريب أبعد من عشر سنوات،

وأن يكون من بين الأشخاص الشهود من هم مُسِنُّون شهدوا ازدهار الحامة، وأن يكون الشباب منهم قد عرفوا ذلك عن طريق السمع؟

يجب في هذه الحالة، إذاً، البحث عن سبب ذلك التخريب، ليس في قلب السلطة العثمانية التي كانت فترتها وجيزةً جداً، إذا كانت قد وُجدت خلال تلك الفترة التي كانت مرتبطةً بالاضطرابات بدل الاستقرار؛ بل في قلب السلطة الحفصية التي فقدت سيطرتها على قسنطينة خلال فترة حكم القايد نبيل في أواخر القرن الخامس عشر.

وفي واقع الأمر، فإن المؤرخين يتحدثون عن أن المدينة قد دخلت منذ هذه الفترة في حالةٍ دائمةٍ من الفوضى غير معترِفةٍ بأي واحدٍ من الحكام المبعوثين من بلاط تونس، ويضيفون بأن هذه الحالة استمرت إلى غاية إدارة القايد علي بن فراح.

بتبني هذا الترتيب للأفكار يُفسَّر كل شيء: فالعقد الموثَّق يجد تبرير وجوده، وكل عبارةٍ فيه تجد قيمتها، كما أن الطبيعة لم تَعُد متناقضةً مع نفسها، ونستطيع فهم سبب الشهادة المزدوجة. ولكن إلى ماذا تؤول فكرة السيطرة الأولى التي تعرضنا إليها في الصفحات السابقة؟ تاريخياً، كل فكرةٍ لا تعتمد على معطياتٍ أكيدةٍ وأصيلةٍ تصبح حقلاً مفتوحاً للنقد، أو فرضيةً محل اختلافٍ يمكن للنقاش أن ينيرها، ولكن المؤرخ لا يستطيع أن يجني منها سوى الاحتمالات ما دامت الحقيقة لم تُؤكَّد من طرف كاتبٍ من تلك الفترة.

لهذا السبب، ومن أجل الاقتراب قدر الإمكان لاكتشاف هذه الحقيقة، بحثنا من جانبنا في كل مكانٍ ولكن دون جدوى؛ حيث أننا لم نعتقد أبداً أنه يمكن ضحد ذلك الشك الذي يحيط بنقطةٍ تاريخيةٍ نظن أننا وجدنا تفسيرها الحقيقي.

لنتفحص ما كتبه «ليمبيري» (Limbéry) في مؤلَّفه «تاريخ قسنطينة» باللغة العربية؛ والذي قدم «فيرو» (Féraud) مقطعاً منه في «المجلة الإفريقية» (السنة العاشرة، 1866، ص190): «من بين العقود التي كُلِّفتُ بترجمتها وجدت عقداً يحمل تاريخ 985هـ محررٌ من طرف القاضي الحنفي لقسنطينة؛

سي محمد بن حمزة، كما يحمل ختم رمضان باي وعليه رقم السنة 935هـ.. يؤكد هذا العقد ما قاله ابن دينار عن مجيء الأتراك إلى قسنطينة في 932، (1525-1526م)».

ومن هنا يفضي ليمبيري إلى «أن أول بايٍ تركي عُيِّن حاكماً لقسنطينة هو، دون أدنى شك، رمضان باي في العام 935هـ». وإذا كانت السنتان 935 و985 صحيحتين، نجد أن فترة حكم رمضان باي كانت على الأقل خمسين عاماً؛ وهو حدثٌ غريبٌ في الحوليات الجزائرية مما يدفعنا للتشكيك في أصالة الوثيقة حتى ولو كانت تحت أعيننا. كما قام ليمبيري نفسه بتكذيب بعض السطور اللاحقة عندما يضيف: «وبعده عُيِّن جعفر باي في سنة 975هـ. إذاً، إذا كان جعفر قد خلف رمضان في 975 فإن عقداً حُرِّر في عام 985 لا يمكن أن يحمل ختم هذا الأخير مع رقم السنة 935.

لن نبحث عن المزيد من التناقضات؛ لأنها كثيرةٌ في هذا الكم الهائل من المعلومات التي تفتقر إلى الدراسة والنقد، والتي إذا درسناها سنسجل الكثير من التحفظات بشأنها[1]. ومع ذلك يبقى تبرير هايدو ضعيفاً ومعزولاً إذا سحبنا دعم تلك الوثيقة التي يمكنها لوحدها فقط، لحد الآن، أن تعطيه صفة الحقيقة التاريخية[2].

وعلى كل حال؛ فإن احتلال قسنطينة في الظروف التي تحدث عنها هذا المؤرخ يظهر غير مقبول[3]، ونحن نعتقد بدل هذا أن المدينة التي صارت غير

---

1 . انظر حول هذا الموضوع ملاحظة لبربروغر، أضيفت كتكملة للعمل الذي قام به فيرو في المجلة الإفريقية (Revue africaine)، ص196.

2 . لقد أعيد هذا التبرير ببعض التغيير من طرف «بيار دافيتي» (Pierre Davity) في عمله الموسوم «وصف عام لإفريقيا» (Description générale de l'Afrique)؛ حيث يقول: «استولى «شيريدين» (Cheredin) أو «هايردين» (Hairadin) في 1522 على ميناء القل (Collo) ومدينة قسنطينة التي كانت تعيش في حرية؛ وبذلك قوَّض حكم ملوك تونس». (Edition de 1660, p.205)

3 . نعلم من جهة أخرى بأن هايدو كثيراً ما تختلط عليه التواريخ؛ والدليل على ذلك حملة «ديغو دي فيرا» (Diégo de Vera) على مدينة الجزائر التي وقعت في 1516 والتي يضعها في 1517، والاستيلاء على الإيالة في 1529 الذي يضعه في 1530، وكذلك وفاة حسن آغا في 1545 التي يضعها في 1543؛ بالإضافة إلى كل الأخطاء التي حددها بربروغر وآخرى.

مكترثةٍ بالصراع القائم بين أحمد بن القاضي وخير الدين؛ قد بقيت تخضع لزعيم تختاره بنفسها[1].

لن نتابع، إذاً، كفاح البلاد ضد الأتراك الذي استمر حتى حوالي عام 1529؛ والذي أفضى تدريجياً إلى طرد خير الدين من مدينة الجزائر، بعد خيانة صديقه قارة حسن له؛ حيث أُرغم على التراجع إلى جيجل مهدِ نجاحه الأول. ولم يتمكن خير الدين من استرجاع السلطة نهائياً إلا باستغلاله لخلافاتٍ وقعت بين أعدائه استعمل فيها كل ما أوتي من قوةٍ لهزمهم وإخضاعهم.

لقد كانت القبائل الكبرى مسرحاً لكل هذه الأحداث[2]، ولا شيء يخبرنا بأن تكون قسنطينة قد شاركت فيها. فجميع علاقاتها السياسية كانت مع تونس، وبالتالي توجَّب عليها اتِّباع مصير هذه العاصمة التي كانت تهيمن عليها، في وقتٍ كانت لا تربطها بمدينة الجزائر أية علاقة.

كان زعيم المدينة القايد علي بن فراح، كما يخبرنا العقد المذكور آنفاً[3]؛ حيث جاء فيه: «لقد استمرت حالة التخريب هذه حتى حكم القايد الشهير والحكيم والـمَهيب؛ أبو الحسن علي بن فراح»، وبعد بضعة سطورٍ نجد: «لقد شجع القايد، بكل أملٍ، النهوض بالفحص بزراعته بما يستجيب

1. على الرغم من أنه ينتج عن هذه الرؤية تناقض مع ما كتبه حول هذا الموضوع في المجلة الإفريقية (Revue africaine, année 1856-57, p.401) بربروغر؛ ذلك العالم الذي تتشرف به الجزائر والذي نُكِنُّ له شخصياً احتراماً كبيراً، فإننا لم نصدق أننا نشاطره الرأي هذه المرة؛ حيث أن التواريخ المدرجة أعلاه والمقبولة من طرفه تبدو لنا صحيحة. الأمر الذي يؤكد لنا بأن في ذلك العقد نفسه نقطة انطلاقٍ لتثمينه؛ حيث ورد فيه: «منذ بضع سنوات تمَّ ترميم بعض الحدائق الـمُخرَّبة بالقرب من كنيسية». فإذا كان الترميم قد تم بضع سنوات قبل 1528؛ فيجب حتماً القبول بأن تاريخ قلب السلطة العثمانية الذي أدى إلى هجران الحامة يرجع إلى ما بعد 1520م.

2. انظر Epoques militaires de la Grande Kabilie, par Berbrugger, p.64 et suivantes

3. على الرغم من أننا أبدينا شكاً حول عبارة «السلطة العثمانية» (puissance ottomane) التي وردت في نسخة لهذا العقد؛ فإننا لا نعتبر هذه الوثيقة أصلية تماماً بالنظر إلى الأحداث التي تقدمها لنا. فنجد ما يؤكد هذا في عقد مؤرخ في نهاية شهر ذي الحجة من عام 926هـ (نهاية ديسمبر 1520م) يؤسس لحبوس من طرف يحيى بن محمد بن لفقون، وكان من بين شهود هذا العقد عبود والعوادي وأبو الفضل الغريبي؛ الذي عرفنا من خلال وثيقة بيوغرافية بأنه واحد من أكبر فقهاء قسنطينة في تلك الفترة. وتضيف هذه الوثيقة أنه أصيب بالسفه وأرغم على المكوث في السجن حتى وافته المنية.

لمتطلبات تلك الفترة (وفقه الله لما يرمي إليه وزاده احتراماً ومهابة!)»؛ وهو ما يثبت أن الاضطرابات التي تسببت في الفوضى وتخريب الفحص المذكور كانت قد توقفت.

ولكن من كان علي بن فراح هذا؟

حول هذا الموضوع نقرأ عند مارمول ما يلي[1]:

«لقد ظلت قسنطينة لفترةٍ طويلةٍ ترفض استقبال حكام حتى قرر أحد الأمراء؛ وهو مولاي محمد والد مولاي حسن إرسال ابنه مولاي ناصر الذي قتل خلال الحملة الأولى التي قادها ضد الأزواغ. فأرسل آخر؛ وهو عبد الرحمن الذي اغتيل من طرف أحد أتباعه. وأخيراً أرسل ثالثاً؛ وهو مولاي عبد المومن الذي أراد الشعب قتله بسبب انحرافاته، مما دفع أباه إلى سجنه ونقله إلى تونس لإنقاذه من أيديهم، وأرسل بدله أوروبياً كان قد اعتنق الإسلام يدعى علي بن فاراكس، وقد كان ذا خبرةٍ، وَقَبِلَهُ الشعب قبولاً حسناً.

وبعد وفاته خلال حكم مولاي حسن؛ استسلمت المدينة للأتراك الذين وضعوا بها حامية على غرار جميع النقاط الهامة في المملكة. ولكنهم حكموا المنطقة بطريقةٍ جعلت سكانها يحاولون الثورة عدة مرات، وقاموا بها فعلاً في 1568؛ فقتلوا الحاكم وعناصر الحامية وتحرروا. وبعد ذلك قام حاكم الجزائر علوش علي الفرطاس بحصارها وأخذها بالقوة ثم نهبها، وأرغم مترفيها بتعمير قلعةٍ له على نفقاتهم، وأن يدفعوا له خمسين أو ستين ألف قطعةٍ ذهبية، قبل أن يجردهم من سلاحهم وأصبحوا مستعبدين أكثر من السابق».

لقد سردنا المقطع بكامله رغم أن نهايته تبعدنا عن الفترة التي وصلنا إليها، وهذا لأننا سنعود إلى هذه الأحداث. وبهذا لم يكن علي بن فراح أو فاراكس، حسب النطق الإسباني، على حد قول مارمول، إلا مُعتنقاً للإسلام أرسل كحاكم لقسنطينة من طرف مولاي محمد؛ ملك تونس، والذي كان

1. نقلها من العربية «أبلانكور» Ablancourt, vol. II, p.439. وهذه ليست إلا إعادة ترجمة من الفرنسية إلى العربية، وبالتالي فهي ليست أصلية. (المترجم)

تعيينه قبل سنة 1526؛ لأن السلطان توفي في 25 ربيع الثاني من سنة 932هـ الذي يوافق 10 فبراير 1526م.

(El Kairouani, traduction de MM. Pellissier et Remusat, p.270)

تبدو وجهة النظر هذه، لأول وهلةٍ، متناقضةً مع ما سبق ذكره عن الوضعية السياسية لقسنطينة التي أصبحت مستقلةً عن الدولة الحفصية في تونس منذ نهاية القرن الخامس عشر. ولكن في حقيقة الأمر لا يوجد فيها ما يدعو إلى التناقض وخاصةً أن مارمول يؤكد صحة تلك الأحداث. فهذا الرحالة المشهور الذي كان متواجداً في بجاية نهاية العام 1514 خلال حملة عروج عليها؛ والذي اتجه إلى قسنطينة للذهاب إلى تونس، كما أخبرنا هو نفسه، ينقل لنا بأن سلطان تونس قد أرسل إلى حكومة قسنطينة ثلاثةً من أبنائه؛ فكان مصيرهم إما القتل أو الطرد، ويضيف: «ثم أرسل لحكم قسنطينة، مسيحياً مرتداً أراد الملك اختبار مدى وفائه؛ حيث كان معروفاً عنه إلمامه بكثيرٍ من الأشياء الـمُهمَّة. لقد أراد الملك أن يرتاح كلياً بإرساله إلى هناك؛ حيث كان أهل المدينة راضين بحكمه وفرحين».

(Léon l'Africain, édition de 1830, 1er v, p.264, et 2e v, p.13)

نلاحظ، إذاً، أنه بإرسال ثلاثة أمراء على التوالي إلى قسنطينة؛ فإن الحفصيين لم يتنازلوا نهائياً عن السيطرة على هذه المدينة. هذا من جهة، ومن جهةٍ ثانية؛ فإن القسنطينيين لم يكونوا يترددون في التمرد عندما لا يرضون عن حكامهم، وإذا قبلوا علي بن فراح فيرجع ذلك إلى خصاله الشخصية وليس لأنه يمثل سلطةً آيلةً للزوال.

يمكننا إذاً أن نقول إن قسنطينة عاشت فترة هدوءٍ تحت حكم علي بن فراح؛ فتفرغ سكانها إلى خدمة أراضيهم واستطاعوا إرجاع حدائق الحامة إلى حالتها الأولى. ولقد استمرت هذه الوضعية حتى وفاة هذا الحاكم كما كانت، حسب مارمول، خلال حكم مولاي حسن الذي اعتلى عرش تونس مع مطلع سنة 1526 [1]. ولكنه يضيف بأن قسنطينة استسلمت للأتراك الذين

1. لقد قام علي بن فراح هذا بعقد تحالفاتٍ في البلاد وأسس له قاعدة فيها؛ حيث نجد عقدين

وضعوا بها حاميةً على غرار جميع المدن المهمة في أرجاء الدولة، ويعتقد بأن ذلك التاريخ قد حُدِّد في 1535 بعد احتلال تونس من طرف خير الدين.

وفيما يلي الأحداث التي اعتمدنا عليها.

خلال هذه الفترة تم إخماد كل الانتفاضات التي قادها ابن القاضي ومن بعده ابنه حسين، ورغم المقاومة الشرسة التي أبداها «مارتن دي فيرغاس» (Martin de Vergas) (نهاية مايو 1529) سقطت إيالة الجزائر في يد الأتراك. لقد أهدى خير الدين استيلاءه على البلاد إلى سليمان، سلطان القسطنطينية، الذي عيَّنه بدوره باشا، وتوج خير الدين هذا الفتح بأخذ تونس من مولاي حسن[1]. ويُعتقد أن سكان قسنطينة الذين تعوَّدوا على الحكم الراشد لعلي بن فراح لم يترددوا في الخضوع لخير الدين مثلما فعل الدريد والنمامشة. (Sander-Rang, 1er vol, p.319). وعندما أصبح سيداً لتونس استطاع الباشا الجديد إخضاع الجميع بالقوة.

وللمرة الثانية وجد القسطنطينيون حاميةً تركيةً على أبواب مدينتهم، وكان ذلك عام 1535؛ وهو التاريخ الفعلي، بالنسبة إلينا، لاحتلال قسنطينة من طرف الأتراك. وبذلك انقطعت الروابط السياسية التي جعلت المدينة، طيلة ثلاثمئة سنة، تابعةً لسلاطين تونس. وإذا لاحظناها أيضاً، فنجدها خلال مئة عام أخرى ترزح تحت نير الأسياد الجدد وسلطتهم المركزية في مدينة الجزائر إلى أن صارت عاصمة إقليم الشرق.

عموميين، الأول مؤرخ بين 10 و20 أغسطس 1622، والثاني بين الفاتح و10 سبتمبر 1631، يقضيان بأن عالي المقام أبو الفضل قاسم بن فراح قد تلقى من عائلة زويوش بن أبو الهول الذوادي ملكية ذراع شنيتي الموجودة على أرض سمندو. كُتب العقدان على قضيبين مختومين؛ الأول بختم القاضي حسين بن مجرومة، والثاني بختم القاضي مصطفى بن سليمان، وهما الآن بحوزة فرنسي يقطن بقسنطينة يحوز تلك الملكية موضوع العقدين.

في سجل الوَفيات الخاص بالشخصيات الشهيرة لتلك الفترة نجد أن قاسم بن فراح توفي يوم الأربعاء الفاتح من شعبان 1048هـ (16 ديسمبر 1638م).

1. هذا الأمير الذي كان ابنه أحمد يحكم عنابة حينئذ؛ والذي عندما أحس بالخطر فرّ إلى قسنطينة حيث وجد ملجأً لدى حاكم الإقليم (Annales tunisiennes, p.15). وهو دليل آخر على أن هذه المدينة لم تكن تخضع بعدُ لخير الدين؛ لأن من كان يحكم فيها لم يكن يتردد في إجارة كل أمير مخلوعٍ من طرف خير الدين نفسه.

ويخبرنا مارمول أيضاً (v.2, p.436) بأن «شارل الخامس» (-Charles Quint)، بعد طرده لخير الدين من تونس (في شهر يوليو 1535)؛ استولى على عنابة في طريق عودته إلى إيطاليا وترك بها حامية: «وكان أول حاكم لها «ألفار غوماز زاغال» (Alvar Gomez Zagal) مع ألف رجلٍ من المشاة وخمسةٍ وعشرين حصاناً؛ حيث خربوا البلاد وأخذوا منها عدداً من القطعان والعبيد والغنائم التي نهبوها من العرب والبربر، كما أحرزوا عدة انتصاراتٍ على أتراك قسنطينة؛ الذين قاموا بدورهم بنصب عددٍ من الكمائن مع العرب إلى غاية أبواب عنابة ولكن دون أية جدوى».

ثم يضيف (ص487): «بعد إنقاذ السفن من عنابة وجمع عددٍ آخر؛ اتجه بربروس نحو «مينورك» (Minorque) واستولى على مدينة «ماهون» (Mahon) وخربها دون أن تواجهه مقاومةٌ تُذكر. لأنه رغم طلب الإمبراطور من حاكم عنابة بإرسال أربعمئةٍ من جنوده إلى هذه الجزيرة؛ اعتذر هذا الأخير بعدما بلغه أن حاكم قسنطينة حسن آغا قادمٌ لمهاجمته، وبالتالي حاجته إلى كل قواته للدفاع عن مدينته».

دليلٌ آخر يؤكد على أن قسنطينة كانت حينئذٍ تحت سلطة الأتراك، وهو أن عدداً من الوثائق المسيحية لتلك الفترة[1] تفترض أن خير الدين، بعد سقوط تونس في يد شارل الخامس، هرب إلى قسنطينة مع أربعة آلاف تركي، للمرور إلى عنابة ومن ثَمَّ إلى مدينة الجزائر. فمارمول نفسه يقول (ص485، ج2) بأنه سلك طريق مدينة الجزائر براً مصطحباً خيَّالته؛ وهو ما يتعارض مع ما جاء في كتاب الغزوات. ولكن إذا ما أخذنا بأن خير الدين قد سافر بحراً، وهو الأرجح، لم يكن لديه سوى اثنتي عشر أو ثلاثة عشر سفينة؛ مما جعله يرسل جزءاً كبيراً من الأتراك الذين نجوا من الموت المحقق في عنابة عن طريق البر، وللوصول إلى مدينة الجزائر يجب المرور حتماً بقسنطينة.

إذا أخذنا بأن حسن آغا، كما رأينا عند مارمول، كان في وقتٍ ما حاكماً

1. انظر من بين وثائق أخرى رسالة لـ «كونت أنغيلارا» (Conte d'Anguillara) كُتبت في الساقية (La Goulette) بتاريخ 25 يوليو 1535، ووردت في كتاب ساندر رانغ (Sander-Rang, vol.2, p.235)

لقسنطينة؛ فإن تعيينه كان مرتبطاً بهذه الظروف. فحسن آغا قد صاحب خير الدين في حملته على تونس وكان أحسن قادته، وهناك احتمالٌ كبيرٌ بأن يكون هو من كلفه خير الدين بقيادة الأتراك إلى مدينة الجزائر هروباً من مطاردة شارل الخامس. وبرجوعه إلى قسنطينة، استقر فيها بين نهاية عام 1535 وبداية 1536 للدفاع عن هذا الجزء من الإقليم الذي كانت تهدده الحامية الإسبانية الموجودة في عنابة، وحتى محاولة الحلول محلها مثلما جاء واضحاً في المقطع السابق.

وأخيراً، فإننا نجد في مجموعةٍ قديمةٍ من الوثائق العربية جُمعت في منتصف القرن التاسع عشر من طرف أحد أفراد عائلة بن الساسي العنابية، رسالةً من الشيخ سيدي عمر الوزان في قسنطينة إلى حسن آغا؛ الذي أصبح باشا للجزائر، يعتذر له فيها عن عدم قبول مهام القاضي التي أراد أن يوكلها إليه. ويمكن أن نستنبط منها المقاطع الآتية التي تعد بمثابة وصفٍ دقيقٍ لما كانت عليه قسنطينة في تلك الفترة.

بعد أن قام ذلك الأستاذ المتواضع بعرضٍ طويلٍ لجميع الواجبات التي يجب أن يضطلع بها قاضٍ جديرٌ بهذا المنصب، يضيف*:

«هناك اعتباران يَحُولان دون قبول هذه المهام، وسيكونان في نظركم كافيين. فالأول؛ وهو شخصيّ، ويتعلق بأن لديّ قناعةٌ كاملةٌ، والله على ما أقول شهيد، بأني لا أصلح لهكذا منصب، والجاهل فقط من يتخلى عن قناعاته ليتبنى آراء الآخرين. وأما الاعتبار الثاني فيرتبط بالزمان والمكان.

فأما الزمان، فقد أدخَلَنا عام تسعمئةٍ وثمانيةٍ وأربعين (1541م) في الظلمات. حيث أن كل المصائب، كما هو معروف، وقعت فوق رؤوسنا، وانساق الجميع في خضمها دون أن يكبح جماح طموحاته، حتى أصبح العالِم والجاهل متساويان في تلك الفترة، والاختلاف الوحيد بينهما كان في أن الأول تفوّق على الثاني باستعمال معرفته المكتسبة في المكر والخديعة والتدليس للحصول على الثراء والمناصب؛ وهو مبرر ضده، ورغم هذا فكان قليلٌ من عباد الله من اتبعوا سُنّة نبيّه، ولكن

---

*. نص الرسالة ليس أصلياً؛ فهو مترجم من النسخة الفرنسية المنقولة من الأصل.

أين هم؟ ومن يعرفهم؟ ولأن الأحداث التي وقعت في العقد الخامس من القرن العاشر الهجري لم تكن كافيةً لردع هؤلاء الذين حاولوا حشر أنفسهم في الوظائف العامة الإدارية أو القضائية، ففي أي زمانٍ سيكون ذلك؟

وأما المكان؛ وهو المدينة التي تسمى قسنطينة، والتي طالما أطلق عليها قديماً وحديثاً اسم بلاد الهوى أو بلاد الهواء. ففي معنى الهواء لا يمكن أن نجد أبعاداً أخرى، ولكن في تسميتها بلاد الهوى، بمعنى الشغف، نجدها تنمو وتكبر بتوالي الأيام والليالي لدرجة أن كل شخصٍ يمكن أن يلاحظ هذا. وأصبح هذا جزءاً من التراث العام الذي لا يمكن لسكان قسنطينة الاستغناء عنه.

وأما الحالة العامة فهي معروفةٌ تقريباً، وتكفي الإشارة إليها. فمن جهةٍ أخرى، فالقاضي الذي يريد أن يجامل الرعية يعرِّض نفسه لخسران ثواب الدنيا والآخرة دون أن ينجح في إرضاء كل المصالح ما دامت المطامح التي تُقَسِّم سكان المدينة اليوم متضاربةٌ وصعبة الإدماج رغم تقديم كل أنواع التنازلات.

أما بالنسبة لي، فإن الله قد سخرني للتعليم وسأبقى هكذا ما حييت، ما دامت دروسي نافعةً لسكان المدينة ومن يأتي من خارجها بغية متابعتها. وخارج الدروس، سأفعل كل ما بوسعي لإرضاء كل من يقصدونني من أجل الاستشارة أو لأكون حكماً في خلافاتهم. غير أن مهام القاضي؛ فهي رفيعةٌ ومهمةٌ وكثيرةٌ ومليئةٌ بالهموم لدرجة أنه لا يمكن لأصحابها أن يتجنبوا الغضب إلا النزر القليل من رجال القانون؛ لأنهم غالباً ما تستولي عليهم أهواؤهم بحكم أنهم بشر. ثم إن أغلبهم، في هذا الزمان، مثلي، ضعيفو التعليم. بالإضافة إلى ذلك فهم يتجاهلون الخوف من الله وحب الخير.

جازى الله كل من عمل بنصحي. لقد شرحت له (أي لحسن آغا) أسباب رفضي، ولقد قَبِل اعتذاري دون حرج. فليصلح الله الحال العام، وليبعد عنا شرور العالم، وليخرجنا من قسنطينة سالمين غانمين، آمين. ولكن من يرى رفضي تصرفاً خارجاً عن الطاعة؛ فالله سيحاسبه. ﴿وربك يعلم ما تكنُّ صدورهم وما يعلنون﴾ (سورة القصص، الآية 69). فإلى الله موئلي، هو يعصمني من كيدهم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

هذه الرسالة؛ التي عرضنا منها بعض المقاطع، توضح لنا جلياً بأن في عام 1541 لم تعد قسنطينة جزءاً من الدولة الحفصية التي وضع شارل الخامس على رأسها مولاي حسن، وأصبحت تابعةً للسلطة الجديدة التي تأسست في مدينة الجزائر على يد آل بربروس؛ لأن قاضيها كان مُعَيَّناً من طرف حسن آغا الذي خلف خير الدين. كما تخبرنا أيضاً عن الحالة النفسية للمدينة؛ حيث انتشرت المكائد والدسائس من أجل الاستئثار بالمناصب والامتيازات التي تزخر بها كل حكومةٍ جديدة. وإنه من المهم أن نلاحظ، في خضم هذه الطموحات التي لا حصر لها، عدم الاكتراث النادر والحميد، في كل الأزمان وفي كل أرجاء البلاد، الذي أظهره هذا الأستاذ المؤمن والمتواضع والذي رفض الوظائف العليا لمنصب القاضي مغامراً بأن يجلب إليه كراهية سيِّده حسن آغا، ومفضلاً الاستمرار في مزاولة مهنةٍ متواضعةٍ؛ وهي تدريس الشباب. لقد وجدنا سلوك هذا الرجل جميلاً لدرجة أننا رأينا بأن سرد شيءٍ من سيرته لا يخرجنا كثيراً عن موضوعنا.

هذه سيرته التي قرأناها في مؤلف أحمد بابا التمبوكتي الذي كان قد نشر منه شيربونو مقاطع عديدةً في حولية الجمعية الأثرية لقسنطينة (سنوات 1854-1855، ص1 وما بعدها).

وُلِد الشيخ أبو حفص سيدي عمر الوزان في قسنطينة. يقول عنه المنجور: لقد كان عالماً وفقيهاً لامعاً ذا فكرٍ مستقيم، وعلمٍ غزيرٍ وخارق. تميَّز في العلوم التقليدية والميتافيزيقا إلى جانب الورع والطهارة.

خلال الفترة التي اتبع فيها أستاذنا أبو زكرياء يحيى بن عمر الزواوي دروس الفتوى والآداب عند الشيخ الوزان؛ كان يتحدث عنه بحماسٍ كبيرٍ، وكان يُجِلُّه أكثر من كل علماء عصره. وقد كان الشيخ البسطي من تلاميذه.

لقد ترك مؤلَّفاً يدحض فيه كل أفكار أتباع المرابط عرفة القيرواني، ويؤكد فيه تمكُّنَه من العلوم الصوفية. كما أَلَّفَ أيضاً بحثاً ممتازاً حول مواقع الكواكب والنجوم الثابتة تحت عنوان «البدعة المُزجاة»، ونسجل أيضاً أقواله حول الفتوى والجدلية. وفي مدرسته تكوَّن أبو الطيب البسكري،

وعبد الكريم لفقون، ابن مدينته، وكثيرٌ من التلاميذ الآخرين.

توفي الشيخ عام 960 للهجرة (1553م)، حسب أحمد بابا، ولكن المترجم التمبوكتي كان قليل الاطلاع في هذا الأمر. فحسب سجل الوفيات؛ فقد توفي يوم الأربعاء 21 من شعبان 965هـ (8 يونيو 1558م) قبل شهرٍ من وفاة سيدي أبو الفضل قاسم لفقون، قاضي قسنطينة، الذي يكون قد عُيِّن في هذا المنصب عِوَض الوزان الذي رفضه.

لقد كان والده، كما جاء في إحدى سِيَرِه، قابضاً لحقوق باب قسنطينة. وفي تلك الفترة كان الشيخ أبو العباس أحمد زروق معتاداً على زيارة المدينة كل سنةٍ قادماً من المغرب على رأس قافلةٍ تجارية؛ فكان أبو الوزان، بداعي احترام علمه وصلاحه، لا يقبض منه حقوق الدخول، كما كان يستضيفه في داره.

ولدى وصوله إلى قسنطينة في إحدى السنوات لم يجد أحمد زروق أبا الوزان في مكانه المعتاد، ولما سأل عنه عَلِمَ أنه قد وُلِد له صبيٌ وتحتَّم عليه المكوث في داره. فسارع الشيخ لزيارته، وحمل الطفل بين ذراعيه طويلاً داعياً له بكل خير.

كبر الصبي وزاول دراسته في جامع قسنطينة الكبير؛ حيث اعتاد البقاء بين مكتبتيه على باب البهو إلى أن صار أحد أكثر الشخصيات علماً وصلاحاً في زمانه.

أدى به الحزن على وفاة ابنه إلى الانقطاع عن مزاولة وظائفه المفضلة، ولكنه تمكن من التغلب على ألمه، وسخَّر نفسه للعلم من جديد، واكتسب معارف جديدة في الصوفية التي لم يكن يعرف عنها إلا القليل قبل ذلك.

دُفن الشيخ في مدرسة بن أفوناس؛ التي كانت تقع على الجهة اليمنى للطريق المؤدية إلى باب الواد[1]. وكان ضريحه مقابلاً لضريح الشيخ أبو عبد الله محمد بن أفوناس؛ الذي كان قد زَوَّجه ابنته التي دُفنت هي أيضاً هناك.

1. لقد كانت هذه المدرسة موجودة في زاوية من رحبة الجمال قبل أن تهدمها المصالح الولائية عام 1852 لتؤسس مكانها المدرسة البلدية. وبعد فترة استُعمل البناء لأغراض أخرى، واليوم يُستعمل كملجإ للأهالي.

بعد هذا الاستطراد نرجع إلى متابعة الأحداث. فخلال سنة 1541 كانت الحملة الشهيرة التي شنها شارل الخامس على مدينة الجزائر؛ التي كان يتزعمها حسن آغا، وكما هو معروف فقد انتهت هذه الحملة بفشلٍ مزدوج في البر والبحر.

أما فيما يتعلق بمشاركة قسنطينة في هذه الأحداث؛ فقد كانت منشغلة بالثورة التي أحدثتها الحكومة التركية داخل أسوارها من أجل إرسال شبابها من العسكريين إلى مدينة الجزائر لصد الحملة المسيحية، وهو ما حدث فعلاً. وعلاوةً على هذا، فإننا نعتقد أن حاكم قسنطينة قد شارك في الحملات التي شنها حسن آغا، بعد فترةٍ، ضد بسكرة والزاب؛ والتي انتهت بخضوع كامل البلاد تزامناً مع توسيع وتعزيز السيطرة التركية في باقي إقليم الشرق. في سياق هذه الفرضية يجب أن نذكر الحملة الخطيرة التي قادها صالح رايس عام 1552 ضد تقرت وورقلة، والتي دعمه فيها «بني عباس»، وكذلك تحرير بجاية من الأسبان سنة 1555 في عهد هذا الباشا نفسه، والكفاح الذي دام عامين بقيادة عبد العزيز، زعيم بني عباس، بين 1558 و1559 ضد حسن بن خير الدين؛ ذلك الكفاح الذي انتهى بمقتل بطل استقلال القبائل بعد أن كبَّد الأتراك أكثر الهزائم دموية.

بحلول عام 1563، بدأ اسم قسنطينة يتردد للمرة الأولى مع المقاطعتين الأخريين في الكفاح الذي خاضه الأتراك، منذ تأسيس الإيالة، ضد الأسبان الذين وجدوهم لدى وصولهم أسياداً للمراكز الساحلية الكبرى. فلم يكتفوا بانتزاع مدينة الجزائر، وبجاية، وتلمسان ومستغانم منهم؛ بل أرادوا أيضاً طردهم من وهران ومرسى الكبير، وهو ما عزم حسن بن خير الدين؛ الذي أعيد انتخابه باشا على الجزائر للمرة الثالثة، على فعله.

منذ مطلع ربيع ذلك العام، 1563، أطلق الباشا نداءً إلى زعماء كوكو وبني عباس وحاكم قسنطينة الذي لم يكن يحمل سوى لقب قايد. وفي 15 أبريل، انطلق من مدينة الجزائر سالكاً طريق مستغانم التي وجد فيها مُجنّدي مقاطعة الشرق. ومن هناك اتجه إلى مرسى الكبير؛ حيث أرغم حامية «برج

القديسين» (Tour des saints) على الاستسلام، ولم يتردد في مهاجمة حصن «القديس ميشال» (Saint Michel)؛ الذي كان مركزاً للمنطقة. ففي الهجوم الأول الذي استمر من الصباح إلى الليل؛ كان القتال شرساً لدرجة أن خمسمئة من أشجع الإنكشاريين لقوا مصرعهم، كما وُجد حاكم قسنطينة بين القتلى.

في الفاتح من شهر مايو؛ وصلت المدفعية التي كان ينتظرها حسن. وسرعان ما نصب عدداً من المدافع، وباشر في دك الحصن بمدفعين كبيرين وبعض القطع الصغيرة. وفي يوم الاثنين السابع من الشهر نفسه، شهد الباشا عملية الاقتحام شخصياً. لقد قاتل الأسبان قتال الأسود؛ حيث قُتل أكثر من ألف تركي وعربي، كما جُرح حسن في وجهه من جراء ضربة حجر، ورغم شجاعتهم أبعِد المحاصِرون. غير أن المحاصَرين أدركوا أن الحصن لا يمكنه أن يصمد أمام هجوم جديد؛ فغادروه بحماية حرسٍ من مئة جندي كان قد أرسلهم «دوم مارتن» (Dom Martin) قرطبة الذي كان قائداً على مرسى الكبير، والتحقوا بالقوات التي كانت هناك.

سرعان ما استولى الأتراك على الحصن ووجهوا كل جهودهم ضد المدينة. حيث نصبوا مدفعيتهم من جديد، وحفروا الخنادق وأعطوا مهلةً للحاكم للاستسلام. لم يكن لهذا التحذير أي أثر «فلما رأى الباشا أنه لا يوجد أي أملٍ للاتفاق جَمَعَ قادته، وأصدر أمراً ببداية القتال في اليوم الموالي، وبالاستعداد له، وفي الصباح حضَّر مدفعيته كلها لدرء كل خطرٍ حتى إحداث ثغرةٍ في المدينة. في البداية تقدم اثنا عشر ألف رجلٍ بين أهلي وعربي وبربري لإزاحة قذائف المدفعية، ثم تبعهم الإنكشاريون والأتراك والمسيحيون المرتدون، ثم لحقهم الباشا مع غالبية جيوش الجزائر وحرسه الخاص؛ كلهم باتجاه الثغرة بين الحصن و«برج الخيانة» (Tour de la Trahison). ومن جهة البحر الهائج نزل أتراك وعرب قسنطينة، وعنابة، وتنس، ومستغانم مع الكثير من العرب الذين كانوا يحملون سلالم وغير ذلك». (Marmol, T.II, p.378). ولكن بعد أربع ساعاتٍ من الهجوم الذي يُعتبر الأعنف؛ حيث هلك فيه أكثر

من خمسمئةٍ بين تركيٍ وعربيٍ، هبّت عاصفةٌ هوجاء أرغمت المحاصِرين على الانسحاب إلى خنادقهم. ثم نُفِّذ هجومٌ أخيرٌ في الخامس من يونيو دون أي نجاح؛ فقرر عندها حسن باشا أن يتخلى عن الحملة برُمَّتها التي فشلت فيها جميع قواته، وبعدما علم بوصول تعزيزات قادمة من إسبانيا؛ رفع الحصار وعاد إلى مدينة الجزائر.

لقد أظهرت لنا هذه التفاصيل التي أخذناها عن الرواية الدقيقة لمارمول الدور النشيط لأهالي قسنطينة في هذا الحصار الشرس. فقائدهم الذي لم يحتفظ المؤرخ المذكور باسمه والذي لم نجده في أي مصدرٍ آخر؛ قضى في الهجوم الأول، ولم يرجع ممن رافقوه إلى ديارهم سالمين إلا النزر القليل. لقد شكَّلت هذه الحملة جزءاً من ذاكرة قسنطينة، غير أن التاريخ المحلي لم يحتفظ بأي أثرٍ عنها يمكن أن يضاف إلى رواية مارمول؛ مما يفرض علينا الاكتفاء بالمقاطع التي سردناها.

منذ عام 1544، ظلت مظاهر التنافر تسود المجتمع القسنطيني، وكانت بعيدةً عن الزوال، كما أن استبداد الأتراك بدأ في الظهور عام 973هـ (1567-1568م) على حد قول أحد مؤرخي المدينة؛ مما أدى بسكان قسنطينة إلى نسيان خلافاتهم لفترةٍ وتوحيد جهودهم ضد من يقمعونهم متخذين قراراً بالثورة. وقبل أن يلجأوا إلى العنف، فضَّلوا أولاً طريق المصالحة بإبلاغ سيد مدينة الجزائر شكاواهم الكثيرة.

لقد كلفوا بهذه المهمة سيدي عبد الكريم لفقون مصحوباً بالمفتي عبد اللطيف المسبّح وبعض الشخصيات الأكثر تأثيراً في المدينة. ولدى وصولهم إلى مدينة الجزائر، استُقبلوا في قصر الباشا محمد بن صالح الذي خلف حسن بن خير الدين قبل فترةٍ قصيرة؛ فشرحوا له سبب قدومهم إليه مبلغين إياه حالة السخط التي يعيشها أهل قسنطينة ومؤكدين له على وفائهم وولائهم. واستمع إليهم الباشا بحُسنٍ ولطف؛ حيث كان متأثراً بشكاواهم، فوعدهم بأن يجد حلاً لها، ثم سمح لهم بالانصراف، وقد خصص لهم محل إقامة بالقرب من القصر.

ما إن استراح الوفد حتى بلغه أنه بعد مغادرته مدينته انتفض أهل قسنطينة ضد حاكمهم[1]، وطردوا الحامية التركية خارج أسوار المدينة التي كانت في حالة ثورة. على وقع هذا الخبر، خشي أعضاء الوفد من غضب الباشا الذي كان يمكن أن يصب جامه عليهم؛ فسارعوا بالفرار من مدينة الجزائر باتجاه بلاد زواوة. وقبل أن يصلوا إليها خرج في إثرهم عددٌ من الفرسان، فألقوا عليهم القبض واقتادوهم مكبلين إلى مدينة الجزائر. وبعد التحري عن هذه الحادثة لم يثبت ضدهم ما يدل على تواطئهم مع الثائرين؛ فأمر الباشا بإطلاق سراحهم بعد أن اعتذروا له، وشرحوا له أن فرارهم لم يكن إلا بداعي الخوف.

سارع الباشا بتجهيز فرقةٍ عسكريةٍ للسير نحو المدينة المنتفضة. وباقترابها هرع القسنطينيون بفتح الأبواب لها حيث كانوا خائفين، ويُحتمل أيضاً أنهم لم يكونوا متحدين فيما بينهم. ودخل الباشا المدينة منتصراً، وعاقب المتورطين في الأحداث بلا شفقة؛ حيث أنه أعدم بعضهم، وسجن أغلبهم قبل أن يُباعوا في سوق النخاسة. وبعدما أعاد الهدوء إلى المدينة؛ قفل راجعاً إلى مدينة الجزائر تاركاً وراءه رمضان باي تشولاق كحاكم لقسنطينة. ويضيف المؤرخ بأن ذلك العقاب القاسي قد استفز السكان، وهو ما دفعهم إلى إرسال شكوى إلى سلطان القسطنطينية؛ الأمر الذي كان سبباً في عزله بعد فترةٍ، وخلفه علي العلج الفرطاس على رأس مدينة الجزائر. وفيما يلي رواية مارمول حول هذه الانتفاضة.

«في عام ألف وخمسمئة وثمانيةٍ وستين[2] قامت (قسنطينة) بقتل الحاكم وجميع عناصر الحامية وحررت نفسها. ولكن حاكم الجزائر، العلج علي الفرطاس، جاء لمحاصرة المدينة؛ فأخذها بالقوة وخربها، ثم أرغم أغنياءها على تحصين قلعةٍ على نفقتهم، ودَفْع خمسين أو ستين ألف قطعةٍ ذهبية، قبل أن يجردهم من سلاحهم وأصبحوا مُستعبَدين أكثر من السابق».

1. استعمل المؤرخ المحلي كلمة «الوالي» مشيراً إلى حاكم قسنطينة؛ لأنه يُعتقد أنه في تلك الفترة (1567) لم يكن يُستعمل لقب باي الذي أصبح يحمله فيما بعد حكام المقاطعة.

2. وردت في الأصل: «في عام خمسمئة وثمانية وستين»، وهو خطأ واضح قمنا بتصحيحه. (المترجم)

لقد أرجأت هذه الرواية الأحداث إلى عام 1568 تحت حكم الباشا العلج علي المدعو الفرطاس؛ وبالتالي فهي تختلف اختلافاً محسوساً عن تلك التي رواها المؤرخ العربي. ولكننا نعتقد بأن الأفضلية يجب أن تكون لهذا الأخير، إلا إذا كان مارمول يتحدث عن ثورةٍ أخرى حدثت بعد سنةٍ من ذلك التاريخ، والتي لا يُحتمل أبداً أن تكون بعد الدرس الذي أخذه سكان قسنطينة.

بعد ثلاث سنوات، وفي عام 1570؛ عزم علي باشا هذا على غزو تونس التي كان يحكمها مولاي أحمد، والذي كانت تربطه به علاقة كراهيةٍ شديدة؛ حيث هزمه في باجة، مما أرغمه على اللجوء إلى الحامية الإسبانية التي كانت تحتل حصن «حلق الوادي» (la Goulette) (أو حصن الساقية)، وسقطت تونس دون عناءٍ في يد المنتصرين. وترك علي باشا القايد رمضان حاكماً عليها؛ وهو الذي صاحبه في هذه الحملة، ثم عاد إلى الجزائر. (Annales tunisiennes, p.2, et el-kaïrouani, p.292)

لكن الذي خلف رمضان، والذي لا نعرف اسمه؛ لم يتمكن من المحافظة على هدوء المدينة. وخارجها صار العرب من الوقاحة والجرأة إلى درجة أنه في أحد الأيام خرج الشيخ سيدي عبد الكريم لفقون إلى ضواحي قسنطينة مصحوباً بصديقه عبد اللطيف وصهره الذي كان يشغل منصب مَزْوَر الشرفة وقايد جيش المدينة؛ فقامت عصابةٌ من العرب باحتجازهم انتقاماً من الحاكم التركي الذي كان قد أغار عليهم من قبل، وأبقوهم مسجونين لديهم لعدة أيامٍ حتى جاء لنجدتهم قائدٌ يدعى العباسي وحررهم؛ قبل أن يُلحق بالعصابة خسائر بليغةً بين خيامٍ وقطعانٍ وغنائم أخرى.

في وجود سلطةٍ لا تفرض احترامها لا في الداخل ولا في الخارج، كانت انتفاضةٌ جديدةٌ وشيكةٌ جداً؛ والتي انفجرت في 1572. حيث أن السكان الغاضبين بسبب المضايقات التي كانوا يتعرضون لها؛ ثاروا بقوةٍ لطرد الحامية التركية من مدينتهم، غير أنهم واجهوا قمعاً رهيباً. فتعرضت البيوت

للنهب، وقُتل الأطفال ببشاعة، وعاد السكان المهزومون إلى نير الاستعباد على يد الغرباء، وعمَّ السلام لفترة من الزمن.

في العام الموالي، 1573، اُقتيد مجندو المدينة مرةً ثانيةً إلى أسوار تونس، مرةً من طرف أحمد باشا وبعدها من طرف رمضان باشا، بعد قدومهم، من مدينة الجزائر؛ وذلك لضم قوتهم إلى قوة حكام طرابلس والقيروان من أجل مساندة سنان باشا في طرد الأسبان إلى الأبد من هذه الرقعة من إفريقيا؛ التي استولى عليها «دون خوان» (Don Juan) لصالح فيليب الثاني ملك إسبانيا.

بعد مقاومةٍ بطوليةٍ سقط حصن حلق الوادي بقيادة «كونت سيربالون» (Conte de Cerballon) بعد قتل عددٍ من أفراد الحامية وأسر الباقي؛ وبذلك صارت تونس تابعةً للإمبراطورية العثمانية بشكلٍ نهائي. وقبل انسحابه؛ أرسى سنان باشا قواعد الإدارة الجديدة على شاكلة النظام السائد في مدينة الجزائر. ثم عاد إلى القسطنطينية آخذاً معه الجنرال الإسباني والسلطان محمد، آخر حكام الحفصيين، مُصَفَّدين في الأغلال.

بوصولنا إلى هذه الفترة نجد أنفسنا أمام فجوةٍ تاريخية. فجميع الوثائق المسيحية والتأريخات المحلية لم تستطع تغطية السنوات المتوالية حتى وصول مراد باي، وكل ما استطعنا جمعه؛ يقتصر على بعض الأحداث التي سنسجلها لغرض الإفادة فقط.

في 1574، استولى المسيحيون على عنابة وبقوا فيها مدة ثلاثة أعوام. ففر الشيخ سيدي خليف بن سيدي عيسى العويشاري هروباً من الوجود الكافر، واستقر في قسنطينة كواحدٍ من الرجال الصالحين؛ حيث أن سكان قسنطينة كانوا يسمونه سيدي بومعزة، وهو يرقد الآن في زاوية سُمِّيت على اسمه بالقرب من باب القنطرة[1].

1. هذا الاستيلاء على عنابة من طرف المسيحيين؛ الذي لم نجد له أي أثرٍ في الأخبار الأوروبية، لا يمكن ربطه إلا بحملة أمير النمسا، «دون خوان» (Don Juan)، على تونس.

ربما كانت عنابة في تلك الفترة تابعةً لحكومة تونس. وعليه، يجب فقط إرجاع التاريخ إلى سنة 1574، وإنقاص مدة الاحتلال بسنةٍ واحدة؛ لأنه لا يُحتمل أن الأسبان يكونون قد احتفظوا بعنابة بعد طردهم نهائياً من تونس.

في 1582، اجتاح الطاعون مدينة قسنطينة. فقد كان هذا الوباء يصيب سكان المناطق البربرية بين الفينة والأخرى فيهلك منهم الكثير؛ حيث نجد إشاراتٍ عديدةً تدل على ذلك حتى في أغلفة الكتب التي يحدد فيها تاريخ حدثٍ ما بعام الطاعون.

وفي نهاية القرن السادس عشر هذا؛ يمكننا أيضاً تحديد ثورة الشيخ سيدي يحيى بن سليمان الأوراسي التي احتفظت لنا الأخبار المحلية بذكرياتٍ عنها ببعض التفاصيل.

هذا الشيخ الذي تكوَّن في مدرسة سيدي الوزان ثم في مدرسة سيدي قاسم بن لفقون؛ قد صار واحداً من المفتين اللامعين بقسنطينة. لقد قادته سمعته إلى بلاط سلاطين الجزائر الذي أصبح يلج إليه بكل حريةٍ؛ حيث لم يكن الباشاوات هناك ليتخذوا أي قرارٍ مهم يتعلق بالمسائل القضائية إلا باستشارته والأخذ برأيه، كما أن عرب الريف لم يكونوا يثقون إلا به.

تلك المهابة التي اكتسبها لم تمنع عنه الحاسدين الذين آذوه إلى درجة أنه فكَّر في العودة إلى قسنطينة، وظل الوُشاة يلاحقونه زاعمين بأنه يحرض سراً على العصيان. وللفرار من الملاحقات هرب إلى قسنطينة صحبة أخيه أبو العباس أحمد، والتجأ إلى جبال الأوراس. ثم التحق به حشدٌ كبيرٌ من العرب الذين كانوا في حالة عصيانٍ؛ وخاصةً أولاد عيسى وڤرفة، وكان على رأسهم أحمد. وعلى الرغم من عدم ظهور الشيخ سيدي يحيى مسانداً للمنتفضين؛ فإنه لا يمكن لأحدٍ أن يشك في كونه منشط الحركة وروحها نظراً لتأثير سلطته في النفوس.

وسرعان ما اتخذ العصيان أبعاداً أخرى لدرجة أنه كان من الضروري إرسال وحداتٍ عسكريةٍ لإيقافه. ولا نعرف من كان يقود الجند؛ سوى أن الراوي يضيف بأنه بعد عدة معارك ناجحةٍ ضد العدو تحتَّم على الأتراك الانسحاب دون أن يحققوا أي نجاح. واستمرت الانتفاضة لفترةٍ معينةٍ قبل أن ينتشر السلام بين المتمردين، واستطاعت جماعةٌ مناوئةٌ لهم باستدراج الشيخ سيدي يحيى عندها بطريقةٍ مخادعةٍ متحججين بإكرامه؛ فلم يتردد في

الذهاب إليهم رغم أنه كان يعلم بما كان ينتظره، وتم قتله في تلك الليلة -أدخله الله في رحمته- (عن الراوي). وبعد مقتله، تولى ابنه أبو عبد الله أحمد، والذي يحمل نفس اسم أخيه، قيادة المتمردين؛ ولكن مع استمرار الانقسامات الداخلية التي أدت إلى مقتل والده، وخوفاً من أن يلقى المصير نفسه، أو ربما لسببٍ آخر، لم يتردد في الانفصال عن المتمردين والدخول إلى قسنطينة مستسلماً. حيث مُنح له الأمان وعاش في المدينة مدةً طويلة.

وفي جزءٍ من القصة يضيف هذا الراوي: «لقد سمعت الطالب محمد النقاوسي، وهو ورَّاقٌ في قسنطينة، يقول إنه قد قرأ في كتابٍ عن الأحداث السابقة واللاحقة بأن الشيخ يحيى بن سليمان سيثور في الأوراس، وسيستشهد في سبيل الله؛ وهو ما حدث فعلاً فيما بعد، ولقد وصلني هذا الخبر قبل أن يثور الشيخ.

بعد ذلك، أكد لي ابنه أحمد بأن أباه كان على علمٍ بتلك النبوءة، كما أخبره بأنه هو من سيقود الثائرين بعد موته».

لقد كان الشيخ يحيى هذا حاضراً لحظة احتضار سيدي عبد الكريم لفقون؛ الذي ذكرنا قصة ذهابه إلى مدينة الجزائر آنفاً، فقد توفي في 13 أغسطس 1580؛ وعليه فإن ثورة سيدي يحيى قد وقعت بعد هذا التاريخ. ومن جهة أخرى، إذا اعتبرنا بأن سيدي عبد الكريم بن محمد لفقون الذي نقلنا عنه هذه القصة؛ قد وُلد في يناير 1581، وبأن الوراق محمد قد أعلمه بذلك الخبر قبل أن يثور سيدي يحيى؛ فإننا لن نكون بعيدين كثيراً عن الحقيقة إذا وضعنا هذا الحدث في سنة 1600 ميلادية.

قبل ختم القرن السادس عشر هذا، لنذكر أسماء أهم الشخصيات التي تميزت خلال تلك الفترة، والتي احتفظ رواة قسنطينة بذكرياتها. فبالإضافة إلى الذين ذكرناهم آنفاً، نجد:

سيدي بركات بن سعيد، من مروانة. ـ كان معاصراً لسيدي يحيى لفقون، وكان قاضي الجماعة بقسنطينة. توفي في شهر شوال من عام 942هـ (أبريل 1536م).

الشيخ أبو عبد الله محمد العطار. ـ كان رجلاً عالماً، وذا تعمقٍ في المعرفة، كما كان غنياً جداً وصاحب تجارةٍ كبيرة. قادته تجارته إلى تونس التي كانت ما تزال مقر الحكومة التي تتبعها قسنطينة؛ حيث حضر لفترةٍ دروس إمام جامع المدينة الكبير، وسرعان ما جلب إليه الانتباه بفضل جدارته. لقد كان في نفس الوقت منافس وصديق الشيخ الوزان. ويحكى أنه حدث، في هذا الصدد، أن شخصاً عرض مسألةً على هذا الأخير فلم يجبه عنها، ولما التقى هذا الشخص الشيخ العطار أمام باب الزيت للجامع الكبير؛ وكانت يده على حلقة الباب وهو يهم بالدخول، طرح عليه مسألته كتابياً، فقرأها الشيخ وحلها في الحال. وسرعان ما أخبر هذا الشخص الشيخ الوزان بالجواب؛ فكان رده بعيداً عن الغيرة والحسد، ومعبِّراً عن إعجابه بزميله وهنأه كثيراً على ذلك. وعلق الراوي على هذا بعد قرنٍ من الزمان قائلا: «لا يتصرف هكذا أبداً علماء عصرنا هذا!».

توفي الشيخ العطار سنة 943هـ (بين 1536 و1537م)، وترك أخاً له، هو أبو القاسم، وولداً هو أبو الحسن علي؛ اللذين تميزا أيضاً في الفتوى. توفي الأول كفيفاً، ودفن الثاني في 28 صفر 982هـ (19 جوان 1574م)، وبقي خَلَفهم أحياء إلى الوقت الذي كُتب فيه هذا الكتاب.

سيدي قاسم بن يحيى الفقون. ـ التحق بأبيه في تونس؛ حيث صار إماماً للمسجد المسمى جامع البلاَّط، ثم عاد إلى قسنطينة ليصبح قاضياً؛ فكان معاصراً للشيخ الوزان الذي كان تلميذاً له، وتوفي إثر مرضٍ لم يتعد يوماً واحداً صبيحة يوم الخميس 20 رمضان 965هـ (9 جويلية 1558م). لقد كان صاحب عدة تعليقاتٍ من بينها واحدٌ حول كتاب ابن هشام الذي جلب اهتماماً كبيراً، ودفن خارج المدينة.

الشيخ محمد الكمَّاد. ـ في بداية حياته القضائية كان قاضي الجماعة في قسنطينة. وفي نهاية مشواره صار نائباً للقاضي الحنفي خلال الفترة التي كان فيها الأتراك يمسكون بالسلطة. لقد كان تلميذاً للشيخ الوزان ومعاصراً لقاسم الفقون؛ الذي كان يبادله كرهاً شديداً.

من المؤسف ألاّ يحدد لنا المؤرخ تواريخ تعييناته ووفاته، وربما يعود هذا إلى أنه في تلك الفترة لم تعد السلطة التركية معترفاً بها في قسنطينة؛ وهي نقطةٌ من تاريخنا يتعين توضيحها.

القاضي أبو العباس أحمد، المدعو احميدة بن باديس. ـ ينتسب إلى واحدةٍ من أعرق وأنبل عائلات قسنطينة، وهي عائلةٌ طالما تميز أفرادها في القضاء، أو في الدين، أو في الوظائف الحكومية. حيث أن وظيفة إمام مسجد القصبة كانت مقتصرةً عليهم تقريباً.

لقد اشترك هؤلاء في صفات الورع والعلم وروح المبادرة والذكاء؛ فكانت متوارثةً لديهم كابراً عن كابر. «كيف لا؟»، يقول هذا المؤرخ، وقد قام أحد أجدادهم بتأليف السينية (وهي قصيدة شعرية تعدد مآثر أكبر مرابطي بغداد)، وبشرح «المختصر» لابن هشام». ويقال بأنه في فترةٍ ما، كان حوالي أربعين من أفراد هذه العائلة يشغلون في نفس الوقت مختلف الوظائف العامة في قسنطينة[1]. توفي القاضي احميدة سنة 959هـ (1552م).

سيدي عبد المومن. ـ كان آخر ممثل لعائلةٍ قويةٍ توارث أبناؤها منصبي شيخ الإسلام وأمير ركب الحج، وهما المنصبان اللذان انتقلا إلى عائلة بن لفقون. لقد كان رجلاً طاهراً سائراً في سبيل الله وخادماً للمدينتين الشريفتين

1. في معرض مدح عائلة بن باديس الذي كُتب منذ أكثر من قرنين، يجدر بنا أن نضيف بأن ذلك الثناء لم يكن مبالغاً فيه. فاسم ابن باديس قد ورد في تاريخ البربر لابن خلدون كقسم من قبيلة لواطة المسيطرة على سهل تقاوس. ولقد حفظ لنا أحمد بابا التمبوكتي سيرة ثلاثةٍ من أفراد هذه العائلة؛ وهم حسين بن بلقاسم بن باديس؛ الذي توفي وهو يشغل منصب قاضي قسنطينة نهاية القرن السابع للهجرة (1299م)، والحسن بن خلف الله بن باديس القيسي؛ الذي توفي أيضاً وهو يشغل منصب قاضي قسنطينة عام 784هـ (1382م)، وحسن بن أبي القاسم بن باديس المولود عام 701هـ والمتوفى عام 787هـ (1300-1385م). وفي الأخير نقول إن الممثل الحالي لهذه العائلة، سيدي المكي بن باديس، استطاع أن يجمع بين كل خصال أجداده، كما أضاف إليها عدداً من التشريفات التي لم يعرفها غيره؛ فهو في نفس الوقت قاضي قسنطينة، وعضو المجلس الولائي، وعضو المجلس العام، ونائب رئيس جمعية «الأسرة» (la Famille)، وفارس جوقة الشرف (Chevalier de la légion d'honneur). وهو من جهة أخرى واحد من العرب الذين استوعبوا جيداً أفكارنا الحضارية، وعرفوا كيف يضعوها حيز التطبيق.

(مكة المكرمة والمدينة المنورة). توفي يوم الأربعاء 12 محرم 971هـ (4 سبتمبر 1563م).

المفتي أبو الحسن علي بن يحيى اليوراري. ـ ينحدر من بني أورار؛ بين
وكان من تلاميذ الشيخ الوزان.
فرجيوة وجبال البابور، وكان من تلاميذ الشيخ الوزان.

أبو الحسن المرواني، تلميذٌ من ألمع تلاميذ الشيخ الوزان. ـ اشتهر بطعنه في كل ما يقوم به قضاة عصره؛ مما جعله مصدر خوفٍ ورهبةٍ إلى درجة أن سيدي حسن الفقون عندما صار قاضياً لقسنطينة، واعتقاداً منه أنه لن يفلت من انتقاداته اللاذعة؛ أقدم على احتجازه في المحكمة حتى لا يخرج أي حكم منها حتى يخضع لموافقته، فكانت طريقةً فريدةً لكبت جماح هذا الرقيب العنيد. وفي أواخر أيامه فَقَدَ بصره، وتوفي دون أن يتأسف عليه الكثير من معاصريه من العلماء.

المفتي سيدي أحمد بن تفقة. ـ جاء من بلاد زواوة ليستقر في قسنطينة؛ حيث اعتكف على التدريس. وفي استشارةٍ بطلبٍ من السلطات حول عملية وزن اللحوم؛ اقترح أن توزن الخراف دون نزع أحشائها، وهو ما كان يعارض العادات الجارية آنذاك، فأُخِذ برأيه الذي لم يَرْضَ عنه السكان (ماعدا الجزارين)، فانتفضوا ضده مما أرغمه على الفرار إنقاذاً لحياته، ومنذ ذلك الوقت لم يُرَ أبداً.

الشيخ سيدي محمد بن حسن. ـ كان مفتياً متميزاً، ولكنه كان أحمقاً في تعامله مع الأمور اليومية. دُفن في مسجد زاوية سيدي أبو العباس، بالقرب من رحبة الجمال غير بعيدٍ عن زاوية الشيخ الوزان.

المفتي عبد اللطيف المسبّح، من عائلةٍ تنحدر من مرداس جنوب عنابة. ـ كان مفتي قسنطينة، وترجع الشهرة التي تمتع بها طيلة حياته إلى العلاقات المستمرة مع زعماء السلطة. وكان قد رافق الشيخ عبد الكريم لفقون في رحلته إلى مدينة الجزائر غداة انتفاضة 1567 التي ذكرناها آنفا. كما أصبح أخوه أحمد أو احميدة مفتياً بقسنطينة مثله، ولقد كان ضليعاً أكثر من أخيه لدرجة أن هذا

الأخير كان يعود إليه في كثيرٍ من المسائل ويستفيد من دروسه[1].

وكان لهما أخٌ ثالثٌ يدعى بركات، وكان أصغرهم وأعلمهم؛ فلم يكن لحبه للمعرفة حدود. لقد كان يطلب العلم بنهمٍ لدرجة أنه كان يتابع دروس جميع الشيوخ ذوي الصيت الواسع؛ وبالأخصّ الشيخ سيدي عبد الكريم لفقون الذي كانت تربطه به صداقة شديدة. توفي بمرض الطاعون في 992هـ (1584م).

منذ ذلك الحين لم تفتأ عائلة المسبّح تُزَوِّد قضاء قسنطينة بأبنائها، وحتى منتصف هذا القرن (القرن التاسع عشر ميلادي)؛ ولكن ممثلي العائلة اليوم انحرفوا عما كان عليه آباؤهم، وأصبح لا يوجد من بينهم إلا اثنان يعرفان القراءة والكتابة.

هذه الشخصيات التي ذكرنا أسماءها وبعض الأحداث التي تمكنا من جمعها؛ لم تكن على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية، باستثناء حدثين أو ثلاثة. ولم ندرجها في هذا الموضع إلا لاستخلاص ما يلي: لقد كانت قسنطينة في القرن السادس عشر مركزاً للتنوير، مثلما كانت بجاية تحت حكم بني حماد، وتلمسان تحت حكم المرينيين، حيث كانت الدراسات الإسلامية تعتبر شرفاً كبيراً، إلى جانب الآداب والشعر. وكان الطلاب يسافرون إلى تونس أو القاهرة لإتمام الدراسة على أيدي أساتذة معروفين، ولم تكن الإجازة الممنوحة من طرفهم حتى يجوزوا لقب شيخ مجرد شهادةٍ فحسب؛ فمن أجل الحصول عليها يجب على الطالب إثبات قدراته والخضوع للاختبارات ومناقشة رسالةٍ أمام الجمهور. بدون شك، بينما كانت هذه الحركة العلمية والأدبية والفنية تشع من بغداد إلى قرطبة، ومن القاهرة إلى فاس؛ كانت أوروبا كلها غارقةً في الظلمات، فحملت هذه الحركة مشعل الحضارة في الشرق والغرب، وحضّرت لدينا مرحلة النهضة. فالدراسات اللاهوتية المثيرة، والنقاشات

1. لقد ترجمنا إلى الفرنسية عقداً مكتوباً على قضيم ينص على بيع من طرف سي أحمد بن احميدة المسبّح للقايد شمس الدين ابن القايد محمد بن حسين؛ وهو تركي. موضوع البيع هو حديقة تقع أسفل شلالات الرمال بالقرب من قسنطينة. تاريخ العقد في العشر الأوائل من شهر رجب من عام 991هـ (أغسطس 1583م)، ويحمل ختم القاضي سليمان وتعليقاً باللغة التركية.

العقيمة المتعلقة بالجدلية؛ قد أفسدت العقول بإبعادها عن الإنتاجات التي يستدعيها الشعور بالجميل والكبير عندما يخضع لطموحاته السامية أو عندما تقوده قواعد الفن العلمية. ولكن هذه الدراسات لم يكن يهتم بها الكثير، كما أن نوعية العالم تحددها منزلته لدى معاصريه. وإذا كانت الصفة الدينية لصيقةً بها؛ فإنه لا يمكن التذمر منها لأن القناعة الدينية كانت تعتمد على الدراسة المعمقة للعقيدة.

ولكن بأفول القرن السادس عشر أفل ذلك النور، ومع سقوط قسنطينة في يد الأتراك لم تَعُدُ أن تكون، كباقي مدن الجزائر الأخرى، بؤرةً للدسائس والعنف والأطماع... فتوقفت فيها الحياة الثقافية، وزالت دراسة الآداب؛ فلم يَعُدْ مكانٌ لا للتاريخ ولا للشعر. لقد انحرف الاعتبار والتقدير عن الرجل التقي ليخضعا أمام بطش القوة، أو ليلتصقا بما يثير السخرية بالجاهل والمحتال المتستر برداء الدين. ولم تَعُدْ دراسة الحقوق تجد طلاباً كثيرين؛ حيث تغلب الجدال والمماحكة على الاهتمامات الأخرى باعتبارهما من متطلبات العامة. ومنذ ذلك الحين لم تفتأ هذه الوضعية تتفاقم، وحتى محاولات الإدارة الفرنسية لوقفها لم تُعْطِ أية نتيجة، كما أن الدراسات الإسلامية في تلك الفترة كانت منعدمةً تماماً. ولا يعتبر الخطر كبيراً إذا عرفنا كيف نستبدل ذلك بمعارفنا الحديثة؛ لأن تجديد الشعب، ليس تحديداً هذا الجيل ولكن الأجيال القادمة، لا يكون إلا بهذا. ولكن إعادة تشكيل ماضٍ لهم طالما رفضناه لصالحنا سيكون منافياً للحضارة، وهو الدور الذي ليس على فرنسا لعبه في هذا البلد الذي صار بالنسبة لكثيرٍ منا وطناً ثانياً.

وَلْنَعُد إلى تاريخ قسنطينة؛ حيث لا يمكننا الخروج بَعْدُ من القرن السادس عشر دون الخوض في بعض التطورات المتعلقة بحدثٍ مهمٍ بالنسبة لهذه المدينة من وجهة نظر المصالح الدينية، وعلى القدر نفسه من الأهمية أيضاً؛ إذا أردنا الوقوف على التأثير الحقيقي الممارس، باسم الدين، على الذين كانت بِيَدِهِم مقاليد السلطة.

إننا نريد الحديث عن صعود عائلة الفقون التي تدعى أيضاً بن لفقون أو أولاد سيدي الشيخ؛ تلك العائلة التي حافظت، لمدة ثلاثمئة عام متواصلة حتى سقوط قسنطينة في يد الفرنسيين، على لقب شيخ الإسلام متوارثاً بين أجيال أبنائها مع كافة الصلاحيات الواسعة وجميع الثروات الإقليمية المتزايدة؛ وهو ما يدعونا إلى ملاحظة أن ثروة الخاصة تخضع دائما لنزوات الباي أو لأطماع المقربين. إضافةً إلى أنه بعد تثبيت سيادتها الدينية، لم يكن أبداً لهذه العائلة أن تتدخل بأي شكلٍ من الأشكال في الشؤون السياسية إلا للوساطة من أجل الصلح. فباعتبارها سيدة السلطة الروحية؛ كانت تترك لممثلي السلطة الظرفية هموم وأعباء الحكومة، وتكتفي بالسيادة على النفوس. كما أن نفوذها الديني لا يمكن أن يضمحل، ولا يمكن أبداً لسيف الجلاد أن يتلطخ بدم أي واحدٍ من أبنائها حتى في أعنف الانتفاضات.

فكيف تمكنت هذه العائلة، إذاً، من الوصول إلى هذه المرتبة؟ هذا ما سنعاينه فيما يأتي.

لا نعرف ما هو صحيحٌ في الرواية المبهمة، كما يقول شيربونو، التي نقلها إلينا الأهالي حول هذا الموضوع. فحسب قصةٍ شفويةٍ عن الأستاذ العالم، آخر ممثل لعائلة عبد المومن التي كانت بيدها السلطة الدينية قبل سيطرة الأتراك، كانت قد خُدِعَت من طرف سيد عائلة بن لفقون المنافسة لها؛ والذي سلم بيده للأتراك جثة ذلك العالم بعد أن سمَّمه خلال مأدبة (ضيفة)، قبل أن يسلخ جلده ويملأه بالقش، ثم أرسله إلى مدينة الجزائر كدليلٍ على الغلبة[1].

هذه الأسطورة التي لا تعتمد على أية وثيقةٍ مكتوبة، ولا تحدد أي تاريخ، ولا أي اسم، تمثل انقطاعاً حزيناً لا يمكن للمؤرخ أن يقبله دون تمحيصٍ أو تحليل.

أولاً، لا يمكن أن يكون هذا الحدث قد وقع في عهد آل بربروس؛ لأنه سبق أن رأينا أن واحداً من عائلة عبد المومن توفي حاملاً لقب أمير الركب سنة 1563، وأن سيدي قاسم، كبير عائلة بن لفقون، قد توفي سنة 1558

1. أنظر Annuaire archéologique de la province de Constantine, année 1856, p.98

حاملاً لقب قاضي قسنطينة البسيط؛ وهو ما يؤكد بأنه خلال تلك الفترة، أي عشرين عاماً بعد وفاة ثاني فردٍ من عائلة بربروس، لم تكن عائلة بن لفقون تحوز بَعْدُ لقب شيخ الإسلام.

ثم إنه إذا لم نُرِد الإضافة على ما ذكرناه آنفاً لتثبيت تاريخ سقوط قسنطينة في يد الأتراك بين سنتي 1534 و1535؛ فإنه لا يمكننا، بفرض أن الخيانة التي حصلت هي التي فتحت لهم أبواب المدينة، إسقاط مسؤولية هذا التصرف عن عائلة بن لفقون. وفي الواقع فإن يحيى الذي كان كبير هذه العائلة قد تحتم عليه أن ينفي نفسه قبل فترةٍ من ذلك الحين في تونس؛ حيث وافته المنية في سنة 1535 إثر ضربةٍ من أحد جنود شارل الخامس.

ثم التحق به ابنه قاسم ولم يرجع إلى قسنطينة إلا بعد وفاة والده. إذاً ففي تلك الفترة لم تكن هذه العائلة تستطيع خدمة الشأن التركي بأي شيء؛ لأن أبرز أفرادها كانا غائبين، ومنفاهما الطوعي أو القسري يؤكد بأنهما كانا بعيدين عن ممارسة التأثير الذي حظيت به العائلة لاحقاً.

وأخيراً نقول إن اللغط الشعبي؛ الذي حاولنا عبثاً البحث عن صداه، ليست له أية مصداقيةٍ في أوساط عائلات قسنطينة الكبيرة والعريقة؛ التي يُفترض أنها الوحيدة التي يمكن أن تحتفظ بهذه الذكريات بقدرٍ كبيرٍ من الصحة واليقين، كما أن كل المعاصرين الذين سألناهم عن هذا الموضوع اعتبروه غير مؤسس. ونعتقد أن من واجب المؤرخ أن يعتمد على المعلومات الصحيحة.

في أحد أجزاء «المؤسسات الفرنسية في الجزائر» (Etablissements français en Algérie, année 1840, p.346)، وفي مقال «الملكيات الخاصة» (Propriétés particulières) نقرأ أيضاً حول هذا الموضوع المقطع التالي:

«هكذا تمكنت عائلة أولاد لفقون؛ التي تملك في مقاطعة قسنطينة الملكيات الأوسع من حيازتها من عند الأتراك خلال استقرارهم في الإيالة؛ وذلك من أجل فتح، أمام يوسف أحد قادة خير الدين، مدخل المدينة الذي دافع عنه أولاد عبد المومن».

نظراً للأسباب التي ذكرناها آنفاً لا تظهر لنا هذه الرواية مقبولة، بالإضافة إلى أننا نعرف مسبقاً، عن طريق عقدٍ مؤسّسٍ لحبوسٍ مُؤرَّخ في شهر ذي الحجة من عام 929هـ (نوفمبر 1520م)، بأن عائلة بن لفقون كانت في تلك الفترة تحوز ملكياتٍ متعددةٍ بين حضريةٍ وريفية. إذاً فليس من الدقيق، على الأقل بصفةٍ عامة، أن تكون قد تحصلت عليها من عند الأتراك.

لِنَرَ الآن، بشكلٍ إيجابي، ما استطعنا جمعه حول هذا الموضوع.

إن أول واحدٍ من عائلة بن لفقون حمل لقب شيخ الإسلام كان سيدي عبد الكريم؛ الابن الثالث لسيدي يحيى، والمتوفى في الفاتح من شهر رجب من عام 988هـ (13 أغسطس 1580م) طبقاً للتاريخ المكتوب على ضريحه؛ والذي نقل السيد شيربونو ما جاء في شاهده في الحولية الأثرية لقسنطينة (ج4، ص87)[1].

بالرغم من أننا لم نجد بين الوثائق الكثيرة التي مرت تحت أعيننا، المتعلقة بهذه العائلة، تلك التي مُنح بموجبها عبد الكريم منصب شيخ الإسلام؛ فإننا نعتقد أن هذا التقليد يرجع إلى عام 1567 أو 1568م؛ أي بعد التمرد الذي ذكرناه سابقاً والذي قُمع بقوةٍ من طرف الباشا محمد بن صالح. إذاً فوقائع الكفاح؛ الذي خاضه أولاد عبد المومن بمساعدة حلفائهم أولاد صاولة ضد السيطرة التركية، تجد هنا تفسيرها الطبيعي.

هذه العائلة التي كانت تمارس تأثيراً كبيراً في قسنطينة، منذ فترةٍ طويلةٍ، لم تكن تقبل السيطرة الأجنبية. فلما تعذر عليها صدها بالقوة، لجأت إلى استعمال كل ما يقع لديها من عراقيل للعمل على تلغيمها، ثم القضاء عليها قبل استقرارها وتغلغل جذورها في عمق البلاد. وفي الواقع، ما الذي كانت سترىحه مع هؤلاء السادة الجدد؟ على أكثر تقدير، كانت تأمل في الحفاظ على السلطة التي كانت بحوزتها ولو بالاتفاق مع المنتصر على تدابير يمكن

1. تجدر الإشارة إلى خطإٍ في تسلسل النسب كان قد ورد سهواً بقلم العالم المستشرق. ففي الوثيقة التي نشرها بريسنيي والتي أعرناها اهتماماً كبيراً، لا يتعلق الأمر بإمضاء ابن عبد الكريم مثلما قال شيربونو، وإنما هو إمضاء أبيه يحيى. فتاريخ الوثيقة الذي كان يُعتقد أنه تاريخ النسخة الأصلية كان هو السبب، دون شك، في وقوع هذا الخلط.

بجانبها طموحاتٌ ومزاحماتٌ تريد أن تتعارض مع كرامتها، غير أنه ظهرت بجانبها طموحاتٌ ومزاحماتٌ تريد البروز إلى العلن. وشهادة الشيخ سيدي عمر الوزان خير دليلٍ على هذا: «كان كل واحدٍ منساقاً لا يستطيع السيطرة على هيجان أهوائه»[1]. وبقليلٍ من التحفظ، كشف لنا الأستاذ الأمين عن بعض أسرار ذلك الوقت دونَ أن يوجه الاتهام لأيٍّ كان أو حتى يذكر أسماء معينة، فلنحترم صمته. وعلى العموم فإن التاريخ لا يهمه بعض الأفراد الذين لم يتركوا آثاراً خلفهم، ولكن المهم هو أن نعرف أن آل بن لفقون يمكن أن يكونوا أول من هتف للسلطة الجديدة، كما أنهم لم يتحرجوا في السيطرة سريعاً على كل الأطماع الثانوية المثارة حولهم. وباعتبارهم أغنياء سلفاً (بدليل العقد المؤسس للحبوس المذكور آنفاً)، وبتمتعهم بالتقدير والاحترام اللذين يرتبطان عادةً بدارسي الآداب والعلوم؛ فماذا يبقى لهم لإحلال تأثيرهم محل تأثير عبد المومن بشكلٍ نهائي؟ كان يكفيهم، فقط، احتضان القضية التركية وإعلان أنفسهم أولَ الموالين لها؛ وهو ما فعلوه.

لقد كانت المدينة منقسمةً إلى فريقين. من جهة، أولاد عبد المومن مع كل سكان حي باب الجابية أو المدينة السفلية؛ وهم يمثلون فريق المعارضة. ومن جهةٍ ثانية، آل بن لفقون ومعهم سكان المدينة العلوية من البطحة التي يوجد بها الجامع الكبير إلى القصبة؛ وهم يمثلون الفريق الجديد.

لدى اندلاع عصيان 1567 الذي كان مثيروه محسوبين على حزب عبد المومن؛ اغتنم الشيخ عبد الكريم فرصة تواجده في مدينة الجزائر لكسب مودة الباشا الحاكم هناك، وبذلك يكون قد أعلن موالاته للقضية التركية. وبعودته إلى قسنطينة؛ ساعد بكل قوته على إعادة الحكومة التركية مدعماً موقفه بكافة أعضاء الجماعة؛ الذين كان عددهم أربعين. وبانهزام عبد المومن في هذا الصراع سُحب منه لقب شيخ الإسلام، ومُنح للشيخ عبد الكريم لقاء خدماته.

---

1. ارجع إلى رسالة سيدي عمر الوزان، ص 58، 59.

من المؤسف أن لم نجد الشهادة التي مُنح بموجبها هذا المنصب حتى نعرف التاريخ الفعلي لهذا التنصيب، واسم الباشا الذي منحه إياه، ودون شك، الأسباب التي دفعته إلى ذلك. ولكننا نملك وثيقة تعيين ولده، وهذا هو شكلها العام:

«بأمرٍ من عبد الله والمجاهد في سبيل الله الباشا أبو محمد جعفر، يُعيَّن الفقيه القدير... عبد الله محمد ابن الشيخ الإمام أبو محمد عبد الكريم لفقون في منصب إمام الجامع الكبير لمدينة قسنطينة خلفاً لوالده المتوفى. فيؤم الصلوات الخمس وصلاة الجمعة، كما يؤدي جميع الوظائف التي كان يقوم بها والده... وهذا نزولاً عند رغبة أهل المدينة، وتحقيقاً لوصية والده بتعيينه في هذا المنصب. وعليه تكون له إدارة أملاك الجامع، ومراقبة جميع المصاريف وجميع العمال، ولا يجوز لأي أحدٍ معارضته وحتى عمال الجامع، ولا القضاة، ولا حتى ممثلينا المقربين، ولا المُسَيِّر العام للحبوس...» *.

كُتب في العشر الأواخر من شهر شعبان من عام تسعمئةٍ وتسعةٍ وثمانين للهجرة (أواخر أغسطس 1581م).

في أعلى الهامش يقابل ختم الباشا جعفر التاريخ 986، وقد كُتب بأرقامٍ عربيةٍ على الجانب.

وبعد مرور سنتين قام الباشا حسن بن عبد الحنان (؟)[1] بتثبيت نفس السلطات؛ وذلك بموجب فرمان مؤرخ في العشرة الثانية من جمادى الثاني 991هـ (العشرة الأولى من شهر يوليو 1583م)، وأضيفت إليه صلاحياتٌ جديدةٌ له ولأخويه حسن وأحمد؛ مثل الإعفاء الكامل من دفع ضريبة العشور والغرامة، والإعفاء من السخرة والخدمات... إلخ عن جميع ممتلكاتهم الحضرية والريفية؛ حتى يتمكنوا من ترميم وتأثيث وصيانة المدرسة التي كان قد شيَّدها أجدادهم، والتي دُفن فيها أبوهم الشيخ عبد الكريم.

في سنة 1015هـ، وفي العشرة الأولى من شهر جمادى الأول (23-31 أغسطس 1607م)، تم تجديد نفس الصلاحيات لسيدي محمد وابنه عبد

*. نص الرسالة ليس أصلياً؛ فهو مترجم من النسخة الفرنسية المنقولة من الأصل.

1. وردت في الأصل Hassen ben Abd el-Hennan

الكريم من طرف الباشا أبو النعيم رضوان... بن عبد الله الذي يحمل ختمه تاريخ 1015هـ (1606م)[1].

نكتفي بهذا القدر من المعلومات؛ لأن الوثائق الأصلية التي حللناها تكفي لتحديد أصل صعود عائلة بن لفقون ولشرح التأثير المتزايد لأفرادها. ويبقى أن الأحداث التي سنسردها سوف تمنحنا فرصاً لوضعها في إطارها المناسب؛ حتى لا يحدث أي خلطٍ ممكنٍ في تواريخها. وسنستأنف إذاً مجرى الأحداث من حيث توقفنا؛ أي مع بداية القرن السابع عشر.

1. في سيرة باشوات الجزائر التي نشرها «روسو» بعد الزهرة النيّرة نجد بتاريخ 1016هـ باشا يحمل اسم «بخيل تدوان». ألا يمكن أن يكون الباشا رضوان الذي يوجد ختمه واسمه على الوثيقة التي حللناها، والذي يجب إرجاء تاريخ ترقيته إلى 1015 للهجرة؟ وعلى كل حال، فإنه يجب وضع اسمه على هذه القائمة.
نلاحظ أيضاً في هذه السيرة بأن تعيين الباشا جعفر كان في 988هـ، بينما التاريخ المنقوش على ختمه هو 986هـ.

القرن السابع عشر

خلال عامي 1602 و1603، ضرب وباء الطاعون مدينة قسنطينة من جديد؛ فحصد فيها أرواحاً كثيرة، وبعده توالت تسع سنواتٍ من القحط الشديد؛ فجلب معه الجدب والمجاعة.

في 1607 سقطت عنابة في يد المسيحيين، وسارع سكان قسنطينة لنجدتها؛ فلقي بايُهم محمد بن فرحات حتفه هناك. هذا سقوطٌ آخر لمدينة عنابة في يد المسيحيين لم نجد له أثراً إلا في وثيقتين عربيتين؛ كانت قد أُرسلت إحداهما إلى قسنطينة والأخرى إلى عنابة، وفيهما إشارةٌ إلى الحادثة نفسها في الفترة ذاتها. إننا نعلم فقط بأنه في 1605 انطلقت حملةٌ مكونةٌ من ثلاث سفن من مالطا وسبعٌ من صقلية، وأنزلت ألفاً وأربعمئة رجلٍ على سواحل إفريقيا واستولت على مدينة الحمامات، قبل أن تواجه عرب الريف الذين جاءوا لنجدة سكان المدينة. وفي 1609، قام أحد النبلاء «السير بوليو» (Le sire Beauliau) المدعو «برياي» (Briaille) بتسليح سفينتين حربيتين على نفقته الخاصة من أجل إنهاء القرصنة، وجاء مع عدة سفنٍ حربيةٍ إسبانيةٍ بقيادة «دون خوان فيشارد» (Don Juan Faicharde) لحرق الأسطول التركي الصغير في ميناء حلق الوادي أو الساقية[1].

هل يجب ربط إحدى هاتين الحملتين بعملية نزول المسيحيين في عنابة التي تحدثت عنها الأخبار التي بين أيدينا؟ ليس هناك ما يفاجئ في هذه الحادثة بالنظر إلى روح المغامرة التي كانت تحرك السكان حينئذ. ولو أن التواريخ لا تنطبق تماماً؛ فما يهمنا من هذا، بشكلٍ مباشرٍ في قصتنا المحلية، هو ذكر هذا الباي المدعو محمد بن فرحات الذي قُتل لدى نجدته للعنابيين. إنه اسمٌ يضاف إلى قائمة البايات المعروفين في قسنطينة، وللأسف أننا لا نستطيع لحد الآن قول أي شيءٍ عنه سوى أنه كان باياً.

في 1617 كانت وفاة القائد الشهير رجب بن حسين؛ قايد الجيش. هذا

1. انظر Annales tunisiennes, pp.42, 43

اللقب الذي يوازي منصب القائد الأعلى للجيوش؛ كان في بادئ الأمر يُمنح للقائد المكلف بقيادة القوات التابعة للمقاطعة، وبعد ذلك استُبدِل بمنصب آغا الدايرة. وقد بقيت هذه الوظيفة لمدةٍ طويلةٍ في عائلة بن حسين؛ التي لا زالت موجودةً حتى يومنا هذا.

في 1622 اجتاح الطاعون قسنطينة وبسكرة، وفيه أصيب حسن باي المشهور والمغفور له، وتوفي في يوم ثلاثاءٍ من العشر الأواخر من شهر ذي القعدة من عام 1031هـ (أوائل شهر أكتوبر 1622م).

لقد تأكد وجود هذا الباي بورود اسمه في عقد ملكيةٍ خاصٍ بعائلة بن عزوز شريف من ميلة؛ وهو عقدٌ محررٌ من طرف مجلس قسنطينة في عام 1037هـ (1628م). وبذلك نستطيع أن ندرج هذا الباي، بكل تأكيدٍ، ضمن البايات الذين قادوا المقاطعة في بداية السيطرة التركية.

في 1625 اندلعت الحرب مع إيالة تونس بسبب الحدود التي سبق وأن تحددت في معاهدةٍ أولى سنة 1614، ثم تبعتها تجاوزاتٌ متتاليةٌ من طرف القبائل المتجاورة. فقد هُزم التونسيون في سطارة بتاريخ 17 ماي 1628 بعد أن خانهم أولاد سعيد، وأجبروا على طلب السلام، وأُتبع هذا السلام بمعاهدةٍ مهمةٍ جداً بالنسبة لمقاطعة الشرق لدرجة أننا نورد جزءاً منها، وقد استقيناها من الحوليات التونسية لروسو (Annales tunisiennes de M. A. Rousseau, p.45).

1. يستمر مجرى وادي سرات كحدٍ للدولتين في جهة الجنوب؛

2. ضرورة تهديم التونسيين للمركز العسكري المُقام هناك، والذي كان سبباً رئيسياً لاندلاع الحرب؛

3. يُستكمَل ترسيم الحدود بمجرى وادي المعلق عن طريق النقطة المسماة الحيرش، ثم تلك المسماة قلوب الثيران، ومن ثم إلى رأس الجبل الحافة لتستمر، كما في السابق، حتى البحر.

4. البند الرابع من هذه المعاهدة ينص على أنه في المستقبل، في حالة عبور رعايا أحد البلدين إلى الجهة الأخرى من الحدود؛ لا يمكن أن يكونوا موضوع

مطالبةٍ من طرف حكومتهم التي غادروا إقليمها، ويصبحون بالتالي رعايا للإيالة التي هاجروا إليها[1].

حلت سنة 1634 جالبةً معها آفة الطاعون مرةً أخرى، ومن بين الضحايا كان ثلاثة مفتين بارزين في تلك الفترة؛ وهم بركات بن نعمون، وعبد اللطيف المسبّح وبركات بن سيدي عبد المومن.

في الفاتح من شهر أكتوبر 1636 توفي قايد الجيش محمد بن حسين الذي، بلا شك، كان خلفاً لرجب بن حسين. وعاماً قبل هذا، وتحديداً في يوم الإثنين 15 يوليو 1635، توفي بالمويلح؛ وهي قريةٌ واقعةٌ بين المدينة المنورة والقاهرة، ابن عبد الكريم لفقون؛ الذي خلف والده في منصب شيخ الإسلام كما ذكرنا آنفاً. لقد كان في طريق عودته من رحلة الحج؛ حيث قاد القافلة بصفته أمير الركب، وقد أصابه مرضٌ ومات. ولقد خلفه في المنصب ابنه عبد الكريم -وقد كان يحمل نفس اسم أبيه- الذي ترك لنا بعض المذكرات. لقد نُصِّب بمقتضى فرمانٍ من الباشا أبو الحسن علي في العشرة الأولى من شهر رمضان 1048هـ (8-17 يناير 1638م)[2]، كما يخوِّل له الفرمان حق قرع الطبول لجمع المؤمنين الذاهبين لأداء فريضة الحج، ويلزم كل من يلتحق بقافلته بالانصياع لأوامره وطاعته.

بوصولنا إلى العام 1637 نصل إلى فترة الاضطرابات العامة؛ حيث ثار كامل الإقليم بما فيه الصحراء ضد السيطرة التركية، وألحق بها هزيمةً لم تنهض منها إلا بعد عدة سنوات وبكثيرٍ من التضحيات، ولكن نهوضها كان بدايةً لمستقبلٍ سلطويٍ لا منازع له.

لقد كانت هذه الأحداث موضوع بحثٍ مهمٍ للزميل فيرو؛ المترجم العسكري وأمين الجمعية الأثرية لقسنطينة. وسنوردُ فيما يأتي بعض المقاطع

1. حول مسألة الحدود راجع مقالاً لبربروغر في Revue africaine, t. IV, p.406 et suivantes

2. هذا الفرمان الذي نحوز على نسخته الأصلية صادرٌ عن الباشا علي؛ وهو يؤكد بأنه في شهر يناير 1638 كان هذا الباشا هو الحاكم في الجزائر وليس يوسف. وهذا ما يدعم النقاش الذي نشطه بربروغر، في المجلة الإفريقية، العدد 59، ص349، حول التعايش غير المسبوق لباشاوين في الجزائر؛ يوسف وعلي؛ والذي يُفسَّر بالاعتقالات المتتالية التي تعرَّض لها الباشا يوسف خلال فترة حكمه الطويلة، مما كان يُستدعى في كل مرة لاستخلافه.

من هذه الدراسة[1]، ونتبعها بالملاحظات التاريخية التي قام بها بربروغر في هذا الموضوع، ونُتمُّها بالمعلومات الأصلية التي استقيناها بأنفسنا.

لنرى أولاً ملخص الوثيقة المحلية التي درسها فيرو حول هذه الانتفاضة؛ والتي تُعرف بثورة الزعيم الصحراوي شيخ العرب، أحمد بن الصخري.

«في يوم الأربعاء من غرة شهر صفر من عام 1047هـ (يونيو 1637م) قام مراد، باي قسنطينة، بالتخييم جنوبي المدينة[2]؛ وهناك استقبل الشيخ محمد بن الصخري بن بوعكاز العلوي شيخ العرب، وسجنه عنده؛ حيث تقرر في المجلس الأعلى إعدامه لخروجه عن طاعة حكومة السلطان، وذلك بعد استشارة السيد الموقر علي باشا وديوان الجزائر وبعض الأعيان الذين اتفقوا بالإجماع على إعدامه. فتمَّ قتله ومعه ابنه أحمد وستةٌ من الشخصيات النبيلة العربية، وعُرضوا في الباشودة (خيمة المحكومين أو المجرمين)[3] التابعة للمخيم، ثم قُطعت رؤوسهم وأُرسلت إلى قسنطينة وعُلِّقت على أسوارها، ما عدا رأسي الشيخ محمد وابنه؛ اللتين لم تُرسلا إلى هناك.

بعد عام من هذا الإعدام؛ قام أخ الضحية المسمى أحمد بن الصخري بتنظيم كافة العرب الرحَّل والحنانشة وجميع السكان، من أبواب تونس حتى أبواب مدينة الجزائر، رافعاً لواء الثورة على الحكومة التركية. وسار نحو قسنطينة على رأس قواته؛ فخرج سكان المدينة لمواجهة المعتدين، لكن أحمد بن الصخري انقضَّ عليهم فجأةً بخيَّالته ومشاته، وقتل منهم حوالي خمساً وعشرين رجلاً؛ فسارع القسنطينيون الهلعون بالاحتماء وراء أسوارهم. وفي اليوم التالي ذهب أحمد لزرع الرعب في الفحص الأبيض بالحامة وكل المنطقة

1. انظر Revue africaine, n°57, p. 179 et suivantes

2. الخناق، في جنوب قسنطينة؛ يُحتمل أن يكون هو المكان الذي كانت تُعسكر فيه الحاميات التركية، وهو يقع على بعد أربعة كيلومترات من المدينة على ضفاف وادي الرمال.

3. في كل مخيم تركي تُنصب «الباشودة» أو خيمة المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام، أو بيت الجراح، وتقابلها خيمة الجرحى أو الإسعاف أو خيمة العزل -فالمجرمون الذين يتمكنون من الولوج إليها ينجون بأنفسهم-.

المجاورة لها[1]؛ حيث أحرق أكوام القمح والشعير حتى أتلفها عن آخرها، كما أحرق القرى المتواجدة هناك إلى أن بلغت النار حدائق المنية[2] ومناطق أخرى. وفي اليوم الثالث أوقد نيراناً من قسنطينة إلى حفرة صنهاجة[3]، ولم يتوقف عن الحرق والتخريب حيثما وجد قرية بها قمحٌ أو شعيرٌ من مشارف ميلة وحتى حفرة صنهاجة[4]، وأرغم سكانها على النزوح إلى مسافات بعيدة. فقام مراد باي بإرسال مبعوثين إلى مدينة الجزائر لإبلاغ سيدنا علي باشا بمدى الأضرار التي أحدثها المتمردون وطلب النجدة، وأرسل من الجزائر القايد يوسف والقايد شعبان مع مئتي خيمة (حوالي 4000 رجل)، بينما كان عدد الجنود الموجودين مع مراد باي يبلغ مئة خيمة، فأصبح المجموع ثلاثمئة خيمة (6000 رجل). وتحركوا لقتال أحمد بن الصخري وأتباعه، وكانت المواجهة في المكان المسمى قجال (بالقرب من مدينة سطيف حالياً).

تمكن أحمد بن الصخري من زرع الهلع في صفوف الأتراك واستولى على خيامهم ومتاعهم، ويمكن القول أنه لم تحدث معركةٌ لا في الجاهلية ولا في الإسلام بهذه الضراوة، ورجعت بقايا الحامية التركية إلى مدينة الجزائر شذر مذر، وأرغم مراد باي على الفرار وحيداً. لقد وقعت هذه المعركة يوم السبت 12 جمادى الأولى من عام 1048هـ (سبتمبر 1638م)*، وهلك فيها خليفة مراد باي المسمى شريط بن صاولة؛ حيث قتله العرب بطريقة بشعة بحجة أنه كان رجلاً نافذاً وذكياً، ومخططاً لسياسة الباشاوات والبايات[4].

---

1. القحص الأبيض هو الجزء الواقع بين الحامة وقرية «بيزو» (Bizot) الحديثة (ديدوش مراد حالياً) على طريق «فيليبفيل» (Philippeville) (سكيكدة حالياً).

2. المنية هي الحي الذي يحاذي جسر «أومال» (Aumale) بالقرب من قسنطينة على طريق فيليبفيل أيضاً، وتضم جميع الحدائق المروية بوادي الرمال؛ التي تمتد من جسر أومال إلى الشلالات المنحدرة من قسنطينة.

3. حفرة صنهاجة هي الحي الموجود بين جبل المسيد والمنحدرات التي تصل إلى حدائق الحامة شمال شرقي قسنطينة.

4. من ميلة إلى حفرة صنهاجة توجد مسافة تقدر بحوالي 12 إلى 13 مرحلة.

* وردت في الأصل 1538، والصحيح هو 1638، وتحديداً 20 سبتمبر 1638. (المترجم)

وهذا عرضٌ لتحليل «الأب دان» كما أوردها بربروغر[1].

«في شهر سبتمبر من عام 1638 رفض الموريون (Maures) بضواحي مدينة قسنطينة دفع ضريبة اللزمة أو الضريبة السنوية؛ فأرسل إليهم باشا الجزائر، يوسف، محلةً أكبر من المعتادة لإرغامهم على تسديد تلك الغرامة، ولما علموا بذلك؛ تسلحوا بقدر ما استطاعوا وقرروا الدفاع عن أنفسهم، وكان من بينهم شيخا قريتين يسمى أحدهما خالداً والآخر بن علي.

مراد، باي قسنطينة، الذي تلقى الأمر بجباية ضريبة اللزمة، وجد نفسه أمام موقف المورين الصلب، بالإضافة إلى أن عددهم مجتمعين كان يفوق عدد قواته فطلب المساعدة من الجزائر؛ فأُرسلت له مئتا خيمة تضم كل واحدة عشرين رجلاً، وكان على رأسها القايد يوسف.

قبل أن يتحالف مع جيش مدينة الجزائر، كان مراد باي يدخل بمحلته المكوّنة من أربعمئة أو خمسمئة رجل؛ وهو العدد المعتاد لمحلة الجباية، في مناوشاتٍ يوميةٍ مع المتفضين الذين كانوا يحسنون الدفاع عن أنفسهم. أمام كل هذا، وإدراكاً منه بأن رفض المورين دفع الضريبة لم يكن إلا حجةً ظاهرة، وأنهم في الحقيقة كانوا يريدون الانتقام من مراد باي الذي قتل أخ بن علي الذي كان أحد شيوخهم؛ قرر القايد يوسف أن يحتوي المتفضين بهدوءٍ، وتفاوض معهم؛ حيث وعدهم بتسليمهم باي قسنطينة وبذلك يزول سبب الثورة؛ وهو الأمر الذي يرضي ديوان الجزائر؛ لأن مراد كان ثرياً جداً، وبموته يعود جزءٌ من تَرِكَتِه إلى الديوان.

وصلت أخبار هذه الصفقة إلى باي قسنطينة، ولكنه تظاهر بجهله للأمر. وعندما دعاه القايد يوسف لمهاجمة العدو من جهةٍ بينما تحاصره حامية الجزائر من الجهة الأخرى، لبى الدعوة وقاتل بباسلة قبل أن يلاحظ تراجع يوسف وسط شيءٍ من الفوضى؛ فلم يتردد مراد في الانسحاب مع جيشه، مما زاد من حدة ضربات المورين ضد أتراك الجزائر؛ فأرغموا من تبقى منهم على الفرار بطريقةٍ مخزية. وفي مدينة الجزائر، ألقى القايد يوسف باللوم على

---

1. انظر Revue africaine, n°59, p.342 et suivantes

باي قسنطينة محمّلاً إياه مسؤولية الهزيمة بحجة أنه انسحب خلال الوقت الحاسم من المواجهة. لكن مراد كان له أصدقاءٌ أقوياءٌ من بين أعضاء الديوان فنجح في التملص من التهمة دون أن يكلفه ذلك أموالاً كثيرة».

وأخيراً، فإنه يوجد لدينا من بين الوثائق النادرة المتعلقة بتلك الفترة، ما يشبه المذكرة؛ كان قد كتبها أحد الأشخاص ممن شاركوا في تلك الحملة التاريخية والتي بعثها في شكل رسائل إلى أصدقائه في عنابة. وعلى غرار جميع الوثائق من هذا النوع فإنها لم تكن تحمل تاريخاً، كما ضمت العديد من النقاط الغامضة التي، بلا شك، كانت معروفةً لدى المرسَل إليه الذي كان على درايةٍ بالأحداث الرئيسية، ولكنها كانت ستكتسي قيمةً أخرى بالنسبة لنا اليوم إذا كانت تضم تفاصيل أكثر بدقةٍ أكبر. ومع هذا؛ فإننا لا ننفي الأهمية عن هذه الرواية رغم أن صاحبها كان من جهة الأتراك الذين تعرضوا في هذه الحملة لهزيمةٍ نكراء.

هذا إذاً ما كتبه الشيخ عيسى بن محمد الثعالبي لأستاذه سيدي علي بن محمد الساسي في عنابة.

بعد توطئةٍ وتحياتٍ طويلةٍ موجّهةٍ لمختلف أفراد العائلة يواصل:

«نحن متواجدون حالياً في نقاوس، وسأروي لكم ما حدث باختصار. عندما خيّمنا بالقرب من قسنطينة، دام القتال ثلاثة أيامٍ ضد العدو (يقصد أحمد بن الصخري وأتباعه) الذي فقدَ أربعين رجلاً. لقد بقينا هناك حوالي نصف شهر، ثم رحلنا في أعقاب العدو الذي هزمناه في مواجهتين جديدتين، ثم تقدمنا إلى الأمام مواجهين إياه في معركةٍ أخرى؛ حيث كانت جيوشنا منظمةً جداً، واستمر القتال من الصباح إلى المساء. في اليوم الموالي، الذي كان يوم خميس، تراءى العدو بكل ما استطاع أن يجمع من أتباعٍ ومجندين؛ حيث لبى الجميع نداءه وخاصةً ضعاف النفوس الذين اعتقدوا أنه سيكون يوم نصره. استمر الاشتباك من الصباح إلى ما بعد غروب الشمس، وهُزم فيه العدو. وطيلة عدة أيامٍ عاد بقوةٍ، ولكن دون نجاحٍ يُذكر، قبل أن يفقد القائد ابنه.

بعد ذلك واصلنا سيرنا وأقمنا مخيّمنا بعيداً. وهناك، وفي يوم أربعاء بعد

صلاة العصر، وقعت مواجهةٌ بين العدو والأتراك الذين هُزموا شر هزيمةٍ وخسروا أكثر من مئةٍ وعشرين رجلاً، وبعد يومين توفي صهره شيخ أولاد...

من ذلك المكان توجهنا إلى وادي الذهب؛ حيث خيّمنا لمدة أربعين يوماً تقريباً. والسبب يعود إلى أن العرب (المنتفضين) الذين بلغهم أن حاميةً من الجزائر متوجهةٌ إليهم من أجل الانتقام للهزيمة السابقة؛ قد رفضوا الانسحاب قبل التواجه معها. وخلال هذا المعسكر وقعت مناوشاتٌ كثيرةٌ كانت كلها في غير صالح العدو؛ رغم أنه لم يدّخر أية وسيلةٍ لجمع أكبر عددٍ من القوات لدرجة أنه استنجد بسكان الزاب الذين دعموه بمقاتليهم. ورغم هذه التعزيزات، لم يحدث ما يستحق الإشارة إليه قبل وصول الحامية؛ حيث وقعت معركةٌ كبيرةٌ. (لم يتحدث الكاتب المنحاز عن مآل هذه المعركة التي كانت قاسيةً على الأتراك)

بعد ذلك خيّمنا في فُجال حيث أُفسدت جميع الحبوب، ومن هناك انطلقنا وألحقنا بالعدو هزيمةً نكراء، وسلبناه ألفي رأسٍ بين أغنامٍ وجِمال. ومن ثَمَّ جاءنا أولاد ناصر بن خالد (من أجل الاستسلام)، أما القايد فقد فرَّ هارباً إلى الصحراء.

وباختصار، فقد خسر العدو في هذه الحملة أكثر من 250 فارس وحوالي 700 حصان، وتوفي أخوه وخمسة عشر من القادة النبلاء والأعيان. ومن جهة العرب التابعين لنا فقد فقدنا ستين فارساً... والسلام»*.

رغم التفاصيل الواردة فيه، يدع هذا الكشف الشخصي مجالاً لكثير من الإبهام حول الحملة التي يرويها إذا لم تكن لدينا الوثيقتان السابقتان للتعليق عليها؛ حيث جاء فيهما أنه إذا تمكن قادة الثورة من إثارة كامل الجنوب، وربما بعض القبائل القريبة من سطيف؛ فإن الأتراك أيضاً كان لهم الكثير من الأتباع العرب. وهناك حدثٌ يدعو للملاحظة؛ وهو الدعم الثابت الذي قدمته العائلات الشريفية الدينية. وفي هذا الإطار نجد عائلة بن لفقون في قسنطينة تساعدهم بكل قوتها من أجل استقرارهم لأول مرة، كما رأينا أيضاً أحد أفراد عائلة الثعالبي الموجود بناحية برج بوعريريج ينحاز إلى جانبهم رغم حمله للقب مرابط يُفترض أن يبقيه بعيداً عن ساحات المعارك، وهناك

*. نص الرسالة ليس أصلياً؛ فهو مترجم من النسخة الفرنسية المنقولة من الأصل.

أمثلةٌ أخرى سنراها لاحقاً.

ونعود إلى مراد باي. فبعد هزيمته في قُجال، وانسحابه لتفادي المجزرة التي أحدثها المتفضون في الجيوش الجزائرية؛ تمكن مراد باي من الفرار. ولكن في أي اتجاه؟ وماذا حدث له بعد ذلك؟ هذا ما نجهله. يمكننا الاعتقاد، حسب العبارات الواردة في الرسالة، أنه لم يسحب قواته من الصراع، وأنه بالتحالف مع العرب التابعين له استطاع، نوعاً ما، أن يهدِّئ الثورة التي لم تكن تهدف إلى أقل من قلب الحكومة التي يمسك بمقاليدها. ويمكن أن يكون قد توجه إلى نقاوس ليشهد استسلام أولاد ناصر بن خالد؛ الذين ذكرهم صاحب الرسالة، ومن هناك سلك طريق قسنطينة بعد بعض النجاحات الجزئية التي لم تكن لها نتيجةٌ دائمة.

في السنة الموالية (1639م)، وحسب تقرير الأب دان، أُرسل من مدينة الجزائر جيشٌ آخرٌ من أجل الانتقام لهزيمة قجال؛ فكان بانتظارهم عددٌ من القبائل يفوق عددهم في المرة الأولى. ووجد الأتراك القادمين من كل حدبٍ وصوبٍ أنفسهم مقطوعين من الإمدادات ومهددين بالموت جوعاً وعطشاً لولا أن هب لنجدتهم مرابطٌ ذو شأنٍ عظيمٍ مقابل الشروط التالية:

1. ألاّ يُقلق الأتراك المتفضين أبداً بشأن اللزمة.
2. أن يعودوا مباشرةً إلى الجزائر، ولا يلتفتوا لا يميناً ولا شمالاً، وإلا قُطّعوا إرباً.
3. أن يعيدوا بناء «حصن فرنسا»* (Bastion de France) ولواحقه؛ حيث يذهب المتفضون لاستبدال حبوبهم بالنقود التي يدفعون منها اللزمة، لأن انهيار هذا المصرف قد منعهم من دفع أي شيء.
4. أن يستدعوا جميع الكراغلة إلى مدينة الجزائر، وأن يعيدوا لهم مناصبهم وألقابهم التي حُرموا منها تعسفاً.

* حصن فرنسا (Bastion de France): مصرف تجاري أسسته فرنسا في مدينة القالة سنة 1560، وهو يمثل أول مؤسسة فرنسية أقيمت على السواحل الجزائرية بتسريح من الداي؛ وهي شركة مرسيليا للمرجان. (المترجم)

بعد تثبيت هذه الاتفاقات ترأس المرابط فريق الجزائر، وأعلن أن كل من يهاجمه سيكون عدواً لله ولرسوله، ثم توجه به إلى مدينة الجزائر؛ حيث لقي تدخله جزاءً غير محمود[1].

ها هم الأتراك، إذاً، يجدون أنفسهم مرغمين على التخلي عن حكم هذا الإقليم الذي وجدوا صعوبةً كبيرةً في الاستقرار به. وخلال عدة سنوات، حسب وثائق أصلية جمعها فيرو، كان الجزءان الجنوبي والغربي خاضعين لعائلة الصخري؛ التي رأينا أن قائدها أحمد كان محرك وبطل الثورة التي أدت إلى الانفصال الخطير عن الغزاة الجدد. أما باقي الإقليم، وخاصةً قسنطينة، فقد بقي غارقاً في فوضى الفتن والتنافسات المتضادة.

ولكن الباشا يوسف الذي كان حينذاك حاكماً على الجزائر؛ فلم يكن بإمكانه فقدان إقليم، كان قد استلمه من سابقيه، دون أن يتحمل مسؤوليةً كبيرة، كما أن الباب العالي كان له الحق في مطالبته بتقديم تقريرٍ صارم. لقد كان واجباً عليه، وبأي ثمنٍ، أن يُرجع المتمردين إلى حظيرة الطاعة. ولكن قبل المحاولة مرةً أخرى بوسيلة السلاح خشية تعريض جيوشه لفشلٍ آخر، أراد التأكد من إسهام الحزب الديني الذي كان دائماً، كما رأينا آنفاً، يقدم دعمه لقضية الغزاة.

وفي هذا الإطار توجه إلى العائلات الرئيسة التي كانت تتزعم النبالة الدينية. وفي ما يلي الرسالة التي كتبها في بداية عام 1641 إلى محمد الساسي في عنابة الذي كان ابنه مراسل عيسى بن الثعالبي[2]:

«من عبد الله القوي المنتصر بقدرته أبو الجمَّال يوسف باشا وفقه الله لما يحبه ويرضاه، إلى سيدي الفقيه التقي الصالح الوالي... أبو عبد الله سيدي محمد الساسي زاده الله من فضله وأكثر من أحبابه وأولاده.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نعلمكم أننا قررنا الذهاب إلى وهران لمتابعة الجهاد وانتزاع هذه البلاد من

1. انظر Revue africaine, n°59, pp. 344, 345 et suivantes
2. استخرجنا هذه المراسلة من مجموعة وثائق كُتبت بعد قرن من الزمان من طرف أحد أحفاد محمد الساسي نفسه.

حزب الشيطان، وتحريرها من الخطيئة والكفر والضلال، وإيقاد مشعل الإيمان، وهذا بعدما شُغلنا عن قضايانا لنضع حداً لهذا الشر بسبب الفوضى التي ميَّزت المسائل الدينية في هذه البلاد. وكما تعلمون، فإن المعارضات المتضاربة والتفرقات قد زادت إلى درجة بروز عدة أشكالٍ من الفوضى التي تمقتها العدالة وترفضها الطبيعة. لقد ذهبت جميع مظاهر طاعة الأمير التي هي من طاعة الله، وحلَّت محلها أسس الظلم والجور. لقد اتَّبعوا وساوس الشيطان فحلَّت الغطرسة، لقد كُذِّب الحق وصُدِّق الباطل وعُظِّم الحقير وحُقِّر العظيم.

لقد تركنا أسلحة الجهاد تستريح منتظرين الوقت المناسب لإنجاز نوايانا، وقد اتَّبعنا في هذا ما جاء في كتاب الله؛ حيث نبدأ في كل أمرٍ بالضروري حتى نصل إلى مبتغانا. ولهذا جددنا التحضيرات التي أملتها علينا الظروف، وبعد أن دعونا واستخرنا الله، قررنا، باعتبارنا الحاكم، أن نستقر في إقليم قسنطينة والبلاد التابعة له، وأن نتقدم إلى بسكرة وما وراءها حتى نعاين بأنفسنا ما يصلح لسعادة السكان، ولنُقِرَّ الحق، ونمحوَ الظلم، ونشرِّف العالم، ونعلِّم الجاهل، ونصلح الأسس المقلوبة، وندعم المؤسسات، وننصف المصالح العامة، ونصلح الأخطاء، ونراقب تحصيل الضريبة، ونراقب عمال الإدارة ومساعديهم، ونكرِّم من يؤدون واجبهم على أكمل وجه، ونعزل من كان غير نزيه.

لقد اعترفنا بأنه من أجل إنجاز ما كلَّفنا الله به في خلقه يجب أن نتكفل شخصياً بمتابعة هذه الأمور، وهدفنا أن يكون راضياً علينا وأن نبقى سائرين في سبيله.

نكتب لكم هذا لتعرفوا حقيقة نوايانا، ولتقفوا على صدق أفكارنا السرية؛ فأخبروا أهل بلادكم بنوايانا والتحضيرات التي نقوم بها لإعادة الهدوء بين شعوب الإسلام. فانشروها في كل مكانٍ ورافقوها بالنصائح التي تمليها عليكم حكمتكم وحكمة رجالكم الذين هم في صفكم؛ لأن الأمة الإسلامية لا يمكنها أن تحافظ على دينها وعلى حياتها المدنية دون سيف حاكميها ومواعظ قادتها الروحيين. أرجعوا إلى الله، بالموعظة الحسنة، كل من ابتعدوا عنه؛ وبذلك تقتدون برسول الله صلى الله عليه وسلم.

إنما توجهت إليكم وليس لأحدٍ غيركم حتى لا أجهد نفسي لأشرح له تفاصيل

هذه الفكرة ومبرراتها المنطقية وكل ما تتضمنه، لكن هذا غير مطروحٍ معكم. إنكم في هذه الساعة قائد المسلمين في منطقتكم، والمصلح الذي يحيط به كل أهل السنة، حفظكم الله لهذه البلاد التي أنتم بركتها، ولخلقه الذين أنتم ملجؤهم»*.

كُتب في العشر الأوائل من ذي الحجة، ألف وخمسين للهجرة (23-14 مارس 1641م).

في هذه الرسالة عرض الباشا يوسف لسيدي محمدٍ الساسي الإجراءات التي وضعها لإعادة المقاطعة المتمردة إلى سلطته، وحثّه بشدةٍ على مساعدته بتأثيره في عملية التهدئة هذه؛ فأجابه المرابط بطلب الرحمة والمغفرة لهؤلاء المتمردين. لقد كان يريد تهدئة غضب الباشا وتغيير رأيه بإخباره بأن السكان سيعودون وحدهم إلى الطاعة دون اللجوء إلى إرغامهم بالقوة، غير أن الباشا لم يكن يشاطره هذه الآمال؛ حيث أرسل إليه كتاباً جديداً بعد شهرين؛ هذا نصه:

«الحمد لله، إلى سيدي محمد الساسي في عنابة، إلخ.

لقد تلقينا كتابكم الذي تلتمسون فيه العفو عن المُدانين، وتطلبون الصفح عن مُحْدِثِي المشاكل والجرائم. ولكن اعلموا جيداً أن الكثير يجهل حقائق المسألة ولا يعير اهتماماً لتهديدات القمع ولا يستفيد من دروس التجربة. حيث أن هناك أمثالٌ للحكماء تقول: قبل أن تمشي تأكد من أن الأرض التي تضع عليها قدمك صلبة، وقبل أي تصرفٍ فكّر في عواقب تصرفك، -ومن يزور الأسد فليستعد لمخالبه-، ومن يريد أن يقلب الزمان يقلبه الزمان. ـ والثورة على الحاكم تُسقط الحماية وتجلب لصاحبها العقاب المثالي.

إنكم لا تجهلون الأفكار المتمردة التي أدانتهم والتي تستحق توبيخاً قاسياً؛ لأنه من يتكلم بطريقةٍ غير لائقةٍ يسمع ما لا يعجبه، ومن يفعل ما يريد يجد ما يضره. وهؤلاء يستحقون قمعاً رهيباً إذا لم نراعِ فيهم رحمة الله وتقديراً للاحترام الذي نُكنُّه لشخصكم.

واليوم نكرر ما قلناه لكم حول الحملة (ضد وهران) التي أقلعنا عنها قبل أن ننجزها في وقتٍ لاحق. وأما بالنسبة لكم، فما يجب أن تفعلوه هو أن تفكروا

---

*. نص الرسالة ليس أصلياً؛ فهو مترجم من النسخة الفرنسية المنقولة من الأصل.

في الوضع الذي نوجد فيه، وألاّ تتجاهلونا، وخاصةً ألاّ تنسوا، في سكون الوحدة والصلاة، أن تدعوا بالسعادة لأتباع الرسول، وأن تكرروا لهم دون انقطاع بأن يطيعوا السلطان؛ لأن طاعة السلطان من طاعة الله. إنه من واجبكم أنتم شيوخ العلم أن تنشروا المبادئ الصحيحة باعتباركم المحيطين بأحكام الشريعة ودراسة ما يتعلق بها.

كُتب في العشر الأوائل من شهر صفر من عام ألف وواحد وخمسين للهجرة (11-20 مايو 1641م).

من عبد الله أبو الجمّال يوسف باشا، فَتح الله له أبواب النصر وهداه إلى ما يحبه ويرضاه*.

تكون قد بُعثت رسائلٌ مشابهةٌ إلى الزعماء الدينيين الآخرين الأكثر تأثيراً في المقاطعة. وعندما يُحضِّر السُّبُل والوسائل التي من شأنها تأكيد نصره لن يتوانى الباشا يوسف عن إنجاز حملته.

لقد قام بإرسال جزءٍ من قواته براً، بينما ركب البحر بنفسه على رأس فرقته الخاصة. ونزل في عنابة ثم سار نحو قسنطينة؛ حيث كان أولاد سيدي عبد المومن يشكلون حزب المعارضة. وبعد تنصيب نفسه سيداً للمدينة بقي فيها، حسب إحدى الروايات، حوالي عام، ثم غادرها بعد أن ترك فيها حامية تركية، وأرجع أولاد سيدي عبد المومن إلى مكانهم، وشرع في ملاحقة الشيخ أحمد بن الصخري؛ الذي كان ما يزال مع العرب المنتفضين سيداً لجنوب المقاطعة. وفي طريقه دَحَرَ كافة المقاومات، كما تحدى وهزم كل من لم يفر أمام تقدمه، أو لم يستسلم له. ولا نعرف إذا كان الشيخ بن الصخري يبحث عن مواجهته شخصياً في خلال مسيرته؛ فالتاريخ لم يذكر لنا أبداً إن كان الباشا لم تكن له أية مقابلة مع هذا القائد، ولكن يوسف كان قد وصل منتصراً إلى مشارف مدينة بسكرة حيث لم يحاول حتى الدخول إليها. ومن هناك واصل مسيرته الانتصارية قاطعاً كل الجنوب الغربي للمقاطعة، وزائراً ومُخضعاً جميع هؤلاء السكان الذين كانوا غير معترفين تماماً بسلطته منذ ثلاث سنوات، ثم عاد إلى مدينة الجزائر؛ حيث وصل إليها مع منتصف عام 1642.

*. نص الرسالة ليس أصلياً؛ فهو مترجم من النسخة الفرنسية المنقولة من الأصل.

لقد كانت هذه الحملة لامعةً نوعاً ما بالنسبة لقوات الباشا، ولكن نتائجها كانت قصيرة الأمد. فكل ثورةٍ أُخمدت أو شُتّتت في طريقه كانت تعود وراءه بمجرد تقدمه بعيداً عنها، وما إن دخل إلى الجزائر حتى عادت البلاد إلى سالف عهدها في التمرد والعصيان. إن الزيادة في الترخيصات وإشراك الأحزاب من شأنهما هما فقط إرجاع البلاد إلى الطاعة يوماً ما؛ وذلك بجعلها ترغب في سلطةٍ مؤسسةٍ بقوةٍ تستبدل الفوضى بالنظام، ولكن هذه الساعة لم تحِن بعد.

في 12 أكتوبر من تلك السنة، 1642، (الإثنين 18 رجب 1052هـ) اندلعت اضطراباتٌ جديدةٌ بين سكان قسنطينة، وتحديداً بين الأتراك المشكّلين للحامية وأولاد سيدي عبد المومن. لقد دار القتال في الشوارع لمدة يومين دون انقطاع؛ حيث أصيب أربعةٌ وعشرون رجلاً ولقوا حتفهم، كما كان الجرحى كثيرون من الجانبين. وحوصر آل عبد المومن في حيِّهم وأجبروا على إغلاق بيوتهم على أنفسهم، وأُغلق باب الجابية بالمتاريس من أجل قطع كل اتصالٍ مع الخارج ومنع سكان الضواحي من نجدتهم. وفي الأخير انتهى الصراع، وأُزيحت المتاريس بفضل تدخل رجال القضاء والسلام بين الحزبين؛ وبذلك عمَّ الهدوء لفترةٍ من الزمن.

أما خارج المدينة وفي باقي مناطق المقاطعة فقد تلاشت سلطة الأتراك تماماً. وجاء هذا في روايةٍ محليةٍ نقلها بربروغر بعباراتٍ مختصرةٍ ولكنها لا تترك أي مجالٍ للشك في هذا الشأن: «1643. ـ انهزم ثلاثة فيالق للجيش الجزائري في الشرق: وهي فيلق القايد يوسف، وفيلق القايد مراد، وفيلق القايد شعبان»[1].

وفي السنوات اللاحقة، وإضافةً إلى الاضطرابات العصبية والحرب الأهلية جاءت شرورٌ أخرى أكثر فتكاً؛ من الطاعون إلى القحط والمجاعة. ففي 1054هـ وخلال ستة أشهرٍ متواصلة، من جمادى الأول إلى شوال (من يوليو إلى ديسمبر 1644م)، فتك الطاعون بالكثير من الضحايا. وقد كان

---

1. انظر Revue africaine, 10e année, p. 348

خطره محسوساً بالأخص في شهر رمضان؛ حيث قضى في ثلاثة أيام على أكثر من ثلاثمئة شخص.

في 1057هـ (1647م) عمَّ القحط، وعانت المنطقة بأكملها من الجوع. فارتفع ثمن الحبوب إلى درجة أنَّ صاع القمح (أو 460 لتر)، حسب ما جاء في روايةٍ معاصرةٍ لتلك الفترة، أصبح يُباع حتى بثلاثة ريالات، وصاع الشعير بحوالي ريالٍ ونصف[1]. وسقطت كل المقاطعة فريسةً للجوع؛ فكثر القتل والنهب، وتعِس الضعفاء الذين لم يجدوا سلطةً ناجعةً تحميهم من هجمات الأقوياء؛ فكانوا ضحيةً لتقلبات تلك الفترة.

لقد توجَّب حينها، على غرار كل البلاد في مثل تلك الظروف، تشكيل مجموعةٍ من رجال الخير. حيث أن قادة الحركة أنفسهم أحسوا بأن الأحداث تجاوزتهم وأضحت تهدد حتى وجودهم في خضم التعدد الذي كان بعيداً عن الاحتواء؛ فاتحدوا مع رجال السلام للتفكير معاً في الطرق التي من شأنها درء الخطر والخروج من الفوضى التي كانت ستصبح ضدهم.

استطاع الشيخ عبد الكريم لفقون، بفضل تأثير منصبه الديني ووضعه المالي ومميزاته الشخصية، أن يكون المحور الذي تحالفت حوله أكبر الشخصيات التي كانت تريد وضع حدٍ للفوضى. وباتفاقٍ جماعيٍ تقرر كتابة رسالة خضوعٍ لباشا الجزائر ومطالبته بتعيين حاكمٍ لهم. فسارع الباشا بالرد بأن عليهم اختيار الزعيم الذي يريدون بأنفسهم، وبأنه سيوافق على ذلك الاختيار. وتوحَّدت أصواتهم على فرحات ابن مراد باي باعتباره الرجل الأصلح لهكذا وضعية؛ بفضل مولده ومزاياه الشخصية. فصادق الباشا على هذا الاختيار، وأرسل لمنتخَب مواطنيه قفطان التولية ولقب باي لإقليم الشرق. لقد شارفنا على نهاية عام 1647م.

1. من هنا يمكن أخذ فكرة عن قيمة العملة في تلك الفترة. فالريال بسيطة، العملة الوحيدة المعروفة آنذاك، يعادل اليوم ما قيمته فرنكين وخمسين سنتيماً من عملتنا. وصاع القمح كان يباع في عام القحط بخمسة فرنكات. ومنذ دخولنا إلى قسنطينة، رأينا الصاع نفسه، في سنوات الرخاء، ينزل إلى 18 فرنك لا أقل، ولكن في سنوات القحط، مثل عامي 1864 و1867، ارتفع إلى 60 فرنك. فالفرق إذاً يعادل على الأقل خمسة إلى ستين بين القيمة في ذلك الوقت والقيمة الحالية.

ابتداءً من ذلك اليوم، أصبح تاريخ قسنطينة كله يرتبط ويتلخص في تاريخ باياتها. فحكوماتهم المقبولة أو المفروضة كانت دائماً حاضرةً للقمع والعقاب، ولكنها لم تقاوم أبداً من أجل الحفاظ على مبدئها. وسنتعرض الآن لسرد التعاقب غير المنقطع للبايات، من فرحات سنة 1647م وصولاً إلى الحاج أحمد سنة 1837م.

الفـتـرة الثانيـة
من 1647 إلى 1792

فرحات باي
1057هـ، 1647م

لقد قام الكاتب العربي سيدي صالح بن العنتري، مؤخراً، بنشر تاريخ مختصرٍ جداً لبايات قسنطينة[1]، وقد حدد تاريخ دخول الأتراك إلى هذه المدينة بعام 1640م، كما حدد فرحات كأول بايٍ مُعيَّنٍ من طرفهم على رأس إقليم الشرق.

لن نتوقف للبحث عن المغالطات التي أدت إلى هذه الحقيقة المزدوجة، بل نكتفي بالقول بأن سيدي صالح لم يَقُم إلا باتِّباع رأيٍ مقبولٍ بصفةٍ عامة في أوساط المسنِّين الذين عاصروه؛ والذين وصلت إليهم ذكرياتٌ مبهمةٌ عن تلك الأيام؛ وهو الرأي الذي لا يعتمد على أية وثيقةٍ مكتوبة، ولا يعدو أن يكون أكثر من نتيجةٍ لكثيرٍ من اللبس.

لقد اعتبروا أول استقرارٍ للأتراك في هذا الإقليم ما كان ثالث استرجاع لسلطتهم؛ التي كانت حتى ذلك الوقت غير مستقرةٍ وغير معترفٍ بها عالمياً، مع أنها سيطرت على البلاد، دون منازع، لأكثر من مئتي سنة قبل ذلك التاريخ. فالأحداث التاريخية الواردة في هذا العمل، وعديد الأدلة التي قدمناها لدعمها تؤكد هذا بشكلٍ قاطع. إذاً فليس هناك مجالٌ للرجوع إلى نقطةٍ لا يمكنها، اعتباراً من اليوم، أن تكون محل شكٍ وقد ظلت ملكاً

1. أول مخطوطٍ عن تاريخ قسنطينة، أو ما يسمى بـ «فريدة مؤنسة» لصاحبه صالح العنتري، أمين إدارة الشؤون العربية، نشره «فيليكس ڤاند» (Félix Guende) في قسنطينة عام 1846.

للتاريخ. ولنسرد الآن ما نعرف عن فرحات باي[1].

بوصوله إلى السلطة إثر انتخابه من طرف مواطنيه، وتثبيت هذا الانتخاب من طرف باشا الجزائر، وإمساكه بمقاليد الحكم؛ استطاع ابن مراد أن يظهر بأنه أهل للثقة التي وضعها فيه أبناء البلاد.

كان أول انشغالاته هو إعادة النظام والطمأنينة إلى هذا المجتمع المنهك لمدة عشر سنواتٍ من جراء الثورات والصراعات الداخلية. وبفضل القوات العديدة التي وضعها باشا الجزائر تحت تصرفه، استطاع التغلب بسهولةٍ على آخر المقاومات التي حاولت معارضته؛ ليس فقط تلك التي خاضها أتباع النظام القديم المهزومين والمنهكين بسبب مبالغاتهم، ولكن تلك التي قادها دعاة الفوضى الذين يَعتبرون كل تسلسلٍ تنظيمي إكراهاً وقسراً. واستطاع بقوة السلاح إرغامهم على الاعتراف بسلطته. وبإنصافه في تعميم العدالة إلى جانب صرامته في القيادة؛ تمكن من إخضاعهم. واستأنف الجميع مهامهم المتوقفة منذ فترةٍ طويلةٍ، وتمتعوا بالسلام الذي كان ثمرة عمله.

لقد منح أولى الامتيازات لعائلة أولاد بن لفقون؛ فكان العدل بعينه لأنها، أكثر من أية عائلةٍ أخرى، ساعدته بتأثيرها وسخَّرت له كل وسائل العمل. ولدينا شهادةٌ مكتوبةٌ في وثيقةٍ أصليةٍ، وهي الوحيدة التي وجدناها ترجع لهذا الباي؛ والتي نظراً لأصالتها تستحق اهتماماً أكثر. وهذا نصها:

1. التاريخ الذي كتبه سيدي صالح العنتري لم يُترجم بعدُ إلى الفرنسية، ونحن ننقله حرفياً في هذا العمل مع بعض الإضافات والتصحيحات اعتماداً على وثائقنا الخاصة.

الحمد لله ليعلم من يقف على كتابنا هذا
من القياد والعمال والخاص والعام ببلد قسنطينة
سدد الله الجميع أما بعد فإننا أدينا
عشور ما يأتي في جبل أوراس من الفراش
والجزمة للجامع الأعظم كما جرت العادة
السابقة في حياة أوايلنا البايلار كل ذلك
رعياً لوجه الله العظيم من غير انتكاث
منا و لا انتقاض ومن يتعرض في هذا فالله
يتولى الانتقام منه وقد قدمنا على هذا
العشور المكرم ابننا علي العاصمي ورفيقه
عبد الرحمان بن كريفة هو لا يتولون هذا
العشر تفويضا تاما من غير قول لنا في
ذلك ولا رجوع وعلى الواقف بحسب
أن يعلم بذلك ويعمل به .... وكتب
هذا الأمر عن إذن عبد الله سبحانه المفوض
أمره إليه أبي السعادات فرحات باي وفقه
الله بتاريخ أوايل ذي القعدة عام ١٠٥٧

يوافق هذا التاريخ العشر الأوائل من شهر ديسمبر 1647م.

في أعلى الهامش يظهر خاتمٌ مربع الشكل، وهو على أغلب الظن لفرحات باي؛ لأن الأثر ممحوٌ لدرجة لأننا لا نستطيع قراءته.

إن هذه الوثيقة أهميةٌ تاريخيةٌ لا تُضاهى. فهي تعود بنا إلى شهرٍ أو شهرين بعد وصول الباي فرحات، لأن هذا النوع من الشهادات يُحرَّر دوماً في الأشهر الأولى من تقلد البايات للسلطة، ثم إنها تأتي لتؤكد، بطريقةٍ شبه رسمية، الحقيقة التي طالما أشرنا إليها بأن فرحات لم يكن إطلاقاً الباي الأول الذي عرفته قسنطينة؛ لأنه يقول هو نفسه: «إننا أدينا عشور... كما جرت العادة السابقة في حياة أوايلنا البايلار».

حول هذه العادة التي تؤدي للجامع الذي تديره عائلة بن لفقون، حق العشور على الزرابي وخشب البناء القادمة من الأوراس إلى قسنطينة، تقول بأن عائلة بن لفقون كانت تنحدر من فقونة؛ وهي قرية في الأوراس، مثلما وجدنا ذلك في مخطوطٍ حول أصول قبائل وأكبر عائلات البلاد لصاحبه سيدي عبد القادر الراشدي الذي كان عالماً كبيراً ومفتي قسنطينة في عام 1176هـ (1762-1763م)، ولكن آل بن لفقون ينكرون هذه الحقيقة، ويدَّعون بأن أصلهم من تميم طبقاً لما وجدناه في كتابين لعبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن يحيى بن محمد الفقون التميمي الأصل، القسنطيني الإقامة.

نعود إلى فرحات؛ ففي ربيع عام 1653 قام هذا الباي بجمع مداخيل الضرائب والزكاة والعشور، واتجه إلى مدينة الجزائر لتقديمها إلى الباشا بنفسه، وقد صَحِبَه أعضاء العائلات الوجيهة في المدينة. وعند وصوله إلى الجزائر، استقبله موظفو الحكومة لتقديم عبارات التهاني والاحترام ولتلقي العطايا والهدايا؛ فبالغوا في مدحه والثناء عليه.

بعد إقامته لمدة ثمانية أيام في العاصمة، قصد فرحات الباشا، وطلب منه إعفاءه وقبول استقالته، وتعيين بايٍ آخر مكانه متحججاً بحالته الصحية؛ التي لم تعُد تسمح له بإدارة حكومته. لم يوافق الباشا على هذا الطلب في بادئ الأمر، ولكن أمام إلحاح فرحات وتوسلات أعضاء ديوانه جاء قراره المفاجئ والمحزن في آنٍ واحد؛ حيث اتفق أن يعين ابنه محمد خلفاً له، وقال لوزيره: «اكتبوا له بأنني عيَّنتُه باياً على قسنطينة شرط أن يمارس الحكم تحت سلطة أبيه»، وأرسل إليه قفطان التولية.

قفل فرحات وحاشيته عائدين إلى قسنطينة، والتقوا الحاكم الجديد في حمزة (بويرة)، وهناك أُعلِن باياً وتسلم مقاليد الحكم.

هذا المثال لاستقالة الباي الطوعية يُعتبر نادراً في تاريخ الإيالة؛ وهو ما يجعلنا نركز على الإشارة إليه.

عاش فرحات سنواتٍ أخرى محبوباً ومحترماً من طرف كافة مواطنيه؛ الذين أعاد لهم الطمأنينة والرخاء مع النظام. توفي في 25 ربيع الأول 1075هـ الموافق لـ 16 أكتوبر 1664م، وكان قد تزوج المرأة الشهيرة عزيزة بايِ؛ التي سوف نتطرق إلى نهايتها المأساوية.

محمد باي بن فرحات

1063 هـ، 1653م

خلال حياة أبيه لم يمارس محمدٌ إلا سلطةً اسمية؛ هذا إذا سلَّمنا بأن تعيينه، كما جاء عن العنتري، صحيحاً؛ ذلك لأن ملاحظةً وردت بقلم محمد بن عبد الكريم لفقون في آخر ورقةٍ من مخطوطٍ له تؤكد عكس ذلك؛ حيث يقول: «تولى محمد باي الإمارة حين مات والده فرحات».

ومن جهةٍ أخرى، نقرأ في وثيقةٍ كُتبت في العشر الأوائل من شهر شوال 1060هـ (27 سبتمبر- 6 أكتوبر 1650م) بأمرٍ من مراد، باشا الجزائر، ومختومةٍ بختمه، أن الشيخ سيدي عبد الكريم لفقون حضر أمامه يحمل شهادةً مُوَقَّعٌ عليها من فرحات باي ورجب باي، يثبِّتان له بموجبها حقه في تحصيل الإتاوات على سوق الخضر والفواكه لمدينة قسنطينة لصالح الجامع الكبير.

هذه الإشارة المتزامنة للبايين فرحات ورجب الواردة في وثيقةٍ رسميةٍ مؤرخةٍ في عام 1650م تؤكد، بما لا يترك مجالاً للشك، أن رجب تولى السلطة بعد فرحات، وأنه ربما كان لا يزال يمارسها حتى هذا التاريخ. قد تكون هناك، إذاً، فترةٌ زمنيةٌ بين فرحات وابنه محمد كان فيها رجب هو الحاكم. وبما أننا لم نجد أثراً في أية وثيقةٍ أخرى؛ فإننا نكتفي بالإشارة إلى هذه الصعوبة

التاريخية دون محاولة البحث عن حلها بشكلٍ آخر في ظل ندرة المعلومات حالياً. فَلْنَقْبَل الأحداث كما أوردها العنتري؛ حيث يقول أن محمداً واصل إدارة الإقليم لمدة سنتين بعد وفاة أبيه، ثم خُلع وعُيِّن مكانه عمه رجب خلال شهر ربيع الثاني 1077هـ (أكتوبر 1666م).

في عهد محمد انتشر الطاعون في قسنطينة من جديد خلال سنة 1073هـ. لقد بدأ في شهر رمضان عام 1073هـ، واستمر حتى يوم الجمعة 8 ذو القعدة؛ حيث هلك في يوم واحدٍ خمسمئةٍ من سكان المدينة وخمسون من سكان الضواحي، ثم دخل الوباء في مرحلة تراجع، ولم يختفِ إلا في نهاية ذلك العام (من شهر أبريل إلى نهاية شهر يوليو 1663م).

كان آخر ضحايا هذا الوباء الشيخ سيدي عبد الكريم لفقون الذي سبقت الإشارة إليه، والذي وضع عدة مؤلفات من بينها مذكراتٌ حول رجال وأحداث عصره[1]. وقد توفي مساء الخميس 27 ذو الحجة 1073هـ (2 أغسطس 1663م)، ودُفن ببيته.

وبموجب عقدٍ مؤرخ بين 22 و30 أبريل 1640م؛ تحصل من الصبايحي الحاج مصطفى على تراب الفخار لمحجر الطين مقابل خمسين ريال مسكوكٍ من طرف النصارى -أبادهم الله ودمَّر ملكهم-. هذه العبارة التي نجدها تتكرر كثيراً في العقود العامة المحررة قبل السيطرة الفرنسية؛ تؤكد بأنه رغم قبول التعامل بعملة الأمم النصرانية التي كانت، دون شك، ذات قيمةٍ معتبرة؛ إلا أن المسلمين كانوا يعتقدون دوماً بوجوب الوقوف ضد هؤلاء النصارى.

وخلفه في وظيفة شيخ الإسلام ابنه سيدي محمد بموجب أمرٍ من باشا الجزائر إسماعيل بن خليل مؤرخ في العشرة الثانية من شهر صفر 1074هـ (23-24 سبتمبر 1663م)، مصدقٍ عليه في اليوم ذاته من طرف آغا الجيش

1. كانت هذه المذكرات بالنسبة لنا عوناً ثميناً في المهمة التي نقوم بها؛ بالنظر فقط إلى الأجزاء القليلة منها التي وُضعت تحت تصرفنا. فللأسف باءت جميع محاولاتنا للحصول عليها كاملة بالفشل أمام تجاهل أو سوء نية الذين يمتلكونها. وبعد عامين من الإلحاحات المستمرة تراجعنا عن مواجهة هذا التعنت الذي يبدأ بالوعود ولا يفضي إلى أية نتيجةٍ ملموسة.

خليل بن عصمان (عثمان)، ومجددٍ في العشرة الثانية من شهر رمضان 1075هـ (نهاية مارس 1665م) من طرف آغا الجيش مصطفى بن خليل.

رجب باي

ربيع الثاني 1077هـ، أكتوبر 1666م

رجب؛ الذي يُنطق ويُكتب خطأً في بعض الأحيان «رجم»، كان قد حكم الإقليم حكماً راشداً. حيث اهتم بمصالح محكوميه ونشر العدل بينهم، كما يعود بناء مسجد رحبة الصوف في قسنطينة إليه.

ونقرأ في مدونةٍ لأحد معاصريه أنه، بعد موت أخيه فرحات، تزوج من أرملته «عزيزة باي» بنت القايد أحمد بن رمضان، وأخت شبلي بن علي بتشينين[1]. وقد تم الزواج بمدينة الجزائر؛ حيث كان محل إقامتها المعتاد، وهناك بنى لهذه الزوجة المفضَّلة بيتاً جميلاً عُرف بِدار «عزيزة باي»، وأصبح هذا المبنى لاحقاً الإقامة المؤقتة لبايات قسنطينة عندما يفدون على مدينة الجزائر لتقديم ضريبة الدنوش[2].

بتسلمه مقاليد إدارة بايلك الشرق، غادر رجب مدينة الجزائر ليستقر في قسنطينة مصطحباً معه زوجته التي أسرت قلبه. وعاش الزوجان لمدة سنواتٍ حياةً سعيدةً إلى أن جاء اليوم الذي شهد المأساة الدموية، وأنهى تلك العلاقة، التي لم تكن تشوبها شائبة، بطريقةٍ غير منتظرة.

كان ذلك يوم أحدٍ، التاسع والعشرون من شهر جمادى الأولى من سنة 1079هـ (4 نوفمبر 1668م). فرغبةً منه للترفيه عنها ومفاجأتها؛ أرسلها زوجها لزيارة المطحنة التي انتهى من بنائها لتوِّه في الحامة. وانتقلت إلى هناك بصحبة خادماتها وعددٍ من العبيد، وكانت معها أيضاً صفية؛ وهي زوجةٌ أخرى للباي، وربيبتها فاطمة بنت فرحات. وبعد أن زُرن المنشأة الجديدة

1. كان علي بتشينين أميرال (أمير بحر) الأسطول الجزائري، انظر المجلة الإفريقية، 1866، ص340.
2. حوّل هذا المبنى بعد احتلال مدينة الجزائر 1830 إلى إقامة أسقفية، وأقام فيه أسقف الجزائر.

بكل تفاصيلها، اجتمعن في حديقة «حد العنصل» غير بعيد من هناك لقضاء الليلة. وعندما أرخى الليل سدوله، وتزيَّنت السماء بالنجوم، ولجأت كل واحدةٍ إلى مخدعها في الخيمة التي خصصت لها، وحلَّ السكون محل صخب النهار؛ لا شيء يعكره إلى أن تبزغ نجمة الصباح. في هذه الأثناء، تقدم رجلٌ بين خيوط الفجر الأولى متسللاً إلى داخل الخدر الذي كان ساكنوه لا يزالون يَغُطُّون في نوم عميقٍ جراء تعب اليوم السابق. لم يكن ذلك الرجل سوى «ابن شرداد» الخادم الخاص والوفي لرجب باي. لقد توجه مباشرةً إلى الخيمة التي ترقد فيها عزيزة باي، وببرودة أعصابٍ تنم عن الطاعة العمياء لسيده؛ ذبحها ثم طعنها تسع طعناتٍ حتى يروي سيفه بدم ضحيته.

هكذا هلكت هذه المرأة التي كان يعتقد عددٌ من الرواة الأوروبيين، بسبب عدم اطلاعهم أو بسبب تغليط لقبها لهم، أنها واحدةٌ من البايات الذين حكموا قسنطينة[1]. فلا توجد أية وثيقةٍ مكتوبةٍ تدعم هذه الفرضية، كما أنه لم يكن من مبادئ السياسة العثمانية إسناد حكم المقاطعة للنساء مهما بلغن من الكفاءة والجدارة.

لم يورد الراوي الذي نقلنا عنه هذه القصة سبب هذه النهاية المفجعة، ولكنه يُفترض بأن الغيرة كانت هي الوازع الرئيس. وأضاف فقط بأن جنازتها كانت صباح الاثنين آخر يوم من شهر جمادى الأولى، وبأنه قد بُني لها قبر....، ولا يمكننا ذكر في أي مكانٍ تم دفنها؛ لأن ذلك الموضع من الوثيقة قد تعرض للتلف بفعل الزمن.

بعد ست سنواتٍ من الحكم عُزل رجب وخلفه خير الدين، ثم توفي بعد عامٍ في يوم الأربعاء في العشر الأوائل من شهر ذي الحجة 1084هـ (9-18 مارس 1674م).

---

1. نقرأ في مدونة تؤرخ لبايات قسنطينة نشرها «الإفريقي» «l'Africain, journal de Constantine, 30 septembre 1857»: «عزيزة، كما يدل اسمها، كانت امرأة، ويقال إنها كانت تنحدر من أسرة رومانية، وأنها حكمت بحزم وقوة لم يبلغها الرجال، وبعضهم لا يوردها في قائمة بايات قسنطينة».

خير الدين باي

1083هـ، 1672/1673م

لا نعرف الكثير عن هذا الباي سوى أنه حكم حوالي أربع سنواتٍ ليُعزل بعدها ويُعيَّن مكانه دالي باي، وذلك في العشرية الأولى من شهر صفر 1087هـ (أواخر أبريل 1676م). كانت وفاته يوم الجمعة في منتصف شهر رمضان 1092هـ (نهاية سبتمبر 1681م).

لقد مثلت نهاية حكمه تغييراً في السياسة العثمانية. فحتى عهدِه، كان البايات المكلفون بإدارة الإقليم يُختارون من العائلات المؤثرة في البلاد؛ والتي كانت من أصولٍ عربية. كما كان يُستفتى الأهالي حين يتعلق الأمر بتعيين بايٍ جديد، ولم يكن على الباشا إلا المصادقة على اختيار الرأي العام؛ وهو ما حدث خاصةً مع فرحات باي. ولكن بعد خير الدين صار البايات يُختارون من صفوف المليشيا التركية، أو من العائلات التركية المقيمة بالبلاد. ولا يمكن أن يداخلنا أدنى شكٍ بأن هذا الإجراء قد ساهم بشكلٍ كبيرٍ في تثبيت السيطرة العثمانية في الجزائر بكل قوتها الاستبدادية، ولكن بطريقةٍ ملفتةٍ للنظر بوساطة العدد الصغير للأجهزة التي تكوّنها.

دالي باي

10-20 صفر 1087هـ. 20-30 أبريل 1676م

وفاءً لأصله، استهل دالي باي، التركي القح، سياسةً من القمع والتسلط سار عليها لاحقاً معظم البايات طيلة ما يقارب مئة وخمسين عاماً؛ متداولين على حكم بايلك الشرق.

لقد كان يقتل دون رحمةٍ كل من يثير قلقه، كما تفرغ للأغنياء مغتصباً أملاكهم بشتى الطرق التعسفية. لقد كان، كما قال العنتري، «رجل قتلٍ وسلب». وبعد ثلاث سنواتٍ من القمع، ضاق الأهالي ذرعاً من هذا

الاستبداد؛ فاشتكوا إلى باشا الجزائر الذي أصدر أمراً بقتله تمّ تنفيذه فوراً، وخلفه عمر بن عبد الرحمن المدعو باش آغا.

باش آغا باي
1090هـ 1679م

لقد عُرف عمر بصفةٍ خاصة باسم باش آغا؛ وهو بلا شك اسم الوظيفة التي كان يشغلها قبل أن يصبح باياً. هو ابن دالي باي حسب ما وجدناه في وثيقةٍ مؤرخةٍ في أواخر رمضان 1091هـ (17-26 نوفمبر 1680م) كان قد أرسلها هو نفسه إلى أحمد زروق بن سيدي محمد بن يحيى، يجدد له فيها ولعائلته الامتيازات التي منحها إياهم سابقوه البيلربايات؛ وبالخصوص أبوه -رحمة الله عليه-. عرَّف نفسه في هذه الوثيقة باسم عمر باي، وحمل خاتمه عبارة «عمر بن عبد الرحمن باي» دون رقم السنة.

عدا هذه الوثيقة، لم نعثر على أي شيء آخر يتعلق بهذا الباي رغم أنه تبوأ الحكم لمدة طويلة؛ حيث دامت تسع سنوات. ولقد توفي في يوم الأربعاء 29 شوال 1099هـ (18 أوت 1688م)، وخلفه سيدي شعبان.

في سنة 1680 تم تجديد حقوق الشيخ سيدي محمد بن عبد الكريم لفقون كإمام للجامع الكبير، وأميراً لركب الحجاج من طرف باشا الجزائر؛ إسماعيل، وذلك اعتماداً على رأي «دولتي» سيدي الحاج محمد داي؛ كما نقرأ في وثيقة أصلية مختومةٍ بختم هذا الباشا، ومؤرخة في العشر الأواخر لشهر محرم 1091هـ (20-28 فبراير 1680م).

1. لدينا عقدٌ يرجع إلى دالي باي مؤرخ في سنة 1088هـ (1677م)، يمنح بموجبه صلاحيات وإعفاءات عن الضرائب لعائلة أولاد ذياب. يحمل خاتمه عبارة عبد الرحمن باي مع رقم السنة 1087، الأمر الذي يجعلنا نفترض أن اسم «دالي» الذي انتقلت به سيرته؛ لم يكن سوى كنية على غرار أغلب من خلفه من البايات.

شعبان باي

1099هـ، سبتمبر 1688م

لا نعرف عن هذا الباي إلا اسمه، ولم يحفظ له الرواة إلا حملةً عسكريةً أُجبر على شنها ضد الجبايلية (دون أن نعرف من كانوا) لإرغامهم على دفع الضريبة؛ وذلك بمساعدة رجال الزمالة الذين كان تنظيمهم ما يزال في بدايته، إلا أنه لم يتأخر ليصبح، في يد البايات الأتراك، أحد أهم وسائل حكمهم القوي.

لم يكن رجال الزمالة، من حيث المبدأ، سوى خدم البايات المكلفين برعي ماشية الدولة من إبلٍ وبقرٍ وغنم. وقد كانوا مستقرين في تلك الفترة بالقسم الأعلى لوادي الرمال بين قسنطينة وعين سمارة، ولم يكن يجمعهم رابطٌ سوى خدمة سيدٍ واحد.

كان تعدادهم في البداية جد محدود، ويرجع ذلك لمحدودية متطلبات الخدمة التي كانت تُفرض عليهم. ولكن مع تهدئة البلاد، ومع انتظام جباية الضرائب على عددٍ أكبر من القبائل، وبما أن المواشي كانت تمثل الجزء الأكبر من الضريبة المحصَّلة، ونظراً لازدياد عددها؛ ازداد عدد الرجال المطلوبين لحراستها. وكان يظهر هذا جلياً في فترات جباية الضرائب؛ أي في الربيع والخريف. فبينما يمكث قسمٌ من الزمالة في الوادي لحراسة الماشية؛ يتنقل البقية مع المحلة المكلَّفة بتحصيل الضريبة للعودة بالقطعان المحصَّلة، وهو ما يحدث أيضاً عندما يتعلق الأمر بشن غزوةٍ على قبيلةٍ متمردةٍ أو ثائرة. وفي هذه الحالة يتوجب تسليح رجال الزمالة حتى يتسنى لهم الدفاع عن أنفسهم دون طلب نجدة القوات النظامية.

وبذلك تحوَّل هؤلاء، شيئاً فشيئاً، من سيَّاسٍ للخيل ورعاةٍ إلى جنود، وعُيِّن عليهم قيادٌ وشيوخٌ وشُوَّاش، وعلا شأنهم بالقيمة التي ترتبط برجل الحرب على حساب الحِرَفي أو العامل في بلادٍ حيث الحضارة لم تعترِف بتفوق القوى العلمية على القوى الهمجية.

لقد تمَّ الاعتناء بهم وتجهيزهم على نفقة الدولة، وإذا كانوا لا يتلقون أجوراً نقديةً مثل جنود الجيش النظامي الذي لم يكن يضم سوى العنصر التركي؛ فإنهم كانوا يُزوَّدون بالسلاح والخيل والأبقار لإطعامهم، أما في الغزوات؛ فكان الجزء الأكبر من الغنائم يرجع إليهم. ولهذا كان البايات يفضلون استعمال عناصر الزمالة على العناصر التركية في هذا النوع من الحملات العسكرية؛ فالشراسة التي كانوا يظهرونها في قتل ونهب القبائل البائسة المستهدَفة دليلٌ على تغلب حس الضراوة لدى العربي على حساب الشعور بالأخوة الوطنية؛ وهو الأمر الذي لمسناه في أيامنا هذه ومنذ عام 1830 كلما استعملنا قبيلةً لمعاقبة قبيلةٍ أخرى.

وشيئاً فشيئاً، نشأ بين أناس الزمالة نوعٌ من روح الجماعة التي كان سببها الأول الرابط العائلي، ومن جهةٍ أخرى افتخارهم بحصانتهم الجديدة، وأجبروا أنفسهم على نسيان أصلهم المتواضع بإبداء شعور الاحتقار المتغطرس تُجاه ما كان عنصراً خاضعاً للسُّخرة والاستغلال. وسرعان ما تصاهروا فيما بينهم، وصار الأطفال الناتجين عن هذه الزيجات رجالاً للزمالة كآبائهم، ونتج عن تكاثر هذه العائلات عددٌ يغطي احتياجات الخدمة التي تُطلب منهم دون اللجوء إلى تجنيد عناصر أجنبية. وبذلك تشكلت قبيلةٌ جديدةٌ سمِّيَت «الزمول»، استقرت في بادئ الأمر بالقسم الأعلى لوادي الرمال، لتنتقل لاحقاً إلى السهول الشاسعة التي تقيم بها اليوم جنوب قسنطينة بين جبل ڨريون ونيف النسر، وعند منابع عين فسقية وأعالي وادي بومرزوق.

وفي الختام نقول أن العدد النظامي للفرسان المسلحين الذي كان على القبيلة تقديمه كان يُقدَّر بخمسمئة فارس، وفي العام الذي يتوجه فيه الباي شخصياً إلى مدينة الجزائر لتقديم الدنوش كان الذين يُستدعون لتشكيل موكبه يتلقون سيوفاً ذات أغمادٍ فضية، وقفطاناتٍ، وعماماتٍ من قماش الكشمير، ورداءاتٍ فاخرةٍ لخيولهم. كما أن دخولهم للعاصمة كان يثير، بصفةٍ خاصة، اهتمام الفضوليين، لدرجة أن مؤلف البحث حول الزمول الذي نقلنا عنه أهم المعلومات التي سبقت؛ يقول إن نساء مدينة الجزائر كن

يشترطن على أزواجهن، قبل القران، السماح لهن بالخروج يوم قدوم باي الشرق إلى مدينتهم للترفيه عن أنفسهن بمشاهدة موكبه المتميز.

كان رجب باي هو أولَ من نظَّم رجال الزمالة وسلَّحهم؛ حيث استعملهم لمعاقبة أولاد بوعون الذين نزلوا من جبالهم في بلزمة لنهب ضواحي قسنطينة، وقد كان راضياً عن هذه التجربة الأولى، ولم يتوان البايات الذين جاءوا بعده عن تقليده حتى انتهوا، شيئاً فشيئاً، بتنظيم قوةٍ جديدةٍ لا تشكل أي عبءٍ على الخزينة العامة، وصارت قوةً مساعدةً للعنصر التركي الضعيف من ناحية العدد؛ وخاصةً على مستوى الفرسان مقارنةً مع شساعة البلاد التي يتعيَّن عليهم حكمها والمحافظة على سيطرتهم عليها.

بعد قضائه أربع سنواتٍ على رأس الإقليم عُزل شعبان وعُيِّن مكانه علي خوجة.

علي خوجة باي

1104هـ، 1692م

يقول العنتري إن علي خوجة كان رجل خيرٍ؛ فكان حكمه عادلاً وسيرته مُرضية. وكان أهم حدثٍ وقع في عهده قدوم مراد باي لغزو البلاد.

ففي عام 1112هـ (1700م)، جاء هذا الأمير الذي كان يحكم تونس لحصار قسنطينة على رأس جيشٍ جرار، وأقام معسكره عند أسوار المدينة في المكان المسمى «الملعب»؛ فضيَّق على السكان لمدة ثلاثة أشهر ولكن دون أن يحقق أدنى نجاح، فرفع الحصار واتجه نحو مدينة الجزائر التي طلب السكان المحاصَرون حمايتها.

عندما علم باشا الجزائر (الذي كان قارة بن علي أو خليفته الحاج مصطفى) بالخبر وباقتراب العدو تردد في أول الأمر ولم يعرف أي قرارٍ يتخذ. هل يجب الانتظار عند أبواب المدينة لصده؟ أم من الأفضل التقدم نحوه وتوقيف سيره؟ وتم تبني الرأي الثاني؛ فجُمع بسرعةٍ ما يمكن من قواتٍ، وتوجهت مسرعةً نحو إقليم الشرق.

في هذه الأثناء تقدم مراد باي حتى «مجاز الأحمر»؛ وهي قريةٌ على بُعد مرحلةٍ من سطيف، وكان عازماً على التقدم أكثر عندما قابل هناك الجيوش الجزائرية.

عسكر الجيشان أحدهما مقابل الآخر، وقد كان جيش مراد باي يتألف من سبعمئة خيمة؛ بينما لم يتعدَّ جيش باشا الجزائر المئة خيمة. واعتداداً بتفوق قواته، قال مراد باي مخاطباً جنوده: «لنرتح اليوم، وفي الغد نقض على جيش العدو ونقتل الباشا الذي يقوده، وبعدها نستولي على كامل البلاد دون عناء».

أما من جهتهم، فقد تمكن الخوف من باشا الجزائر وجنوده، وأيقنوا أنهم هالكون لا محالة؛ ولسان حالهم يقول: «إذا قاتلنا فسنُسحَق أمام العدد الهائل؛ إذاً فالفرار، ولكن لا يمكننا الهرب من الموت»، فقرروا محاولة الهجوم ليلاً.

ما إن أحسوا بخلود جيش مراد إلى النوم حتى قام الجزائريون جنوداً وقادةً دون إثارة أي ضجيج، وتقدموا نحو معسكر العدو. وبإعطاء الإشارة انقضوا على المكان وسيوفهم بأيديهم ضاربين في كل جانب؛ حتى أحدثوا مجزرةً رهيبةً في الجيوش التونسية. خسر مراد باي سبعة آلاف رجل، وتفرقت البقية في البادية وهمت بالفرار. وحتى هو نفسه استبد به الذعر؛ فركب حصانه المدعو «كوحيل»، وفرَّ مسرعاً دون توقفٍ من «مجاز الأحمر» إلى «مرج كوحيل»؛ حيث سقط حصانه صريعاً بعد أن قطع مسيرة أربعة أيام مرةً واحدة؛ فأخذ المكان اسم الحصان الهالك. وتوفي علي خوجة يوم التقى الجمعان.

إلى جانب رواية العنتري هذه حول أحد الحصارات الراسخة في ذاكرة قسنطينة المعاصرة، يجب إضافة روايةٍ أخرى لابن عبد العزيز؛ الراوي التونسي الذي كتبها في القرن الثاني عشر الهجري، والتي نشر شيربونو ابتداءً من عام 1851 ترجمةً مثراةً لها بعدة نقاطٍ مهمة؛ حيث نقلها كما يلي[1]:

«في مستهل حكمه، أرسل مراد باي هدايا إلى بلاط الجزائر. وبداعي الكراهية أو الاستياء رفضها الجزائريون، فاستشاط غيظاً وأراد الانتقام لقتل

1. انظر «الجريدة الأسيوية» (Journal asiatique)، عدد جويلية 1851، ص36 وما يليها. كما يمكن الرجوع إلى «الحوليات التونسية» (Annales tunisiennes) لروسو، ص82.

أبيه؛ فلم يفكر سوى في تنظيم حملةٍ ضدهم. لقد أخفى نيته حتى عام 1112هـ (1700م)؛ حيث استدعى أعضاء ديوانه، وعرض على مستشاريه والقادة العسكريين خطته للهجوم على الجزائر. واستناداً إلى رد المجلس؛ «السمع والطاعة»، جمع جيوشه التي أضاف إليها أعداداً كبيرةً من المجندين الجدد، وجهَّز كل عتاد الحرب. ثم كتب إلى خليل باي، حاكم طرابلس، يطلب منه المساعدة والحضور في الحملة التي يجهزها. وبعد كل هذه التحضيرات انطلق على رأس قوةٍ تجر وراءها خمسةً وعشرين مدفعاً.

ما إن اقترب من قسنطينة حتى خرج بايها علي خوجة لمجابهته، فالتحم الجيشان. ولكن علي خوجة مُني بهزيمةٍ نكراء، وتكبَّد خسائر كبيرة. وقام مراد باي بقطع رؤوس القتلى، وأرسلها إلى تونس مع أمرٍ بتعليقها على شرفات القصبة. وفي مواجهةٍ ثانية أسر ابن علي خوجة وزوجته؛ فأكرمهما وأحسن معاملتهما، بينما قام بمجزرةٍ كبيرةٍ وسط الأسرى الآخرين. ولما يئس سكان قسنطينة بسبب الهزيمة اتفقوا على تسليمه المدينة.

لا شك أنه إذا توجَّه إلى المدينة مباشرةً بعد انتصاره الأول لتمكن من دخولها دون عناء، ولكن مرت عدة أيام دون أن يفعل شيئاً؛ فوجد المحاصَرون، بفضل تماطله، الوقت الكافي للنهوض من هزيمتهم الأولى؛ فتهيَّئوا لمقاومةٍ شرسة. وبعد صد عملية الاقتحام؛ حاول مراد باي عبثاً إقناعهم بقبول الأمان، ثم عاود الهجوم من جديد؛ فاستولى على حصنٍ يقع خارج المدينة[1]. وبعد أن ذبح جميع الرجال الذين كانوا يدافعون عن الحصن، وأخذ الغنائم، وأرسل إلى تونس المدافع التي كانت فيه؛ هدمه عن آخره، ولم يترك مكانه سوى أكوامٍ من الحجارة.

1. حول هذا الحصن؛ الذي يحدد شيربونو مكانه في مرتفع كدية عتي الذي يطل على المدينة من الجهة الجنوبية الغربية؛ نقرأ في روايةٍ معاصرةٍ كنا قد أخذنا منها أحداثاً مختلفة ما يلي: «في عام ألف وسبعة وثلاثين (1627-1628م) تم بناء البرج».

مما لا شك فيه بأن هذا البرج أو الحصن ليس هو الحصن نفسه الذي دمره مراد باي، ولكن بما أنه هُدم عن آخره فإن القسنطينيين في هذه الأيام قد فقدوا ذكراه تماماً، كما أن مكانه أيضاً مجهول بالنسبة إليهم كأن لم يكن أبداً.

في خضم هذه الأحداث التحق به خليل باي، حاكم طرابلس؛ فأعطاه مراد باي قفطان الشرف وهدايا قيمة، ثم اتفقا على حصار قسنطينة؛ الذي دام خمسة أشهر. لقد أوشك مراد باي أن يسود عليها عندما وصله نبأ اقتراب الجيش الجزائري. لم يكن الجزائريون يثقون بقائدهم بسبب افتقاده للشجاعة وعدم كفاءته، فخلعوه، واختاروا أميراً جديداً.

توجّه الباشا الجديد على رأسهم لملاقاة باي التونسيين وإبعاده عن أسوار قسنطينة، وتقدم مراد باي أيضاً لمجابهتهم. فلمدة ثلاثة أيام لم يكن يضع رحاله إلا بعد غروب الشمس، ويستأنف سيره قبل فجر اليوم الموالي. وأخيراً وصل الجيشان إلى مكانٍ يدعى «جوامع العلمة» على طريق سطيف، ورغم الإرهاق وتدني معنويات الجنود ركب مراد باي حصانه في اليوم الرابع وأراد الشروع في القتال؛ فحاول ضباطه ثنيه عن ذلك نظراً لحاجة الجيش للراحة، ولضرورة تنظيم عتاد الحرب، وإيجاد الوقت اللازم لإراحة الخيول. وبعيداً عن الأخذ بالرأي الصائب، أشبع باي تونس مستشاريه سباً وقدحاً، واتهمهم بالجبن.

اندلعت الحرب وتصادم الجيشان، ودار رحى المعركة واشتعلت نيران الخراب في كل جانب، وكان الاشتباك شديداً لدرجة أن كثافة الغبار لم تكن تسمح بالتنفس.

مستفيداً من الفوضى العارمة؛ همَّ خليل باي بالفرار مع فرسانه، فعمَّ شعورٌ بالخذلان؛ لأنه كان يُعتقَد أن مراد باي هو من فرَّ من المعركة، فسادت الفوضى جزءاً كبيراً من فرسانه؛ الأمر الذي زاد من عزيمة الجزائريين، فألحقوا بالتونسيين هزيمةً نكراء.

لقد حدث هذا في اليوم الثامن عشر من شهر ربيع الثاني من عام 1112هـ (3 أكتوبر 1700م)؛ حيث سقط العديد من القتلى في صفوف مراد باي ومثلهم من الأسرى في يد العدو. وفي اليوم الموالي لهذا النصر الكبير أعلن باشا الجزائر للأسرى العرب والبربر بأن يجتمعوا وسط المعسكر لتلقي الأمان واقتيادهم إلى مكانٍ آمن، ولكن ما إن تجمّع هؤلاء البؤساء حتى مروا

تباعاً على السيّاف. وبعد إبادتهم جميعاً، حكم الباشا على الأسرى الأتراك أن يحملوا، فوق ظهورهم إلى قسنطينة، المدافع التي غُنِمت من التونسيين، ثم يطلق سراحهم سالمين.

بعدما جمع مراد باي جيشه المهزوم أمام أسوار الكاف، أمره بالتوجه نحو مدينة تونس؛ لأنه كان يعتقد بأن الجزائريين خرجوا في إثره، ونادى أيضاً سكان «توبرسوق» و«تستور» والسكان المجاورين؛ وذلك لتحضير دفاعاتٍ قوية. ولتحقيق هذا الهدف، حصّن أبواب المدينة، ووضع فرسانه ومشاته على أهبة الاستعداد قبل أن يعلم بأن الجيوش الجزائرية قد قفلت عائدةً إلى ديارها».

هذه هي القصة التي نشرها شيربونو حول هذه المحلة، ونكملها بنقل الذكرى التي تركها لنا الرحالة الفرنسي الشهير «بايسونال» (Peyssonnel)؛ الذي زار، بعد خمسةٍ وعشرين سنة، تلك الأماكن التي شهدت نكبة باي تونس، متنقلاً من قسنطينة إلى الجزائر؛ حيث يقول:

«في يوم 13 جوان 1725م، عبرنا سهلاً قاحلاً يتوسطه مسجدٌ يسمى «جامع معمر». ففي هذا السهل علم مراد، باي تونس، الذي حاصر قسنطينة سنة 1700م؛ بأن معسكر الأتراك الجزائريين المتكون من مئة خيمة، أو من أربعة إلى خمسة آلاف رجل، قادمٌ لنجدة المدينة ومواجهة جيشه الذي يقال بأن تعداده بلغ ثلاثين ألفاً؛ وهو ما صدّقتُهُ على مضض، ولكن حقيقةً كان أكبر بكثيرٍ من جيش الجزائر؛ مما يسمح له بالتفوق على أرضٍ سهلية. وما إن نصب معسكره حتى انقض عليه الجزائريون دون أن يتركوا له الوقت الكافي لتحضير نفسه للقتال. لقد سقط عددٌ كبيرٌ من القتلى في ذلك اليوم لدرجة أن جثثهم لم تُدفَن، ومازلنا نجد بقايا عظام القتلى في تلك المنطقة»[1].

1. بايسونال: «رحلة على سواحل بلاد البربر» (Voyage sur les côtes de Barbarie), en 1724 et 1725, par Peyssonnel, publié par Dureau de la Malle, page 332, Premier tome. ففي الصفحة 299 كان قد تحدث عن حملة مراد باي هذه ضد قسنطينة؛ التي يحددها في عام 1705، والتي يقول فيها أيضاً أن مراد قد أُسر؛ وهما خطآن اعتنى بتصحيحهما لاحقاً كما رأينا.

أحمد باي بن فرحات

1114هـ، نهاية 1700م

بعد مقتل علي خوجة دفاعاً عن قسنطينة، خلفه أحمد بن فرحات باي؛ وهو أخ محمد باي، وابن أخ رجب باي. لقد كان إذاً من أصلٍ عربي، وينتمي إلى عائلةٍ كانت قد قدمت قبله ثلاثة بايات. لكن هذا الرجوع الاستثنائي إلى نظامٍ سياسيٍ يضع الإدارة العليا للبلاد في أيدي الأهالي لم يكن يحظى برضا العنصر التركي، والمعارضة المحتملة من طرف الباي الجديد حول هذا الأمر ستُسرِّعُ سقوطه.

بعد حوالي عامٍ ونصف من الحكم، أُلقِيَ الباي أحمد في السجن بأمرٍ من باشا الجزائر، ثم أُعدِم بعد أن تعرَّض لبعض الوقت لعذابات الحبس القاسية، وخَلَفه إبراهيم بايِ العلج.

إبراهيم باي العلج

1112هـ، 1703م

كان هذا الباي مسيحياً قبل أن يُسلم، والدليل على ذلك وصفه بالعلج. ونحن نعلم بأنه خلال تلك الفترة التي كانت تهيمن فيها القرصنة البربرية على حوض البحر الأبيض المتوسط؛ كان العديد من الأسرى يرتدون بسهولةٍ عن دين آبائهم ويعتنقون الإسلام، وذلك إما أملاً في مستقبلٍ أفضل، وإما تناسياً أو تجاهلاً لكل مبدأٍ ديني؛ فكان عددٌ منهم، بشيءٍ من الطموح والموهبة، يتمكن من إيجاد مكانةٍ محترمةٍ وحتى الوصول إلى مناصب رفيعة.

لقد كان هذا الباي رجلاً نشيطاً وذكياً ووسيماً، ولكنه كان يفتقد للمبادئ الأخلاقية؛ حيث كان لا يتورع عن اغتصاب ما يريد من ممتلكات محكوميه.

خلال السنة التي عُيِّن فيها؛ توفي شيخ الإسلام سيدي محمد بن لفقون الذي خلفه ابنه بدر الدين، وقد تم تنصيبه من طرف دُولَتْلِي مصطفى داي،

بموجب عقدٍ مؤرخ في الفاتح من شهر شعبان 1114هـ (21 ديسمبر 1702م) حاملاً في الهامش العلوي أثر ختم كُتب عليه: **المتوكل على الله مصطفى داي**، مع تعليقٍ باللغة التركية، وفي الأسفل تصديق عدلٍ وشخصٍ آخر.

وقد تم تثبيت سلطات الشيخ بعد ثلاثة أسابيع من طرف الباي الجديد، طبقاً لما جاء في وثيقةٍ أصليةٍ كُتبت بأمره وخُتمت كما يلي: **سلامٌ من العبد الفقير لربه إبراهيم بن عبد الله وفقه الله***. كُتبت في العشر الأواخر من شهر شعبان من عام 1114هـ (10-19 يناير 1703م)، وحمل ختمه العبارة: **المفوض أمره لربه إبراهيم بن عبد الله****، مع رقم السنة 1114.

نلاحظ هنا بأن جميع المرتدين عن دينهم يتخذون لأنفسهم كنية «ابن عبد الله»؛ متنكرين بذلك لأسماء آبائهم كما جرت العادة.

في عام 1117هـ (1705م) اندلعت الحرب بين الجزائر وتونس، فتمكنت الجيوش الجزائرية بقيادة مصطفى، داي الجزائر، من الاستيلاء على مدينة الكاف بعد معركةٍ هزموا فيها إبراهيم؛ باي تونس الذي أسروه وأخاه محمد. ومن هناك زحفوا على تونس متبوعين بعددٍ كبيرٍ من القبائل الثائرة؛ فخرَّبوا كل ما وجدوه في طريقهم، وأقام الجيش معسكره في المكان المسمى «بومجوس» لانتظار ما تسفر عنه مفاوضات السلام التي كانت قد بدأت قبل ذلك بين باي تونس الجديد حسين بن علي؛ الذي خلف إبراهيم، والداي مصطفى. لم تحقق المفاوضات شيئاً، وسرعان ما استُؤنفت العداءات (2 سبتمبر 1705). ولكن بعد شهرٍ من الحصار وعددٍ من الهجمات الفاشلة، سارع الجزائريون برفعه؛ وخاصةً بعد تخلي جزءٍ من القبائل التونسية عنهم.

«وخشية أن تحذو البقية حذو هؤلاء، وأن يوجهوا أسلحتهم نحوه؛ قرر الداي مصطفى التراجع سريعاً لتجنب الوقوع بين نارين. فالخطر كان وشيكاً، ووجب تحاشيه بسرعة. وفي ليلة 18 جمادى الثانية (5 أكتوبر)، الشديدة الظلام، حمل الجزائريون متاعهم بسرعةٍ تاركين وراءهم عتاداً كثيراً.

*. نص العبارة ليس أصلياً؛ فهو مترجم عن النص الفرنسي المنقول من الأصل.

**. نص هذه العبارة أيضاً ليس أصلياً.

ومع طلوع الفجر انطلق فرسان حسين بن علي وراءهم، وقد كانت فرحتهم كبيرةً عندما استحوذوا، على بُعد بضع مراحل من تونس، على عتادٍ حربي معتبر كان قد أرسله حاكم عنابة للداي مصطفى. ـ ومن تونس حتى سديرة كان تراجع الجزائريين هزيمةً حقيقية؛ حيث تحرشت بهم، من كل جانب، قوات حسين التي أرسلها لمطاردتهم؛ فأرغمتهم على الإسراع هرباً منها»[1].

إن الأحداث التي يوردها العنتري حول هذه الحملة تختلف نوعاً ما عما سبق. فبالإضافة إلى أنه يؤرخها سنتين بعد ذلك؛ أي يضعها في 1119هـ (1707م)، وهو خطأ زمني (حيث كان باشا الجزائر محمد بقداش وليس مصطفى)، يقول: «وصل مصطفى باشا إلى قسنطينة وزحف على تونس، ولما بلغها عسكر تحت أسوارها مدة أربعة أشهر. وخلال هذه الفترة أجرى محادثاتٍ مع عناصر حاميتها؛ حيث وعدوه بالانضواء تحت إمرته، فأمرهم بالقبض على باي تونس؛ وهو ما فعلوه. ولكن بدورهم طالبوه بالوفاء بوعوده لهم؛ وهو ما لم يتحقق، فانقلبوا عليه وحاربوه. وبانهزامه أجبر على التراجع دون أن يدخل تونس، وعندما وصل إلى الجزائر وجد باشا آخر في مكانه؛ فهرب ملتجئاً إلى زاوية سيدي علي بن مبارك في منطقة الجزائر؛ حيث بقي حتى وفاته». ويقول روسو في الحوليات التونسية بأن بدخوله إلى الجزائر وقع ضحية ثورة، وتم خنقه.

أما إبراهيم باي الذي صاحب الباشا مصطفى في حملته على تونس، والذي كان معه في السراء كما في الضراء؛ فقد وجد نفسه مرغماً على الفرار لكي لا يتعرض للملاحقة الشعبية التي ترتبط دوماً، في البلاد التي تسود فيها القوة، بالمهزوم.

تنحدر من هذا الباي عائلة أولاد بن لبيض؛ إحدى أهم العائلات في قسنطينة*. وقد تم استبداله بحمودة.

---

1. الحوليات التونسية Annales tunisiennes, Rousseau, 1851, p. 97

*. حسب العنتري، تنحدر عائلة بن لبيض من إبراهيم؛ باي تونس، وليس من إبراهيم العلج كما جاء عند فايسات. (المترجم)

حمودة باي

1119هـ، 1707م

كان هذا الباي عربي الأصل، ولا نعرف أي شيء عن حكومته، وينطبق هذا الأمر أيضاً على البايات الخمسة الذين تعاقبوا بعده؛ والذين نكتفي بذكر أسمائهم والسنوات التي عُيِّنوا فيها*.

علي بن حمودة باي

1120هـ، 1708م

حسين شاوش باي

1121هـ، 1709م

عبد الرحمن بن فرحات باي

1122هـ، 1710م

حسين، المدعو دنغزلي باي

1122هـ، 1710م

وكان تركي المولد.

---

*. يقول فايسات إنهم كانوا خمسة، ولكنها هفوةٌ منه؛ لأنهم أربعة فقط، ومع احتساب حمودة يصبحون خمسة (المترجم). ولقد أورد مولود قايد لمحةً مختصرةً عن هؤلاء البايات؛ حيث يقول: «استُبدل براهم العلج باي بحمودة باي، وجاء من بعده ابنه علي (1707-1708)؛ الذي لم يحكم سوى بضعة أشهر. ومن بعده جاء حسين شاوش (1708-1709)؛ الذي استغل الفوضى السائدة في البلاد وفرّ إلى تونس حاملاً معه حصيلة الدنوش. (انظر Berbrugger, in « Epitaphe Ouzan Hassan », Revue africaine (1865), p.121). أما عبد الرحمن بن فرحات الذي جاء بعدهم فلم تدم فترة حكمه أطول من فترات سابقيه؛ حيث تم استبداله بحسين المدعو دنغزلي في 1710، والذي تخلى عن منصبه ولجأ إلى تونس حيث تحصل على مكان في البلاط».

انظر: Mouloud Gaïd, Chronique des beys de Constantine, OPU, s.d., pp.27-29

علي بن صالح باي

1122هـ، 1710م

حكم الإقليم من 1710 إلى 1713م، وتنحى عن السلطة طواعيةً ليسافر إلى مكة. ولدى عودته من رحلة الحج، انعزل عند أولاد خلوف في مجانة بزاوية سيدي أحمد بن علي؛ حيث قضى بقية حياته زاهداً متعبداً.

لقد كان لعلي بن صالح ثلاث بنات؛ زوَّجهُنَّ في أولاد مقران بمجانة[1].

بالنظر إلى السرعة التي تعاقب بها هؤلاء البايات الخمسة خلال أقل من أربع سنوات، واستقالة السادس*؛ يمكننا الاستنتاج بأن هذه الفترة، كما يقول الأهالي، قد تميزت بالاضطرابات والثورات التي خلَّفت مجازر كثيرة وأحداثاً كبيرة؛ غير أننا نفتقد للتفاصيل، ولم يصلنا شيءٌ عن تلك الفترة يمكن أن يثير اهتمامنا.

يذكر بربروغر في مقالٍ بعنوان «شاهدة قبر وزان حسن، فاتح وهران في 1708» (Epitaphe d'Ouzan-Hassan, le conquérant d'Oran en 1708) بأن الداي بقداش الذي لم يستطع دفع رواتب الإنكشاريين بسبب هروب باي قسنطينة إلى تونس حاملاً معه حصيلة الدنوش؛ قد قُتل في شهر مارس من سنة 1710م (محرم 1112هـ)[2]. لم يذكر بربروغر اسم هذا الباي المسرف أبداً، ويعود ذلك، بلا شك، إلى أن الرواية المحلية التي استقى منها هذه القصة لم تزوِّده بهذه المعلومة. ولكن برجوعنا إلى تاريخ مقتل الداي بقداش في شهر محرم غرة العام 1122؛ فإنه من البديهي أن الباي الذي تسبب هروبه في مقتله لا يمكن أن يكون سوى حسين شاوش؛ لأن الحادثة وقعت قبل شهر محرم الذي وافق شهر مارس 1710؛ وهي الفترة المعتادة لدفع الدنوش. وتبعاً للتعاقب الزمني للبايات فإن حسين شاوش كان هو حاكم قسنطينة في

---

1. استقينا هذه المعلومة من زميلنا فيرو؛ المترجم العسكري الذي له دراسة عن أولاد مقران.

*. تصحيحاً لهذا الخطأ، نؤكد مرةً أخرى أن هؤلاء البايات المتعاقبين كانوا أربعةً واستقالة خامسهم. (المترجم)

2. Revue africaine, année 1865, p. 124

سنة 1121هـ، وعليه فهو من قام بسرقة الأموال العامة؛ الأمر الذي تسبب في هلاك الداي بقداش.

لم نستطع الحصول على معلوماتٍ أخرى غير هذا الحدث وبعض النتائج التي نتوصل إليها بفضل استقراءاتنا الخاصة، ولكن بتقدمنا نحو العصور الحديثة يبدأ ليل الجهل والنسيان في الانجلاء، وتصبح الذكريات المتناقلة تقليدياً أكثر وفرة، كما تشكل لنا الوثائق الأوروبية عوناً جيداً. وعليه فإننا سنأخذ من عالم الطبيعيات الشهير بايسونال، الذي زار الإيالة في 1725، بعض التفاصيل المهمة عن شخصية وحكومة الباي حسين الذي خلف علي باي؛ والذي احتفظ التاريخ المحلي بذكرى حيةٍ عنه.

كليان حسين باي، المدعو بوكمية
1125هـ، 1713م

إن الاضطرابات التي هزت الإقليم خلال السنوات السابقة كانت لها ردة فعلٍ مناسبةٍ للحفاظ على سلم وازدهار البلاد تحت قيادة أميرٍ قويٍ بما يكفي لفرض سيطرته، وله من الجدارة ما يسمح له بتطويع حالة التعب التي تعاني منها النفوس لصالح سياسته. هذا الدور المزدوج للسيد المطلق ولصانع السلام كان من نصيب الباي كليان حسين الشهير بـ «بوكمية» (أو صاحب الخنجر). وفترة حكمه الطويلة؛ التي بقيت مستقرةً وخاليةً من أية ثورةٍ طيلة ثلاثةٍ وعشرين سنةٍ متاليةٍ تثبت أنه كان أهلاً لمنصبه.

كان همُّه الأول هو إعادة السلم للبلاد؛ وهو الأمر الذي نجح فيه بشكلٍ تام، والدليل على ذلك أن اثنين من الرحالة الأوروبيين، بايسونال و«الدكتور شو» (Docteur Shaw)، استطاعا في تلك الفترة أن يجوبا الإقليم في أمنٍ تام دون أن يتعرضا لمضايقاتٍ من طرف السكان الذين عبرا أراضيهم رغم كونهما مسيحيين.

عندما التقى بايسونال لأول مرة بالباي حسين (31 جانفي 1725)، كان الأخير معسكراً في سهل سفنية من أجل جمع الضريبة. يقول بايسونال: «كان جيشه متكوناً من اثنتي عشرة خيمةٍ تركية، ضمت كل واحدةٍ منها خمسةً وعشرين رجلاً؛ ما مجموعه حوالي ثلاثمئة رجلٍ كان معظمهم من الأعلاج (المسيحيون المعتنقون للإسلام). كانت الخيام منصوبةً دون أي ترتيب، كما كان يوجد بالمنطقة العديد من «الدواوير»* العربية تشكل خيامها دائرةً تحيط بالمعسكر؛ حيث كان معظم هؤلاء العرب على علاقةٍ مع السلطة ويشكلون عوناً للأتراك[1]. كان للباي ثلاث خيام؛ واحدةٌ له، وواحدةٌ لنسائه والثالثة لمطبخه. الباي اسمه حسين؛ وهو شيخٌ وقورٌ تعدى عمره السبعين عاماً، يحكم البلاد منذ ثلاثة أو أربعة عشر سنة. لقد وجدناه جالساً وسط خيمته على فَرشةٍ عليها ثلاث مخداتٍ كبيرةٍ مربعة؛ والضباط على جانبيه، وكان هناك أتراكٌ جالسون مشكّلين دائرةً حوله، وكان عربٌ وراءهم في وضعية القرفصة وآخرون جالسون، وكان الصف الأخير في وضعية القيام؛ وهو ما شكّل مشهداً جميلاً في خلفيته بعض الأعلاج والعبيد. لم يكن للباي أو الجنرال التركي من شيءٍ مبهرٍ أو خارقٍ يميِّزه، ولم يكن لديه حرسٌ خاصٌ رغم علو سلطته. لم يكن يعرف قانوناً غير إرادته؛ حيث كان يرتعش كل شيءٍ أمام إمرته»[2].

وبعد الحديث عن القوات العسكرية للإيالة، وضريبة الدنوش، وبعض قادة العشائر يواصل الرحالة: «أول هؤلاء القادة هو بوعزيز؛ الذي طالما أقلق باي تونس وباي قسنطينة على حدٍ سواء، ولقد تعرَّض العام الماضي لهجومين من طرف هاتين القوتين؛ وهو ما يستحق أن نورده.

السلطان بوعزيز هو قائد أو شيخ أمةٍ[3] عربيةٍ تسكن بلاداً تسمى بلاد

*. الدواوير: كلمةٌ عاميةٌ جزائرية؛ وهي جمع دوار، وتعني المضارب. (المترجم)

1. لقد كانوا ناس الزمالة الذين تحدثنا عنهم آنفاً.

2. Peyssonnel et Desfontaines, Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger, publiés par M. Dureau de la Malle, en 1838, page 289

3. من المؤكد أن معنى كلمة «أمة» (nation) التي استعملها بايسونال لا يمكن أخذه في سياقه الطبيعي؛ فهو يقصد بها معنى أضيق يتعلق بكلمة «قبيلة».

الحنانشة؛ تقع في حدود مملكتي تونس والجزائر بنوميديا بالصحراء... إنه رجلٌ قويٌ يستطيع أن يجنِّد ثمانية آلاف فارس. وفي العام المنصرم (1724)، أغار عليه باي قسنطينة وباي تونس؛ حيث أنه من عادة الأتراك الإغارة على القبائل التي يريدون إخضاعها دون أن يتركوا لها الوقت للدفاع عن نفسها، ويأخذون ماشيتها. هوجم السلطان بوعزيز (وهو اللقب الذي منحته إياه قبيلته)، وهُزم من طرف حسين، باي قسنطينة، الذي سلبه ثمانية آلاف جمل وعدداً من البقر وحتى الخيام. غير مقتنع بهذه الغنيمة، أراد الباي القبض على بوعزيز؛ الذي خذله ضعاف النفوس أمام التفوق التركي الذي انتزع منهم شجاعتهم، فقالوا له صراحةً بأنهم قرروا الخضوع. واستسلم هذا السلطان البائس لليأس والضياع عندما قامت ابنته المسماة علجية بنت بوعزيز بن ناصر، وارتدت أجمل ما لديها من ثياب وركبت حصانها، ودعت قريباتها وصديقاتها من نساءٍ وفتياتٍ لركوب الخيل مخاطبةً إياهن: «ـ بما أن الرجال ليست لهم الشجاعة لمواجهة الأتراك الذين سيأتون قريباً لاغتصابنا أمام أعينهم؛ فلنذهب بأنفسنا نبيع حياتنا وشرفنا ولا نبقى مع الجبناء». ثم كشفت عن نهدها وأظهرته للرجال، وصاحت فيهم: «ـ يا أولاد ناصر، من يريد أن يرضع من هذا الحليب ما عليه إلا أن يتبعني!». بتأثرهم بالموقف البطولي لهذه المرأة، انقض العرب على معسكر الأتراك بكل ضراوة، واسترجعوا جزءاً من الغنيمة التي سُلبت منهم، كما أسروا الخليفة (خليفة الباي) وقاموا بنهب الأتراك. تستحق هذه القصة أن تُسجَّل في التاريخ؛ فهي تشبه قصص نساءٍ أخرياتٍ نجدهن في جميع البلدان مثل «جان دارك» (Jeanne d'Arc)»[1].

يذكر بايسونال امرأةً أخرى هي الأميرة أم هانئ زوجة قائدٍ كان يحكم منطقةً بالصحراء؛ التي تزعمت قومها بعد وفاة زوجها. يقول: «لقد قادت جيشها في عدة معارك ضد الأتراك، وقامت بأعمال بطولية تاريخية جعلتها محل احترام وخشية من طرف قومها وجيرانها وحتى الأتراك أنفسهم. ولقد هزمت باي قسنطينة في عدة مناسبات؛ والذي من أجل كسب تحالفها

1. المرجع السابق، ص292 وما بعدها.

وصداقتها تزوّج في العام الماضي ابنتها. إنه من الغريب أن نرى امرأةً فارسةً تقود وتسود قوماً يحتقرون الجنس الأنثوي».

«في 2 فبراير غادر بايسونال معسكر الباي، ووصل مساءً إلى قسنطينة، حيث قضى بها ثلاثة أيام، ثم عاد إلى بونة، ومنها انطلق في 6 يونيو إلى مدينة الجزائر مروراً بقسنطينة مرةً أخرى. ولكن للحصول على المرافقة اللازمة إلى عاصمة الإيالة؛ كان عليه الاتصال بالباي الذي كان في تلك الأثناء معسكراً على رأس جيشه بالقرب من أطلال زانة على تخوم أراضي أولاد عبد النور، والتحق به هناك في الوقت الذي استسلم له فيه هؤلاء بعد أن هزمهم بسياسته وسلاحه على حد سواء»[1].

كانت المقابلة بتاريخ 14 يونيو. يقول بايسونال: «كان مع الباي خمسٌ وعشرون خيمة، أو حوالي ستمئة تركي، كما قام بنشر باقي القوات التي أرسلها له الديوان؛ فكانت عشر خيام في نواحي سطورة وجيجل وبلاد القبايل، وكان أحد ضباطه يقود عشر خيام أخرى في ناحية الحنانشة. لقد أحسن استقبالنا... وفي اليوم الموالي لوصولنا، رفع معسكره وسرنا معه...»[2].

في يوم 15 وصلت المحلة التي كان ضمنها صاحبنا الرحالة؛ إلى عين طاقة، وفي يوم 16 إلى أم الأصنام، وفي يوم 17 وصلت إلى مدراسن. ولم تكن تقطع سوى أربع مراحل يومياً، وفي يوم 18 عسكرت بالقرب من ساقية تسمى «واد سركة». يقول الراوي: «كان الباي يتقدم في جبال الأوراس لمطاردة السلطان بوعزيز؛ الذي كان قد التحق بصهر الباي الذي يتزعم تلك المنطقة. وبمجرد أن وصلنا إلى السهل الذي زرعه قوم صهر الباي؛ قام الباي بإطلاق جميع الخيول والجمال وسط الزرع، وفي المساء أضرم النار فيه؛ وبذلك تم إتلاف غلة تلك البلاد. ففي بعض المناطق حال القحط دون نمو البذور، وفي مناطق أخرى وسائر أنحاء المملكة أتى الجراد على كل شيء، وأفسدنا نحن القليل المتبقي، وقام الموريون، من جهتهم، بإضرام النار أيضاً

---

1. انظر Notice sur les Oulad-Abd-en-Nour, 1864, par Féraud, interprète de l'armée
2. المرجع السابق، ص325.

في المناطق التي من المتوقع أن نمر بها. هكذا كانت سياسة هذه البلاد بإتلاف وإفساد كل شيء. وقضينا يومي 19 و20 في المعسكر؛ حيث عالجتُ الحاج عباس[1] الكاتب الكبير أو وزير الباي.

وفي يوم 21 توقفنا بالقرب من أطلال «فرقاس» (Avèges)؛ التي يمكن أن تكون «فاقا» (Vaga) القديمة، والتي لم نجد بها شيئاً معتبراً... وفي يوم 22 دخلنا إلى جبال الأوراس... إنها مأهولةٌ بأناسٍ شجعان منحدرين من قدماء الشاوية؛ الذين يتحدث عنهم مارمول. بلجوئهم إلى هذه الجبال؛ لم يكونوا يخشون الأتراك الذين لم يكونوا يستطيعون الوصول إليهم في الحصون التي أهدتهم الطبيعة إياها، ولكن لأنهم مرغمون على النزول إلى أماكن منبسطة لزراعتها؛ يجبرهم الأتراك على دفع الغرامة، وفي حالة العكس يحرقون غلالهم أو يسلبوهم إياها. هؤلاء القَوم؛ الذين يدعون أولاد بلقاسم، أو يمكن أن تكون لهم أسماء أخرى بسبب وجود عدة فروعٍ أو عائلاتٍ في تلك الجبال؛ كانوا تحت قيادة «سي سديرة»[2]؛ أحد أشجع الرِّجال الذين ظهروا في تلك المنطقة. لقد تعرض للخيانة والقتل بأوامر من الباي؛ الذي تزوج ابنته بعد ذلك، وأصبح، اليوم، ابنه صهر الباي هو القائد. وفي يوم 24، قام السلطان بوعزيز وصهر الباي بإرسال رسولين بكتابين من أجل الوصول إلى تسوية، غير أن الباي؛ الذي لم يكن يريد أن يسمع أي شيءٍ بعد هزيمة خليفته العام السابق على يد عرب بوعزيز بقيادة ابنته علجية، قام بقطع رأسيهما دون تردد»[3].

ولكن لم تقع أية عملية بين قوات الباي وقوات بوعزيز، واستراحت الحامية حتى 4 يوليو بالقرب من «لامبيز» (Lambèse)؛ الأمر الذي سمح لرحالتنا بالتنقل بين تلك الأطلال الجميلة التي تُجرى بها اليوم عمليات استكشافٍ مستمرة منذ عشرين عاماً، ولم تكن كافيةً بعدُ لاستنفاذ هذا المنجم الزاخر بالثروات الأثرية. لقد اكتفى الباي ببعض ما قدمه هؤلاء،

1. الحاج عباس بن جلول الذي سنتحدث عنه لاحقاً.
2. كان هذا هو اسمه على أغلب تقدير.
3. المرجع السابق، ص335 وما بعدها.

سكان تلك الجبال، من أبقارٍ وبغال. وبعد ذلك سلك طريق قسنطينة. وفي يوم 10 استراح المعسكر بالقرب من أطلال سيڤوس.

وبعد يومين؛ أي في 12 يوليو، طلب بايسونال من الباي الإذن بالرحيل لمتابعة مهمته؛ وذلك بالذهاب إلى مدينة الجزائر براً. وهذا ما قاله الرحالة مادحاً هذا الأمير:

«لا يمكنني أن أصمت عن الإكرامات التي خصني بها حسين باي. فبعد أن تركني السيد «سالف» (Salve)[1]؛ منحني هذا الجنرال خيمةً تأويني مع فرقتي، وأمر بجلب الطعام لي ولخدمي، وإعطاء الكلأ لخيولي... بالإضافة إلى هذا؛ كثيراً ما كنت أحظى بشرف تناول الطعام معه، كما كنت أشرب قهوتي وأدخن في خيمته بدعوةٍ منه... وكنت أيضاً صديقاً لوزيره الذي كان أقرب إليَّ من الباي؛ حيث كنت أتناول الطعام عنده يومياً. لقد وجدت في ذلك المعسكر كل موجبات البهجة، ليست التي يمكن أن يتمناها مسيحي، ولكن تلك التي يمكن أن توفرها سلطةٌ تركية. ولدى مغادرتي؛ أرسل إليَّ الخزندار أو المكلف بالخزينة ومعه أمرٌ بتزويدي بالخبز، والأرز، والمربى، والتمر، والكسكس، وكل ما يمكن أن يكون ضرورياً. وتتويجاً لوفائه أهداني فرساً جميلةً يوم مغادرتي»[2].

هنا تتوقف علاقة الرحالة الفرنسي بالباي بوكمية، وليس لدينا أكثر مما زودنا به راوٍ مُطَّلِع وأمينٍ في نقل ما رأى مثله؛ فكان علينا تجاوز فترة عشر سنواتٍ لم تنقل عنها الروايات المحلية شيئاً لننتقل مباشرةً إلى سنة 1735 التي شهدت وقوع الحملة التاريخية على تونس، وسنذكر الأسباب التي أدت إليها وفقاً لما جاء في كتاب ألفونس روسو[3].

بعد الاضطرابات التي نشبت بين حسين باي؛ الذي كان يحكم إيالة تونس، وبين ابن أخيه علي باشا؛ الذي دفعه طموحه المجهض إلى الثورة، اندلعت

1. السيد «سالف» (Salve) كان حينها عميلاً بشركة إفريقيا في بونة، وقد رافق بايسونال في رحلته الثانية من أجل أن يقدمه للباي ويوصيه به خيراً، وليكلمه في الوقت نفسه عن بعض شؤون الشركة. وكان قد تركه في معسكر أم الأصنام للرجوع إلى بونة.

2. المرجع السابق، ص363.

3. Annales tunisiennes, p.112 et suivantes.

العداوة بشكلٍ صارخ بين الأميرين. غير أن هذا الأخير، بعد أن قاد الثورة لبعض الوقت؛ شهد إبادة جيشه، ففر مع ابنه يونس إلى الأراضي الجزائرية؛ حيث طلب اللجوء ودعم الداي الحاكم الذي كان وقتئذٍ عبدي باشا.

طيلة عدة سنواتٍ، ورغم طلبات باي تونس المتكررة بالقضاء على غريمه؛ لم يرغب عبدي باشا في اتخاذ أي قرارٍ غير الإبقاء على ضيفه سجيناً مقابل مبلغ عشرة آلاف قطعة ذهبية فرض على الباي دفعها للخزينة العامة بشكلٍ منتظم. ولكن مع مطلع 1735 لم يعد يُدفع هذا المبلغ، ورضخ إبراهيم الذي خلف عبدي لطلبات مناصري علي باشا الذين كانوا كُثراً في الإيالة؛ فحمل السلاح من أجل سجينه.

لقد جهز ثلاثة آلاف رجلٍ بقيادة الخزندار، وأسند قيادة ألفٍ لعلي نفسه، وكتب إلى باي قسنطينة بأن يلتحق به بما يستطيع أن يجمع من قوات.

عندما وصل الجيش المنطلق من مدينة الجزائر إلى قسنطينة؛ كان بوكمية مستعداً بقواته النظامية وغير النظامية، وحينها صار الجيش مكتمل التعداد، ويمكنه الزحف على تونس دون تأخير. كان ذلك في شهر ذي الحجة 1147هـ (مايو 1735م).

بينما كان الجيش الجزائري زاحفاً على باي تونس؛ نكص هذا الأخير واقترح على الداي، بوساطة باي قسنطينة، أن يدفع له 5000 قرشٍ مقابل العدول عن مشاريعه، ولكن هذا العرض جاء متأخراً جداً؛ لأن الجيش المعادي كان قد عبَرَ الحدود، وكان العدوان قد اندلع. حينئذٍ تقلد الباي قيادة جميع القوات التونسية لمواجهة الجزائريين (أواخر شهر ربيع الأول 1140هـ، 19 أغسطس 1735م)[1].

التقى الجمعان على ضفاف واد مليانة في سمنجة، وطيلة ستة عشر يوماً اقتصرت المواجهات على بعض المناوشات بين الفرسان. غير أن المجندين العرب الذين كان الباي يعتقد أنه يمكن الاعتماد على وفائهم؛ انسحبوا سراً، ويُحتمل أنهم انضموا إلى قوات العدو؛ فأدت هذه الردة إلى تعطيل التحرك الشامل.

1. يقول العنتري إن ذلك حدث بالقرب من القيروان، ولكنه خطأ بالتأكيد.

«بأمرٍ من كليان (حسين بوكمية)؛ حاكم قسنطينة والعدو اللدود لحسين باي، بدأ جزءٌ من الجيش الجزائري السير مع حلول الظلام، فعبَرَ النهر في هدوء، ودار وراء خنادق التونسيين؛ بحيث يضعونهم بين نارين. وعن طريق عيونه، علم حسين باي بهذه العملية فقرر التحرك؛ حيث ترك لابنه، محمد باي، حراسة المعسكر والدفاع عنه، وانطلق على رأس قوةٍ كبيرةٍ من جيشه نحو حامية العدو. ولكن هذه الأخيرة قامت بحركةٍ جديدةٍ؛ حيث جعلت النهر يفصل بينها وبين التونسيين، فلم تتمكن قوة حسين باي من ملاقاتها. أما محمد باي الذي مكث في المعسكر، علِم بأن حاميةً جزائريةً أخرى كانت في مرمى ضرباته؛ فسار مسرعاً لملاقاتها، وبوساطة فرسانه وبعض قطع المدفعية التي وُجِّهت قذائفها بعنايةٍ شديدة، نجح في تشتيت الجزائريين وأسر عددٍ منهم[1]. وفي هذه الأثناء وصلت الحامية الجزائرية التي يقودها كليان، وسط الدخان الكثيف، إلى المعسكر التونسي الذي بقي تقريباً دون دفاعات، واستولى عليه دون عناءٍ كبير. وبعلمه بهذه الفاجعة سارع حسين باي بفرسانه نحو الموقع للعمل على صد الهزيمة، ولكن الأوان كان قد فات؛ حيث أن أعداد العدو تفوقت على براعة قواته»[2].

وبعد إصابته في الفخذ؛ سارع بجمع ما تبقى من جيشه، ولما بلغه بأن كتيبة ابنه التي جاءت لنجدة المعسكر قد هزمت هي الأخرى؛ أمر بالانسحاب إلى «زغوان» ثم إلى القيروان؛ حيث التحق به ولداه محمد وعلي باي. لقد وقعت هذه المعركة الحاسمة في يوم 16 ربيع الثاني 1148هـ (4 سبتمبر 1735م).

من خلال هذه القصة ندرك أن شرف ذلك اليوم يعود إلى باي قسنطينة، وبأن النصر المبين الذي حققه الجزائريون كان يمكن أن ينقلب إلى هزيمةٍ نكراء دونه.

وفي اليوم الموالي قررت السلطات التي بقت في مدينة تونس أن تعلن

1. أي الذين كانوا يشكلون جزءاً من القوة التي كان يقودها الخزندار أو علي باشا.
2. لا يجب نسيان بأن هذه القصة رواها مؤرخ تونسي هو الحاج حمودة بن عبد العزيز الذي حاول، بحكم حسه الوطني، التخفيف قدر الإمكان مما ألحقته هذه الهزيمة من إهانة.

استسلامها فوراً، وكان الدخول الاحتفالي لعلي باشا؛ الذي نصبته الجيوش الجزائرية على العرش في السابع من شهر سبتمبر.

بقي الجيش الجزائري عشرة أيام أخرى معسكراً عند أسوار المدينة؛ التي نُهب جزءٌ منها من طرف مجموعاتٍ من الجنود غير المنضبطين. وبعد ذلك رُفع المعسكر، وبدأ السير نحو الحدود الغربية جاراً خلفه خمسةً وثلاثين بغلاً محملةً بالمال؛ هو قيمة خسائر الحرب التي دفعها علي باشا لإبراهيم خزناجي؛ عدا الضريبة المقدرة بخمسة آلاف قرش التي تعهدت الإيالة بدفعها سنوياً لحكومة الجزائر[1].

بعد أن أثبت في هذه الحملة مقدرته في الحرب كما في السياسة، استُقبل الباي بوكمية في قسنطينة بحماسٍ كبير. فنظم الشعراء قصائد في مدحه، وبادر مواطنوه بالتعبير عن حبهم وتقديرهم الشديدين له.

في ربيع السنة الموالية طلب من باشا الجزائر السماح له بالمثول أمامه شخصياً لتقديم تحياته. ولما تمت الموافقة، رحل إلى العاصمة على رأس موكبٍ مميز ومعه ضريبةٌ معتبرةٌ سمحت له بكسب احترام ولطف الباشا وبلاطه. فحظي باستقبالٍ رائع، وثبَّته الباشا في منصبه، كما غمره بعبارات الشكر والمدح.

بعد قضاء ثمانية أيام من الاحتفالات والتكريمات؛ عاد بوكمية إلى قسنطينة متابعاً إدارته بعد أن كسب قلوب مواطنيه، وبقي كذلك حتى وافته المنية في بحر عام 1149هـ (1736م).

1. عند عودته إلى الجزائر؛ أظهر الخزناجي ضغينةً كبيرةً تجاه الرعايا الفرنسيين الذين لم يقدموا له هدايا كما جرت العادة، وهو ما جاء في مقطع ورد في الوثيقة رقم 35 من الأرشيف (Recueil des archives) المنشور من طرف «ألبير دوفولكس» (Albert Devoulx)، ص39؛ حيث يقول: «اليوم، الثالث عشر من مارس من عام ألف وسبعمئة وسبع وثلاثين، نحن الممضين أسفله، أخذنا بعين الاعتبار الممارسات المطبقة في بعض المناسبات؛ والتي من بينها ظهر لنا بأنه من الواجب، لدى عودة الخزندار المزمعة غداً بعد غيابٍ دام ستة أشهر؛ مع تذكرنا أيضاً شعور الضغينة الذي أظهره لدى عودته من تونس منذ سبعة عشر شهراً، وبأن الأمة الفرنسية قد امتنعت عن تسجيل المناسبة السعيدة بتخصيصه بهديةٍ لدى عودته، فارتأينا بأنه من اللازم إهداؤه قفطاناً مُذَهَّباً».

لقد دام حكمه ثلاثةً وعشرين عاماً؛ فكان أطول البايات المتداولين على قسنطينة حكماً. وعند وفاته كان عمره متقدماً جداً؛ فإذا كان يبلغ، كما يقول بايسونال، أكثر من سبعين عاماً في الفترة التي رآه فيها؛ أي قبل إحدى عشرة سنة، وهو ما يستدعي الملاحظة؛ فإنه يكون ابن ثمانين سنة عندما شارك في الحملة على تونس؛ حيث استطاع قيادة جيوشه وتحمل عناء حملةٍ بعيدةٍ ومضنية.

يحدد مؤلف أول عملٍ حول تاريخ قسنطينة، صالح العنتري، وفاة هذا الباي في سنة 1140هـ (1727م)، ويذكر أن فترة حكمه لم تدم سوى خمسة عشر سنة. ولكنه خطأٌ بالتأكيد؛ لأن الحملة على تونس، التي يقول هو نفسه أن الباي كان له الفضل الأكبر في نجاحها، قد وقعت في عام 1148هـ. ومن جهةٍ أخرى، نرى من خلال رقم السنة المنقوش في ختم الباي بوحنك الذي خلفه بأن الأخير قد تقلد الحكم في سنة 1149هـ (1736م). وصحيحٌ أن العنتري قد سرد وقائع حملة تونس دون تحديد تاريخها؛ وهو ما تعوَّد عليه الرواة الذين سبقوه.

إنه تحت حكم هذا الأمير تم تشييد مسجد سوق الغزل الذي حوَّله الفرنسيون إلى كنيسةٍ كاثوليكية، وأصبح اليوم كاتدرائية منذ أن صارت قسنطينة أسقفية. إن مؤسس هذا المسجد كان الحاج عباس بن جلول؛ الذي كان يشغل منصب باش كاتب أو الوزير حافظ الأختام؛ والذي كان لبعض الوقت الصديق الحميم والمضيف المفضل لبايسونال.

لقد أورد شيربونو في مقالٍ في الحولية الأثرية لإقليم قسنطينة[1] اسم المؤسس الحقيقي لهذا المسجد، اعتماداً على المعلومات التي زوَّده بها حفيد عباس؛ وهو مصطفى بن جلول القاضي الحنفي السابق لقسنطينة. ففي سنة 1143هـ (1730م) قام الحاج عباس ببنائه على نفقته. غير أن الباي حسين؛ الذي لم يكن مُنزَّهاً عن بعض الضعف المتعلق بالحسد والغيرة من أن ترتبط شهرة هذا الصرح باسم باش كاتبه المنقوش على النصب الأمامي للبناء؛

1. انظر Annuaire archéologique de la province de Constantine, année 1854, p.102

قد وضع اسمه على رخامةٍ تخليدية للذكرى بدل اسم مؤسسه الحقيقي بعد وفاته. والجدير أيضاً أن نضيف بأنه قبل الإقبال على تزييف هذا النقش الأثري؛ كان قد اشترط على الحاج عباس أن يدعه يساهم بنصف المصاريف، ولم يحصل حذف اسم عباس ووضع اسمه إلا بإيعازٍ من الثالبين الحاسدين. إن هذا التصرف لا يفسد بأي حالٍ من الأحوال صورة هذا الأمير؛ الذي يجب أن نعتبره كواحدٍ من أحسن وأعقل حكام هذه البلاد الذين لم يمثل الأخيار منهم إلا استثناءً. وقد خلفه الباي حسن بوحنك.

حسن باي بن حسين، المدعو بوحنك

1149هـ، 1736م

إن أغلبية القوائم الكرونولوجية المنشورة حتى اليوم تشير إلى هذا الباي باسم حسين، ونحن ندعوه باسمه الحقيقي، حسن، مثلما يحمله ختمه الذي وجدناه موضوعاً على عددٍ من العقود التي مرت علينا. لقد كان من الحكام القلائل الذين دامت إدارتهم لفترةٍ طويلةٍ نسبياً في البلاد.

سائراً على خطى سلفه، استطاع مثله الحفاظ على الطمأنينة طوال فترة حكمه؛ وهو الشرط الأول للازدهار والرفاهية العامة، وتكريس أعماله للسّلم بينما اهتم آخرون بالحرب والتخريب. فقد شيّد مسجد سيدي لخضر الذي يعتبر من أجمل مساجد قسنطينة بمئذنته الثمانية التي لا يقل ارتفاعها عن خمسةٍ وعشرين متراً، ولم تتم الأشغال به إلا مع نهاية شهر شعبان من عام 1156هـ (أكتوبر 1743م) وفقاً للنقش الذي يزيّن مدخله الرئيسي[1]. كما انشغل أيضاً بتغيير مظهر المدينة التي لم تكن تمثل في تلك الفترة، حسب بايسونال، سوى بيوتٍ رديئة البناء؛ حيث بُنِيَ قسمٌ منها بالآجر المحمى، وقسمٌ آخر بالآجر الطيني البسيط، وكانت مغطاةً بقرميدٍ دائري. أما الشوارع فقد كانت ضيقةً وعشوائية، وسخةً في الشتاء وغير مبلّطة، ولم تكن توجد بها أية ساحةٍ

1. انظر النقوش العربية لإقليم قسنطينة، لشيربونو في Annuaire archéologique de 1856, p.105

وأي صرح يستحق أدنى الاهتمام. لقد أدخل ذوق البناءات الجميلة، وشيّد بعض النُصب الأنيقة، وأعطى انتظاماً أكثر للشوارع.

إن الذين رأوا قسنطينة وشوارعها، ولو بضع سنواتٍ بعد الغزو، يكونون قد وجدوا، دون شك، صعوبةً في تخيُّل ما كانت عليه هذه المدينة، أو بالأحرى مجموعة الأكواخ المتلاصقة خِلطَ مِلطَ بين أزقةٍ ضيقة قبل التحسينات التي قام بها الباي بوحنك، ثم صالح باي من بعده.

لقد شدَّت الإصلاحات الإدارية اهتمامه أيضا. حيث كان هو من نقل معسكر الزمالة؛ الذي كان منذ عهد الباي رجب يحتل القسم الأعلى لوادي الرمال، وجعله في منطقة «تيكمارت».

إن اشتهاره بالشجاعة أدى بباي تونس السابق بمحاولة التحالف معه. ذلك الباي هو حسين الذي قامت الجيوش الجزائرية، قبل بضعة أعوام، كما رأينا آنفاً، بإرغامه على مغادرة عاصمته، وترك العرش لمنافسه علي باشا. وقد لجأ حسين إلى القيروان؛ حيث حاصرته قوات علي منذ قرابة خمس سنوات، ولما ضاق بالحصار ذرعاً أرسل إلى قسنطينة ابنه محمد باي؛ الذي كان يحكم منطقة سوسة والسواحل المجاورة لها، وذلك للعمل على كسب دعم قضيته من طرف حاكمها. وتنقل محمد باي إلى هناك في منتصف عام 1152هـ (1739م)، بينما حاول أخوه، علي باي، تجنيد أكبر عددٍ ممكن من رجال قبائل الشرق الكبرى؛ ولكنه فشل في ذلك.

رغم ما يحمله مثل هذا العرض من إطراءٍ لشخصه وافتزازٍ لطموحه، إلا أن بوحنك لم يُرِد إطلاقاً خيانة قضية علي باشا التي سبق وأن ناضل من أجلها سلفه بوكمية. بل إنه ذهب أبعد من هذا؛ حيث أمضى مع علي باشا معاهدة تحالفٍ دفاعيةٍ وهجومية. ومما ليس فيه شكٌّ أن الدعم الذي قدمه له في هذه الظروف، سواءً بالرجال أو بغير ذلك، قد ساهم في سقوط القيروان. فسقوط هذه المدينة على يد قوات علي باشا، بمساعدة التعزيزات الأجنبية، بتاريخ 16 صفر 1153هـ (12 مايو 1740م)؛ قد أنهى الحرب الأهلية التي عصفت بتونس منذ سبع سنوات. لقد قُتل حسين باي، لدى فراره، من

طرف يونس ابن أخيه؛ الذي قطع رأسه، ولجأ اثنان من أبنائه إلى الجزائر. أما الثالث، علي باي، فقد اختار أن ينسحب إلى قسنطينة[1]؛ حيث خصه الباي بضيافةٍ كريمة، رغم أنه كان مناوئاً لنوايا أبيه وعائلته.

لم يتكدر حكم بوحنك إلا بثورة أولاد صاولة. فهؤلاء المناصرون للنظام السابق الذين رأيناهم، طيلة ما يقارب مئة عام، يكافحون استقرار الأتراك تارةً سراً وتارةً علناً، ورغم مرور الزمن وعديد الهزائم التي نجمت عن محاولاتهم؛ لم يتخلوا عن نواياهم المتعلقة بقسنطينة وترابها. لقد شن عليهم الباي حرباً شعواء، وتابعهم دون انقطاع حتى قُضيَ عليهم بالنار، ودُحروا بالهزائم المتتالية التي ألحقها بهم؛ فأتوه يطلبون الأمان. لقد كانت آخر انتفاضةٍ للوطنية العربية ضد غزو الأتراك، وأفل نجم الحزب العتيق شيئاً فشيئاً. ومنذ ذلك الحين لم يفكر أحدٌ في رفع هذه الراية التي أغرقها استبداد المتصرين، غير مرةٍ، في دم حامليها.

في عهد هذا الباي، يقول العنتري، وقع حدثٌ يستحق أن نورده لأهميته بالنسبة لتاريخ تلك الفترة؛ فسمي ذلك العام به: عام الحرب المصطنعة أو الكاذبة. وهذه تفاصيله:

نشبت خلافاتٌ بين باشا الجزائر والباش آغا المكلف بإدارة الشؤون العربية. وبما أن هذا الأخير كان يتمتع بتأثيرٍ كبير، لم يتجرأ الباشا على قتله علناً؛ فقرر التخلص منه بمكيدةٍ نسج وقائعها كما يلي.

لقد قام باستدعائه، وأخبره بشكلٍ سري وصدقٍ مخادع: «إن باشا تونس أظهر لنا العداء برفضه القيام بالتزاماته نحونا. وعليك أن تذهب إلى باي قسنطينة لتجهزا معاً جيشاً تغزوان به الأراضي التونسية. فإن خاف الباشا وأذعن أمام هذا الاستعراض؛ تكونا عندئذٍ قد حققتما الهدف المرجو، ولا تذهبا أبعد من ذلك. وأما إن قاوم؛ فواصِلا زحفكما نحو العاصمة، وانتظرا التعزيزات بالرجال وبالذخيرة التي سأرسلها إليكما».

سارع الباش آغا بمغادرة مدينة الجزائر آخذاً على محمل الجد المهمة التي أوكلت إليه، معتقداً أنه يسارع نحو مجده بينما كان يهرع إلى حتفه.

1. Annales tunisiennes, p.119 et suivantes

وفي الوقت نفسه، قام باشا الجزائر بإخطار الباي بوحنك في كتابٍ سري كان نصه: «إن الباش آغا بدسائسه ومكائده أصبح مذنباً بتهمة خياننا. وحيث أننا لا نستطيع إعدامه علناً؛ فقد كلفناه بمهمةٍ ضد إيالة تونس، وعندما يصل عندكم نفذوا أوامره، وسارعوا إلى الحملة. ولكن عندما تكونون في الطريق اقضوا عليه سراً وادفنوه، ثم عودوا أدراجكم وتخلوا عن هذه الحملة».

عندما وصل الباش آغا إلى قسنطينة، ووفقاً للتعليمات التي تلقاها؛ سارع إلى تنفيذ أوامره، وجمع كل ما استطاع من قوات فرسانٍ ومشاة. وما إن استعد الجيش حتى غادر القائدان المدينة. وبدأ السير، ولكن بعد بضعة أيام خان الباي ثقة صاحبه بجعله يتناول مشروباً مسموماً أحرق أحشاءه؛ فمات لتوه. وبإتمامه لمهمته، قفل الباي عائداً إلى قسنطينة وهو راضٍ، دون شك، على تنفيذه لأوامر سيده.

يجب الإقرار بأن هذا التصرف لا يعتبر مبعثاً للفخر بالنسبة للباي بوحنك، ولا حتى بالنسبة لسيده الباشا؛ غير أنه كان الحدث الوحيد الذي أورده المؤرخ العنتري حول هذا الأمر. عدا هذا، لم يذكر أي تعليقٍ أو استنكارٍ لهذا الموضوع ما دام أن الخيانة في الحكم التركي كانت شيئاً عادياً، ويدخل في العرف العام. أما بالنسبة لنا، نحن الذين ندرك بشكلٍ آخر قوانين الشرف والولاء، نعيب هذه العجرفة الحقيرة التي أبداها الباي بوحنك، في تصرفٍ خائن، لينفذ إرادة سيدٍ جبانٍ لم يستطع حتى معاقبة خادم علناً؛ كان مشتبهٌ فيه بالتخطيط للثورة.

على أية حال، فإن هذا الرجل كان صاحب قلبٍ حساس، وكان يدرك معنى الألم المعنوي لأنه قد تعرض له شخصياً. فلدينا الدليل في رسالة تعزية كان قد أرسلها إليه، بعد بضع سنوات، صديقٌ له؛ هو شيخ عنابة، أحمد زروق، في وفاة حفيده محمد: «**قمرٌ جديدٌ مضيء، نجمةٌ لامعةٌ بالنور، برغم شبابٍ متفتح، أملٌ مولود؛ فَقَدَهُ الأهل والأصحاب. فاليوم يرقد في حفرةٍ بين**

القبور المتراصة» *. بهذه الكلمات عبَّر الصديق المعزي. وليعذُر الدموع التي انسكبت من عيني ذلك الشيخ حزناً على فراق الولد الذي يكنُّ له حب الأجداد لأبنائهم الذين يرونهم يولدون مرةً ثانية، يذكر له مثل سيدي عبد الله بن العباس، ابن عم النبي، ومثل النبي نفسه؛ اللذين أمام وفاة أب أحدهما، وابن الآخر، لم يستنكفا عن التعبير عن حزنهما العميق. هذه الرسالة، التي احتُفِظ بنصها في مخطوط بونة؛ مؤرخة في العشر الأوائل من شهر رجب 1158هـ (العشر الأوائل من شهر أغسطس 1745م).

وأخيراً، فبعد حكم مظفرٍ نسبياً دام سبعة عشر عاماً؛ توفي بوحنك في سكونٍ على فراشه، ودُفِن في جامع سيدي لخضر؛ وقد كُتب على شاهدة قبره؛ وكانت حجراً على شكل قوس؛ العبارة التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا قبر حسن باي بن حسين المتوفى في ١١٦٧

في طاعة ورضا الله الحي القيوم

رحمه الله[1]

لقد أتيحت لنا الفرصة لترجمة عديد عقود الملكية التي تثبت أن هذا الباي كان يمتلك ثروةً معتبرة. ولا نذكر منها سوى اثنين لندعم ما قلناه آنفاً حول ما كان يفعله المسلمون بعملتنا؛ لاعنين وداعين بالشر على الذين سكوها. ولنبيِّن العلاقة القائمة بين القيمة النقدية للملكية في تلك الفترة وبين قيمتها المكتسبة في هذه الأيام.

ففي عقدٍ مؤرخ في شهر أكتوبر 1747، حازت بموجبه عائلة بن جلول أرض «عين قجاو»؛ نقرأ بأن هذا البيع تم بمبلغ ألفٍ ومئتي ريال[2] عملة

---

*. النص ليس أصلياً؛ فهو مترجم عن النص الفرنسي المنقول من الأصل.

1. منقولة عن ترجمة شيربونو للأصل الواردة في: Annuaire de la société archéologique, année 1856-57, p.103

2. بعد أن انتقلت هذه الملكية إلى أحد الفرنسيين، بيعت هذه الأيام إلى ثري عربي بسعر 125000 فرنك. وقد تعرضت لبعض التحسينات المهمة فيما يتعلق بالبنايات والمزروعات.

الكفار أباد الله ملكهم وأزال وجودهم من الأرض. أمنياتٌ جميلة كان الرد عليها بعد أقل من قرنٍ برفرفة العلم الفرنسي على أسوار قصبة الجزائر.

وبموجب عقدٍ آخر مؤرخ في شهر سبتمبر 1751، تم التنازل له عن ملكية شعبة الرصاص تعويضاً عن دينٍ قيمته 600 ريال؛ كان قد أقرضها لأحد أفراد عائلة بن جلول نفسها، كما أصبح شعبان، وهو أحد أبنائها أيضاً، مالكاً لجبل الوحش بأكمله؛ الذي كانت قيمته آنذاك 650 ريال[1].

يجب أن نذكر أيضاً الوثيقة الصادرة عن هذا الأمير التي يسمح فيها لعائلة بلوادفل بفتح مدرسةٍ عليا للحقوق في المسجد الذي أمرها ببنائه في «فوة» أو «عين فوة»؛ المقاطعة القديمة لجمهورية الرومان المسماة (République des Phuensiens)[2]. هذه الوثيقة، المؤرخة في نهاية شهر نوفمبر 1745، تبيِّن أن الباي حسن بوحنك كان مهتماً بترقية التعليم لدى محكوميه؛ وهو ما يزيد في مناقب هذا الأمير. لقد خلفه حسين باي.

حسين باي، المدعو زرق عينو

1167هـ، 1754م

كان حسين، المدعو «زرق عينو» (أزرق العين)، يشغل منصب الخليفة قبل أن يحل محل الباي بوحنك؛ الذي كان صهره. لم يدم حكمه طويلاً مقارنةً بالبايين اللذين سبقاه، ولكنه كان حافلاً مثلما سنرى.

باعتباره تركي المولد استطاع أن يلتحق مبكراً بصفوف الأوجاق، وقد جعلته شجاعته وشخصيته يتميز عن زملائه. وفي الحملة الناجحة التي قادها الباي بوكمية ضد تونس؛ كان مُرهب الأعداء والذراع الأيمن

1. هذه الملكية التي تمد كامل المنطقة الجبلية التي تطل على قسنطينة من الناحية الشمالية الشرقية لا تضم أقل من عشرة آلاف إلى اثني عشر ألف هكتار. وفي عام 1863 باعت عائلة بن جلول لبلدية قسنطينة جزءاً منها مساحته 300 هكتار مقابل 50000 فرنك؛ لتُستغَل المنابع الكثيرة فيها لتزويد المدينة بالمياه.

2. انظر حول هذا الموقع الاكتشافات التي قام بها شيربونو الواردة في البحث السابق 1854-1855، ص63.

لقائده. وبوصوله إلى الحكم أظهر جميع مميزات الإداري الجيد؛ حيث أصلح واستكمل جميع الفروع التي تشكل مجتمعةً حكومة الأتراك في البلاد، وحدد لكل وظيفةٍ مهامها بعد أن كانت مبهمةً حتى تلك الفترة.

لقد سبق وأن عرَّفنا، في بداية هذا العمل، بالتنظيم الكامل لهذه الإدارة الأوليغارشية والعامية في آنٍ واحد، ولا مجال لأن نرجع إليها هنا. ونقول فقط بأن الفضل يعود للباي حسين أكثر من سابقيه في إدراك قوة ذلك التمركز لجميع السلطات في يدٍ واحدة، وإعطائه الدفعة والانضباط اللازمين لضمان نجاحه.

ولكن تزامناً مع اهتمامه بالإدارة العامة للبلاد؛ أولى اهتمامه أيضاً بتطوير تنظيم مختلف الخدمات العامة لمدينة قسنطينة. وعليه، أراد أن تكون هيئات الحِرف مجتمعةً في اتحاداتٍ على رأس كل واحدةٍ منها أمين، كما وضع قوانين تضبط العلاقات بين مُلاك الأراضي ومستخدَميهم.

ولم يهمل أيضاً جمع الضرائب؛ وهو الهدف الأسمى لحكومة الباشاوات، والذي كان بالنسبة لكثيرٍ من البايات الانشغال الوحيد. لقد أحدث شيئاً من الإنصاف في تقسيم الأعباء، ومارس بعض المراقبة على الأعوان المكلَّفين بالجباية.

لكن الحرب سرعان ما اقتلعته من الاهتمام بشؤون حكم الإقليم الداخلية، وقادته على طريق تونس التي يعرفها جيداً؛ حيث سار عليها منتصراً.

لقد سردنا آنفاً كيف، بعد استيلاء جيوش علي باشا على القيروان بقيادة ابنه يونس، أرغم أبناء البائس حسين بن علي على البحث عن ملجأ؛ فكان قسنطينة بالنسبة لأحدهم، ومدينة الجزائر بالنسبة للاثنين الآخرين.

بسبب تقلب السياسة في البلدان التي تكون فيها إرادة الحاكم هي كل شيء، سنرى تلك الجيوش نفسها؛ التي قبل بضعة أشهر ثبَّتت علي باشا على عرش تونس، تتلقى الأمر بالزحف نحو محمي الإيالة السابق من أجل تجسيد نوايا الأسرة المنافسة. ولهذا يجب الحديث قليلاً عما حدث في تونس خلال تلك الفترة.

بعد أن فَقَدَ يونس باي ثقة أبيه بسبب دسائس أخٍ مخادع وطموح اسمه محمد؛ حمل لواء الثورة وتحصن في مدينة تونس من 24 أبريل 1752 إلى 17 يونيو الموالي مُصرًّا على مقاومة هجمات والده المتكررة. وفي أحد الأيام تفاجأ بهجمةٍ عبر ثغرةٍ في تحصيناته؛ فركب حصانه حاملاً كل ما غلا ثمنه، مصحوباً ببعض مقربيه، متجهاً نحو قسنطينة التي وجد فيها ملجأه.

إن تراكم الديون على يونس وهربه إلى الجزائر؛ لم يخمدا نار الغيرة في قلب أخيه محمد الذي سمم أخيهما الثالث سليمان، ولم يهدأ له بال حتى أعلن نفسه ولياً للعهد على العرش. ولكن التآمر والقتل لم ينفعاه طويلاً.

هنا بالتحديد تأتي حملة الجزائر الجديدة على تونس التي أُسنِدت قيادتها إلى الباي زرف عينو. وسنورد ما جاء حول هذا الموضوع في الحوليات التونسية لروسو؛ الذي أخذ هو أيضاً تفاصيل ذلك عن المؤرخ التونسي حمودة بن عبد العزيز.

غداة إحدى ثورات القصر المتكررة في الجزائر، وبالتحديد تلك التي حدثت في 11 سبتمبر 1754؛ أُنتُخب دايٌ جديد على جثتي سابقيه اللذين قُتلا في ذلك اليوم نفسه. لقد كان بابا علي.

«هذا القائد الجديد كان قد كُلِّف، قبل بضع سنواتٍ من تعيينه، بمهمةٍ على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية عند علي، باشا تونس، الذي أحسن استقباله، ولكن الباي يونس قابله بازدراءٍ مهين. لقد كانت ذكرى سيئة جعلته يتحيَّن الفرصة حتى يشفي غليله؛ فأهداها له يونس الذي لجأ إلى أراضيه وتجرّأ على طلب الدعم منه. أما بابا علي فقد أخذ موقف العدو، وتبنى مصالح أبناء حسين بن علي الذين أرغمتهم قوة السلاح منذ فترةٍ وجيزةٍ على اللجوء إلى الجزائر؛ فاستعد لإرسال جيشٍ إلى تونس لإعادتهم على عرش أبيهم.

في 1755 سار جيشٌ عرمرم، وتوغَّل في الأراضي التونسية، وكان بقيادة باي قسنطينة زرف عينو بمساعدة علي باي؛ أحد الأمراء الذين جُرِّدت الحملة من أجلهم.

ما إن قرر داي الجزائر إرسال جيوشه إلى تونس حتى غادر علي العاصمة

متجهاً نحو قسنطينة للاتفاق مع حسين باي[1]؛ الذي أُسنِدت إليه القيادة العليا للحملة، كما بعث رُسُله لتشجيع القبائل المستاءة من إدارة علي باشا على العصيان.

تقدَّم الجيش، وعندما وصل إلى «شاربو» تلقى حسين باي أمراً من داي الجزائر بتعليق العمليات والعودة إلى الديار. لقد كان هذا التغيُّر المفاجئ في السياسة الجزائرية نتيجةً للدسائس التي حاكها مُوَالُو علي باشا من أوجاق الجزائر. لقد تمكَّن هؤلاء الرجال من زعزعة قرارات الداي بالمبالغة في إيهامه بصعوبات الحملة، وبإبراز وجه الظلم في اعتدائه على حليفٍ وفيٍّ حتى ذلك الوقت، وبتخويفه بمنظرٍ خياليٍّ للقوات التي ستواجهها الميليشيات الجزائرية.

وسرعان ما عقد باي قسنطينة اجتماعاً مع علي باي، وأطلعه على الأوامر التي تلقاها لتوه. لقد استطاع علي باي الذي أثاره هذا التصرف أن يخفي استنكاره مظهراً، على عكس ذلك، هدوءاً تاماً، وقال لحسين باي:

«لقد سبَّب لي الخبر الذي أطلعتموني عليه استياءً كبيراً؛ لأنه يتعلق، بالنسبة لي، باستبدال رحلةٍ محبوبةٍ بأخرى تكاد تكون غريبةً عني. وإنكم تعلمون بأني غادرت تونس في بداية حياتي لأقيم في الجزائر؛ حيث اكتسبت فيها عدداً من العادات التي جعلتني أُعتبر كواحدٍ من مواطنيها، فلا يهمني أن أتخلى عن أملٍ قليلاً ما تطلعت إليه. وليس الأمر بالشكل نفسه بالنسبة لكم؛ فكل خطوةٍ إلى الوراء ستلطِّخ شرفكم وتفسد مجد رايتكم» - فقال حسين: أكمِل، فاسترسل متسائلاً: «في كل مرةٍ يشن فيها أوجاق الجزائر الحرب على تونس لصالح مُطالبٍ شرعيٍ بعرش هذه الإيالة، أَلَمْ تأتِ القبائل التونسية لتنضم تحت ألوية الجزائريين؟ أَلَمْ تُقدِّم، فضلاً عن أسلحتها، كل ما يحتاجه الجيش الغازي؟ أُنظروا إلى عدد العرب الذين لبوا ندائي رغم الذكريات المرعبة للانتقام الذي تعرضوا إليه من طرف الباي لدى حصار الكاف؛ حيث سارعوا بالانضمام في صفوف الجزائريين، وبعد تخلي هؤلاء

---

1. يذكره روسو باسم حسن. ولتجنب الخلط نذكره في هذا النص باسمه الحقيقي؛ حسين.

عنهم وقعوا فريسةً لذلك الأمير الثائر. وعندما زحف «عشي حسين» نحو تونس، كنا نعلم سلفاً بأنه كان وفياً لباي هذه الإيالة، وبأنه لم يطع الأوامر بقتاله إلا على مضض، وأيضاً لم نتفاجأ برؤية الجيش الجزائري يعلق ويتراجع بعد ذلك عن الحملة التي شرع فيها؛ ولكن لم نكن نتوقع أن يحصل هذا في ظرفٍ كالذي نعيشه. فالكراهية التي تحملونها لعلي باشا تظهر في أفعالكم وأقوالكم. وسيكون انسحابكم المخزي، في نظر الناس، اعترافٌ جبانٌ بالعجز. وستصبح القبائل التونسية منذ الآن صماء أمام صوتكم، ويتعيَّن عليكم عدم الاعتماد على دعمها في حملاتكم إلى الأبد. - نتيجةٌ أخرى لانسحابكم غير المفهوم هي أن قبائلكم المنهكة من سلبكم سوف تفر إلى تونس حالما تدرك عجزكم عن احتضانها؛ وبذلك سوف تثري الحكومة التي ستستقبلهم بتقديمها عناصر جديدة للقوة والازدهار. أمعنوا النظر جيداً في هذه الأفكار، وقدِّروا المزايا التي ستنتج عنها بالنسبة لأوجاق الجزائر؛ إنها غير معدودة»*.

كان لهذا الحديث المطروح بعنايةٍ الأثر الكبير على نفس باي قسنطينة. لقد تردد أمام المسؤولية التي سيواجهها، وبعد لحظاتٍ من التفكير قرر أن يكتب لداي الجزائر ليشرح له التبعات السيئة لقراره، وبأنه سيستقيل من على رأس حكومة قسنطينة إذا لم يزحف الجيش على تونس. لقد أثَّرت رسالة الباي حسين كثيراً على داي الجزائر؛ الذي استعمل عليه أنصار الأمراء كل وسائل التأثير من أجل دعمهم، فصدر أمرٌ جديد، وكان هذه المرة بمواصلة السير نحو تونس، وتنفيذ العمليات العسكرية دون تأخير.

لم يتأخر الجزائريون في الوصول إلى مشارف المدينة التي أحاطها علي بعددٍ من التحصينات التي تخندق فيها مع جيشه[1]، وسرعان ما تمَّت محاصرة

---

*. نص الخطاب ليس أصلياً؛ فهو مترجم من النسخة الفرنسية المنقولة من الأصل.

1. ما زالت اليوم أطلال تلك التحصينات الدفاعية المتكوِّنة أساساً من جدارٍ من لِبَن به كوات، وعن طريق القصبة يتصل بقاعدة الحصن المسمى «برج علي رايس»؛ الذي يرتفع في جنوب شرق المدينة ليمتد حتى البحيرة مروراً بمقام سيدي بلحسن. والفراغ الفاصل بين هذا السور وأولى بيوت المدينة كان معتبراً؛ ففيه ركَّز علي باشا قواته.

المكان وبدأت المناوشات خارج الأسوار. وفي أحد الاشتباكات كانت الغلبة على الجزائريين. فبهجوم المحاصَرين ببسالةٍ؛ وجدوا صفوفهم تتفرق تحت نيران الأعداء وأُرغموا على الفرار. ولكن بفضل حنكة علي باي؛ تجمَّع الهاربون واسترجعوا المواقع التي كانوا قد خسروها، وأُجبر المحاصِرون على الرجوع مسرعين إلى مواقعهم بعد أن تكبَّدوا خسائر معتبرة.

لم يشارك علي باشا ولا ابنه محمد باي في القتال. ولما وجدا جيشهما ينهزم ويتراجع نحو تونس؛ تمكَّن منهما اليأس، وفُقِدَ الأمل في نجاح الدفاع.

لقد تبعت هذه المعركة الدامية اشتباكاتٌ كثيرةٌ أخرى كانت كلها لصالح الجزائريين. وأخيراً، وفي الخامس من ذي الحجة (31 أغسطس 1756)؛ تم الاستيلاء على المدينة بالقوة، وقُطع رأسا علي باشا وابنه محمد باي. ومنذ تلك اللحظة أصبح الحكم لمحمد باي، الابن الأكبر لحسين بن علي، الذي صار العرش من حقه.

لكن التوافق الذي ساد حتى ذلك الحين بين الجيش الجزائري والأمراء التونسيين تكدَّر بنزاعٍ شديدٍ بين علي باي وحسين، باي قسنطينة، حول مسألة اقتسام الغنائم. فأقدم علي، بعد تعرُّضه للإهانة من طرف حسين باي، على توجيه مسدسه المحشو إليه؛ فهرب حسين إلى معسكره صائحاً متهماً علياً بالخيانة، وداعياً الأتراك من أتباعه لمعاقبة من جاءوا للقتال من أجلهم. وسارع محمد باي للاختباء في قلعة الباردو، فيما انسحب علي باي إلى صفاقس.

لقد كانت هذه الاضطرابات فرصةً للعناصر التركية في تونس التي انضم إليها عددٌ من الجنود الجزائريين للخوض في عمليات السلب والنهب المنتشرة في المدينة؛ حيث اجتمعوا في ساحة القصبة واستولوا على القلعة، ثم انتخبوا قائداً من بينهم وأسسوا حكومةً ثوريةً تسلطت لمدة أسابيع على السكان التونسيين البؤساء. وبتشجُّعهم بعد نجاحاتهم الأولى، تقدَّم الثوار نحو الباردو وحاصروا محمد باي، وتمكَّنوا من استقدام جزءٍ من الجيش الجزائري إلى صفوفهم. وفي هذه اللحظة الحرجة سارع محمد إلى طلب

النجدة من أخيه علي باي؛ الذي هرع من صفاقس على رأس القوات التي بقيت وفيةً له. وبفضل حماسه وشجاعته تمكَّن من السيطرة على الثورة، واسترجاع سلطة أخيه، وإرغام الجيش الجزائري على عبور الحدود. ولكن هذا النجاح لم يتحقق دون بعض التنازلات؛ فقد تحتم عليه دفع مبلغٍ معتبرٍ جداً للجزائريين، والاتفاق على هدم التحصينات المقامة على حدود تونس الغربية. ويُعتقَد أيضاً أن الرسم السنوي المقدر بحمولتين من الزيت الذي كانت تدفعه تونس لأوجاق الجزائر؛ كان من بين الشروط التي سمحت، في تلك الفترة، بإخلاء الأراضي التونسية. وسوف نرى لاحقاً كيف تمكَّن حمودة باشا باي من التخلص من هذه الضريبة المهينة.

«في أرشيف القنصلية يُحفَظ محضر جلسةٍ حُرِّر بتونس بتاريخ 12 سبتمبر 1756؛ يعطينا فكرةً عن حالة الفوضى والنهب والسلب التي قام بها الجزائريون لدى دخولهم إلى المدينة. فمنذ 30 جوان 1756، وحتى قبل وصول الجزائريين إلى تونس، تمَّ تحذير الفرنسيين التابعين للوكالة التجارية المقامة هناك من تلك الأحداث؛ فحضَّروا أنفسهم، وتلقوا من السلطة المحلية حراسةً موجَّهةً لفرض احترام الفندق الذي كانوا يقيمون فيه. ولكن هذا الاحتياط الحكيم لم يُجدِ نفعاً؛ لأن الحراس الذين كانوا في مدخله لم يستطيعوا حمايته من سلب الجزائريين. وبعد سقوط المدينة، في 31 أغسطس 1756، انتشرت عصاباتٌ فوضوية من الأتراك في الشوارع، وسلبت جميع المساكن. وبعد يومين، وفي 2 سبتمبر، ورغم الأوامر الصادرة باحترام الفنادق القنصلية ومنازل التجار؛ وقفت مجموعةٌ من الجزائريين أمام باب الفندق الذي أُغلق مع اقترابها، وطالبت بفتحه. وأمام الرفض أنهالت على تحطيمه بالفؤوس. وبينما هي كذلك، أسرع قنصل فرنسا «دوغرو دوسولوز» (Du Grou de Sulauze) بتجميع مواطنيه، وفروا جميعاً عبر الأسطح إلى قنصلية إنجلترا التي لم يهاجمها الجزائريون. إن مختلف غرف الفندق، ومخازن السلع الثمينة، وحتى منزل القنصل؛ وخاصةً ديوان الأختام الذي به الصندوق المحتوي على مبالغ كبيرة قد تعرَّضت كلها للتخريب والنهب. ومحضر

الجلسة، الذي ذكرنا تفاصيله آنفاً، كان قد حُرِّر عشرة أيام بعد هذه الحادثة، وقد شارك في كتابته القنصل ونائبٌ عن الأمة والتجار، وكان الهدف منه الوقوف على الأحداث وإخلاء السيد «فاليير» (Vallière)، أمين الأختام، من مسؤولية المخازن المنهوبة من طرف الجزائريين. وفي معترك تلك الأحداث الفوضوية تم أيضاً تخريب ونهب الكنيسة الكاثوليكية ودار ضيافة الرهبان الثالوثيين، كما أُتلفت في هذه الظروف جميع أهم وثائق الأرشيف المتعلقة بالمهمة الدينية»[1].

بمجرد سقوط مدينة تونس في 31 أغسطس، سارع الباي زرف عينو بزف الخبر إلى باشا الجزائر. ووصلت الرسائل إلى العاصمة في 10 سبتمبر؛ مثلما ورد في محضر جلسة المجلس المنعقد في هذا الشأن بقنصلية فرنسا في الحادي عشر من نفس الشهر، ونقرأ فيه:

«إنه من الضروري تقديم بعض العطايا نقداً للذين وصلوا لتوهم حاملين خبر سقوط مدينة تونس حتى نعبِّر عن مشاركتنا فرحة نجاحات الإيالة. فالأمم الأخرى فعلت هذا، كما يجب أن يطوف السعاة، بإذنٍ من الباشا، على جميع البيوت مع رجل من رجال الآغا حتى يجمعوا هذه الإكرامية...

وعلى هذا الأساس اجتمع هؤلاء السادة وقرروا بالإجماع بأن يجدر... دفع مبلغ نقداً قدره مئةٌ وثلاث قطعٍ نقديةٍ وأربعةٌ أخرى* لغرفتي البريد التركية والموركية اللتين حملتا بشرى سقوط مدينة تونس، وكان ذلك المبلغ على شرف وأهمية الأمة الفرنسيةّ، إلخ»[2].

«قبل شهرين، أي في الفاتح من يوليو، قام قنصل فرنسا بالجزائر، السيد «لومير» (Lemaire)، بإصدار إذنٍ بدفع ثمانيةٍ وأربعين قطعة نقدية لشراء رداءٍ يُقدَّم للحاج علي، أحد ضباط باي قسنطينة، الذي كان قد حمل إلى الباي

1. Annales tunisiennes, p.137 et suivantes

*. وردت في الأصل: «cent trois pataques quatre temins»

2. انظر Archives du Consulat de France à Alger, publiés par M. A. Devoulx à Alger en 1865, p.71

خبر الاستيلاء على مدينة الكاف بمملكة تونس؛ والذي تلقى هدايا وعطايا من طرف ممثلي الدول الكبرى والقناصلة الأوروبيين للتعبير عن مشاركتهم فرحة نجاحات الإيالة»[1].

في بلداننا المتحضرة تتحمل الحكومة أعباء الأفراح العامة، كما تتكفل بمكافأة الذين خدموا الوطن. وصحيحٌ بأن الحكومة في هذه الحالة هي جمع المواطنين. ولكن في باشاليك الجزائر فإن الأمور، كما نرى، تسير بطريقة مختلفة. فإذا لم يكن في الخزينة العامة ما يمكن صرفه، يتحمل تلك المصاريف الأثرياء من الشعب؛ وخاصةً من الأمم الأجنبية التي طالما أُبتُزَّت من أجل التمتع بالحماية التي كانت تُمنَع عنها تحت أي مبرر. لقد كانت بمثابة ضريبة بشكلٍ مختلف تُضاف إلى ضرائب أخرى، ورغم أنها لم تكن إجبارية؛ فإنه من المؤكدِ أنه لا توجد أمَّةٌ لها ممثلون بالجزائر يمكن أن تتجرأ على التملص منها دون أن تتعرض لعقاب. شرفٌ آخر إذاً لفرنسا التي خلَّصت أخيراً أوروبا من تلك الأعباء.

لِنَعُد إلى حسين باي؛ الذي تركناه في تونس يناقش مصالح حكومته. فعندما تلقى مقابل نصره معظم التنازلات التي فرضها، غادر مع جيشه عابراً الحدود التونسية حاملاً الكنوز والمجد، ولكنه لم يتمتع كثيراً بذلك النصر.

في منتصف الطريق إلى عاصمته أُصيب بنوعٍ من البرص؛ فعمَّت البثور جسده، ومات بوصوله إلى قسنطينة خلال الشهور الأولى من عام 1170هـ (أواخر 1756م).

رغم أن الكاتب العنتري تعرَّض إلى هذه الحملة بشيءٍ من التفصيل؛ إلا أن كل ما قاله كان مُلتبِساً ومُفتقداً للدقة لدرجة أن الترجمة التي قمنا بها لم تُضِف شيئاً للقصة الكاملة والمؤثرة التي نقلناها عن الحوليات التونسية. وكل ما أفادنا به هو نوع المرض الذي أصاب الباي لدى عودته، وهو ما نقلناه عنه.

1. الأرشيف نفسه، ص71.

أحمد باي بن علي، المدعو القلي

1170هـ، نهاية 1756م

استعمل هذا الباي خاتمين. لم يحمل الأول سوى: **أحمد باي ١١٧٠** مع أسماء الأموات السبعة منقوشة حوله، ولقد كان بإنجاز جيد. وعلى الثاني نقرأ عبارة: **المتوكل على الله أحمد بن علي، ١١٧٠**. وهو مقروءٌ جيداً، ولكن إنجازه غير متقن.

أحمد باي هو جد الحاج أحمد آخر حاكم لقسنطينة، وقد خلف زرف عينو الذي رافقه كضابط في حملته على تونس. لقد كان هو من جاءه بالتعزيزات الضرورية في بداية الحملة للاستيلاء على مدينة الكاف؛ التي كانت تهدد بمقاومة شرسة، وكان حضوره حاسماً في سقوط المدينة واستسلامها.

يُكنّى بالقلي بسبب إقامته الطويلة في مدينة القل؛ التي كان آغا عليها قبل أن يحكم الإقليم. فالاهتمام الذي كان يوليه دائماً للقلّيّين يثبت بأنه احتفظ عن محكوميه السابقين بأحسن الذكريات. وبوصوله إلى الحكم، كان أول انشغالاته التعبير عن عرفانه لهم؛ وذلك ببناء المسجد الذي يُزيّن مدخل المدينة من جهة البحر. يقال إنه بُني بأمرٍ منه في أول عام من حكمه.

لقد حرص أولاً على تثبيت سلطته، ولذلك كان عليه شن عدة حملاتٍ على القبائل التي كان بُعدُها عن مركز الإقليم يحفزها دوماً على العصيان. لقد استُدرج حتى خارج حدود إقليمه، وحمل السلاح في المناطق التي تتبع، ولو اسمياً، لباشاليك الجزائر. ومن ذلك دعوته إلى زواوة من طرف المرابط سيدي الحسين الورتلاني لتهدئة انتفاضةٍ اندلعت على إثر نوايا بعض الفقهاء بمعارضة حق البنات في ميراث آبائهن؛ فكان عليه صد أهالي فليسة في بلاد القبائل الغربية الذين جاءوا لقتاله. ونجح في إرجاعهم إلى جبالهم، وجعلهم يكفّرون غالياً عن اعتدائهم. ولكن ذلك لم يكن ليتحقق دون أن يتكبد من جانبه خسائر كبيرة؛ حيث أبيدت ثلاثة أرباع جيشه، وشهد مقتل أشجع مقاتليه أمثال الآغا أوغليس، وشيخ العرب؛ الحاج بن قانة، وشيخ بلزمة؛ فرحات بن علي من عائلة القايد شريف بن منصور، وبلقاسم بن مراح؛ أحد

أهم قادة الزمالة، وآخرون.

بعودته إلى قسنطينة خرج مجدداً للإغارة على الشافية المتمردين. وخلافاً للحملة السابقة لم تقم قواته إلا بالقتل والسلب؛ حيث رجعت بغنائم كثيرة من الماشية والمؤونة، كما كان عدد القتلى قليلاً.

وبعد فترةٍ قصيرةٍ خرج لمعاقبة أولاد سلطان؛ هؤلاء الجبليون المتفضون دوماً ضد السيطرة التركية، والذين لم يستطع البايات إخضاعهم إلا بشكل مؤقت. لقد طاردهم في جبالهم وأرغمهم على دفع ما عليهم، ولكنه فَقَدَ أحدَ أحسن مساعديه؛ وهو الشجاع كنيش بن سلامة قايد الزمالة، الذي بسبب حميَّته وتهوُّره في ملاحقة العدو؛ وجد نفسه وحيداً بعيداً عن رفاقه فوقع أسيراً. وجلبت له شجاعته وتفانيه في خدمة القضية التركية موتاً فظيعاً؛ حيث رُبط إلى جذع شجرةٍ وأُضرِمت فيها النار، فهلك وسط اللهب.

كانت تلك هي الحملة الأخيرة التي قام بها أحمد باي. فمنذ ذلك الحين أصبحت سلطته مستقرةً في كل مكان؛ حيث أصبح الناس يسارعون لتقديم فروض الطاعة بين يديه، كما أضحت الضرائب، مصداق خضوع الشعوب، تُجمَع بانتظام. فتفرَّغ إذاً لأعمال السِّلم واهتمامات الإدارة.

نقرأ في إحدى الروايات المنشورة دون اسم مؤلفها بأنه «كان هاوياً كبيراً للبنايات؛ حيث بنى في قسنطينة ثكنة الإنكشارية، وذلك برحبة الجمال[1]، وبالتحديد البنايات التي يحتلها حالياً مقر الخزينة ومقر فرع الدائرة (subdividion) وبناياتٌ أخرى. كما وسَّع زراعة المستنقعات أو «الحامة»، وشجَّع الفلاحة».

لقد قام أيضاً بنقل ناس الزمالة، ومنحهم مخيماً جديداً في «عقبة الجمالة» الواقعة على يمين طريق باتنة، وأقطعهم جميع الأراضي الممتدة هناك من «مدلسو» إلى بومرزوف، كما بدأ بتشييد برج الفسقية.

هذه التنقلات المرحلية للزمالة؛ التي رأيناها في بادئ الأمر تخيم على

1. هذه الثكنة التي تقع على اليمين عند دخول قسنطينة عبر بوابة فالي ستزول قريباً لتترك المكان للسوق المغطاة وللمسرح الذي تقترح المدينة إنشاءهما في هذا الموقع.

ضفاف وادي الرمال ثم في تيكمارت، واليوم في عقبة الجمالة، ثم سوف نراها تحمل خيامها إلى مكانٍ آخر؛ لم تكن نتيجة مجرد نزوةٍ لباي، أو من أجل التغيير فحسب؛ بل إنها، بالعكس، نابعةٌ من الفكرة الاستيطانيةِ الوحيدة التي جرَّبها الأتراك في هذه البلاد؛ هؤلاء الذين طالما استغلوها ولكن لم يؤسسوا لها شيئاً.

وفي الواقع فإن قبيلة الزمول المتكونة مبدئياً من العناصر الأكثر تنافراً والأقل تأقلماً مع الأعمال المستقرة في الحقول؛ قد تغيرت شيئاً فشيئاً بتأثير تنظيم عسكريٍ في مجمله، وبهذا التضامن المشترك خُلِق وسط الأفراد الرامين إلى نَفس الهدف ما نسميه اليوم روح الجماعة. فبتمتعها بالصلاحيات، وإعفائها من الضرائب، واغتنائها بما تسلب من القبائل المتمردة؛ وجدت الثروات تتدفق عليها شيئاً فشيئاً، وبهذه الثروات وُلد حب الرفاهية وخاصةً تلك التي توفرها العائلة. وسرعان ما أقيمت خيمة الراعي وخيمة الخماس المستقرتين بجانب خيمة المقاتل المتنقلة. ودون فقدان أي شيءٍ من ذلك الطبع المحب للحرب؛ الذي كان أساس تشكيلها وسبب إدخال وافدين جددٍ إلى حظيرتها، سعت حثيثاً للحصول على أكبر قدرٍ ممكنٍ من الأراضي التي يضعها البايلك تحت تصرفها، وذلك بإيكال رعي قطعانها الكثيرة إلى أيادٍ أجنبيةٍ، والاستعانة بفلاحين لخدمة حقولها. وبذلك، ودون الإخلال بالشرط الأول، يتعيَّن على كل رئيس خيمةٍ أن يكون فارساً وفلاحاً في آنٍ واحد. وبينما يركض كل أفراد القبيلة الأصحاء وراء البايات لخدمة سياستهم أو ثأرهم والاغتناء في الوقت ذاته من القبائل الـمُغار عليها؛ ينهمك الخدم والنساء والأطفال، تحت مراقبة الشيوخ، في الأعمال الفلاحية في سلام؛ وهم موقنون من عودة المحاربين محمَّلين بالغنائم التي تزيد من رخاء قبيلتهم.

لقد كانت أراضي الزمالة أيضاً الأحسن استصلاحاً وتنعيماً، وهنا رأينا توغل فكرة الاستيطان في السياسة التركية؛ تلك الفكرة التي أخذناها عنها ربما مجاناً، ولكن لم يكن ممكناً أن تكون أقل خصوبةً في نتائجها إذا وجدت تطبيقاً أكثر اتساعاً. وفي الواقع؛ فإن تلك الأراضي التي كانت تملكها القبيلة على أساس الإقطاع، وبعد تأهيلها بالاستصلاح والتخصيب بالسماد؛ كانت

تُسحَب منها لتُمنَح لسكانٍ جدد لا يقومون إلا بزراعتها من أجل الحصاد، ولكن مع هؤلاء كانت الخزينة تستفيد بأخذ ضريبة العشور منهم، وتزيد الفائدة تناسباً مع جودة الأراضي.

كانت هذه الأراضي أيضاً بالنسبة للبايات وسيلةً سهلةً لاتخاذ أملاك ريفيةٍ لهم في ضواحي قسنطينة، ولمكافأة مخلصيهم ومفضَّليهم بالتنازل لهم عن جزءٍ من هذه الأراضي. وهذا ليس خطأً، بل يمكننا حتى الاعتقاد بأن هذا هو المبدأ، أو الداعي الوحيد لنقل الزمالة مرحلياً هكذا. ومهما تكن الفكرة التي ترتبط به، فإن هذا النظام أعطى نتيجةً ممتازة؛ وهي جعل مساحاتٍ شاسعةٍ من الأرض منتجةً على امتداد جنوب وغرب قسنطينة التي طالما كانت مهجورةً وبوراً.

في هذه الأيام أُعيد إحياء فكرة استيطان الزمالة هذه، ويُعدُّ الماريشال «راندون» (Randon)، الذي كان حاكماً عاماً للجزائر، من أبرز المنادين بها. ولكن هل الصبايحية الذين جُمعوا في زمالاتٍ يوجدون في نفس الظروف التي كان فيها المحاربون القدامى الذين كانوا يشكلون قبيلة الزمول؟ فهؤلاء لم يكونوا يخدمون الأرض بأنفسهم؛ بل كانوا يستغلون خدمهم، ولم يكونوا يقبلون أبداً وضع السيف أو البندقية لمسك مقبض المحراث. أما الصبايحية الحاليون الذين يعتبرون أنفسهم، هم أيضاً، رجال خيلٍ وبارود، ولكن ليس لهم رعاةٌ وخمّاسون يخدمونهم؛ هل أصبحوا أحراراً بالقدر الذي يسمح لهم بضحد تلك الأفكار المسبقة، ويصيرون فرساناً وفلاحين في الوقت ذاته؟ إنها مسألةٌ ما زالت تنتظر الحل. ومع هذا؛ فإن ما يمكن أن نؤكده، ابتداءً من اليوم، أن تشكيل الزمالة الحالية يختلف عن تلك التي أوجدها الأتراك، وأنها بعيدةٌ عن تحقيق نفس عناصر النجاح لهذه الأخيرة، فوسائل نشاطها تبقى محدودةً أكثر.

لقد انقضت سنوات حكم أحمد باي القلي في أعمال التزيين والإصلاحات الإدارية دون أن يتعكر صفو السلم في لحظةٍ ما. وساد الرخاء، ولم يكن السكان السعداء بالعيش في كنف هذا السيد يبحثون عن التخلص من

أعبائهم التي استطاع أن يخففها. وتوفي بمرضٍ أصابه خلال عام 1185هـ (1771م) بعد فترة حكم دامت خمسة عشر عاماً، وكان نِعمَ السلف لصالح باي الذي سيرتقي إلى الأوج بهذه السلسلة من الحكام الأتراك؛ الذين سجلوا في تاريخ قسنطينة شيئاً أحسن من تلك الصفحات المليئة بالقتل والدم، وكان خير خاتمةٍ لها.

صالح باي بن مصطفى

1185هـ منتصف عام 1771م[1]

استعمل هذا الباي خاتمين. كان الأول بسيطاً جداً ولم يحمل سوى هذه الكلمات: **صالح باي بن مصطفى ١١٨٥**

أما الثاني فقد كان بيضاوي الشكل، يبلغ طول المحور الكبير ثلاثين ميليمتراً، بينما يبلغ طول المحور الآخر خمساً وعشرين ميليمتراً. كان نقشه رقيقاً وواضحاً جداً، وبداخله متوازي أضلاع بحوافٍ مقعرةٍ نوعاً ما؛ محاطٌ بدائرةٍ أولى تتصل بزواياه الأربعة التي تمتد حتى دائرةٍ ثانية تتبع حواف الخاتم بطريقةٍ تشكل أربعة أشكالٍ بيضاوية صغيرة وأربعةً أخرى كبيرة. وفي مربع الوسط نقرأ بحروفٍ بارزةٍ: **صالح بك**، ورقم السنة **١١٨٥** مكتوب في الزاوية اليسرى، وتحيط بها العبارة:

الواثق بالملك الحي الفقير إلى لله *

1. في ملاحظةٍ جاءت في أسفل الصفحة 122 من العدد 68 من المجلة الإفريقية (La revue africaine) لسنة 1868؛ نجد أن الوثائق المعاصرة لصالح باي، والتي هي ضمن أرشيف شركة إفريقيا الملكية (Compagnie royale d'Afrique) تثبت بأن تعيينه على رأس حكومة إقليم قسنطينة كان في الفترة الممتدة من 20 يونيو و26 أكتوبر 1771.

*. هكذا وردت عند فايسات (لله)، والصحيح لغةً كتابتها إما (الله) إذا كانت مسبوقةً بحرف (إلى)، وإما حذف هذا الحرف نهائياً حتى يستقيم المعنى. أو ربما يكون حرف الألف قد سقط من كلمة الله سهواً، أو خطأ لعدم تمكن الكاتب الفرنسي من اللغة العربية، أو ربما يكون قد انمحى من الخاتم. (المترجم)

وبين الدائرتين نُقِش البيتان الآتيان المأخوذان من قصيدة البردة لصاحبها البصيري في مدح النبي:

وقاية الله أغنت عن مضاعفة | من الدروع وعن عال من الاطم
ما سامني الدهر ضيماً واستجرت به | إلا ونلت جواراً منه لم يضم

هذا الأمير الذي مازالت ذكراه حيةً في أذهان أهالي قسنطينة هو، دون شك، الأكثر تميزاً بين كافة الحكام الذين تعاقبوا على قيادة إقليم الشرق خلال الفترة التركية. فباعتباره رجل حربٍ كان له منافسون، أما باعتباره إدارياً فلا يوجد أحدٌ يضاهيه. وفي هذا الجانب بالتحديد استطاع حقيقةً أن يبرز في عصره، وأن يكبر في عيون السكان الذين كان يمارس عليهم سلطته.

لا يوجد كاتبٌ أهليٌ ترك لنا قصةً كاملةً عنه. فبعض الطُلبة من معاصريه قد رَوَوْا بعض الحلقات من حياته السياسية والدينية؛ التي كثيراً ما يختلط فيها العجيب بالحقيقي. وفي أيامنا هذه، وبطلبٍ من أشخاصٍ راغبين في معرفة منجزات وتصرفات بايٍ مازال اسمه على كُل الشفاه؛ كَتَبَ آخرون ما شاهدوا وما سمعوا عنه معتمدين على ذاكرتهم. وبدورنا سنحاول تنسيق كل ما استطعنا جمعه عن حياة هذا الأمير؛ وذلك باعتمادنا، فيما يتعلق بالأحداث التاريخية، على المصادر المتنوعة التي ذكرناها آنفاً. أما فيما يرتبط بالأحداث الإدارية؛ فنرجع إلى العقود الأصلية العديدة التي مرت علينا.

وُلد صالح باي، كما يروي شيربونو[1]، في سميرن سنة 1725. وفي سن السادسة عشرة وجد نفسه مُرغماً على الخروج من موطنه هرباً من انتقام أبٍ؛ كان قد قتل ابنه خطأً بينما كانا يلعبان، فنزل في الجزائر؛ مدينة القراصنة ومرسى كافة الضمائر المجرمة أو المضطربة.

أجبرته ضرورة العيش على العمل كخادمٍ لقهوجي الأوجاق، ولكن مَيْله كان بعيداً تماماً عن هذا. فبتعرفه على بعضِ مواطنيه المنخرطين في صفوف الميليشيا التركية؛ أصبح جندياً مثلهم، ومنذ ذلك الحين والحظ الذي سيقوده

1. انظر Annuaire archéologique de Constantine, 1856-57, p. 116

لاحقاً إلى أعلى المناصب لم يخنه أبداً. «كانت بداياته لامعة؛ حيث أظهر شجاعةً ونشاطاً، وأداءً مذهلاً لكل التمرينات الجسمية». وبإرساله ضمن كتيبته إلى حامية قسنطينة؛ شارك في حملة الباي زرڤ عينو ضد تونس، وفيها كانت له أكثر من فرصةٍ للفت انتباه قادته؛ وخاصةً أحمد القلي الذي لم ينسه أبداً.

ولما وصل الباي أحمد إلى السلطة عيَّنه أولاً قايداً للحراكتة. «وأكثر من ذلك، فقد زوَّجه من ابنته. ولمدة ثلاث سنواتٍ زاول القيادة التي أُسندت إليه. وخلال هذه الفترة أصبحت وظيفة الخليفة شاغرةً فرشَّحه صهره لها؛ وبذلك تقدم في المناصب بشكلٍ تلقائي. وبعد ست سنوات، أي في عام 1771، خلفه على رأس حكومة الإقليم».

كان اهتمامه الأول في الحكم هو بسط سلطته على السكان الذين سيصبح يوماً مُصلح أمورهم. لقد كانت المهمة سهلةً بالنسبة له؛ حيث كانت مُحضَّرةً من طرف سابقيه الأواخر الذين عوَّدت إدارتهم الحكيمة البلاد على استحسان السلام، وعلى تحمل عبء الاستعباد الذي يخف ثقله عندما يكون بيدٍ عادلة. ولكن بما أن نظام حكم الأتراك في هذه البلاد يعتمد على مبدأ الضغط والقوة، وخشية رؤية نفوذه ينهار وسلطته تضمحل؛ لم يكن صالح مستعداً للتخلي عن سياسةٍ بدأت منذ مئتي عام، وهي سياسةٌ قد تأهَّل عليها منذ زمنٍ بحكم أصله وتكوينه؛ فتأهب إذاً للقتال.

لقد كانت خرجته الأولى التي احتفظ لنا بذكراها مؤلف مخطوطٍ عن الزمول؛ ضد أولاد نايل، سكان الجنوب، هؤلاء المتفضين كلما أحسوا أنهم بعيدون عن القبضة الحديدية التي تضغط عليهم بقوةٍ أحياناً، ولكنهم كانوا مجبرين على الهجرة الموسمية بسبب طبيعة الأرض التي يسكنونها[1]. وفي المنطقة المسماة «المالح» أو «أمسيف» وجدت الحامية من اختارهم غضب الباي ليكونوا هدف ضرباته. لقد كان الهجوم شرساً؛ فسرعان ما انتهت الغزوة. ولم يحاول المنتفضون إلا النجاة بحياتهم بالفرار؛ مخلفين في يد

1. نعرف أن سكان الصحراء، باستثناء سكان الواحات، مرغمون على النزوح، كل عام مع اقتراب فصل الصيف، إلى هضاب التل طلباً للماء والمرعى اللذين يزولان في سهولهم الحارقة والجافة.

المنتصر قطعان إبلهم وغنمهم، وحتى خيامهم التي نُهبت. ثم عادوا لإعلان خضوعهم، فأعطاهم الباي الأمان قبل أن يرجع إلى عاصمته. وفي طريق العودة كانت له الفرصة لتطبيق صرامةٍ شديدةٍ على أحد الأشرار؛ من شأنها أن ترعب كل من يحاول تقليده لاحقاً.

لقد كان معسكراً مع حاميته في الهنشير على أراضي الزمول؛ عندما تسلل رجلٌ من أولاد زايد من قبيلة البرانية إلى معسكره ليسرق من المؤونة المخصصة لطعام الباي. وبالقبض عليه متلبساً من طرف الخدم، أُقتيد إلى صالح الذي كان في أوج غضبه وسخطه؛ فأمر بقتله بالخازوق فوراً. هذا النوع من العقاب لم يكن مألوفاً في هذه البلاد بشهادة الراوي العربي الذي أخذنا عنه هذه القصة؛ لدرجة أنه عرضها بكل تفاصيلها.

كانت تؤخذ عصاً طويلةً بعد أن تُزال خشونتها بعناية، ثم تُبرى إحدى نهايتيها حتى تصبح حادةً جداً، ثم تُدهن بطبقةٍ من الزيت والصابون[1]، ويتم إدخال العصا من جهتها الحادة عبر شرج الشخص، والضغط عليها حتى تخرج من بين كتفيه. وبعد الانتهاء من هذه العملية؛ تُثبَّت العصا عمودياً بغرسها في الأرض بشكلٍ يُظهر المعاقَب وكأنه يركب حصاناً. في هذه الوضعية يقوم ذلك البائس، قبل أن يُسلِم روحه، بإيماءاتٍ وتشويراتٍ بذراعيه ورجليه تشد أنظار الحضور إلى هذا المشهد، كما ينطق بعباراتٍ غير مفهومةٍ خلال تلك الالتواءات والتشنجات المرعبة بسبب الآلام الفظيعة التي حلت به. ثم يموت بعد بضع ساعات.

منذئذٍ صار المكان الذي وقع فيه تنفيذ الإعدام، والذي كان يسمى قبلاً الهنشير بمعنى الأطلال، يدعى «هنشير المسفج» بمعنى «أطلال المخزوق». وأصبحت ذكرى هذا البائس مصدراً للمثل الذي يُضرب في كل من لا يسترسل في كلامه؛ فيقال: «يتكلم كي المسفج».

قِصاصٌ قاسٍ كهذا عقاباً على محاولةٍ بسيطةٍ للسرقة؛ لم يجد في نظر الراوي العربي مبرراً مُلطِّفاً سوى أنه حدث في بداية حكم صالح باي قبل

---

1. الصابون المستعمل من طرف العرب يكون أسمر اللون، وعبارة عن عجينة رخوة.

أن يتفرغ للأعمال الحسنة التي ميَّزت باقي حياته. ويضيف هذا الراوي على شكل حكمة: «لا شك بأن كل قائدٍ لسلطةٍ عليا لا يحكم في آخر عهده أحسن من بدايته»، دون أن يتبنى هذه الخلاصة بما أن التاريخ يبقى بعيداً من أن يؤكدها دوماً؛ بدليل حالة صالح باي كما سنرى لاحقاً، حيث لا يمكننا بدورنا غض الطرف عن عقابٍ كهذا مهما كان الدافع إليه؛ سواءً كان سبباً سياسياً، أو كان نتيجةً بسيطةً لغضبٍ عفوي. كما أنه أبان عن ميول صاحبه للوحشية، وتقديرٌ غير دقيق من هذا الأمير الذي يرى بأن العقاب يكون متناسباً مع حجم الجُرم.

إن صالح باي، بمزاياه الكبيرة، كان بعيداً على أن يكون مُنَزَّهاً عن العيوب الملازمة لمزاجه الخاص ولجنسه. فيبدو أن روح الانتقام، بالخصوص، قد مارست عليه سلطاناً لم يتمكن أبداً من التحكم فيه. ولذلك نجده، من أجل إشفاء حقدٍ قديمٍ تجاه ابن الباي بوحنك بعدما كانت تربطهما علاقة صداقة، وما إن أمسكَ بمقاليد الحكم؛ حتى سارع بإصدار أوامر بتوقيفه. وكان حريٌ به، بلا شك، أن يطبق القاعدة الجميلة لـمَلِكِنا «لويس الثاني عشر» (Louis XII) الذي، بعد اعتلائه للعرش، لم يجد من اللائق أن ينتقم ملك فرنسا من «دوق أورليان» (Duc d'Orléans) بسبب بعض الخلافات. وبإنذاره في الوقت المناسب، تمكّن ذلك الابن، المدعو حسن باشا، من النجاة والفرار إلى تلمسان؛ حيث تكفل الباي محمد الكبير، الذي كان يحكم حينئذٍ إقليم وهران، بكل احتياجاته، ثم توسط له لاحقاً لدى داي الجزائر من أجل أن تنال أسرته الإذن بالالتحاق به[1]. وبعد عشرين عاماً، عاد هذا المنفي إلى مدينته الأصلية، ليس كهاربٍ ولكن كسيِّد، وانتقم بدوره من مضطهده بانتزاعه منه الحكم والحياة بالقوة.

في السنة الموالية شن صالح باي غزوةً على أولاد عمُر أطلق فيها العنان لغرائزه الانتقامية والوحشية. فلمعاقبتهم على المقاومة التي دافعوا بها عن

1. انظر عرضاً عن باي وهران محمد الكبير في المجلة الإفريقية.
Notice sur le bey d'Oran, Mohammed-el-Kebir, par M. Gorguos, dans la Revue africaine, année 1856, p.454

قريتهم «النميلة»؛ قام بقطع رؤوس مئةٍ من أهلها الأقوياء، وأرسلها إلى قسنطينة؛ حيث تم تعليقها على أسوارها. ومن هناك انتقل مع معسكره إلى «خناق تاشودة»، وهاجم قبيلة السڤنية التي كانت ترفض دفع الضريبة أو تتماطل في ذلك، واستعمل في هذه الحملة قواته النظامية وناس الزمالة؛ الذين جرّ بعضهم بعضاً فكانوا كالسيل الجارف، وأبادوا كل البؤساء الذين كانوا في طريقهم، واستولوا على كل ما وقعت عليه أيديهم.

هذه الخرجات وأخرى التي استعمل فيها صالح دوماً القسوة القصوى ضد المتمردين، كانت قليلةً بلا شك حتى ينال حب محكوميه، ولكن على الأقل كانوا يتعلمون بها خشيته. فلدى الشعوب البربرية، كما نعلم، لا تُقاس عظمة الأمير بمدى المحبة التي يمكن أن يخلقها؛ بل بمدى الرعب الذي يوحي به اسمه. ومن جهةٍ أخرى، جاءت فرصةٌ جيدةٌ لصرف النظر عن كل ذلك، ومساعدته على السيطرة بغير الإعدامات الدموية وجلب محبة واحترام الجميع له. إننا نود الحديث عن حملة «الكونت أوريلي» (Conte O'Reilly) الشهيرة على الجزائر سنة 1775؛ التي منحته فرصة إبراز، على مسرحٍ أكثر جدارةً به، مميزاته الحربية التي برع بها، وقدرته على قيادة الرجال.

كان صالح قد عاد لتوه من مدينة الجزائر؛ حيث ذهب إلى هناك شخصياً في شهر مايو من تلك السنة، 1775، ليقدم الدنوش؛ عندما ارتفع صوت السلاح منادياً بالجهاد، وانتشر كالشرارة الكهربائية في كامل تراب الإيالة. لقد عُلِم بأن أسطولاً إسبانياً يقترب من سواحل الجزائر، وسرعان ما أُرسلت كتبٌ إلى بايات الأقاليم الثلاثة من طرف محمد باشا، ومعها أمرٌ بالنهوض سريعاً لنجدة العاصمة. فجمع صالح ما استطاع جمعه بسرعةٍ من قواتٍ مشكَّلةٍ من الجنود النظاميين والمجنَّدين، ووصل بخطى سريعةٍ ليتمركز بين الحراش والحميز. لم يكن تعداد معسكره يقلُّ عن عشرين ألف رجلٍ من الفرسان، عدا الجمال والدواب الأخرى المستعملة في نقل العتاد. كما سارع من كل نقاط الجزائر عربٌ وقبايل كثيرون لصد المسيحي اللعين (على حد تعبير تلك الفترة).

في يوم الجمعة، 30 يونيو، وصل الأسطول الإسباني المؤلَّف من حوالي أربعمئة سفينةٍ حربيةٍ وسفينة نَقل رست قبالة الحراش بالقرب من شاطئ رملي. وفي اليوم الموالي والأيام التي تلته؛ تم سبر الأعماق وترتيب السفن الكبرى بشكلٍ يسمح لنيرانيها بتسهيل الإنزال. وفي هذه الأثناء كانت تتوافد مختلف القواتُ المكونة للجيش الإسلامي فتزيده عدداً كل ساعة، وتنظمت في المواقع المسندَة إليها. وأسرعت بحفر الخنادق، وتصليح المدافع القديمة وصنع أخرى جديدة، وحرَّض الجميع بعضهم بعضاً على القتال وطلب العون من الله ورسوله، والدعاء على النصارى الكافرين؛ كما كانوا يسمون الأسبان[1].

في يوم الخميس، 6 يوليو، رست سفينةٌ ضخمةٌ مقابل سرية مدافع «خنيس»، العناصر حالياً، وأعطت الإشارة بقصفٍ دام حتى الليل، ولكن دون أن تلحق ضرراً بالعدو؛ حيث أن قذيفةً واحدةً أصابت السرية وأحدثت ثغرةً صغيرةً في السور، وأما في الخارج فقد قُتل رجلان فقط. وخلال ما تبقى من الليل، وفي الغداة يوم الجمعة؛ لم يحدث أي تحرك.

في صباح يوم 8 الذي كان يوم سبت، وبعد قصفٍ دام طيلة عملية الإنزال، كان ثمانية آلاف رجل من الأسطول الأسباني على الأرض. ثم تبعهم عددٌ مماثلٌ محملين جميعهم بعتادٍ كبير، وأخذوا مواقعهم في المكان المسمى «الحديقة» بجانب مقبرة الشهداء؛ حيث هموا بإقامة معسكرهم المتخندق. أما المسلمون الذين لم يكن لهم في ذلك المكان بعدُ سوى كتيبةٍ صغيرة؛ فلم يتمكنوا من تجميع قواتهم بسرعة حتى يمنعوا المعسكر من القيام. ولكن سرعان ما استجابوا لنداء قادتهم، وانقضوا كرجلٍ واحدٍ على خنادق العدو، وفتكوا بكل من وجدوه خارجها. ومع ذلك، فإنهم لم يستطيعوا مباغتة تلك

1. إن الكُتّاب العرب الذين نقلوا لنا خبر هذه الحملة وذكراه المحزنة بالنسبة لإسبانيا كالتي كانت قبل قرنين ونصف القرن بقيادة الإمبراطور شارل الخامس؛ لم يتوانوا على تطعيم رواياتهم بعددٍ من الصفات المهينة واللعنات على أعدائهم المسيحيين عامةً والأسبان خاصة. وبلا شك أنه من المؤلم أن نرى اسم المسيحي يُهان بالشتائم. ولكن، لدى حديثهم عن أتباع محمد، هل كان كُتّابنا الدينيون منزهين دائماً عن نزقات هذا الخطاب؟ إنه درسٌ يجب أن يستفيد منه المتشددون في كل الأزمان، وفي كل البلدان.

المنطقة الرهيبة التي أمطرها محتلوها بوابلٍ غير منقطعٍ من النيران والشظايا، ولم يتسلل إلى هناك إلا فارسان من الشرق، ولكنهما لقيا حتفهما. وعليه، بدرت ببال الباي صالح فكرة تقديم كل الجِمال التي كانت في معسكره، ووضعها قبل الجنود والفرسان حتى تكون بمثابة درع لهم. ثم تمَّ التقدم في هذا الترتيب باتجاه سياج الأوتاد الذي كان يحتمي به الأسبان. لقد كان هو نفسه يحمل سيفه ويقود الحركة محرِّضاً أتباعه على القتال، ثم تدخل القادة الآخرون مقتدين به في المبادرة بالهجوم على تحصينات العدو.

أما آخر القوات المنزَلة التي لم تستطع التجمع للقتال؛ فقد أبيدت عن آخرها. غير أن المسلمين الذين أضنتهم القنابل والقذائف الآتية من الفرقاطات والمدفعية الأرضية؛ فقد أُجبروا على التراجع. فاحتمى بعضهم وراء مدفعيتهم، فيما انتشر البعض الآخر في المرتفعات القريبة؛ التي شنوا منها إطلاق نارٍ مكثَّف على الأسبان المحاصرين في معسكرهم؛ فكانت كل طلقةٍ تضع رجلاً خارج المعركة، وكانت إحدى قطع مدفعية «خنيس» قد ألحقت بهم ضرراً رهيباً. وبذلك اقتنع القائد العام للجيش الأسباني باستحالة مقاومةٍ أطول؛ فأعطى الأمر بالانسحاب الذي بدأ مع المساء وانتهى مع نهاية الليل.

وفي الغد لم يبق من ذلك الجيش الأسباني العرمرم الذي نزل على الأرض الأفريقية؛ سوى أكوامٍ من الجثث على الشاطئ وعتادٍ حربيٍ كثير.

لقد احتفل الجزائريون بنصرهم بفرحةٍ كبيرةٍ شاكرين الله على النصر المبين الذي أيدهم به على الكافرين الملعونين. ومتسابقين على جثث المهزومين للتمثيل بها، وملقين في النار كل ما استُعمِل في بناء المعسكر المحصَّن[1].

1. في هذه المناسبة لفت يهود مدينة الجزائر الانتباه من بين الجميع؛ وذلك بضراوتهم في النهب وتكالبهم على جثث الذين لم يكونوا يتجرؤون على النظر إليهم قبل يوم. فما إن علموا بزوال الخطر؛ حتى سارعوا مجتمعين للاستيلاء على كل ما كانوا يجدون. ويخبرنا سي أحمد بن محمد العنتري؛ الذي كان شاهد عيان: «كانوا يُخَوْزِقون رمم المسيحيين بِقِطَع خشب الخوازق الشائكة، ويتجولون بها بشكلٍ مخزٍ ودنيء قبل أن يرموها في النار. وكانوا يخاطبون تلك الجثث باحتقارٍ قائلين:
- آه! لقد كانت لكم الجرأة للرغبة في الاستيلاء على الجزائر، آه! لقد كنتم ترمون القنابل

وبعد انقضاء نهار 8 يوليو المشؤوم، كان الجيش الإسباني أبعد من محاولة إنزالٍ جديد؛ فلم يكن يريد سوى الوصول سريعاً إلى الشواطئ الإسبانية لوضع آلاف الجرحى وتصليح ما لحق به من أعطاب.

في يوم 16، أبحر الأسطول إلى «أليكانت» (Alicante)، ولم يعد يُرى من سواحل الجزائر إلا بعض القطع المكلفة بالمراقبة البحرية.

وبزوال الخطر تفرق عديد المقاتلين المسلمين بنفس السرعة التي تجمّعوا بها. فكل واحدٍ منهم كان متلهفاً للوصول إلى «دُوّاره» حتى يروي للنساء والأطفال ما شاهد وما فعل، وكيف تمكّنوا، بعون الله ورسوله، أن يسحقوا أو يردُّوا إلى البحر آلاف الكفار الذين أتى بهم البحر. وبعد نصف قرن، ارتفع ذلك النداء نفسه ليجمعهم مرةً أخرى حول مدينة الجزائر ليصدوا المسيحي اللعين أيضاً. غير أن الغازي هذه المرة كان فرنسا الـمُهانة التي جاءت لطلب تصحيح شتيمةٍ شخصيةٍ والانتقام، في الوقت نفسه، للإنسانية قاطبةً على ثلاثة قرونٍ من القمع والعار. لقد كانت مهمتها مقدسةً، وفي طيات رايتها حملت الحضارة الجديدة. وإلى أن انتصرت، لم تفتأ الجزائر، بالنسبة للأوروبيين، تكون الجزائر المحاربة؛ الجزائر المنيعة التي لا تُقهر؛ كما كانت تتصف بكل كبرياء.

في بلاد الأساطير، لم يكن النصر الباهر الذي حققه أتباع النبي المتحمسين على الأسبان ليتخلف عن إرواء الفضول الشعبي المتعطش دوماً لما هو عجيب. فالرواة المتحمسون كانوا في الموعد ليضموا جهودهم لصالح الشخصيات الورعة؛ التي تسنِد إليها الروايات العامية سريعة التصديق، بشكلٍ عفوي، مزايا خارقة. فعند لقائهم وجهاً لوجه بالعدو على

والقذائف على المدينة؛ فانظروا ماذا نفعل بكم.
لقد كان المسلمون يضحكون من سماع كلام اليهود، وكانوا مسرورين من تلك الكراهية العميقة التي يكنوها للمسيحيين». (نقلت من ترجمة فيرو الذي أخذها عن النسخة العربية).
انظر أيضاً، بالنسبة للتفاصيل المتعلقة بهذه الحملة الشهيرة والحزينة، المقالات الكثيرة التي نُشرت في المجلة الإفريقية.
Revue africaine, année 1858, p.436 ; année 1861, p.31 ; année 1861, p.172, 255 et 408 ; année 1865, p.39, 180, et 303

شاطئ الجزائر؛ استعمل المقاتلون الحقيقيون الحديد لصدهم، أما المرابطون المقدسون فقد أبادوهم بالمعجزات من تحت خيامهم ملتحفين برثيث ثيابهم.

فنرى الشيخ سيدي أحمد الزواوي الذي علم بقدوم الأسبان بحدسه؛ ينتقل خلال ساعةٍ من الليل، ومعه خدمه، من جبل وازقو؛ حيث يقيم بالقرب من شطابة إلى ضواحي الحراش بالقرب من مدينة الجزائر (حوالي مئةٌ وخمسون مرحلة!)، ثم يقضي على جميع النصارى المنزَلين، ويندفع من على صهوة «رُقصة»، فرسه الغضوب، على أمواج البحر المتصلِّبة تحت حوافرها. وبمساعدة رجاله الثابتين مثله على السهل السائل؛ يهجم على السفن ويجعلها تتصادم فيما بينها كما في يومٍ عاصف، وأخيراً يدفعها بكل ما تحمله إلى الغرق في الأعماق.

وفي الغد، وقبل أن يضيء الفجر بأول خيوط نوره كارثة الليل؛ عاد الشيخ الزواوي إلى جبله. وفي هدوءٍ تام، استأنف مع تلاميذه الحديث المنقطع بالأمس. ولقد تفاجأ خدم داره باختفاء الفرس «رُقصة» المفضلة لدى سيِّدهم؛ فظلوا مستيقظين طوال الليل، ولكنهم لم يتفاجأوا لـمَّا وجدوها في مكانها المعتاد؛ غير أنها كانت مُسرجةً وتتصبَّب عرقاً وجنباها داميان. وحتى لا يتسخوا ببولها ابتعدوا عنها؛ فصاح فيهم ولي الله: «لا تخشوا شيئاً. ورَاس النبي، أؤكد لكم أنكم لن تتلطخوا بهذا البول لأن رُقصة أصبحت جديرةً باحترامكم ومحبَّتكم»، ثم روى لهم استبساله في الليلة الماضية.

ووفقاً لروايةٍ أخرى، كان يجب اقتحام تواضعه، واستعمال الحيلة حتى يبوح بإنجازاته. ولم يكن يفعل ذلك إلا بشرط ألا يقولوا أي شيءٍ لأيٍ كان؛ وهي الوسيلة الأكيدة لكي ينتشر الخبر بسرعة. وهو ما حصل فعلاً[1]. ولكن، لنترك حقل الأساطير، ولندخل في الدائرة الضيقة للواقع.

عندما أرسل صالح باي معظم المجندين الذين أتوا بكثرةٍ للانضواء تحت رايته، إلى بيوتهم؛ غادر معسكره في الحراش مع نهاية شهر يوليو، والتحق

1. لمزيد من التفاصيل حول منجزات هذه الشخصية المقدسة، انظر الروايات التي نشرها كل من «فيرو» و«بربروغر» في المجلة الأفريقية. Revue africaine, année 1865, p.303 et suivantes

بعاصمته؛ حيث سبقته أخبار إنجازاته. فالنصر الذي حققه كمقاتل قد أكسبه محبة كل القلوب، كما استطاع، بما منحه السلام من رخاء، أن يستأنف ويتابع جيداً مجمل الإصلاحات الإدارية التي كان فكره المنظم المخطط لمشروعها. ولكن، وقبل نقل هذا الجزء البارز من حكم الباي صالح؛ يتحتم علينا قطع الترتيب الكرونولوجي لنروي بعض الأحداث التي تتمم الجزء العسكري من حكمه.

إن التنافس الشديد الذي كان يباعد باستمرار بين إيالتي الجزائر وتونس، والذي وضعهما عدة مرات في الواجهة؛ لم يكن يحتاج إلا لمبرر حتى تندلع العداءات الصريحة. ففي 1783 ظهرت القطيعة وشيكةً بين البلدين، وإذا لم يحصل إعلانٌ للحرب فذلك يرجع إلى أن باشا تونس، حمودة الذي كان على وشك قطع علاقاته مع جمهورية البندقية؛ قام ببعض التنازلات التي اشترطها جاره المستبد حتى لا يتحمل أوزار عداوتين في آنٍ واحد. وهذه هي الأحداث التي أثارت هذه المخاوف، والتي أخذنا تفاصيلها عن الحوليات التونسية لصاحبها روسو.

قبل بضعة أعوامٍ تمردت بعض قبائل غرب إيالة تونس على حكومتها. فكُلِّف حَسَن الكبير، جنرال علي باي، بالسير لقمع التمرد، فاستعمل في ذلك قسوةً كبيرةً؛ وخاصةً ضد واحدةٍ منها كانت أكثر عصياناً. لقد كانت مشكَّلةً من عربٍ رُحَّل؛ فعبرت الحدود واستقرت بخيامها وقطعانها على أراضي إقليم قسنطينة جنوب تبسة.

أوشك النسيان أن يُغيِّب هذه الحادثة، ولكن مع نهاية شهر نوفمبر 1783 وصل مبعوثٌ من باي قسنطينة، صالح، إلى حمودة باشا الذي خلف علي باي؛ يشرح له بأن القبيلة المعنية لم تعد تتبع غير سلطة سيِّده، وبأن الأخير يطالب من أجلها بمبلغ قدره أربعون ألف قطعةٍ ذهبية كتعويضٍ على الأضرار التي لحقت بها من جَراء حملة حسن الكبير. فتفاجأ حمودة من هذا الخطاب، ورد عليه بجوابٍ غامض، ثم سارع بالكتابة لداي الجزائر بأنه سوف يقرر قطع العلاقات معه إن كان يدعم مطلب باي قسنطينة غير المعقول.

في هذه الحالة، هل يكون صالح باي تلقى تعليماتٍ من سيِّده في مدينة الجزائر، أم أنه تصرَّف طبقاً لسلطته الخاصة؟ وهذا ما لا يمكننا معرفته. غير أن هذا الاحتمال يكون هو الأقرب للحقيقة، لأن باي تونس رأى أن عليه أولاً إحالة الأمر إلى باشا الجزائر؛ ما يفتح مجالاً للتفكير بأن مطالبته تلك كانت من طرف الباي صالح فقط. في المقابل، نجد أن تصرف حاكم إقليمٍ يتعامل بالندِّية مع زعيم إيالة تونس ليس فيه ما يفاجئ لعلمنا بنوايا الجزائريين التي يربطونها دوماً بتفوُّقهم على جيرانهم المنافسين، ولعلمنا أيضاً بالاستقلالية المطلقة تقريباً التي يتمتع بها البايات في حكمهم؛ تلك الاستقلالية التي لم تكن لها حدودٌ غير حتمية الدفع المنتظم للضريبة، والتخلي على السلطة لقادمٍ جديدٍ عندما تحين ساعة العزل.

على أية حال، فإن حمودة باشا لم ينتظر رد داي الجزائر ليكون على أهبة الاستعداد للهجوم في حال وقوع غزوٍ من جيرانه. لقد أمر بتحضيراتٍ سريةٍ للحرب، واتجه على رأس كتيبةٍ من جيشه إلى منطقة «الجريد» في بادئ الأمر، ومنها نحو قبائل الغرب تحسباً لأية حركة تمرد، وللتأكد من دعم تلك التي تكون مساهمتها ضروريةً لحظة الخطر. ولكن، وعلى عكس توقعاته، وعندما اقترب من الحدود؛ كان صالح بايِ معسكراً بزمالته على أراضي القبيلة الهاربة تلك، وقد أرسل إليه عدداً من ضباطه مصطحبين هديةً عبارة عن خيول؛ وذلك لمجاملته.

«هذا التصرف المتأدب الذي لم يكن ينتظره الباي حمودة؛ جعله يأمل في تسويةٍ سارَّةٍ للخلافات الموجودة بين الإيالتين. ولكن، وبعد حين، وصل رد دايِ الجزائر إلى تونس؛ حيث ساند نص رسالة ديوان الجزائر موقف باي قسنطينة.

رغم تأثره العميق، إلا أن حمودة باشا أخفى مشاعره باعتبار أن العداءات مع البندقية كانت ستعود بشدةٍ أقوى من السابق، وتعيَّن عليه تقديم تنازلاتٍ أرغمته عليها الظروف القاهرة. وأخيراً، وفي شهر يونيو 1784، انتهت هذه القضية بتعويض مبلغ خمسةٍ وعشرين قطعةٍ ذهبية للقبيلة

التونسية التي دخلت منذ فترةٍ تحت سيطرة الجزائريين»[1].

إن تنازلاً حتمياً كهذا من طرف باي تونس في قضيةٍ يظهر فيها بأن الحق كله من جانبه؛ لا يؤدي في الحقيقة إلا إلى تقوية جاره العتيد، حاكم قسنطينة، وتشجيعه على إيجاد شروطٍ أخرى حالما تتهيأ الفرصة لذلك. وعلى أية حال، فإنها إن لم تأتِ بشكلٍ عفوي؛ سيكون في حاجةٍ إلى خلقها. وهو ما حدث فعلاً؛ حيث سوف نرى كيف عرف صالح باي، على غرار أمراء آخرين أكثر تحضراً، تطويع المسائل السياسية لمصالحه الخاصة؛ فهو أيضاً يرى أن قانون الأقوى هو دائماً الأفضل.

مع بداية عام 1787، لجأ عددٌ كبيرٌ من سكان قسنطينة إلى الأراضي التونسية؛ وذلك لرغبتهم في التملص من التبعية للباي بسبب قساواته. وعليه، تعالت نداءات صالح باي حتى حوَّلت اللوم إلى تحركٍ عسكري. وقد تناسى، دون شك، بأنه هو نفسه لم يكتفِ، قبل عامين، باستقبال قبيلةٍ تونسيةٍ بأسرها على أراضيه؛ بل اشترط أن يقبض من الحكومة التي كانت وصيةً عليها تعويضاً لا يمكن تبريره. فاشتكى لباشا الجزائر ما لم يتردد في وصفه انتهاكاً لقانون الأمم. وحتى يُقحم الديوان ويجعله يقف إلى جانبه، قال عن باي تونس بأنه يشجع هجرة رعاياه، وأنه يريد أن يستعمل القبائل المستقرة على الحدود ضد سلطته. أما الديوان الذي لم يكن إلا أكثر استعداداً لانتهاز أية ذريعة يمكن أن تساعد على القطيعة مع الحكومة التونسية؛ فقد استمع إلى شكاوى الباي صالح، وأمره، دون تردد، بحشد جيشٍ والتجهز للحملة.

«عندما انتشر في تونس خبر تجمع ستة آلاف رجل في قسنطينة، واستعدادهم للسير نحو الحدود؛ شكَّل حمودة باشا معسكراً مهماً يتكوَّن من ألفي تركي، وثلاثة آلاف كرغلي وعددٍ ضخمٍ من المجندين العرب. ويقول مؤلف الحوليات التونسية بأن قوةً كهذه كانت أكثر من كافية لصد، وحتى لهزم العدو إذا تجرَّأ على التقدم؛ غير أنها لم تكن تثق في ذلك الأمل نظراً

1. Annales tunisiennes, p.116

للفزع الكبير الذي يوحي به فقط اسم الجزائري؛ الذي يرتبط، لدى الجميع، بذكرى نهب مدينة تونس»[1].

وأمام هيجان النفوس هذا، فضّل حمودة باشا إنهاء الخلاف بشكلٍ ودي بدل محاولة الاحتكام إلى السلاح. ففتح حول الموضوع مفاوضاتٍ مع بلاط الجزائر؛ الذي أظهر، في هذه المناسبة، تعنتاً كبيراً بقدر ما أحس بالرهبة التي يمثلها.

إنّ تضحيةً جديدةً كهذه ستكون حتماً قاسيةً في حق كرامته، ولكن بوجود خطرٍ يتهدده؛ وخاصةً في وقتٍ يوجب على بلاده الدفاع عن نفسها ضد حملات البندقيين؛ خلُص حمودة إلى الرضوخ للشروط القاسية التي فُرضت عليه. فدفع لمنافسه العاتي مبلغاً ضخماً من المال، مؤجلاً لوقتٍ أنسب أمر الأخذ بثأره. ومع نهاية تلك السنة، 1787، عادت العلاقات الحسنة بين الإيالتين، على الأقل في الظاهر.

يرجع كل هذا النجاح إلى سياسة صالح باي الصارمة رغم افتقادها للصراحة، ولكنه، في الوقت نفسه، كان محرِّضاً ومفاوضاً في الخلافات؛ فساهم كل ذلك في انتشار سمعته. وبالرغم من أن سياسته تأكّدت في الخارج من خلال إنجازاتٍ متألقةٍ؛ فإن صالح باي لم يكن قد تمكّن بعد من الهيمنة نهائياً على كامل الإقليم الذي يمارس عليه سلطته المباشرة.

تُقرت عاصمة مقاطعة وادي ريغ، تلك الواحة الضائعة في أقصى جنوب الإقليم؛ لم تكن تدفع، منذ زمنٍ طويلٍ، سوى ضريبةٍ زهيدةٍ للحكومة التركية؛ التي كانت تابعةً لها منذ أن غزاها الباشا صالح رايس في 1552، كما رأينا سابقاً. فصحيحٌ أن بُعدها الكبير عن مركز الحكم، وصعوبة الوصول إليها عبر الرمال التي تحاصرها وتحميها في آنٍ واحد؛ يُشكّلان عائقاً مضاعفاً لا يسمح بتكرار الحملات عليها. وبفضل موقعها، استطاعت إمارة وادي ريغ الصغيرة تحدي تهديدات بايات قسنطينة حتى ذلك الوقت دون عقاب. فقد كان هؤلاء ضعفاء جداً أو حذرين جداً ليذهبوا بعيداً لفرض إرادتهم

1. Annales tunisiennes, p.222.

بقوة السلاح. ولكن ما لم يتجرَّأ سابقوه على فعله؛ قرر صالح باي القيام به وإنهاءه بشكلٍ جيد. ومع هذا؛ فإنه قبل أن يغامر في حملةٍ بعيدةٍ كهذه، يمكن بسهولةٍ أن ينقلب النجاح فيها إلى كارثةٍ مأساويةٍ، أراد أن يستنفد كل وسائل المصالحة التي تمليها عليه الحيطة.

في مستهل عام 1788 ظهر له الوقت مناسباً. فالانتصار الذي حققه لتوّه على صعيد العلاقات الدبلوماسية مع بلاط تونس قد جعله يأمل في نتيجةٍ مُرضيةٍ مع تابعه حاكم تقرت، ولكن الأمور لم تسِر كذلك. فالمفاوضات التي فتحها حول مسألة الضريبة مع الشيخ فرحات بن جلاب[1] الذي خلف والده في قيادة وادي ريغ؛ لم تُفضِ إلى اتفاقٍ مشترك. لقد كان الشيخ الجديد يعتقد أن تقرت التي تحدت كافة بايات قسنطينة تستطيع أيضاً أن تقف في وجه تهديدات صالح؛ فرفض الانصياع لما طُلب منه. ولم يتبقَ للباي غير وسيلةٍ واحدةٍ لإعادة الاعتبار لسلطته المرفوضة: وهي الذهاب شخصياً لإملاء أوامره في تقرت نفسها، وتقرر شن الحملة. ومع هذا بقي السر محفوظاً حتى نهاية شهر أكتوبر من تلك السنة، 1788.

في تلك الفترة تم جمع ضريبة طولقة، وبوشقرون، والزعاطشة وواحات أخرى، ووُضعت بين يدي الخليفة في ليشانة، وفيها أيضاً يمكن قطع الصحراء بسهولةٍ من طرف الجيش التركي؛ وبالتالي القيام بحملة. وتولى صالح باي قيادة الجيش بنفسه انطلاقاً من وادي جدي، وتقدم بقِطَع من المدفعية إلى ضواحي سيدي خليل رغم الثلوج الكثيفة التي كادت أن تبتلعه

1. لقد سادت عائلة بن جلاب، التي تعود أصولها إلى بني مرين أو زناتة، تقرت منذ بداية القرن الخامس عشر وحتى عام 1854. لقد كانت تشكل دولةً حقيقيةً تنتقل فيها السلطة بطريقةٍ متوارثة، ومع ذلك كانت تحدث أحياناً خلافاتٌ حادةٌ بين الورثة المطالبين؛ فسقوا بدمائهم درجات هذا العرش الصغير الذي تُنازَع عليه إلى أن أصبح بمثابة إمبراطورية. وفي عام 1854، وبوفاة الشيخ بن جلاب، اغتصب أحدهم، ويدعى سليمان، السلطة وأعلن عداءه لفرنسا. ولكن في شهر نوفمبر من تلك السنة تم إرسال الجنرال «ديفو» (Desvaux) الذي كان عقيداً بفرقة الصبايحية الثالثة (Colonel du 3e spahis)؛ على رأس كتيبةٍ صغيرةٍ ضد المغتصب. وفي 2 ديسمبر، فتحت تقرت أبوابها لنا، ورفرف العلم الفرنسي على قصبة عاصمة وادي ريغ.

وجيشه[1].

«وحتى لا يرهق قواته في الطريق، اكتفى الباي بمعاقبة واحةٍ واحدةٍ، ووسم مكان العقاب بركامٍ من الحطام. وفي اليوم الثامن عشر، نصب خيامه على مرمى بصرٍ من عاصمة وادي ريغ التي يحميها خندقٌ عميقٌ مملوء بالماء. وقد وضع المدفعيون عُدَّتهم على منصاتٍ مشكَّلَةٍ من جذوع النخيل، وفتحوا النار على الباب المسماة باب الخضراء، وباب سيدي عبد السلام، وحي التليس الذي يضم القصبة. وفي هذه الأثناء قام عددٌ من الجنود بقطع الأشجار التي تشكّل ثروة البلاد، واستمر الحصار عدة أسابيع. وكان صالح باي قد أقسم بألا يرفع المعسكر قبل أن يهدم تقرت كليةً. ولم يكن ينقصه لا البارود ولا الذخيرة، وكانت إرادته من حديد. وتحتَّم على الشيخ فرحات، إذاً، أن يُدرك الوضع؛ فارتفعت رايةٌ بيضاء فوق المسجد المسمى جامع المالكية. وأمام هذا المشهد، أوقف الباي إطلاق النار وانتظر مقترحات العدو. واتُّفِق على أن يدفع وادي ريغ مصاريف الحرب، وأن يدفع للأتراك ضريبةً قدرها ثلاثمئة ألف ريال بسيطة، بالإضافة إلى عددٍ من الخيول والعبيد السود».

وفي الختام يضيف شيربونو؛ الذي نقلنا عنه جزءاً من هذه القصة[2]: «كانت تلك نتيجة العصيان الذي تسبب فيه ضعف وجبن سابقي صالح باي».

ونقول معه أيضاً أن هذا الباي النشيط ذهب إلى الزيبان أربع مرات؛ حيث استدعت ذلك الخلافات الناشبة بسبب النوايا المتناقضة لعائلتين قويتين؛ عائلة أولاد بوعكاز وعائلة بن ڤانة. كانت هاتان الأسرتان تتنازعان السيادة التي فازت بها في آخر المطاف الأسرة الأخيرة والفتية، على حساب منافستها التي كانت أعرق؛ وذلك بالدعم الذي قدمه لها صالح باي، وهو ما

---

1. كان عام 1204هـ (1788م) يُعرف لدى أهل البلاد بعام الثلج. ورغم أن هذا الحدث يُعتبَر غريباً في تلك المناطق الجنوبية؛ فإنه قد لوحظ عدة مرات. وحتى نحن، وخلال تواجدنا في شهر فبراير من سنة 1854 بجنوب الحضنة، شهدنا تهاطل الثلج بغزارة طيلة النهار. ومن المعلوم أيضاً أنه خلال الليل تنخفض الحرارة في منطقة الصحراء بشكلٍ معتبَر إلى درجة أن ينزل الترمومتر أحياناً إلى ما تحت الصفر.

2. انظر Annuaire archéologique de la province de Constantine, année 1856-57, p.148

جلب الهدوء للبلاد. «وهنا، كما في كل شأن، ترك ذكرياتٍ عن فكره التنظيمي. فاقتسام المياه الذي كان يعود إلى نظامٍ قديم؛ لم يَعُد ينسجم مع التحولات العديدة التي تعرضت لها الملكية، فقام صالح بإحصاء الواحات، وقسّم المياه بشكلٍ يتناسب مع النخيل والأشجار المثمرة. وظلت تلك التقسيمات تشكل أساساً للزراعة خلال الفترة التي استحوذنا فيها على الزيبان».

يبقى أن نسرد الحملات الأخيرة التي ميَّزت نهاية حكم صالح باي؛ والتي كانت أقل نجاحاً. وسننقلها في وقتها وفي موضعها اللازمين. وسنتعرض الآن لإنجازاته الإدارية.

مثلما كانت لنا الفرصة لقول ذلك؛ فإن قسنطينة لم تكن تقدِّم لعين الزائر، في بداية القرن الثامن عشر، سوى كومةٍ متداخلةٍ من البيوت هي أشبه بالأكواخ منها بالمنازل؛ تخترقها متاهةٌ من الأزقة المظلمة والمخيفة، وتنبثق منها بعض المآذن هنا وهناك بجانب الأبراج العتيقة المتصدعة، والقناطر الصغيرة، ودعائم الجدران الضخمة؛ آخر ما تبقى من عصرٍ آخر لا يمكن أن يختفي تماماً إلا بفعل مطرقة الحضارة الحديثة لتحل محل يد الزمن؛ البطيئة جداً في عملية التهديم. فصالح باي الذي كان يحب الأبهة والروعة؛ لم يكن ليترك الإصلاحات التي بدأها سابقاه، بوحنك وأحمد القلي، في تجميل عاصمتهم غير مكتملة. وما إن سمح له وقت الحرب حتى وجه نظره إلى هذا.

كانت فكرته الأولى في تشييد بيتٍ لتمجيد الحي الذي لا يموت، ومدرسةٍ للتعليم العالي للشباب. فلهذا الهدف المزدوج رفع قواعد جامع سيدي الكتاني والمدرسة التي تشكل لاحقةً له. وانتهت الأشغال بالأخيرة في 1189هـ (1775م)، وبالجامع في العام الموالي؛ كما هو موضَّح في الكتابتين العربيتين المنقوشة إحداهما أعلى أضرحة أسرة صالح باي التي تحتل عمق الفناء الداخلي للمدرسة، والأخرى أعلى الباب القديمة للجامع[1].

1. هذا الجامع الذي يسميه الفرنسيون عادةً باسم مؤسسه؛ قد خضع مؤخراً لتغييرات معتبرة فرضتها متطلبات شبكة طرقٍ جديدة. ولذلك تغيرت واجهته الخارجية كلياً. كما أن المدرسة قد اندثرت، وتحتم هدمها بكاملها حتى ينسجم المكان مع البنايات التي تحيط به؛ الجامع من

وبعد ذلك، وفي عام 1789، جُهزت قاعة الصلاة بمنبرٍ رخامي جميلٍ يَسُرُّ الناظرين وُضع على يمين المحراب؛ حيث كانت تحفةً حقيقيةً أُستوردَت أجزاؤه من مدينة ليفورنو الإيطالية؛ التي كان صالح يستقدم منها معظم المواد الثمينة، وأيضا الفنيين الذين كان يستخدمهم في إنجاز منشآته المعمارية.

وفي هذه الفترة نفسها أقام لنسائه بنايةً كبيرةً يفصلها شارعٌ عن المسجد، وكان داخلها مبهجاً ورائعاً يتناقض تماماً مع المدخل المؤدي إليها، ومع الأسوار العالية التي تتخللها بعض الكوات المشبّكة التي تعزلها عن البنايات المجاورة[1].

إن الأراضي التي تمتد بين مستودع التموين وباب القنطرة والوادي والتي تسمى «الشارع»؛ كانت توحي بالمنظر الأكثر حزناً والأكثر كآبة. فنلاحظ في أسفله بعض البيوت ذات المظهر الرديء التي تجمعت حول مسجدي سيدي صفر وسيدي التلمساني. أما المساحة المتبقية فقد كانت خاليةً تماماً، ولم تكن تمثل سوى مشهداً من التلال والتصدعات. إن محيطاً كهذا يسيء لفخامة البنايات التي أخرجتها يد صالح من الأرض. فقد عزم على تغيير مظاهر تلك الأمكنة مع جعلها تساهم في توسيع المدينة. حتى ذلك الوقت، كان اليهود مبعثرين نوعاً ما على كل الأحياء؛ وخاصةً بالقرب من باب الجابية، حيث كانوا مختلطين كثيراً مع الأهالي المسلمين. فمنحهم كل تلك الأراضي شرط أن يقيموا عليها بيوتاً؛ وبهذا تشكّل الحي اليهودي، ولقي الأمر رضا الجميع.

جهة وقصر العدالة من الجهة الأخرى. ولم تحتفظ إلا بالحجرة التي تضم أضرحة صالح باي وأسرته.

لقد تم حفر آخر قبر بتاريخ 22 مايو 1868 ليضم جثمان آخر حفيد لصالح باي؛ وهو محمد الشريف الذي توفي إثر مرضٍ لم يدم طويلاً عن عمر ناهز ستة وعشرين عاماً. فهذا الشاب الذي كان ضخم البنية في طفولته؛ كان يخالط الفرنسيين أكثر من مخالطته لأبناء دينه. وإن لم يكن يلبس مثلهم؛ فإنه أخذ عنهم لغتهم وعاداتهم.

1. هذه البناية التي تحتل نهاية شارع «كارمان» (Caraman)، وتشكل فوقها قبةً، وجانباً كاملاً من ساحة «نيغريي» (Négrier) أو خان القوافل؛ طالما استُعمِلت كمستشفى مدني. وهي حالياً مخصصة لأخوات المذهب المسيحي اللاتي حولنها إلى داخلية للآنسات.

ولقد قام أيضاً في 1789 ببناء مدرسةٍ أخرى بالقرب من مسجد سيدي لخضر وأصبحت لاحقةً له؛ حيث، وكما هو الشأن لمدرسة سيدي الكتاني، يُعيَّن أساتذة من طرف قائد الإقليم، ويقبضون أجورهم من ميزانية المساجد، ويُدرِّسون النحو، والفقه، وتفسير القرآن، وعقيدة التوحيد، وعلوم الحديث أو السيرة المحمدية[1].

ولأننا بصدد الحديث عن التعليم، فلعلَّ القارئ سيكون ممتناً إذا أطلعناه هنا على النظام الذي كان متَّبعاً في عهد صالح باي داخل مؤسسات التعليم العام. فإذا قارناه مع ذلك الذي كان مطبَّقاً في تلك الفترة في مدارسنا في فرنسا؛ نجد أنه، باعتبار التناسب، لم يكن أدنى منه. والقانون الذي سنورد (ترجمته)*، ورغم أنه كان موجهاً لمدرسةٍ خاصة، كان تقريباً هو نفسه في جميع المدارس؛ لأننا نقرأ في بدايته بأنه لم يُنجَز إلا بموافقة صالح باي والأعضاء المشكِّلين آنذاك للمجلس. وفيما يلي القانون الذي يعود تاريخه إلى شهر سبتمبر 1780.

«تضم المدرسة مسجداً (أو قاعةً تُستعمَل للصلاة والدراسة في آنٍ واحد)، وخمس غرف؛ تُخصَّص إحداها للمعلم، والأربعة الأخرى للطُّلْبة (أو الطلبة)، ومائضةً للتوضؤ، وغرفة لتخزين الأغراض غير الضرورية.

الطلبة المقبولون كداخليين في المدرسة يكون عددهم ثمانية؛ على أن ينام كل اثنين في غرفة.

يوجد وكيلٌ (أو مقتصد) مكلف بالمداخيل والمصاريف، وبوابٌ يقوم بتنظيف المدرسة، وإيقاد المصابيح في قاعة الصلاة.

---

1. في إحدى قاعات هذه المدرسة أصبحت تعطى حالياً الدروس العامة للغة العربية. ولمزيد من التفاصيل حول المؤسسات المختلفة ومواصفاتها، انظر ما جاء في الحولية الأثرية لإقليم قسنطينة Annuaire archéologique de la province de Constantine, année 1856-1857, p.108 et suivantes لصاحبها شيربونو؛ الأستاذ العالم الذي شغل لمدة خمسة عشر عاماً مقعد الأساتذة للغة العربية في قسنطينة؛ والذي يتردد اسمه كثيراً بقلمنا.

*. يُقصد بها ترجمة المؤلف للنسخة الأصلية العربية إلى الفرنسية؛ وهو ما يتناقض مع عملنا هذا، ولكننا حافظنا على الكلمة للأمانة العلمية. (المترجم)

يتقاضى المعلم ثلاثين ريالاً في السنة، ويتقاضى الوكيل ثمانية ريالات، والبواب سبعة ريالات. ولكل واحدٍ من التلاميذ الثمانية يُخصَّص مبلغ ستة ريالات.

على المعلم تقديم ثلاث حصص في اليوم تنطلق الأولى من طلوع الشمس وتدوم حتى الساعة الحادية عشر، وتستمر الثانية من منتصف النهار حتى العصر، والثالثة من بعد صلاة العصر حتى غروب الشمس.

على الطلبة قراءة أربعة أحزابٍ يومياً؛ حزبان بعد صلاة الصبح وآخران بعد صلاة العصر، وينهون كل وردٍ بصلاةٍ لله لذكرى مؤسس المدرسة.

لا يُقبَل في المدرسة إلا الفِتيان الحافظين للقرآن عن ظهر قلب؛ سواءً كانوا من المدينة أو من الريف، والمتبعين للمذهب الحنفي أو المالكي، على ألا يكونوا متزوجين.

لا يُسمَح لأي طالب داخلي المبيت خارج المدرسة إلا لضرورةٍ قاهرةٍ أو للذهاب لزيارة الأهل. وتدوم العطلة عشرين يوماً أو ثلاثين على أكبر تقدير. وإذا لم يرجع التلميذ بعد هذه الفترة، ولم يكن مريضاً؛ فإنه يُطرد ويُعطى مكانه لواحدٍ من الخارجيين أو لطالب آخر.

كل تلميذٍ يقضي عشر سنواتٍ في المدرسة دون أن يُظهر تقدماً وقدرةً على دراسة العلوم؛ فإنه يُطرَد ويُعوَّض بآخر.

من لا تكون له علاقاتٌ طيبةٌ مع زملائه؛ أي يكون فظاً في أفعاله وأقواله، فإنه يتلقى إنذاراً أولاً وثانياً وثالثاً، وإذا لم يُصلح أمره يُطرَد.

لا يمكن للمستخدَمين والخارجيين المبيت داخل المدرسة تحت أي مبرر.

كل تلميذ لا يواظب على متابعة دروس المعلم يتعرض للطرد.

لا يمكن إدخال إلى المدرسة أية موادٍ غذائيةٍ أو ألبسةٍ أو أواني غير تلك التي تكون ضروريةً للاستعمال من طرف ساكنيها.

لا يُسمَح للطلبة تسخين أكلهم إلا بالفحم وليس بالخشب. كما لا يُسمَح لهم بغسل ثيابهم داخل المؤسسة».

كانت تلك أهم بنود القانون؛ والذي، كما نرى، يترك متنفساً قليلاً للتلاميذ خارج ساعات الدراسة؛ لأنها تستمر دون انقطاع تقريباً من شروق الشمس حتى الغروب. فالتحسن يجب أن يكون إذاً سريعاً جداً إذا أُحسِن استغلال جميع تلك الساعات، ولكن هل كان الحال كذلك فعلاً؟ فإهمال إشباع متطلبات الجسم تماماً يعني تجاهل فعل القوى الإنسانية النشيطة، وقطع قوانين التوازن التي منحتها الطبيعة للنمو المتزامن للقدرات الجسمية والفكرية؛ التي يجب أن تُمارَس، في فترة الشباب خاصة، بالتناوب خشية أن تُعطِّل إحداهما الأخرى. فبالنسبة للأخيرة، على وجه الخصوص، يمكن لضغطٍ متواصلٍ أن يؤدي سريعاً إلى انفلات البواعث التي تحركها، وبذلك يصبح الذكاء الفاقد لنشاطه الأولي خاملاً، متكاسلاً، لا مبالٍ؛ كالجسد الذي أرادت التحكم في غرائزه. ويصيبها، مثله، الهزال حتى لا يعدو أن يكون مجرد آلةٍ تسيِّرها آلةٌ أخرى. إذا أضفنا إلى هذا السبب الرئيسي للخيبات طرق التعليم السيئة التي كانت ومازالت تُتَّبع في المدارس الإسلامية؛ فإننا ندرك لماذا حُدِّدت عشر سنوات، في نص القانون الذي يشغلنا، لتقييم مدى تطور التلميذ، وملاحظة قدرته على تحصيل العلوم. ولماذا كانت ولا تزال هذه الفئة من الطلبة؛ التي من شأنها تمثيل المعرفة والعمل الفكري، عدا بعض المتفوقين فطرياً؛ ليست في الواقع سوى نمطاً للكسل والجهل.

بعيداً عن هذه النقيصة التي أشرنا إليها، والتي كانت نتيجةً للرتابة وليس لتطبيق نظام جديد؛ يكون من العدل الاعتراف بأن الكثير من إجراءات هذا القانون كان بصمة روح الحكمة والاستشراف، والشاهد على الدفعة التنظيمية التي أعطاها صالح باي لكل ما قام به أو يجري حوله.

لقد كان التعليم على العموم واحداً من اهتماماته الثابتة، وقد وجد من يشاطره في رؤاه؛ وهم ثلاثة رجال ذوي علمٍ كبيرٍ: الشيخ عبد القادر الراشدي؛ مفتي حنفي، وشعبان بن جلول؛ قاضي حنفي، والعباسي؛ قاضي مالكي؛ الذين وحدوا جهودهم مع جهوده من أجل رفع ذوق الدراسات العميقة والآداب الجميلة التي كانت تتقهقر يوماً بعد يوم. وبالإضافة

إلى التشجيعات المقدَّمة للأشخاص الذين يساهمون بأنفسهم في عملية الإصلاح هذه؛ فقد خصص جزءاً من مداخيل الإقليم لبناء وتشييد مساجد ومدارس، ليس فقط في قسنطينة كما رأينا؛ بل أيضاً في عديد المدن الأخرى، وحتى في الواحات. ولقد ألحق بها حبوساً[1] كثيرة، أو أعاد إليها تلك التي كانت ملحقةً بها من طرف مؤسسيها بعد أن أدى التهاون أو سوء تسيير الوكلاء لها إلى فقدانها أو تحويلها إلى المصلحة الخاصة.

بالنسبة لمدينة قسنطينة؛ التي شهد فيها تشكيل الحبوس تطوراً معتبراً؛ فقد كان من الضروري القيام بإجراءٍ استعجاليٍ لوضع حدٍ للتجاوزات العديدة التي دخلت، مع مرور الوقت، في إدارتها. ومن أجل هذا، أصدر قراراً في العشرة الثانية من شهر ربيع الأول 1190هـ (1-10 أبريل 1776م)؛ أسند بموجبه إلى القضاة والمفتين مهمة البحث عن جميع الأملاك المحبوسة التي كانت تشكل ملحقات المساجد، وأيضاً المساجد نفسها التي حوِّلت عن مهمتها الأولى، وتدوين نتيجة تحريهم على سجل تكون له أربع نسخ؛ تُحفَظ إحداها عند أمين بيت المال، والثانية عند شيخ البلاد، والثالثة عند القاضي الحنفي، والرابعة عند القاضي المالكي. لقد كانت وسيلةً ممتازةً لوضع حدٍ للتجاوزات التي كانت حافزاً لاتخاذ هذا القرار الحكيم، والتحضير لعودة هذا النظام[2].

هذا التنظيم الطارئ على تسيير مصلحةٍ عامةٍ ظلت، حتى ذلك الوقت،

1. أملاكٌ غير قابلةٍ للتصرف؛ تكون تابعةً لعائلةٍ أو لمؤسسةٍ دينية أو تُستغَل للنفع العام، ولا يمكن حيازة بشأنها سوى حق الانتفاع.

2. لقد دُعينا لترجمة هذه الوثيقة لصالح مصلحة الأملاك (Domaines)، وقد نُشرت أخيراً من طرف السيد فيرو؛ الذي قدَّم النص الأصلي مع ترجمته الفرنسية في المجلة الإفريقية، عدد شهر مارس 1868، ص123 وما بعدها. وإننا نوافقه في جميع الملاحظات التي أبداها، ونعبِّر عن آمالنا بألا تبقى الوثائق العديدة والثمينة المطمورة في أرشيف مصلحة أملاك قسنطينة صماء لمدةٍ أطوَل بسبب غياب الترجمة التي تُخبر بمحتواها. ولم يكن التفكير هكذا في مدينة الجزائر؛ حيث وُضع منذ مدةٍ رجل علم ودراسة؛ وهو السيد «ألبير دوفولكس» على رأس هذه المصلحة، واستطاع تقديم عدة أعمالٍ للنشر كانت ذات نفع واستحقاق. فلماذا ليس الأمر كذلك في قسنطينة؟ لو كان كذلك؛ لخَدَم في الوقت نفسه المصلحة العامة التي تمثلها هذه الإدارة، ولقَدَّم العون للتاريخ المحلي المفتقر للوثائق الأصلية.

متروكةً دون مراقبةٍ بين أيدي وكلاءٍ مهمِلين أو جشعين، والذي لم يهتم به أي واحدٍ من سابقيه رغم البساطة التي يُمثِّلها في نظر إداريٍ فرنسي؛ كان بمثابة الشرف العظيم لروح المبادرة والتنظيم لدى الباي صالح. وبذلك يمكن، على الأقل، لكل من كانت معرفتهم قليلة بعادات المجتمع العربي أن يلاحظوا كم هي أفكار الانضباط والتنظيم والتبصر متعارضة مع تهاون المسلمين إلى درجة أنهم ينفرون منها. لم يكن هذا التنظيم إلا واحداً من أدنى موجبات الامتنان للإدارة الحالية للأملاك؛ التي أُنيط بها اليوم واجب المحافظة على هذه الممتلكات التي أصبحت بموجب حق الغزو مُلكاً للدولة، والتي بدون هذا الإجراء الوقائي كانت بلا شك ستضيع إلى الأبد.

في نفس الوقت الذي كان يحاول فيه نشر ذوق البناءات الجميلة بين الأهالي، وإيقاد شعلة الدراسات في أنفسهم؛ لم يكن صالح باي يهمل بتاتاً التشجيعات التي يوليها للزراعة وخدمة الحقول. وبعلمه بألا شيء أكثر عدوى من المثال؛ وخاصةً إذا صدر من أعلى، أنشأ مقابل المدخل الرئيسي لقسنطينة هذه الجنة الغنَّاء، أو بالأحرى هذه الواحة الندية التي نراها على بعد بضعة كيلومترات غرب المدينة، على آخر خاصرةٍ لجبل شطابة والتي جعل منها مكان استجمامه[1]. وفي الحامة نشر زراعة الرز، وأنشأ ناعورةً تحت الموضع الذي توجد فيه حالياً مطحنة «تراكلي» (Trakley)؛ وذلك لسقي حقول الرز التي أسسها بنفسه في ذلك المكان[2]. وفي عنابة أسس حبوساً خُصِّصَت عائداتها إلى أعمال حفر وصيانة قنواتٍ موجهةٍ لاستيعاب مياه السهل الراكدة، وصبها في وادي سيبوس. بالإضافة إلى أنه تنازل عن مصبات المياه لطالبيها مع تصاريح ببناء طاحونات؛ تلك الصناعة الضرورية

1. لقد تحصل على تلك الأرض من السيدة عائشة بنت حسين باي مقابل مبلغ ثلاثمئة ريال، بموجب عقدٍ مؤرخ في أواخر شهر سبتمبر 1783. ويسمي الفرنسيون هذه الحديقة بحديقة صالح باي، وتُعرَفُ لدى العرب بجنان سيدي محمد الغراب؛ ذلك المرابط الذي ستروي لاحقاً نهايته المأساوية.

2. نقرأ لدى كاتب عربي بأن الرز كان يُزرع أيضاً عند بني جندل؛ القبيلة المجاورة لميانة. ويتحدث «ديفونتان» (Desfontaines) في رحلاته عن زراعة الرز على ضفاف «مينا» ومناطق أخرى، ويورد «شو» (Shaw) سهول سيف، وحبرة، وحامة قسنطينة، وضفاف مجردة.

التي كانت تشهد نقصاً كبيراً في كامل أرجاء البلاد.

كما لقيت التجارة الخارجية اهتماماً منه؛ لأنه أدرك جيداً بأنه بمضاعفة التبادلات وبإيجاد تصريفٍ لمنتجات الإقليم سيغني، في الوقت نفسه، المنتجين والخزينة العامة. ولكن لضمان الدخول الجيد للمبالغ التي يُؤَمِّنها هذا المصدر للبايلك؛ وضع في كل واحدٍ من موانئ القل، وسطورة، وعنابة، والقالة وكيلاً مكلفاً بالتحصيل المنتظم لحقوق الدخول والخروج على السلع المتبادلة. وبهذا، وبدون أن يستنزف محكوميه، يزيد موارد خزينته بشكلٍ معتبر، ويستطيع مواجهة المصاريف التي تستلزمها عديد المنشآت ذات المنفعة العامة التي جهَّز بها الإقليم.

لقد نقل الزمالة مرةً أخرى، ومنحها كموضع استقرار سهول مليلة الغنية، على طريق باتنة؛ حيث بقيت فيها منذ ذلك الحين بصفةٍ نهائية. ومنح لكل عائلة قطعة أرض؛ وبذلك تشكلت قبيلة الزمول كما نعرفها اليوم. ولقد أنهى أشغال بناء برج الفسقية التي كان قد بدأها سلفه أحمد القلي، وحوّل كامل إقليم الفسقية والكرشة الغني بالمروج والأراضي الفلاحية إلى عزل (أي أراضي الدولة). وقد أوكلت مهمة خدمة تلك الأراضي إلى ناس السڤنية، كما نُقلت إليها الخيول التي كان يربيها البايلك سواءً لغرض التناسل أو لاحتياجات الخدمة. وفي موسم الحصاد تمتلئ المخازن الكبيرة التي توجد بالبرج بالحبوب الناتجة عن هذين العزلين. فكان الشعير يُخصَّص لعلف الخيول، أما القمح فكان يُقسَّم بين الباي وڤايد الزمالة، وسياس الخيول، والوقافين (ما يشبه الحراس البلديين)، وحارس البرج؛ الذي كانت تُناط به المراقبة العليا للعمال وإدخال المحاصيل؛ والذي، نظراً لأهمية مهامه، كان يحمل لقب ڤايد البرج.

وأخيراً، كانت إحدى آخر إنجازات الباي صالح التي كان تجسيدها بالنسبة لأهالي قسنطينة يكتسي أهميةً فريدة؛ هي إعادة بناء جسر القنطرة الذي تحسَّر كثيراً لعدم إنهائه بنفسه.

قسنطينة، كما نعلم، وبموقعها الهوائي تشكِّل ما يشبه الجزيرة الصغيرة؛

حيث لا تتصل باليابسة سوى بشريطٍ ترابي تم توسيعه كثيراً اليوم؛ يمتد من بوابة فالي إلى كدية عتي؛ نقطة الالتقاء الحالية لجميع الطرق التي تأتي من سكيكدة، وميلة، وسطيف، وباتنة، وقالمة لتفضي إلى قسنطينة. وفي زمن الرومان كانت هناك خمسة جسور تؤدي إلى المدينة؛ اندثرت منها أربعةٌ بشكلٍ نهائي، وبقي واحدٌ فقط؛ هو ذلك الذي يتربع في الأصل على الطرف الأقرب إلى أول الأقواس الطبيعية الثلاثة التي يغور تحتها وادي الرمال قبل أن يصل إلى المنحدرات. وحتى في الفترة التي زار فيها بايسونال الإقليم كان هذا الجسر منذ مدةٍ في حالةٍ لا تسمح باستعماله. حيث يقول: «في وسط المدينة نجد جسراً ذا إنجازٍ جميل، له ثلاثة صفوفٍ من الأقواس، ويعلو بحوالي مئتين وخمسين قدَماً، ولكنه ضيقٌ نوعاً ما... لقد سقطت تقويستان منه»[1]. ومن خلال الرسم الذي تركه نلاحظ أن التقويستين الساقطتين كانت هما الأقرب إلى المدينة.

وبعد ستين عاماً، وفي أواخر شهر سبتمبر 1785، قام رحالةٌ فرنسيٌ آخر، وهو عالم الطبيعة «ديفونتان» (Desfontaines)، بزيارة تلك الأماكن نفسها، وترك لنا هذا الوصف حول حالة الجسر في تلك الفترة. يقول:

«نرى هناك أطلال جسرٍ قديم مبنيٌ بكثيرٍ من الصلابة والمتانة. لقد كان يتكون من أربع تقويساتٍ عاليةٍ جداً؛ اثنتان منهما علويتان، وواحدةٌ من السفليتين مازالت موجودة. والركائز التي تدعمها مربعةٌ وغليظةٌ جداً. الحجارة مربعةٌ وطويلة، ومتصفاتها غير متساوية. هناك أيضاً تقويستان صغيرتان بجانب الأوليين موضوعتين مقابل الصخرة؛ كانتا بمثابة زافرتين*. التقويستان الكبيرتان عاليتان جداً؛ ترتفعان على الأقل على خمسةٍ وأربعين قدماً.

على الدعامة المتوسطة، نرى نقشين ضعيفي البروز لفيلين. وعلى حجرين كبيرين أعلى الفيلين يوجد تصويرٌ لامرأةٍ برداءٍ مُشمَّرٍ حتى ركبتيها،

1. Voyages de Peyssonnel, p.302

* . زافرة: نصف قنطرة.

وفوق رأسها صَدَفة. لم يكن هذا العمل متقناً. وكان هناك صفٌ ثانٍ من الأقواس فوق الأول، ومازالت توجد دعائمٌ وجزءٌ صغيرٌ من الأقواس»[1].

كانت تلك حالة الجسر عندما عزم صالح باي إعادة بنائه في 1792. ومن أجل ذلك استقدم من «ماهون» (Mahon) المعماري «دون بارثولوميو» (Don Bartholoméo)؛ الذي كُلِّف بإعادة بناء الجزء العلوي، والتقويستين السفليتين، والركائز الثلاثة التي تدعمها؛ والتي كانت لا تزال في حالةٍ جيدة، كما قال ديفونتان. ويخبرنا بربروغر: «كان من المزمع أن يُعاد البناء بحجارةٍ مستقدَمةٍ من الباليار، غير أنه لم تصل إلا حمولةٌ واحدةٌ إلى سطورة؛ لأن الباي وجد بأن المواد كانت تكلّفه كثيراً هكذا. وقرر أن يأتي بها من هضبة المنصورة بالقرب من الحصن القديم المسمى المدفع التونسي»[2]. واستعمل أيضاً حجارة قوس النصر الذي كان يوجد بالجانب الآخر للجسر؛ والذي يسميه العرب

---

1. Voyages de Desfontaines, publiés par Dureau de la Malle, p.216

بعد أن زار عالم الطبيعة الفرنسي ديفونتان إيالة تونس وإقليمي وهران والجزائر، انطلق من الأخيرة نحو قسنطينة في 18 سبتمبر 1785، ووصل إليها بعد ثمانية أيام. وهذا ما أخبرنا به عن الباي صالح؛ الذي لم يذكر اسمه إطلاقاً، وعن حالة المدينة في تلك الفترة.

«أسكنني الباي في واحد من بيوته، وأمر بأن أزوَّدَ بكل ما أحتاج إليه. ولما زرته استقبلني بحميمية وأجلسني على أريكة. لقد كان يتكلم الإيطالية بطلاقة... كان للباي عديد العبيد الإيطاليين، وجرّاحه الذي كان من نابولي أظهر لي صداقةً كبيرة... طلبت من الباي موكباً يرافقني إلى بونة؛ فوافق بكل امتنان».

أما عن مدينة قسنطينة فيقول: «إنها مأهولةٌ جداً، وسكانها معادون للمسيحيين، وقد تعرَّضت فيها لإهاناتٍ كثيرة... الشوارع ضيقة، أما البيوت فهي مبنيةٌ بطريقةٍ حسنةٍ وكلها مغطاةٌ بالقرميد. الشوارع مبلَّطةٌ في معظمها، والبيوت الرئيسية مبنيةٌ ببقايا المدينة القديمة».

فيما يتعلق بالجرّاح النابوليتاني الذي يتحدث عنه ديفونتان، نلفت الانتباه إلى أنه في الإيالتين القديمتين للجزائر وتونس، ورغم أن علم الطب وقع في غياهب النسيان وتم استبداله بالدجل والإيمان بالتعويذات؛ فإنه كان يحظى باهتمام كبيرٍ لدى الأقوياء. فالباشاوات والبايات الذين كان لديهم نوعٌ من القلق على صحتهم؛ كانوا يجلبون إليهم طبيباً أوروبياً أو أكثر. ولذلك كان يضع صالح باي في خدمته جرّاحاً نابوليتانياً، كما كان للباي بوكمية، قبله، طبيباً هولندياً يدعى «سانسون» (Sanson)؛ والذي كان عبداً له. هذا الأخير الذي كان نافعاً جداً للرحالة الإنجليزي «شو» عندما زار قسنطينة لأنه قدَّم له، كما صرَّح هو نفسه في مقدمته، مجموعةً من الملاحظات حول جغرافية هذا الإقليم.

2. Revue africaine, année 1868, p. 133

«قصر الغولة». ولكن هذا الإنجاز الذي يُعتبر واحداً من الأعمال الأكثر نفعاً والأكثر جرأةً التي أقدمت عليها عبقرية صالح باي؛ كان يتجه نحو الفشل بجعله حجةً للحاسدين والثالبين لتلطيخ صورته لدى باشا الجزائر وإرضاء أحقادهم[1].

إن الإصلاحات التي قام بها هذا الأمير في الإدارة؛ وخاصةً في التعليم الابتدائي، ورغم أنها كانت مستوحاةً من حب الصالح العام؛ لم تكن لتحصل دون أن تثير بعض الأحكام الاعتباطية، وحتى المساس ببعض المصالح الفردية. ففئة المرابطين المتمثلة في أشخاصٍ منتسبين في معظمهم إلى تنظيماتٍ دينية تمثل الجماعات السرية للعالم الإسلامي؛ التي تعتمد في تأثيرها على سرعة التصديق العمياء الناتجة عن الجهل، لم تستطع، دون أدنى غيظ، رؤية المجهودات التي بذلها صالح باي من أجل نشر التعليم حتى في القبائل، ومحاولته تبديد ظلمات الضلال. فمنذ ذلك الحين بدأت الأحقاد الدينية التي لم تتجرأ بعدُ على الخروج علناً ما دام الحماس المثار بالانتصارات والإصلاحات الناجحة التي ميَّزت السنوات الأولى من حكم هذا الأمير؛ تظهر مع بداية أفول نجمه، وتتفجر في شكل عداءاتٍ صريحة.

1. لم يستغرق عمل المعماري الماهوني سوى فترةٍ قصيرةٍ مقارنةً بإنجازٍ بهذه الأهمية. وفي 18 مارس 1857؛ أي بعد أقل من خمسٍ وستين سنةٍ بعد إعادة بنائه، وعلى الساعة السابعة والنصف صباحاً، انهارت إحدى الركائز العلوية للجسر، تلك الأقرب إلى المدينة، مُسقطةً معها القوسين اللذين تحملهما، واثنين وعشرين متراً من قناة المياه التي تموِّن المدينة. لقد أدى هذا الحادث إلى ضرورة تهديمه كلياً؛ حيث بُدئ في ذلك يوم الأحد 30 مارس الموالي بطلقات مدفعية. وهؤلاء الذين أتيحت لهم فرصة حضور هذا العرض الفريد؛ لن ينسوا، بالتأكيد، أبداً اللحظة الاحتفالية التي خارت فيها على ركائزها، التي أضعفتها القذائف، كعملاقٍ تملَّكه السُّكْر؛ تلك الكتلة الهائلة خلال بضع ثوانٍ في الهواء، وكأنها قبل أن تقع في الهاوية أرادت أن تسبر أعماقها، ثم تنهار على نفسها منكسرةً لتختفي في الهوة.

هذا الجسر الذي أصبح اليوم واحداً من أضخم الجسور وأكبرها التي يمكن أن نراها؛ قد أعيد بناؤه من جديد في 1863 تحت إشراف إدارة الجسور والطرقات. ويتكون في كل جهةٍ من قنطرتينِ مُشكَّلتين من قوسين بينهما مسافة ستةٍ وخمسين متراً. وأعلى هذا الفراغ توجد تقويسة معدنيةٌ تربط بين سلسلتي الأقواس، وبالتالي تتربع فوق هوةٍ بعمق مئةٍ وعشرين متر؛ وهو أعلى من الجسر القديم بعشرين متر. وعوض أن يمر محوره فوق العقد الطبيعي الذي مازلنا نرى عليه قاعدة الجسر الروماني البدائي فهو أعلى قليلاً.

من بين كل هؤلاء الغاضبين لوحظ المرابط سيدي محمد بانتقاداته اللاذعة وقدحه العنيف. فباعتماده على عدم معاقبته؛ تجرأ على تحدي غضب الباي علانيةً بالتآمر عليه وتأليب «الخوان» (الإخوان) ضده؛ حيث كانوا مستعدين لمؤازرته. إن صيت قداسته الذائع وشعبيته الكبيرة جعلاه يعتقد بأن بإمكانه التجرؤ على فعل أي شيء، لكن صالح باي لم يسمح له. فعندما اقتنع تماماً بأن الرجل الصالح يعمل على تلغيم سلطته؛ لم يَعُد يرى فيه سوى شخصٍ ثائر، وحكم عليه بالإعدام. وعند ساعة الحسم، ورغم توسلات العلماء، ورغم الشعور الذي أثاره هذا الحكم في المدينة؛ تم تنفيذه بحضور كافة الأهالي. وتضيف الأسطورة، أنه لحظة تدحرج رأس المرابط على الأرض استحال جسده إلى غراب، وانطلق طائر المتنبئ البائس نحو منزل استجمام الأمير؛ الذي كان قد بناه مقابل المدينة، وألقى عليه لعنته. وصالح الذي لم يكن في منأى كلي عن التطيُّر؛ صدَّق المعجزة. وبعد ندمه، ولكي يهدِّئ روح ضحيته؛ أقام على المكان الذي حطَّ عليه الطائر الضريح الضخم ذا القبة البيضاء الذي صار يُعرَف، منذ ذلك الحين، باسم سيدي محمد الغراب[1].

لم يكن ذلك الندم المحتمَل عميقاً بالقدر الذي يمكن أن يحمله، منذ ذلك الحين، على الانحناء في صمت والتنازل عن سلطته أمام دسائس الحزب الديني المتجاسرة يوماً بعد يوم، ورأى ذلك فعلاً.

الشيخ سيدي أحمد الزواوي؛ الذي رأيناه يقطع في ظرف بضع ساعاتٍ مئات المراحل ويُغرق الأسطول الأسباني، وبعد أن كان صديق ومستشار صالح لمدةٍ طويلة؛ قاطعه نهائياً ليتخذ موقفاً موحَّداً مع أعدائه. وبانسحابه إلى جبل وازڤر، صار مركزاً التحق به جميع الغاضبين. أما الباي الذي لم يكن يسمح بوجود بؤرةٍ دائمةٍ للثورة على أعتاب عاصمته؛ فقد قرر تفرقتها، فأرسل كتيبةً مكوَّنةً فقط من أتراكٍ لمواجهة المرابط وأتباعه الذين فروا مع اقترابها. وتم تخريب كامل المنطقة، لكن الهدف الرئيسي للحملة، والذي كان

1. هكذا على الأقل تشرحه الرواية التي نقلها شيربونو في الجزء الأول من «الجمعية الأثرية لقسنطينة»، ص130.

إلقاء القبض على الشيخ؛ فلم يتحقق. فقد تمكن أتباعه من إبعاده في مكانٍ ما عن غضب الباي، وبعد ذلك لم يترددوا في استغلال هذا الحدث كأعظم انتصارٍ لسيِّدهم. وتروي الأسطورة حملة الباي صالح الجريئة هذه كما يأتي.

ما إن علم الشيخ بأن غارةً ستُشنُّ على أراضيه، وبأن الأمر بالقبض عليه قد صدر؛ حتى فرَّ من جبله وأضرم النار في جميع القرى التي وجدها في طريقه. وقد لحقه الكثير من الأتباع من المدينة والريف؛ حيث لم يكن يَقِلُّ عددهم عن ثلاثة آلاف. بوصولهم إلى «مشتة النهار» توقف سيرهم بسبب ثعبانٍ عظيم قطع طريقهم، ولم يكن غير الله قادرٌ على القضاء عليه. وبرؤيته، أمر الشيخ الحشدَ بقتله، ولكن كل الجهود المتظافرة ذهبت سدى. فترجَّل من حصانه، وفي ظرف ثانيةٍ واحدةٍ فعل ما لم يستطع ثلاثة آلاف رجلٍ فعله. لم يقم إلا برفع قدمه على الوحش حتى مات لتوِّه وهو يتلوى متشنِّجاً والزبد يخرج من فمه. ثم استدار الشيخ إلى الحشد المندهش صائحاً: «لا حول ولا قوة إلا بالله ونحن عباده. بعون الله لا أخشى أي مخلوقٍ، ولا خوف إلا من الله»، ثم أمر جميع من تبعوه بالعودة إلى ديارهم، وتوجه هو أيضاً إلى داره.

وفي مساء ذلك اليوم، وبعد غروب الشمس، خرجت كتيبةٌ من الأتراك من أبواب قسنطينة في هدوءٍ تام متجهةً، في عتمة الليل، نحو جبلِ وازفر لمباغتة المرابط العنيد وإحضاره مكبلاً إلى السيِّد، كما كان يحذوهم أملٌ بحيازة غنائم كثيرة؛ فأسرعوا خطاهم. وبعد مسيرةٍ مضنيةٍ دامت ثمانية ساعات، ومع بداية بزوغ الصبح وتمييز الخيط الأبيض من الخيط الأسود، وجدوا أنفسهم أمام خيبةٍ مريرة؛ حيث كانوا على سفح كدية عتي التي أمضوا الليلة بأكملها يدورون حولها معتقدين أنهم كانوا يسيرون إلى الأمام. هل كان بإمكانهم، كما العرافون القدماء، أن ينظروا إلى أنفسهم دون أن يضحكوا؟ ذلك ما لم تذكره القصة، ولكنها أضافت بأنهم دخلوا المدينة خجلين مطأطئين رؤوسهم ومرتبكين بسبب ما فعلت بهم كرامة الرجل الصالح المعجزة؛ الذي لم يعودوا منذ ذلك الحين يُكذِّبون قدرته الخفية.

عندما أُخبر الباي بهذه الخيبة الغريبة رفض تصديقها في البداية، ولكن

مع التأكيدات المتكررة لقائد الكتيبة وللجنود الذين كانوا أعضاءً فيها؛ توجّب عليه الرجوع إلى جادة الصواب، وشعر هو أيضاً بالندم على تجرُّئه بالقيام بحملةٍ كهذه. ولتهدئة غضب الرجل الصالح المُهان؛ أرسل إليه عطيةً مشرِّفةً والعديد من الهدايا، ولكن الأوان كان قد فات. فقد دعا عليه المرابط، وعلى أبنائه، وعلى من يحيطون به؛ وخاصةً أولاد بن زكري بأن تحل عليهم لعنة الله. وبعد ستة أشهرٍ حلت عليه لعنة السماء؛ فقضى بشكلٍ عنيف، وانتصر الشيخ الزواوي وأخذ بثأره.

وعلى الرغم من هذا، فإن الشيطان الذي كان ربما يَؤُزُّ صالح باي ويدفعه إلى الهلاك؛ قد زج به في حملةٍ جديدةٍ ليست أقل جوراً من سابقتيها.

لقد كانت زاوية الشيخ سيدي عبيد في بلاد الحنانشة تتمتع، في تلك الفترة، بسمعةٍ واسعة. حيث كانت تفتخر كثيراً بثرائها وضخامة قطعان إبلها. وبدافع الطمع، عزم صالح على الاستحواذ عليها. وفيما يلي الحيلة التي تخيَّلها.

لقد بلغه بأن ألفا رأسٍ من إبلهم قد أُرسلت إلى التل لجلب الحبوب لحساب وتحت إشراف رجالٍ من قبيلة النمامشة؛ التي كانت متمردةً على سلطته، فأرسل الباش سيار، بورنان بن زكري، إلى إبراهيم بن بوعزيز، شيخ الحنانشة، بحجة التحادث معه حول بعض المسائل المتعلقة بقيادته، ولكن، في واقع الأمر، للتفاهم معه حول الوسائل الأفضل لتنفيذ عملية الاستيلاء المبيَّتة. ولقد أدى بن زكري مهمته على أحسن وجه. فبوصوله إلى بلاد الحنانشة؛ عرض على الشيخ إبراهيم الهدف السري من رحلته، وبتلقيهما إشارة اقتراب القافلة؛ أمرا رجال القُوم بركوب خيولهم والانقضاض عليها. ورغم كثرة عددهم لم يحاول قائدو القافلة حتى التصدي للهجوم؛ بل هربوا تاركين وراءهم الإبل بما حملت في قبضة المهاجمين. وسلك بن زكري طريق قسنطينة سائقاً أمامه تلك الغنيمة الكبيرة رغم مطالبات أولاد سيدي عبيد؛ الذين قالوا بأن الإبل لهم وليست للنمامشة.

خرج صالح لملاقاته في الباردو، وهنَّأه على غنيمته. وخُتمت جميع

البهائم بختم البايلك قبل أن تُضمَّ إلى القطيع الموحَّد. أما أولاد سيدي عبيد الذين تنقلوا، هم أيضاً، إلى قسنطينة آملين أن ينصفهم الباي؛ فلم يلقوا منه سوى استقبالاً فاتراً. فلم يستمع لحججهم، ولم يستجب لتوسلاتهم، ثم طردهم دون أن يعيد لهم شيئاً. ورجعوا باكين إلى أبيهم الشيخ سيدي عبيد مخبرين إياه بعدم جدوى محاولتهم. لم يكن الشيخ قادراً على الانتقام بالقوة جراء هذا الغضب الظالم الذي تعرض له؛ فدعا، هو أيضاً، أن تحل اللعنة على ظالمه، ونظَمَ قصيدةً يرجو فيها، بشكلٍ واضح، نهايته القريبة.

مهما يكن اعتقادنا حول اللعنات الموجَّهة له من طرف الفئة الدينية؛ فإنه من المؤكد أن صالح باي، في نهاية حكمه، قد أوجد لنفسه أعداء كُثُر حتى من بين الفئات الأخرى للمجتمع، ويبدو أن الأحداث التي ستأتي لاحقاً تصدِّق الرأي العام.

أُرسل بورنان بن زكري الذي قام بعملية السطو التي أوردناها؛ إلى مدينة الجزائر ليعطي تفسيراتٍ حول تلك الحادثة، ولكن حجَّته كانت ضعيفة أمام الاتهامات التي وجهها إليه الشيخ سيدي عبيد. غير أن الباشا تركه يغادر، في حين أرسل إلى صالح باي أمراً سرياً بقتله. ودون أدنى شفقةٍ تجاه خادمٍ مخلصٍ كهذا، قام صالح بقطع أطرافه في الساحة العامة، وقطع رأس أخيه.

وبعد بضعة أيام، وبإيعازٍ من أعداء صالح باي الذين أوحوا للباشا بأنه يرغب في أن يستقل بإقليمه؛ أصدر قراراً بعزله واستبداله بتركيٍّ من وهران يسمى إبراهيم.

إبراهيم باي، المدعو بوصبع

28 ذو الحجة 1206هـ، 17 أوت 1792م

دام حكمه ثلاثة أيام

وصل إبراهيم إلى قسنطينة خفيةً، فاتصل أولاً بقايد القصبة؛ حيث أطلعه على قرار تعيينه وأوامر الداي. ثم اتفقا معاً على العمل دون ضجةٍ على توقيف صالح، وسار الأمر بدقةٍ كبيرة؛ حيث تم في ذلك اليوم نفسه القبض على الباي السابق، وأُلقي به في السجن.

بعد ذلك، توجه إبراهيم إلى قصر الحاكم، واستدعى على وجه السرعة أعضاء الديوان، وكبيري الموظفين، وأعيان المدينة. ثم اتخذ مكانه على الكرسي، وارتدى قفطان التولية؛ في حين كان الباش كاتب يتلو الفرمان الذي يسميه باياً على إقليم الشرق. وبعد ذلك رحبت به الشخصيات الحاضرة، وتعالت هتافات الحشود المبتهجة في الخارج.

عندما انتهى الحفل وتفرّق المجلس؛ قام إبراهيم بإخراج صالح من السجن، وأمر بأن يُساق أمامه بعد فك أغلاله. ثم أجلسه بجانبه، وقال له بأن يطرد الخوف عنه، وطمأنه بأنه سيتدخل لدى الباشا من أجل العدول عن الأمر الصادر بقتله. وفي تلك الجلسة كتب إلى مدينة الجزائر رسالةً يلتمس فيها العفو عن سجينه، ثم سمح له بالعودة إلى داره حتى يهدّئ مخاوف أولاده وجميع أسرته. أما صالح المندهش من تصرفات إبراهيم الحسنة تجاهه؛ فقد وجّه له تشكراتٍ حارة، وأسرع إلى بيته وأغلق بابه عليه. وكانت عودته مدعاةً لسرور وبهجة أهله؛ الذين لم يكونوا يتوقعون أبداً رؤيته مجدداً.

ولكن باسترجاع حريته، أراد سجين يوم واحدٍ أن يسترد سلطة الأمس. حيث تذكّر أنه قبل يوم واحدٍ فقط كان هو بأي قسنطينة الذي يحكم، كسيّدٍ مطلق، كامل الإقليم. فخطط لمشروعٍ يسترجع فيه بالقوة اللقب الذي انتُزع منه ولو تطلّب تحقيق ذلك أن يدوس على جسد الرجل الذي تكرّم عليه وحافظ على حياته. ومنذ تلك اللحظة أخمد الطموح لديه الشعور بالعرفان؛

فسلَّح خَدَمَه ومملوكيه بشكلٍ سري، وفي اليوم الثالث خرج ليلاً على رأسهم متوجهاً نحو القصر حيث كان يرقد خلَفُه. ولم يكن القضاء على الحراس الذين كانوا في المدخل قبل الولوج إلى مخدع إبراهيم سوى مسألة لحظات، وتمت مباغتة الباي الجديد في فراشه؛ فلم يجد حتى المجال لطلب نجدة مُخلِصيه وخدمه الذين جاء بهم معه من وهران. وهلك بطعنات قاتليه، واستطاع صالح، قبل أن ينصرف، أن يمعن النظر في جثة ضحيته الدامية والهامدة.

لم يدم حكم إبراهيم بوصبع سوى ثلاثة أيام. وقد تم نقش العبارة التالية على شاهدة قبره؛ التي قدم فيرو نصها العربي وترجمته الفرنسية في الحولية الأثرية لسنة 1867، والتي نوردها هنا:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه ضريح المرحوم بكرم الله تعالى

الحي القيوم الشهيد السيد

القادم على مولاه الكريم إبراهيم باي

رحمه الله وأدخله فردوسه

توفي ليلة الاثنين

تاريخ شهر محرم

سنة ١٢٠٧

فيما يتعلق بهذا التاريخ يجدر بنا أن نورد ملاحظة. فقد عُنِيَ الراوي بتدوين السنة والشهر، وحتى اسم يوم الأسبوع وتقريباً الساعة التي كانت فيها وفاة الباي إبراهيم؛ ولكنه نسي أن يطلعنا على أي يومٍ من الشهر. فشهر محرم هذا لسنة 1207 قد ضم خمسة أيام اثنين، وبقيت الإشارة إلى يوم الأسبوع البعيدة عن الاكتمال لا تضيف أي شيء لتحديد التاريخ؛ لأنها تترك الغموض يحوم على كامل الشهر. وبالاستعانة بتواريخ معروفة لبعض الأحداث التي سبقت أو تلت مقتل إبراهيم؛ لا نتردد في تحديد هذا التاريخ

بيوم الاثنين الثاني من محرم الموافق لليلة 20 إلى 21 أغسطس 1792 بالتقويم المسيحي. وفيما يلي مؤشرات الاستقراء التي اعتمدنا عليها.

لقد تقلد إبراهيم السلطة يوماً بعد توقيف صالح باي، وكان ذلك يوم 16 أغسطس (27 ذو الحجة 1206هـ) وفقاً للوثائق التابعة لأرشيف الشركة الملكية لإفريقيا (Compagnie royale d'Afrique) التي كنا قد ذكرناها آنفاً[1]. ومن جهةٍ أخرى، جاء في شاهدة القبر أنه توفي في ليلة الاثنين، وهو ما يوافق ليلة الأحد إلى الاثنين؛ لأن المسلمين يعدون أيامهم من غروب شمسٍ إلى آخر. وبما أن 16 أغسطس 1792 كان يوم خميس، وحكم الباي الجديد لم يدم سوى ثلاثة أيام؛ أي الجمعة والسبت والأحد، فإن ليلة الاثنين الواردة في الشاهدة لا يمكن أن تكون سوى تلك الواقعة من 20 إلى 21 أغسطس، والتي توافق الثاني من شهر محرم من عام 1207.

يسمح لنا هذا بتصحيح خطإٍ كرونولوجي نجده يتكرر دون تغيير في جميع قوائم بايات قسنطينة التي نُشِرت حتى اليوم تقريباً. فهي تحدد قدوم الباي إبراهيم في سنة 1207هـ، بينما أن قدومه يرجع في الواقع إلى 28 ذو الحجة من سنة 1206. فصحيحٌ أن يومين فقط يفصلان هذا التاريخ عن بداية العام 1207، ولكن لوجود العناصر الكافية لتحديد هذه النقطة من التاريخ المحلي بشكلٍ دقيق؛ لا يمكننا إهمالها لأنها، بالنظر إلى ندرتها، نعتبرها، عندما تتراءى، مؤشّراً جديداً.

ونعود إلى صالح باي الذي تركناه مع ضحيته. فبعد أن انتهى جلادوه من قتل جميع خدم الباي الهالك[2] بنوع من العنف، وكأنهم كانوا يستمدونه من أعين وصوت سيِّدهم؛ استقر صالح وإياهم من جديد في القصر الذي استرجعه بالخيانة والقتل إرضاءً لطموحه. والسلطة المسترجَعة بالقوة لا

1. انظر الهامش في الصفحة 158.

2. روى لنا شاهد عيان بأن هؤلاء الخدم الذين كان عددهم أربعون؛ قد اقتيدوا خارج دار الباي إلى ساحةٍ صغيرة بمدخل سوق السراجين، وذُبحوا واحداً تلو الآخر كالأغنام. وسالت الدماء بغزارة، كما قال، لدرجة أنها ملأت الشارع، وشكّلت مقابل باب فندق الزيت (أسفل الشارع) بركة دمٍ بشري سدت المدخل.

يمكن أن تبقيها إلا القوة؛ وهو ما بدأ التفكير فيه، لأنه منذ ذلك الوقت صار يأمل في استقلالٍ تام، وأظهر عصياناً صريحاً ضد سيده. ولكن انتصاره لم يكن ليدوم طويلاً.

ما أن انتشر خبر اغتيال إبراهيم في المدينة حتى أثار استنكاراً عاماً ضد فاعله. فلم يعد الأهالي مع صالح، وأصبحوا بعيدين عن اتِّباع عصيانه، بل بالعكس، فقد حملوا السلاح ضده وثاروا. أما الأتراك وبعض الموالين الذين ظلوا إلى جانب الباي المخلوع؛ فقد حاولوا السيطرة على الحشود بالتخويف، ولكن دون جدوى. لقد استلزم الأمر الاشتباك والاحتكام إلى البارود، واستمر القتال في الشوارع عدة أيام؛ فسقط من الجانبين عددٌ من القتلى والجرحى دون أن يحسم الأمر لأي واحدٍ منهما.

خلال هذه الفترة، خشي أعيان المدينة من عودة صالح باي إلى الحكم إن هو خرج منتصراً من هذا الصراع؛ فأرسلوا على وجه السرعة كتباً إلى مدينة الجزائر يخبرون فيها الباشا بابا حسن بمصرع الباي إبراهيم، وتصرفات الباي السابق صالح.

في هذه الفترة كان يعيش في مدينة الجزائر ابن بوحنك؛ الذي نُذكِّر بأن صالح باي أراد، في بداية حكمه، أن يقتله ليشفي غليلاً في نفسه، وبأنه لم ينجُ من الموت إلا بالهروب بعيداً عن موطنه. عشرون سنة من المنفى لم تجعله ينسى أو يسامح، بل على العكس، زادت وأججت مشاعر الكراهية التي حملها معه لدى هروبه من مضطهده. وإن كان الانتظار طويلاً؛ فإنه كان يعلم بأن الانتقام سيكون يوماً، وقد حانت ساعته. وعندما توجَّب اغتنامها، ابن بوحنك لم يتأخر.

حالما علم بما حدث في قسطينة تقدم إلى الباشا بوساطة بعض أعضاء الديوان الذين كانت تربطه علاقاتٌ بهم، وقال له: «سيدي، إذا وافقتم على تعييني باياً على إقليم الشرق؛ فإني سأتكفل بصالح، ولن تمر إلا أياماً قبل أن تتلقوا نبأ موته».

لم يكن الباشا يجهل الاستعدادات الداخلية للرجل الذي طلب بنفسه

امتيازاً لا يخلو من الخطورة؛ فلم يتردد، إذاً، في تسميته مكان الباي المخالف لواجبات وظيفته؛ لأنه كان يدرك بأنه من حسن السياسة أن من أجل هزم خادمٍ متمردٍ يجب امتلاك فرصةٍ مضاعفةٍ للنجاح؛ وذلك بمواجهته، في الوقت نفسه، بمنافسٍ وعدوٍ شخصي. وفي هذه الأثناء أرسل خطاباً لسكان قسنطينة ولقياد وشيوخ الإقليم بالخروج عن طاعة الباي صالح؛ الذي أصبح خارجاً عن القانون بقتله لإبراهيم، كما ألزمهم فيه بالقبض على شخصه وسجنه حتى وصول الحاكم الجديد.

منذ نفيه؛ غيّر ابن بوحنك اسمه حسن باشا إلى حسين، فكان هو الاسم الذي عُرف به مُذّاك. وما إن عُيّن في منصبه حتى انطلق على وجه السرعة من مدينة الجزائر على رأس بعض التعزيزات، ووصل بعد بضعة أيام إلى قسنطينة التي فتحت له أبوابها دون جهدٍ يُذكر؛ حيث أنه لم يواجه أية مقاومةٍ؛ لأن عدوّه كان قد تم القبض عليه. فمع تلقي رسائل الباشا، اتفق أعيان المدينة وأعضاء المجلس مع الآغا على العمل على توقيفه، ولم يرغب أحدٌ، حتى من خدمه ومملوكيه الذين ظلوا إلى تلك الفترة مخلصين له، في الدفاع عنه في أسوأ أيامه. وبتخلي الجميع عنه، تم إلقاء القبض عليه، وسُلك في الأغلال قبل أن يُلقى في سجن القصبة في انتظار قدوم الباي الجديد الذي سوف ينظر في مصيره، ولكن الانتظار لم يكن طويلاً.

ما إن دخل حسين باي إلى المدينة حتى أصدر أمراً بقتل السجين. وبعد بضع دقائق تم خنق صالح على أيدي الجلادين؛ وبذلك انتقم عدوُّه لنفسه.

هكذا انتهى الرجل الذي ساد لمدة واحدٍ وعشرين عاماً بشكلٍ مطلقٍ في الإقليم، دون أن يضيّع مجداً مثلما رأينا. فإن ظهر أحياناً على أنه غير عادلٍ وقاسٍ؛ فيرجع ذلك إلى عيوبٍ في التربية التي تلقاها، والوسط الذي عاش فيه. ولكن لا يمكننا إنكار الذكاء الحاد الذي كان يتمتع به، وبُعدِ نظره وصلابته ورباطة جأشه. فباعتباره مقاتلاً، ودبلوماسياً، وإدارياً؛ وظّف جميع المزايا التي تضعه، ودون منازع، في المرتبة الأولى بين كافة بايات قسنطينة، وكان الازدهار كفيلاً بإنساء عيوبه؛ للتذكير فقط بإنجازاته النافعة.

وللأسف، فإن الإصلاحات العديدة التي قام بها طيلة فترة حكمه؛ لم يبق منها إلا القليل. وهكذا فقد كان له خلفاء ولم يكن له مقلدون.

ما سردناه حول الأحداث الأخيرة التي سبقت موت صالح باي قد نقلناه عن مخطوطٍ للشيخ مصطفى بن جلول، القاضي السابق في قسنطينة، والذي توفي عن عمر ناهز القرن في 1864، كما أنه عايش هو نفسه أو بوساطة عائلته الأحداث التي رواها. ولقد تم تأكيد هذه الأحداث شفهياً من طرف أشخاص آخرين يجعلهم سنهم ومركزهم جديرين بالثقة. وبما أننا لا نستطيع الاستناد إلى أية وثيقة رسمية، وبما أن هناك وثائق أخرى أوردت الأحداث بشكلٍ مختلف؛ فإننا نعتقد بأنه يجب علينا هنا إضافة الرواية التي أوردها شيربونو عن مصادر أخرى. وإليكم كيف أنهى العرض الذي خصصه لهذا الأمير.

«إن إعادة بناء جسر قسنطينة، التي كانت بالتأكيد إنجازاً ذا منفعةٍ كبيرةٍ لأهالي هذه المدينة، قد انقلبت رغم ذلك لغير صالح صاحبها. فقد أوحى أصحاب النوايا السيئة إلى باشا الجزائر بأن استقدام عامله للماء إلى قسنطينة؛ لم يكن إلا بهدف الاستقلال، فعزله وأرسل إبراهيم خلفاً له.

سيكون سرد الأحداث التي صاحبت وصول الباي الجديد طويلاً بعض الشيء؛ فأكتفي بالقول بأن إبراهيم جاء بصالح إلى دار الباي وتحفّظ عليه خشية أن يقوم أتباعه بتصرفاتٍ لصالحه. ورغم هذا الاحتياط اغتيل هو نفسه من طرف زعيم الميليشيا، واستعاد صالح باي الحكم، ولكن غالبية ضباط المخزن، الذين لم يريدوا تلويث مستقبلهم، فضّلوا انتظار ما سيحدث بدل أن يساندوه صراحةً. لم تدم هذه الوضعية طويلاً؛ فبعد عشرين يوماً من مقتل إبراهيم أرسل الباشا حاكماً آخر يدعى حسين، ومعه أمرٌ بإعدام المتمرد. يقال أنه لهذا السبب اندلعت معركةٌ داميةٌ داخل أسوار قسنطينة؛ حيث كان لصالح العديد من الأصدقاء الأتراك. وتعيَّن على حسين محاصرته في القصر القديم بين شوارع «كرمان» (Caraman)، و«كاورو» (Cahoreau)، و«كومب» (Combes)، وهذا ما رواه لي شهودٌ عيانٌ عن نهاية هذه المأساة.

فعندما أدرك صالح بأن الصراع أصبح غير متكافئ؛ اشترط الاستسلام شرط أن يُسمَح له بالخروج وسط مرافقيه وفي جوار شيخ الإسلام؛ فكان له ذلك. وعندما تخطى عتبة دار الباي ممسكاً بحذل* برنوس عبد الرحمن بن لفقون؛ الذي جاء للقائه. وبمجرد أن مشى بضع خطواتٍ في الشارع دفعه حاميه ساحباً رداءه، وتركه لشواش الباشا الذين انقضوا عليه وخنقوه»[1].

ونضيف، مع هذا الراوي، بأنه دُفن في مدرسة سيدي الكتاني، وبأن الضريح هو ذلك الذي نراه في آخر القاعة الواقعة شِمال المدخل. والكتابة التي يحملها نُقشت على طاولةٍ رخاميةٍ يعلوها هلال، وجاء فيها**:

بسم الله الرحمن الرحيم

ضريح يلمع في سماء السعادة، أو كعقد جواهر ثمينة

هنا يرقد باي القرن صاحب المشاعر النبيلة

وهنا تجتمع فضيلته وإيمانه

عاش سعيداً ومات شهيداً، لم ينشر إلا الخير في سبيل الله،

وقاد حصانه كثيراً في ساحات المعركة طاعةً لله

انتصر في جهاده ودمر جيش ألفانش[1] وأعطى حق الله

من أعماله الجديرة بالتقدير بناؤه للمدارس، كما وفق الله كثيراً حملاته

وافته المنية في شهر محرم

احسبوا حروف هذه العبارة

أمير حاز مفتاح السعادة

---

*. الحذل: الطرف الأدنى للثوب.

1. Annuaire archéologique de la province de Constantine, année 1856-1857, p.119

**. هذه ترجمة للنسخة الفرنسية المنقولة عن النسخة العربية الأصلية.

1. يُقصد به جيش الأسبان، فاسم «ألفانش» (Alfenche) أو «ألفونس» (Alphonse) هو، بالنسبة لمسلمي الجزائر، مرادف لملك إسبانيا. ويمكننا أن نخمن بأن كاتب شاهدة القبر أراد أن يشير إلى هزيمة الأسطول الأسباني بقيادة الكونت أوريلي (O'Reilly)؛ تلك الهزيمة التي ساهم فيها صالح باي بشكلٍ كبير. ولكنه بإعطائه شرف الانتصار كله لعب دور مُقرّظ وليس مؤرخٍ حقيقي.

إن رقم السنة الناتج عن هذا الحساب ليس بالمرة سنة 1208 للهجرة، كما يقول شيربونو خطأً، وهو ما يتناقض مع جميع معطيات التاريخ؛ ولكن هو سنة 1207 التي توافق سنة 1792 من التقويم الميلادي. وعليه، إذا جمعنا، بإعطاء لكل حرفٍ قيمته العددية*، كل الحروف التي تكوِّن الجملة التي تمثل رقم السنة، نتحصل في المجموع على العدد 1207. وهو ما يسهل التحقق منه، من جهة أخرى، بوضع الجملة بشكلٍ عمودي، ومقابل كل حرفٍ نضع العدد الذي يمثله، بالطريقة التالية:

أ	1
م	40
ي	10
ر	200
ح	8
ا	1
ز	7
م	40
ف	80
ت	400
ا	1
ح	8
ا	1
ل	30
س	300
ع	70
ا	1
د	4
ه	5
	1207

* للعلم، فإن العرب أسندوا لكل حرف من هجائهم عدداً معيناً. (المترجم)

ونلاحظ، بالإضافة إلى هذا، بأن التاريخ المدوَّن أسفل شاهدة ضريح صالح باي، كما هو الشأن بالنسبة للباي إبراهيم، لا يضم أي يومٍ من الشهر. ولكننا نعلم، من خلال الروايات العامة، بأن وفاته كانت يوم سبت، ويجد هذا التاريخ ملاحظةً مدوَّنةً على صفحة غلاف المخطوط العربي رقم 21 في مكتبة مدينة الجزائر. ونقرأ فيها: «توفي صالح باي مخنوقاً ليلة الأحد 16 محرم 1207هـ»[1]؛ وهو ما يوافق 1 سبتمبر 1792م. وبذلك يكون قد دام حكمه واحداً وعشرين عاماً، كما سبق وأن ذكره بربروغر في المجلة الإفريقية.

قبل ختام هذه المرحلة الثانية من تأريخنا التي تنتهي بحكم صالح باي الطويل؛ سنحاول، كما فعلنا بالنسبة للقرن السادس عشر، الحديث عن الحركة الأدبية والفنية خلال القرنين اللذين تلياه. إننا نريد ذلك، ولكن كيف نستهل موضوعاً كهذا وهو مجهولٌ لدينا؟ والعناصر التي من المفروض أن تشكّله ليست متوفرة؟

لقد سبق وأن قلنا بأن قدوم الأتراك إلى هذه البلاد لم يكن فقط سبباً للاضطرابات السياسية التي أبقت المنطقة بأكملها غارقةً في الفوضى وضحيةً لصراعات الجماعات لمدة مئة عام ونيف؛ بل كان، بالنسبة للآداب والعلوم، مؤشراً للانحطاط التام الذي استمر حتى اختفت آخر بذرةٍ للحياة الثقافية نهائياً. وإذا كنا قد شهدنا مؤخراً محاولة إصلاحٍ من طرف صالح باي من أجل إعادة إيقاد المشعل المنطفئ؛ فإن هذه المحاولة المنبثقة عن مجهوداتٍ ذكيةٍ للنخبة لم تدم سوى فترةً قصيرةً وزالت بزوال صاحبها.

وطيلة هذين القرنين أيضاً، أية أسماء كُتّابٍ يمكن أن نذكر؟ وأية إنتاجاتٍ فكريةٍ اكتسبها الازدهار منهم؟ لا نعرفُ إلا واحداً منهم، ولكن ليس عن طريق المعرفة العامة؛ بل بفضل تحرياتنا الشخصية التي كشفت عنه. إنه الشيخ عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن يحيى بن لفقون؛ الذي كانت لنا الفرصة للحديث عنه عدة مرات. لقد عاش خلال النصف الأول من القرن السابع عشر، وترك، بالإضافة إلى مذكراتٍ حول تاريخ

1. أنظر المجلة الإفريقية لسنة 1858-1859، الملاحظة الواقعة أسفل الصفحة 469.

بلاده؛ والتي لم نجد منها، للأسف، سوى بعض الصفحات، مؤلَّفين؛ عنوان الأول: شرح كتاب المجرادي حول تركيب الجُمل، والثاني: النتائج المضرة لاستعمال التبغ. والمؤلفان يبرزان تبحراً علمياً عميقاً، وروحاً نقدية صافية لدى الكاتب. وفيما يلي كيف يشير في مقدمة مذكراته إلى الإهمال الذي تعرضت له الآداب الجميلة؛ فيقول:

«لما رأيت العصر ورجاله يعجزون أمام العقبات، وزوارق النجاة تتحطم أمام التدفق المتزايد للتجديد، ولما اكتنفت سُحُب الجهل كل شيءٍ في ظلماتها المعتمة، وخلت أسواق العلم العامة من مرتاديها إلى درجة أن الجاهل ارتفع إلى منزلة القائد الأعلى، وانحط العالِم إلى درجةٍ سفلى، وأصبحت منزلته تعتبر منحطةً وحقيرة؛ انفطر قلبي للعلماء الحقيقيين الذين تخلطهم العامة الجاهلة مع منافقي المعرفة، أو تضعهم في نفس مرتبتهم، كما انفطر لتلك المجموعة من الرجال الصالحين الحكماء الأفاضل برؤية سفالات الناس والدناءات المجنونة للحمقى تُنسب إليهم، أو يُعتقد أنهم تأثروا بالاحتكاك بهم»*.

هذا ما كان يفكر فيه ويقوله الشيخ عبد الكريم بن لفقون عن رجال عصره. ولكن ما لم يتجرأ على كتابته؛ وهو الذي ينتمي إلى عائلةٍ تدين بالكثير للأتراك في بروزها، حول الأسباب التي أدت إلى هذا الاضطراب في النفوس؛ كان قد أشار إليه شاعرٌ ومفكرٌ من تلمسان، وندد به في أبياتٍ شعريةٍ خُطَّت في أجمل صفحات النقد اللاذع والعقلانية، ويمكن أن يُعتبر شعره كآخر أروع الأعمال الأدبية في الجزائر الإسلامية، فحسب تعبيره؛ كان كاتب ذلك العصر يبري قلمه المتعَب بحد السيف[1].

*. هذا النص وعنوانا الكتابين ليست إلا ترجمة للنسخة الفرنسية المنقولة عن النسخة العربية الأصلية. (المترجم)

1. هذا مقتطفٌ من أبياتٍ نظمها الشيخ سعيد بن أحمد المقري التلمساني؛ الذي عاش في أواخر القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، ولمدة ستين عاماً متواصلة كان له شرف مزاولة وظيفة مفتي مدينته. لقد وردت تلك الأبيات في وثيقة تحصلنا عليها منذ سنتين، ولكننا سهونا آنذاك عن أخذ نسخةٍ عنها. وسوءاً ما فعلنا، لأنها ضاعت بعد ذلك، ويُفترض أن يندر وجود نسخٍ منها. فكتاباتٌ كهذه لم تكن مستحسنةً بتاتاً لدى الرقابة التركية. ورغم مرور أكثر من ثلاثين عاماً عن زوال السيطرة العثمانية على هذه البلاد، فإن النسخة التي بحوزتنا لم تتحصل

عدا هذا الاسم الوحيد الذي سجلناه للقرن السابع عشر لم نجد شيئاً. وحتى دراسات الدين والحقوق هُجرت؛ فلا أثر لأستاذٍ في مدرسة، ولا قاضٍ تُقبل أحكامه من طرف الجميع، ولا حتى مرابطٌ يستقطب الجماهير في حياته بزهده في الدنيا وبفضائله الشخصية، ولكن بعد موته يحظى بلقب الولي الصالح بإجماع مطلق. وبعد ذلك تسببت ضرورة المقاومة أولاً، ثم الانفعالات السياسيّة في امتصاص كل شيء. وعندما خرج التركي منتصراً من هذا الصراع وساد الهدوء من حوله، لم يستغل هذا الانتصار إلا في القضاء على الفكر.

يتميز القرن الثامن عشر بأنه تعاقب فيه حكم خمسة باياتٍ؛ منهم اثنان، بوكمية وصالح، حافظا على السلطة لفترةٍ دامت لأكثر من عشرين عاماً لكل واحدٍ منهما، وجميعهم انتهى نهايةً حسنةً ما عدا آخرهم. وإذا قارنا هاتين الحقيقتين إلى ما حدث منذ صالح باي وحتى الحاج أحمد؛ حيث أنه خلال فترةٍ أقل من خمسين عاماً توالى تسعة عشر باياً لقي معظمهم نهايةً شنيعةً؛ نستنتج أن القرن الثامن عشر كان بالنسبة لقسنطينة أحسن فترةٍ للسياسة التركية؛ فخلاله كانت الأقل اضطراباً، والأقل دمويةً، والأقل قمعاً للناس؛ لأن الحفاظ على السلطة لمدةٍ طويلةٍ في ظل حكم استبداديٍ وتعسفيٍ، مثلما كان الحال في الوصاية السابقة، دليلٌ واضحٌ على سلطةٍ مستقرةٍ وإدارةٍ حسنة.

ولاحظنا في هذا القرن إعادة فتح بعض المدارس، وتسجيل أسماء عددٍ كبيرٍ من العائلات في دراسة النحو والقانون. فبالإضافة إلى عائلتي بن لفقون وبن باديس، اللتين طالما اشتهرتا بدراسة العلوم؛ نذكر عائلة بن عبد الجليل أو بن جلول التي، منذ عهد الحاج عباس صديق بايسونال إلى يومنا هذا، لم تفتأ أن تكون بمثابة مشتلةٍ للباش كُتَّاب والقضاة، وأسرة مسعود العجيسي، وأسرة محمد بن علي، وأسرة الشيخ زادي، وأسرة بن وادفل، وأسرة عبد القادر الراشدي، وأسرة سيدي علي الونيسي، وأسرة سيدي

عليها إلا بشرطٍ صريحٍ وواضحٍ بإبقائها سرية. وقد راودنا الشك، في لحظةٍ معينة، بأن الخشية من نشرها يوماً ما باقتراحٍ منا قد دفعت صاحبها إلى اختلاق كذبةٍ بريئةٍ ادعى فيها فقدانها درءاً للخطر الذي يمكن وقوعه في حالة رفضٍ صريح.

إبراهيم الضرباني، وأخرياتٌ كان لجميع أفرادها شرف العلم. إن محاولة التجديد التي قام بها صالح باي في دراسة الأدب كان بإمكانها أن تكون خصبةً وطويلة الأمد إذا تابعها ودعمها لاحقوه، ولكن الأمر لم يكن كذلك؛ فساعة الانحطاط كانت قد حانت، وجميع الجهود الشخصية كانت عاجزةً على بعث الحياة الثقافية في شعبٍ لم يترك له الاستبداد حريةً غير تلك المتعلقة بدفع ما عليه أولاً، ثم الثورة بعد ذلك حتى لا يُبتزَّ أكثر.

هذه قائمة البايات الذين حكموا قسنطينة خلال الفترتين الأوليين من تاريخنا.

الفترة الأولى

من 1525 إلى 1567، نجهل أسماء القياد والولاة الذين كانوا على رأس القيادة.

رمضان باي تشولاق. 975هـ 1568م

جعفر باي. التاريخ مجهول

محمد بن فرحات. قُتل تحت أسوار بونة (عنابة) في 1016هـ 1607م

حسن باي. توفي بالطاعون في 1031هـ 1622م

مراد باي. 1047هـ 1637م

من 1639 إلى 1647، فوضى وثورات

الفترة الثانية

فرحات باي بن مراد باي. 1057هـ 1647م

محمد باي بن فرحات. 1063هـ 1653م

رجب باي. شهر ربيع الثاني 1077هـ، أكتوبر 1666م

خير الدين باي. 1083هـ 1672م

عبد الرحمن المدعو دالي باي. (10-20 صفر 1087هـ)، 20-30 أبريل 1676م

عمر بن عبد الرحمن المدعو باش آغا باي. 1090هـ، 1679م
شعبان باي. شهر ذي القعدة 1099هـ، سبتمبر 1688م
علي خوجة باي. 1104هـ، 1692م
أحمد باي. 1112هـ، نهاية 1700م
إبراهيم باي العلج. 1114هـ، 1702م
حمودة باي. 1119هـ، 1707م
علي باي بن حمودة. 1120هـ، 1708م
حسين شاوش باي. 1121هـ، 1709م
عبد الرحمن باي بن فرحات. 1122هـ، 1710م
حسين المدعو دنقزلي باي. 1122هـ، 1710م
علي باي بن صالح. 1122هـ، 1710م
كليان حسين باي المدعو بوكمية. 1125هـ، 1713م
حسن باي بن حسين المدعو بوحنك. 1149هـ، 1736م
حسين باي المدعو زرق عينو. 1167هـ، 1754م
أحمد باي المدعو القلي. 1170هـ، نهاية 1756م
صالح باي بن مصطفى. 1185هـ، منتصف 1771م
إبراهيم باي المدعو بوصبع. حكم ثلاثة أيام
من 28 ذي الحجة 1206هـ إلى 2 محرم 1207هـ،
17 - 20 أغسطس 1792م
صالح باي للمرة الثانية من 2 إلى 5 محرم 1207هـ،
28 أغسطس إلى 1 سبتمبر 1792م *.

---

*. حسب هذه اللائحة يكون صالح باي حكم للمرة الثانية لمدة ثلاثة أيام فقط، غير أن رواية فايسات المنقولة عن شيربونو خلال سرد الأحداث تشير إلى أنه حكم حوالي عشرين يوما قبل أن يُقتَل في 16 محرم 1207هـ حسب المخطوط العربي المعتمد عليه. (المترجم)

الفترة الثالثة والأخيرة
من 1792 إلى 1837

حسين باي بن حسن باي بوحنك

1207 إلى 1209هـ، 1 سبتمبر 1792 إلى 30 يناير 1795م

لقد انتقم ابن بوحنك لمنفاه الطويل انتقاماً مضاعفاً؛ وذلك بالقضاء على مضطهده، وبتوليه السلطة. وبمجرد تسلمه لمقاليد الحكم، عمل على إنساء محكوميه للقسوة التي ميَّزت السنوات الأخيرة من عهد الباي صالح.

بكونه ذا طبع متسامح؛ استطاع في فترةٍ قصيرةٍ أن يضم إليه جميع الأطراف. وبدون أي تحيز قام باستدعاء جميع الرجال القادرين على مؤازرته. وعليه، ولتشكيل المخزن؛ لم يتردد، على عكس ما دأب عليه سابقوه، في الإبقاء في مناصبهم الموظفين الذين أبدوا كفاءةً تحت حكم صالح باي.

لقد أوكل وظيفة الخليفة لمحمد الشريف؛ والد آخر بايات قسنطينة، وقايد الدار لرضوان؛ الذي كان يشغل هذا المنصب في عهد صالح باي[1]،

---

1. لقد لعبت هذه الشخصية دوراً بالغ الأهمية في تاريخ قسنطينة؛ مما يجعلنا نورد هنا هذه النبذة عنها كما تركها لنا أحد معاصريها.

«كان القايد رضوان -رحمه الله- طويل القامة، ذا بشرةٍ بيضاء محمرة ولحيةٍ بيضاء. وكان يضع رزةً (وهي عمامةٌ محلية) مثل المفتين.

كان إدارياً كثير الدماثة والحِلم، نادراً ما يعاقب، ويغض الطرف عن الأخطاء الصغيرة. وفي هذا الصدد، يُروى أنه عندما كان خارجاً من القصر ذات يوم، وجد أحد القبجية (أو رجل شرطة) وقد سرق قربةً مملوءةً بالسمن، ويخفيها تحت برنوسه. ولسوء حظه، كان جزءٌ من القربة مكشوفاً. أدرك القايد رضوان الذي كان يسير خلفه؛ بأنه كان يحمل شيئاً مسروقاً، فاكتفى بإسدال برنوس القبجي على الجزء المكشوف قائلاً له: اُهرُب قبل أن يكتشف أمرك شخصٌ آخر. - وتُروى عنه كثير من الطرائف الأخرى التي تثبت مدى طيبته وحِلمه.

لقد شغل وظيفة قايد الدار طيلة فترة حكم صالح باي، وتم الإبقاء عليه في منصبه من طرف

وعيَّن في منصب باش كاتب كلاً من بن جلول وبن سلامة، وعيَّن بن زكري باش سيار، وأوكل وظيفة باش سايس لفردٍ آخر من هذه العائلة.

بعد سنتين من الحكم الهادئ المكرَّس أساساً لإرساء السِّلم؛ أُصيب الباي بمرضٍ خطيرٍ حرمه من استعمال ساقيه لدرجة أنه لم يعد يستطيع ركوب الخيل، وهناك من يقول أنه فَقَدَ صوابه. وأياً كان مرضه؛ فإنه حوكم في محكمة مدينة الجزائر بتهمة ارتكابه جريمةٍ عظمى.

في هذه الأثناء كان الداي بابا حسن على وشك قطع علاقاته مع فرنسا التي كان يمثلها لديه حينئذٍ السيد «فاليير». فبعد النزاعات التي نشبت بينه وبين قنصلنا، أطلق العنان لواحدةٍ من نوبات غضبه العنيف؛ التي يذكر لنا تاريخ الإيالة الكثير من الأمثلة عنها، وأرسل أمراً بوضع حدٍ لحياة الباي حسين. وأُخذ الـمُذنِب وخُنق في سجن القصبة[1].

يرقد جثمانه في جامع سيدي لخضر، بجانب قبر والده. وقد نُقش على شاهدة قبره العبارة التالية:

توفي المرحوم بكرم الحي القيوم المعظم السيد
حسين بك ابن المرحوم السيد حسين بك يوم
السبت التاسع من رجب الفرد
سنة ١٢٠٩

الموافق لليلة الجمعة إلى السبت 30 يناير 1795

البايات الثلاثة الذين جاءوا بعده؛ حيث عُرف بالنزاهة والبراعة في الشؤون الإدارية. ثم قام عصمان باي بعزله عن منصبه ليوكله للحاج أحمد بن لبيض، ولكن عبد الله باي الذي جاء بعده؛ أرجعه له، غير أنه لم يحتفظ به طويلاً.

توفي بعد عام من انتهاء مشواره عن سن متقدمةٍ جداً، ودُفن في الزاوية التي كان قد بناها في شارع البرادعيِّين (أو السراجين، la rue Bleue حالياً).

نقرأ على قبره: هذا قبر المرحوم الفقير إلى مولاه رضوان خوجة قايد الدار
توفي في رحمة الله الحي القيوم سنة 1220 (1805-1806م)

لقد بقيت ذكراه غاليةً عند إخوانه، ومازال اسمه إلى اليوم مرادفاً للحاكم الحكيم النقي.

1. يذكر شيربونو وفاة هذا الباي بطريقةٍ مختلفة. انظر: Annuaire archéologique de Constantine, année 1856-57, p.125

لحسين الفضل في بناء قصر دار الباي؛ الذي كان مقراً لمن جاءوا بعده حتى الحاج أحمد. فهذا الصرح ذو البناء الضخم يحتل إلى اليوم مكاناً واسعاً بين شارع «روو» (Rouaud) وشارع «كرمان»؛ رغم أن الجزء الذي كان يشكل قنطرةً فوق هذا الشارع الأخير قد اندثر منذ زمنٍ طويل. ويستعمل هذا المبنى الآن كمرقدٍ للضباط، وأُسندت إسطبلاته للصبايحية؛ فيما تحتل مخازن المعسكر جزء القصر الذي يسمى الدريبة؛ حيث كانت تقيم نساء الباي.

ويعود له الفضل أيضاً في إتمام الجسر المسمى القنطرة؛ الذي توقفت به أشغال الترميم التي باشرها سابقه، كما رأينا، بشكلٍ مفاجئٍ بسبب وفاته. فمن أجل إتمام مشروع ضخم كهذا على أكمل وجه؛ اتخذ هذا الأمير الإجراء المناسب لو أن سوط الجلاد لم يأت قبل أوانه ليضع حداً لوجوده.

بوفاته ترك حسين باي ولداً يسمى حسونة؛ ارتأينا أن نورد هنا نهايته المأساوية رغم وقوعها بعد وفاة والده ببضع سنوات، وتحديداً في 1799. وإننا ننقلها كما وردت في مخطوط سي محمد البابوري.

في أحد الأيام، انتقل المرابط الشهير سيدي أحمد الزواوي الذي كنا قد تعرفنا على منجزاته الخارقة؛ إلى ضيعته في تارلة غربي شطابة[1]. وفي طريقه التقى الشاب حسونة عائداً من أملاكه في مرشو[2]. كان الشاب حسونة قد رأى الشيخ من بعيدٍ فترجّل، وتقدم لتحيته. إن تنازلاً كهذا من طرف هذا الشاب المندفع المتباهي بأصله وبالمكانة الرفيعة التي يشغلها والده؛ يمكن أن يصيبنا بالدهشة إذا لم نكن نعرف مدى الاحترام الذي يكنّه المسلمون لهؤلاء الأولياء الصالحين.

برؤية ذلك المسافر، وَثَبَت الفرس التي كان يمتطيها الشيخ وثبةً مفاجئةً كادت أن تُسقط راكبها أرضاً، ولكن صوت السيد سرعان ما

1. شطابة: جبل يقع على بعد 8 كم جنوبي غرب قسنطينة، ويمتد إلى غاية الكيلومتر الثامن والثلاثين على طريق سطيف. توجد به العديد من الآثار الرومانية ومقاعد الجبس شديدة المتانة.

2. مرشو: دوارٌ رائعٌ يقع على بعد 6 كم جنوبي ميلة، وبالتحديد عند منابع المياه التي تسقي بساتين هذه المدينة.

هدأها. واقترب حسونة منه، ثم أمسك بحذل برنوسه ووضعه فوق رأسه تعبيراً عن احترامه له، ثم قال له: «سيدي، أوصني. خلصني من مكائد الأشرار»، فأجاب الشيخ: «عليك، يا بني، أن تتجنب أمرين اثنين تتوقف عليهما سعادتك أو شقاؤك». ـ وما هما يا شيخي؟ ـ عليك ألا ترتدي برنوساً أسوداً أبداً[1]، وعندما تقصد سيدي مبروك[2]؛ اذهب بقلبٍ طاهرٍ مليءٍ بالنوايا الحسنة، ولا تقم بأي فعلٍ يدعوك للخجل لاحقاً؛ لأنك إن استمررت في اتباع الهوى، فسيرمي بك في الهواء[3].

وللأسف، لم تكن نبوءة الشيخ إلا لتَصدُق. فسرعان ما نسي حسونة نصائحه الحكيمة؛ حيث أنه لم يترك ارتداء البرنوس الأسود، كما استمر، كما في السابق، في التردد على سيدي مبروك مع بعض الفُسَّاق أمثاله؛ لينغمسوا في ملذات الخمر والنساء. وفي أحد الأيام أفرط في الشرب ودفعه فقدان عقله إلى إسكار فرسه. وفي طريق العودة إلى المدينة، وبوصوله إلى طرف جسر القنطرة، وخز دابته بشدةٍ لكي يجعلها تقفز. وبمجرد ملامسة الشوكة لها؛ قفزت الدابة إلى الأمام وَهَوَت بصاحبها في الوادي؛ فتهشم رأسه على الصخور، ومات على فوره. نُقل جثمانه إلى تربة* جامع سيدي لخضر؛ حيث يرقد أفرادٌ آخرون من أسرته، ونُقش على قبره المقطع التالي:

أيها الزائر، توقف واطلب الرحمة الواسعة من الحي القيوم لهذا المرحوم

هنا يرقد حسن الذي لم يفقد شبابه. كان شاباً فاضلاً عمره ثلاثون عاماً

توفي يوم جمعة من عام ١٢١٤ **(1799م)

1. الثياب السوداء رمزٌ يميِّز العباسيين، كان يُفضِّل ارتداؤها عن البيضاء من طرف الشباب الفُسَّاق؛ الذين كانوا يستطيعون الركض بها في العتمة خلال مغامراتهم الليلية دون خشية التعرف عليهم.

2. سيدي مبروك: قريةٌ صغيرةٌ على هضبة المنصورة، كانت في الماضي ملتقى شباب قسنطينة.

3. يتضمن جواب الشيخ هذا جناساً ليس من الممكن التعبير عنه باللغة الفرنسية، ولكننا ندرك المعنى عندما نعرف أن كلمة الهوى بمعنى الملذات والشهوات تقترب من كلمة الهواء؛ التي تعتبر بمعناها المجازي من خصوصيات المدينة؛ ويُقصد بها هاوية قسنطينة. (المترجم)

*. التربة: المكان المخصص للدفن في الجوامع والزوايا.

**. هذه ترجمة للنسخة الفرنسية المنقولة عن النسخة العربية الأصلية.

مصطفى الوزناجي

1209 إلى 1212هـ، فبراير 1795 - يناير 1798م

إن من خَلَفَ حسين كان مصطفى الوزناجي (صانع البارود)؛ وهو اللقب الذي أُطلق عليه كذكرى لمهنته القديمة. يحمل خاتمه تاريخ 1209 (1795م)، مع عبارة: **مصطفى بن سليمان.**

كان تركياً مولوداً بمدينة الجزائر، وقد كان باياً للمدية لمدة عشرين عاماً؛ وهو ما كان مثالاً فريداً في تاريخ هذا البايلك. ويعود له الفضل في حيازة معظم أراضي الدولة في التيطري. وعندما جاء الأسبان في 1795، كما رأينا سابقاً، وقاموا بإنزال قواتهم بقيادة الإيرلندي «أوريلي» بالقرب من مدينة الجزائر؛ وصل على رأس قوةٍ من عشرة آلاف رجل، وأظهر شجاعته كعادته إلى حد المخاطرة؛ فساهم في النصر بقدرٍ كبير.

إن تسميته باياً على قسنطينة لم تكن بالنسبة إليه سوى فرصةً مناسبةً لإبراز مزاياه الطبيعية؛ التي نضجت بالتجربة الطويلة للرجال والأمور.

لقد ظهر إذاً في منصب قيادته الجديد كحاكمٍ صارمٍ ومقاتلٍ شجاع، ولكن مقاتلاً تُقاس قيمته بكمية الدماء التي يريقها.

استقدم معه شخصاً يدعى الحاج حميدة، وكان رجلاً صعب المراس؛ أسند له مهام الباش كاتب. وعيّن في منصب الخليفة «إنجليز»؛ الذي سوف يخلفه لاحقاً كباي، وأسند منصب آغا الدايرة لبن فريجي، وقايد الدار لرضوان؛ الذي كان يشغل المنصب نفسه. وتقلد أشخاصٌ غرباء عن الإقليم بقية المناصب.

رغم سنه المتقدمة؛ استطاع الوزناجي أن يجعل كامل الإقليم يشعر بقوة قبضته الحديدية. ولقد وجه هجماته أساساً ضد الجبايلية الذين كانوا مستعدين دوماً للعصيان. إن «نهاض أوخمير»، الذين بحكم موقعهم البعيد عن الحدود التونسية بقوا مستقلين، كانوا أول من تعرض لمظاهر روحه القتالية. حيث أنه غزاهم، وسلب ماشيتهم، وتوغّل حتى إلى القالة وهدم بها

عدة بيوت. ومنها توجه إلى قبيلة زردازة التي أخذ منها كل ما أراد، ووضع على رأسها الشيخ الأكحل.

من الشمال انتقل إلى الجنوب، وأقام معسكره على سهل زانة عند أولاد بوعون من أجل محاصرة الجبايلية الذين لجأوا إلى قمة جبل مستاوة. لقد كانت مقاومتهم يائسةً، فبعد خمسة عشر يوماً من القتال العنيف؛ استطاع الباي أن يبقيهم في مخبئهم؛ حيث أضرم النار وقتل كل من وجد فيه. ولكن هذا النصر كلفه غالياً؛ فقد أبيد مشاته وقُومه لدرجة أنه طيلة القتال كان على رجاله نقل الموتى كل يومٍ في شباك حتى لا تقع جثثهم في أيدي أعدائهم الشرسين.

وشن أيضاً غارةً على أولاد سعيد الذين يسكنون الأوراس، وقطع رؤوس أهم أفراد أولاد سي زرارة؛ العائلة المرابطية داخل القبيلة المتمردة. وأخيراً شن حملةً أخيرةً على أولاد موسى من قبيلة العشاش بالقرب من باتنة؛ فكبدهم خسائر كبيرة في الرجال، وجرَّدهم من قطعانهم.

لقد كانت ضرباته قويةً وصائبةً لدرجة أنه في وقتٍ وجيز تمَّ إخماد كل روحٍ تمرديةٍ بشكلٍ قاسٍ. وسمح الرعب، الذي توحي به أسلحته، ببسط الهيمنة التركية على كامل البلاد، واستخدم سلطتها لتحسيس السكان المهزومين باستبداده المقيت.

منذ ذلك الحين، لم يعد هناك عدلٌ، ولا حمايةٌ للأشخاص؛ حيث حلت إرادة الحاكم محل كل شيء. فلقد سبق وأن ضرب بلاط الجزائر المثل في هذا. فبوفاة الباشا بابا محمد؛ سقطت السلطة في أيدي عسكرٍ غير منضبطين، فصارت فريسةً تتنازعها الدسيسة والوقاحة. ولقد اغتنم البايات هذه الفوضى ليستقلوا نوعاً ما كلٌّ بإقليمه، ولو أنهم استمروا في دفع الدنوش كما في السابق؛ فإنه يجب الاعتراف بأنهم كانوا يمارسون الحكم بطريقةٍ مطلقةٍ طالما كانوا متمسكين بسياسة الإقطاع المخيفة.

لقد كان حكم الوزناجي، إذاً، كسيِّدٍ يعرف كيف يفرض الخشية، وفي الوقت نفسه كان يتدخل في سياسة الإيالة؛ وذلك على النحو الآتي.

إن نبأ احتلال «تولون» (Toulon) من طرف أسطولي إنجلترا وإسبانيا قد عمم فقدان الثقة في الفرنسيين، وطمأن الباشا بابا حسن بعد المخاوف التي سببتها النجاحات الأولى لجيوشنا الجمهورية. وشاطر باي قسنطينة رؤية مولاه؛ فرفض تموين شركة إفريقيا في القالة بالقمح خلافاً للاتفاقيات المبرمة سابقاً، والتي صادق عليها بابا حسن لدى انتخابه؛ وهو الأمر الذي يمكن اعتباره تصرفاً عدائياً[1].

ولكن هذه المخالفة لم تدم طويلاً. حيث أن خبر انتصارات «دوموريي» (Dumouriez) على الحدود الهولندية حوّل الرأي العام لصالحنا، وأصبحت العلاقات أكثر انتظاماً من أي وقتٍ مضى. واغتنم قنصلنا الفرصة بإرسال عدة شحناتٍ من القمح إلى مناطق جنوب فرنسا التي كانت تعاني فترة جدبٍ ومجاعةٍ هي الأشد على الإطلاق.

ومع ذلك، فإن الاضطرابات المتتالية دون انقطاع التي سببتها قوى أوروبا المتحالفة ضد الجمهورية؛ لم تكن تسمح لنا بدعم مؤسساتنا في القالة التي أفلستها منافسة المصارف الإسبانية المستقرة في وهران منذ 1792. وبرؤية الوزناجي للوكالة على حافة الانهيار؛ حظر عنها مرةً أخرى التموين بالقمح. ولكن هذا التصرف المتنافي مع الاتفاقيات؛ لم يكن إلا سبباً في تسريع سقوطه. فقنصل فرنسا، «جان بون سانت أندري» (Jean-Bon-Saint-André) الذي خلف «فالير»؛ كان قد شكاه إلى بابا حسن، وبعد بضعة أيام جاء الأمر إلى قسنطينة بقتل الباي. وانتهى الوزناجي مخنوقاً بعد سنتين من الحكم، وعُيِّن إنجليز باي لخلافته.

---

1. الحبوب المتوفرة عن ضريبة العشور، والتي كانت تودع في مخازن خارج قسنطينة؛ كانت تستعمل لإطعام الجنود خلال الحملات، وأحياناً تُباع للقبائل، ولكن معظمها كان يتم تصديره؛ حيث أن تجار بونة والقالة (وهم ممثلو الباي في هاتين المدينتين) كانوا يبيعونه للمتعاملين الأوروبيين.

الحاج مصطفى إنجليز باي

1212 إلى 1218هـ، جانفي 1798 – مايو 1803م

يحمل خاتمه: الحاج مصطفى باي بن حسين، ١٢١٢

كان الحاج مصطفى، التركي الأصل، مستقراً في قسنطينة منذ سنواتٍ طويلةٍ قبل أن يُستدعى لقيادة الإقليم. أُطلِق عليه لقب إنجليز لأنه كان قد أُسر في شبابه من طرف سفينةٍ إنجليزية، وقضى بين عشرة واثنتي عشر سنة في إنجلترا. وحسب روايةٍ أخرى أوردها حفيده؛ فقد تمَّ إطلاق هذا اللقب عليه؛ فقط بسبب طبعه الماكر الذي يشبه طبع الإنجليز؛ وهو ما لا يرضي جيراننا وراء المانش. وإن استعماله المتكرر للسم، من أجل التخلص من أعدائه، يفسر بشكلٍ واضح صفة المكر التي نسمع عن التصاقها به.

وعلى كل حال، فإن الخدمات التي قدمها لإدارة صالح باي، والقدرات التي أظهرها في عدة مناسبات، ومعرفته الكاملة بتسيير الأمور؛ كانت كافية ليقع اختيار الباشا عليه، فلقيت تسميته ترحيباً كبيراً.

ومن جهته، لم يخيِّب إنجليز باي الآمال التي عُلقت عليه. فمنذ تعيينه عمل على ازدهار العدل والسِّلم. وبوجود الثقة؛ لم يتأخر الرخاء عن العودة من جديد. فالطعام أصبح رخيص الثمن لدرجة أن صاع[1] القمح لم يكن يُباع سوى بقيمة فرنكٍ واحد[2].

ومنذ ذلك الحين أصبح بالإمكان الاعتقاد بأجمل أيام حكم صالح باي؛ الحكم الذي اتخذه كنموذج. فكلٌّ كان يتمتع في سلام بثمرة عمله. لم يكن الغني قلقاً في ملذاته، وكان بإمكان الفقير، بقليلٍ من المصاريف، أن يؤمِّن

1. صاع القمح يساوي في قسنطينة 160 لتراً.

2. أدين بالفضل الجزيل للسيد "بريسني" في تزويدي بعددٍ كبيرٍ من الوثائق الأصلية التي ساعدتني في تحديد، بشكلٍ دقيق، تواريخ بعض الأحداث؛ بالإضافة إلى تواريخ تعيين وسقوط العديد من البايات موضوع هذا العمل.
في أسفل أحد الوصولات الذي يظهر فيه ختم إنجليز باي؛ يمكنني أن أقرأ بأنه في يوم من الأيام الأولى من شوال 1217 (أواخر يناير 1803) سلَّم القايد عمار بن شريف لتجار بونة 1008 صاعات مقابل 1000 ريال؛ وهو ما يؤكد ما ورد أعلاه.

طعاماً صحياً ووفيراً. ولكن للأسف، لم يكن لهذا الوضع أن يستمر طويلاً؛ فالضعف الأبوي ضيّع كل شيء، كما سنرى لاحقاً.

إن الحدث السياسي الوحيد الذي طبع حكم هذا الباي تَمَثَّل في قطع السلام بين الجمهورية الفرنسية والإيالة. فبعد الإنزال الذي قام به الفرنسيون في مصر تحت قيادة الجنرال «بونابارت» (Bonaparte)؛ استُفزَّ الباب العالي، فأرسل أمرٌ مستعجلٌ من القسطنطينية إلى داي الجزائر بإعلان الحرب على الجمهورية. فقام الداي، المرغم على الطاعة، باعتقال القنصل وجميع الفرنسيين الذين كانوا في هذه المدينة. ومن جانبه، وبتعليماتٍ من مولاه، أرسل إنجليز باي إلى بونة التركي براهم شاوش للقبض على المندوب الفرنسي؛ الذي نُقل إلى قسنطينة، وسُجن في البيت المسمى دار التونسي الملاصقة لثكنة الصبايحية السابقة. وفي الوقت نفسه، تم نهب وتخريب المؤسسات التي تديرها الشركة الإفريقية في القالة. واستمرت حالة العداء هذه تجاه مواطنينا حتى إبرام اتفاقية السلام، سنة 1802، بين مصطفى باشا؛ باسم الإيالة، و«دوبوا تانفيل» (Dubois-Thainville)؛ المكلف بشؤون الجمهورية بالجزائر[1].

الموظفون السامون لدى إنجليز باي كانوا كالآتي: محمد، ابن صالح باي، في منصب الخليفة؛ وقد توفي بالسم كان قد وُضع له في القهوة، وخلفه علي؛ الابن الأكبر للباي. ورضوان في منصب قايد الدار، ومحمد بن جلول وكوتشوك علي في منصب باش كاتب. وتقلد منصب آغا الدايرة؛ محمد بن مرخي الذي توفي مسموماً أيضاً، وبعده بلقاسم بن العكي؛ الذي قضى هو وابنه في إحدى الغارات، وخَلَفَه دحمان بن زكري. بالإضافة إلى أسماء هذه الشخصيات يجب ذكر ثلاثةٍ آخرين كانوا قد تقلدوا منصب شاوش قبل أن يأخذوا مقاليد حكم الإقليم؛ وهم: أحمد طوبال، وامحمد تشاكر؛ الذي كان مكلفاً بقطع الرقاب، وقارة مصطفى.

لم يشارك الباي إنجليز في أي واحدةٍ من الغزوات التي حدثت في عهده. فجسمه المريض والمتعب لم يكن يسمح له بتحمل عناء الحملات

1. انظر Les archives du Consulat général de France à Alger, par A. Devoulx, p.132 et 142

البعيدة نسبياً. عدا هذا، فإن الحملة الوحيدة التي تستحق الحديث عنها هي تلك التي شُنَّت ضد أولاد علي بن يحيى العواسي عند الحنانشة؛ الذين قتلوا شيخهم وتمردوا. وقد كان مصير القوات الأولى المرسَلة ضدهم بقيادة بلقاسم بن العكي؛ آغا الدايرة الهزيمة، حيث لقي هذا الأخير حتفه وكذلك ابنه. ثم جرِّدت حملةٌ ثانيةٌ بقيادة سي عمار بن شريف؛ فلم تكن أحسن حظاً. فبعد تعرضها لخسائر كبيرة؛ أُرغمت على الانسحاب. وباستنفاده لجميع الوسائل، فكر الباي في تأليب القبائل المجاورة ضدهم؛ وبالخصوص قبيلة أولاد سي يحيى بن طالب التي كان على رأسها الشيخ يونس؛ وهو رجلٌ ذو شجاعةٍ وقوةٍ كبيرة. فقام بتلبية ندائه، وهجم على الحنانشة؛ فقتل زعيمهم أحمد بوعزيز وأخاه. وكدليلٍ على النصر؛ أخذ معه إلى قسنطينة رؤوس جميع من قُتلوا في المعركة. وبهذا أُخمدت الانتفاضة، وعمَّ الهدوء في البلاد لفترةٍ من الزمن.

هذا النجاح الذي تحقق بعد فشلٍ مضاعف؛ لم يكن ليشفع للباي لدى باشا الجزائر؛ باعتبار أنه لم يكن مستحقاً، وبذلك يكون قد فَقَدَ ثقته.

كان لإنجليز باي ابناً يدعى علياً؛ جعلته عبثية حياته الشخصية بغيضاً من طرف جميع السكان. فباعتماده على حنان أبيه الأعمى، ووثوقه من عدم العقاب؛ لم يكن يتورع عن فعل أي شيء. ولا نذكر في هذا الصدد إلا مثالاً واحداً يوضح لنا، في الوقت ذاته، مدى السلطة التي كان يمارسها المرابطون على أتباعهم. وقد أخذنا هذا من كتاب سي محمد البابوري.

كان أحد الحشاشين (مدخني الحشيش) في قسنطينة يملك عدداً من العنادل التي تُغرِّد بشكلٍ يأسر الألباب[1]؛ فَشَغَفَت الشاب علي الذي طلبها من صاحبها، ولكن هذا الأخير رفض التخلي عنها مهما كان الثمن. ولم تكن المحاولة الثانية ولا الثالثة أنجح من الأولى؛ فغضب الشاب غضباً شديداً،

---

1. نحن نعرف مدى حب الحشاشين (الحشايشية) للعنادل، وهوايتهم صيد القنافذ ليلاً. فلا يوجد في قسنطينة دكانٌ بائسٌ لإسكافي لا يُزيِّنه قفصٌ يضم واحداً أو أكثر من أساتذة فن الغناء هؤلاء. مع أن أولئك العمال البؤساء لا يمكنهم امتلاك هذا الترف الشرقي إلا مقابل أثمانٍ معتبرةٍ نسبياً: فالعندليب جيد التدريب يمكن أن يصل سعره إلى ما بين 100 و150 فرنك.

وألحّ في إزعاج والده حتى تلقى من عتوِّه تنازلاً وأمراً بإعدام هذا الشخص العنيد. ومن أجل الإفلات من هذا الحكم الجائر؛ لجأ الحشايشي البائس، ومعه عصافيره التي كانت سبب مصيبته دون أن يرتكب أي ذنب؛ إلى تارلة قاصداً بيت الشيخ الزواوي، وروى له سبب هروبه. وبعد سماع القصة أمره بتعليق أقفاصه على أشجار حديقته، واستضافه في بيته ليكون له ملجأً منيعاً.

بعد بضعة أيامٍ خرج ابن الباي مصحوباً بخدمه في رحلة صيدٍ في تلك المنطقة، فأبى المرورَ من هناك دون أن يزور الرجل الصالح. وبرؤيته من بعيد؛ همَّ هذا الأخير بالدخول إلى برجه (بيته الريفي)، وقرر عدم الخروج إلا بعد أن يتأكد خدمه من حسن نوايا الزائر السامي. كان الاستقبال فاتراً، ولكنه كان لائقاً؛ حيث قُدِّمت الكسرة* واللبن، فتناولها الشاب الذي فتح المسير شهيته، بنهمٍ وتواضعٍ كبيرين. وعندها خاطبه سي الزواوي:

ـ يا ابن الباي! كيف تجرؤ أنت وأبوك على كل هذا الظلم؟

ـ أي ظلم؟ استفسر علي متفاجئاً.

رد عليه الشيخ بصوتٍ غليظ: ـ هناك رجلٌ يملك عصافيراً يحبها أكثر من أي شيء؛ أردتما أن تأخذاها منه عنوةً، ولما لم يستجب لنزوتكما؛ حَكَمْتُما عليه بالإعدام. ولكن الله الذي يحمي الضعيف والمظلوم لم يشأ أن يُنفَّذ هذا الحكم المقيت، وها هو الرجل يقف أمامك. وكان الحشايشي متكئاً على حائطٍ في تلك الحُجرة.

فقال علي متلعثماً ومتحججاً: ـ ولكني عرضت عليه شراءها، فرفض ثم هرب. هذا هو جرمي.

ـ لا تلاحقه إذاً من أجل رفضٍ هو حرٌّ فيه، وعليك أن تقسم لي بألا يلحقه أي أذى.

ـ لأجلك أُقسم. ولن أقول له شيئاً.

طأطأ الشيخ رأسه، فأومأ الشاب للحشايشي بأنه سيلقاه في قسنطينة؛ معتقداً أن الشيخ لا يراه. وفي هذه اللحظة رفع الشيخ رأسه بسرعةٍ مفاجئاً

*. الكسرة: نوع من الخبز التقليدي.

ضيفه وعلامة التهديد ما زالت مرسومةً على وجهه، وصاح فيه: قسمٌ كاذب. أهكذا تفي بيمينك؟ حسنٌ، سترى كيف أتصرف مع أمثالك.

رفع يديه إلى السماء، ثم وضعهما على بطن علي عدة مرات؛ متمتماً ببعض الكلمات، ثم انصرف. وسرعان ما انتفخ بطنه بطريقةٍ عجيبةٍ تشبه السحر، ثم تبعت ذلك آلامٌ شديدةٌ في الأمعاء؛ لدرجة أن الخدم الذين شهدوا هذا الموقف أسرعوا إلى سيِّد المكان ناحبين حالة ابن الباي الذي يشارف على الموت. فصاح الشيخ غاضباً: ـ فَلْيَمُت! ابن القرطاس* الذي يحمل معه الفساد والفوضى.

ولكن أمام توسلات الخدم وافق على وقف آثار غضبه العادل. دخل إلى الحُجرة التي بها المحتضِر، وقال له: احمدِ الله وتُب عما فعلت. فوَعَد علي بكل ما طُلب منه، ووضع المرابط يده المباركة من جديد على بطنه؛ فشُفي من توّه[2].

وبعد ذلك ركب الحشايشي، ومعه عصافيره، على بغلة ابن الباي ذات السرج الجميل؛ بينما تبعه صاحبها مشياً على الأقدام. وبوصولهما إلى أبواب قسنطينة، لم يكتف علي بإهدائه مطيّته؛ بل اعتذر منه مرةً ثانيةً متأثراً بالعقوبة القاسية التي سلّطها عليه المرابط.

لقد كان الدرس قاسياً في حقيقة الأمر، غير أن نتائجه كانت قصيرة الأمد. فأهواؤه المعيبة التي لم تشجع سوى عجرفة أبٍ أعمى؛ سرعان ما طغت على عقلية هذا الابن الفاسد والخبيث. فالفوضى والمضايقات التي كان يحدثها وصلت إلى درجة إثارة الناس؛ حيث ارتفعت الشكاوى من كل مكانٍ حتى بلغت آذان الباشا. وتم عزل الأب الذي لم يستطع وقف أخطاء ابنه، واستُدعي إلى مدينة الجزائر بعد ست سنواتٍ من الحكم. ولم يتمكن من الحفاظ على حياته سوى بفضل أصدقائه الكُثُر داخل الديوان. ولكنه لم يكن

---

*. القرطاس: كلمة عامية جزائرية تعني الأقرع.

1. في هذه القصة العجيبة لا يوجد ما يدعو للدهشة. فما تعتبره العامة، في الغالب، معجزةً ليس بالنسبة للملاحظ سوى حيلة أو خدعة. فمن لا يعرف خصائص بعض الأعشاب واستعمالها كشرابٍ مضر؟ وهل يمكننا افتراض، دون التشكيك في سمعة الرجل الصالح، أن يكون لبن الضيافة ممزوجاً بمرارة الغضب؟

يحس بالأمان في الجزائر؛ مما جعله ينتقل بعد فترة قصيرة إلى تونس في بلاط حمودة باشا؛ الأمر الذي كان أحد أسباب الحرب التي سرعان ما اندلعت بين الإيالتين، كما سوف نراه لاحقاً.

عصمان باي

1218هـ، مايو 1803م

يحمل خاتمه: **عصمان باي بن محمد، ١٢١٨**

كان عصمان، الملقب بالأعور، كرغلي المولد، ذا بنية ضخمة وأسمر اللون لدرجة أن يُعتقد بأنه زنجي. أبوه هو محمد الكبير؛ الذي استرجع مدينة وهران من الأسبان في عهد حسن باشا، وبالتحديد في شهر مارس 1792 [1]. وبخلافته لوالده؛ كان هو أيضاً حاكماً لهذه المدينة لمدة خمس سنوات، قبل أن يُنفى إلى البليدة لمدة عامين (من 1799 إلى 1802). ولما حصل على عفو الباشا مصطفى أُرسِل باياً على قسنطينة.

نظراً لشخصيته الصارمة والمستقيمة؛ كان عصمان يبغض الأتراك، لأنه كان عدواً للظلم؛ فكان يعاملهم بدون تحفظ. خلال الأشهر الثلاثة الأولى من حكمه أظهر صرامةً شديدةً إزاء جميع محكوميه؛ فلم يكن أحدٌ يستطيع التقرب منه خارج الوقت الذي يمضيه في جلسات القضاء. ولكن سرعان ما ظهرت طيبته وعدالته اللتين لم تتأخرا في جعله يكسب محبة الجميع، وكل الرجال المكلفين بتطبيق القانون كانوا مقربين إليه، وكان يحب التحدث معهم مطوّلاً ومتابعة إصدارهم للأحكام.

كان أهم موظفيه؛ الملياني في منصب الخليفة، وبن كوتشوك علي باش كاتب، والحاج أحمد بن لبيض قايد الدار، وبن شندرلي براهم آغا الدايرة، واثنين من بن زكري في منصبي باش سيار وباش سايس.

1. انظر حول هذا الموضوع المعلومات التي قدمها «غورغوس» (Gorguos) في المجلة الإفريقية. (Revue africaine, n°5, 6, 7 et 8)

لم يَقُم سوى بحملةٍ واحدةٍ كانت ضد النمامشة؛ القبيلة الحدودية التابعة لإيالة تونس، وأراد قيادتها شخصياً رغم بدانته المفرطة. لقد كانت قطعان الخيل والإبل التي غنمها كبيرةً لم يسبق لأي واحدٍ أن شهد مثلها في عهد البايات السابقين.

ظل الإقليم هادئاً طيلة العام الأول من حكمه. فلم تَقُم أية ثورةٍ تستدعي إخمادها حتى سنة 1804؛ حيث ظهر في جبال القبائل بالقرب من واد زهور الشريف[1] المدعو الحاج محمد بن لحرش؛ وهو مرابطٌ من أصلٍ مغربي يتبع الطريقة الدرقاوية[2] كان قد أظهر تعصبه الشديد خلال الغزو الفرنسي لمصر؛ حيث كان متواجداً ولعب دوراً كبيراً في مواجهته. وبجلبه مع مرافقيه في رحلة الحج على متن سفينةٍ إنجليزية؛ نزلَ في تونس أو في عنابة، ثم قضى بعض الوقت في قسنطينة. ومنها انتقل إلى جيجل، وبدأ بالعمل لحسابه الخاص في ميناء المدينة. وبعد أن كوَّن لنفسه أتباعاً من بني والبان؛ رفع راية الثورة. وكبُر فريقه بعددٍ معتبرٍ من الموالين له والجبايلية (الجبليين) المفتونين ببلاغته العنيفة وبالوعود اللماعة التي أثارت طمعهم؛ فسارعوا بالانضواء تحت رايته. وقدَّم نفسه إليهم على أنه المحرر المرسَل من السماء لطرد الأتراك، واسترجاع حكم سادة البلاد القدماء. وخاطبهم قائلاً: «أيها المؤمنون الحقيقيون ورجال السلاح، اتبعوني لأسير بكم إلى قسنطينة. فعندما تصبح سادة المدينة؛ سوف نبيد أهلها، ونستولي على جثثهم، ونستقر داخل أسوارها. ما عليكم سوى السير».

سار ستون ألف رجلٍ حتى وصلوا إلى أسوار المدينة. وبرؤية هذه الحاضرة الغنية، جعلهم حماسهم الأعمى يتخيلون اجتياز الهوة التي

1. يُطلق لقب الشريف على سلالة النبي محمد من خلال ابنته فاطمة؛ وهي النبالة الوحيدة المعترف بها عند المسلمين. وهو اللقب الذي اتخذه المخادعون والكاذبون الذين يريدون استغلال الأهواء المضطربة والطموحة للجماهير المستعدة دوماً لحمل السلاح باسم النبي. فبومعزة وبوبغلة وآخرين ممن عرَّضوا احتلالنا للخطر أكثر من مرةٍ منذ 1830؛ كانوا من هؤلاء المغمورين الذين تحولوا إلى شريفين.

2. انظر حول هذه الطريقة مؤلف «الخوان» لصاحبه الجنرال دونوفو، ص147.
Khouan, par le général de Neveu, p.147

تفصلهم عما كانوا يتصورونه فريستهم، ويخاطبون بذلك، بثقتهم الساذجة، السكان الذين كانوا ينتظرون بشجاعةٍ من على أسوارهم أولى طلقات الهجوم: «اعلموا أيها القسنطينيون، هذا الشريف الذي يتقدم نحوكم ونحن وراءه كثيرون كخشرم النحل، ورهيبون كأكثر الجيوش رهبةً. فافتحوا أبوابكم واستسلموا، ولن يصيبكم أي أذى، ولكن إن تجرأتم على مقاومةٍ غير مجديةٍ للقوة التي لا تُقهر؛ فاعلموا مسبقاً بأن النصر لنا، وحينئذٍ فالويل للمغلوبين!».

رد السكان على هذا التبجح بموقفٍ صارمٍ متشبعٍ بالاحتقار، وسرعان ما بدأ الهجوم. حيث زحف الجبليون نحو الأسوار من كل جانبٍ مطلقين صرخاتٍ متوحشة. وفي خضم هيجانهم وصلوا إلى أبواب المدينة، وهناك أوقفتهم مدافع وبنادق المحاصَرين؛ الذين أحدثوا فيهم مجزرةً رهيبةً على مدى عدة أيام. وحتى الشريف أصيب في ساقه بطلقٍ ناري، وتم نقله إلى الجبال. لقد كان يتزعم مدينة قسنطينة، حينئذٍ، الشيخ سيدي محمد بن لفقون بمساعدة قايد الدار الحاج أحمد بن لبيض، في غياب الباي الذي كان منشغلاً في جمع الضريبة عند ريغة.

حول هذا الموضوع، يجدر بنا أن نلاحظ، مثلما سوف نراه في بقية هذا العمل، بأنه خلال مختلف الحصارات التي تعرضت لها قسنطينة؛ كانت تدين هذه المدينة دوماً في إنقاذها لشجاعة أهلها فقط، وليس لمبادرة قادتها؛ الذين كانوا غالباً غائبين عنها في الوقت الذي يحتم عليهم الخطر أن يبقوا في مركزهم. إنها حقيقةٌ تُحسب لصالح هؤلاء السكان الأوفياء لوطنهم؛ والتي فشلنا نحن أمامها في مرةٍ أولى، في حين أن النصر كان يتبع رايتنا أينما حللنا. ولا يتخلف القسنطينيون عن التذكير بهذا الماضي التليد، بشيءٍ من الفخر؛ كلما أُثيرَ الحديث عن حروب الأزمان الغابرة.

لقد كان الدفاع مستميتاً ومنظماً أفضى بعد بضعة أيام من الحصار غير المجدي إلى فرار ذلك العدد الهائل من المحاصِرين بشكلٍ مخجل؛ تاركين وراءهم آلاف القتلى والجرحى. أما الذين بقوا على قيد الحياة؛ فقد انتشروا

في جميع الاتجاهات، وكما كان سريعاً ظهور هذا الحشد؛ كان القضاء عليه سريعاً أيضاً[1].

لقد حاول الكاتب المذكور في الهامش أن يربط هذه الانتفاضة بالسياسة الخارجية للإيالة بإعطائها بعداً يبدو بالنسبة لنا محل جدال؛ وهو ما لم يُشر إليه أي واحدٍ من الكُتاب الذين نقلوا هذه الحادثة في كتاباتهم التي هي بين أيدينا[2]. أما بالنسبة إلينا، فلا نرى في الحادثة سوى انتفاضةٍ بسيطةٍ لمغمورين

---

1. وفيما يلي كيف نقل النقيب ساندر رانغ هذه الأحداث.

Sander-Rang, Tableau des établissements français, année 1840, p.560

«لقد كانت عاصمة إيالة الجزائر مضطربةً بالثورات مثلما كان عليه الحال منذ فترةٍ في أقاليمها. فمع مطلع السنة الماضية (1804) ظهر مرابطٌ يدعى الحاج محمد بن لحرش، المولود في المغرب؛ وهو شابٌ مفعمٌ بالشجاعة والخيال المتأجج، ومدفوعٌ من طرف الإنجليز، وتمكن من إثارة قبائل جبال جيجيلي بإعلان نفسه مرسلاً من السماء.

إن أول الأعمال التي تنص عليها هذه المهمة الربانية كانت بطبيعة الحال موجهةً ضد المسيحيين. ـ غير أن الإنجليز، كما يقول المرابط، قد حرروا الأرض من الذين غزوها، وقد أمر الله بحسن معاملتهم.ـ وفور تجهيز سفينةٍ في جيجيلي؛ توجه المرابط إليها على رأس ستين لصاً، وهاجم صيادي المرجان البؤساء؛ فقتل منهم عدة رجال، واستولى على القوارب، وأسر أربعةً وثلاثين فرنسياً واقتادهم إلى الجبال. لقد جلب هذا النجاح الأولي جمعاً من القبايل حول هذا المحتال... حيث تبعه من 60 إلى 80 ألف رجل إلى قسنطينة، وخربوا كل ما وجدوه في طريقهم. وحذر المرابط المدينة طالباً منها الاستسلام؛ فأخذ السكان المتعبون من مضايقات الحامية التركية بالحديث عن فتح الأبواب. كان الباي غائباً، ولكن قايداً سابقاً يدعى بن لبيض، صديق للباي، تولى السلطة وقاد خروجاً؛ فقتل بين 700 و800 رجل، وجُرح المرابط؛ فعمَّت الفوضى بين القبايل قبل أن ينسحبوا إلى الجبال المجاورة. والتقى عددٌ كبيرٌ منهم باي قسنطينة شخصياً على رأس بعض القوات؛ فكبّدهم خسائر أخرى. ورغم هذه الهزيمة، لم يخسر المرابط جميع أتباعه؛ حيث جمع عدداً منهم وذهب يحدث اضطراباتٍ في بوجي (بجاية).

لقد أحدثت هذه الانتفاضة انفعالاً كبيراً في مدينة الجزائر؛ أراد أعداء فرنسا استغلاله، حيث ادّعوا بأن الفرنسيين هم من كانوا وراء هذه الحركة، وقالوا حتى أن شقيق نابليون كان على رأس المتمردين».

2. - Les époques militaires de la grande Kabylie, par M. Berbrugger, p.17
- De la domination turque, par Wlasin Esterhazy, p.204
- L'univers pittoresque, tome 7, p.254, etc.
- Un Chérif en 1804, par M. Berbrugger (Akhbar, n° du 3 mai 1853, reproduit par la Revue africaine, tome 3, p.209)
- L. Féraud, l'Oued el-Kebir et Collo, tome 3 de la Revue africaine, p.202

بقيادة متعصب، مثلما نقلت لنا روايات هذه البلاد أمثلةً مشابهةً أخرى[1].

ومهما يكن، فإن عصمان كان على رأس حاميته مشغولاً بجمع الضريبة في ناحية سطيف. ومع بلوغه خبر محاولة الهجوم التي قام بها الشريف، سارع بالعودة إلى قسنطينة، ولكنه عندما وصل إليها لم يجد العدو المفترض قتاله؛ فقد كانت المدينة حرة. وعلى كل حال؛ فقد رأى أنه من واجبه إخبار الباشا بهذا الهجوم، وبالطريقة التي صُدَّ بها المتفضون ودُحروا.

لم يتأخر الرد من مدينة الجزائر. فبعد بعض عبارات التهنئة الموجهة للأهالي على الصرامة التي أظهروها في هذه الظروف؛ جاء في الرسالة إلى عصمان: «لقد نصَّبتك باياً للإقليم، ولقد ظهر الشريف على أراضيكم، وعليكم الزحف شخصياً على هذا المتمرد والانتقام منه. لاحقوه بلا هوادة حتى تقضوا عليه أو تطردوه من إقليمكم»[2].

لم يكن لأمرٍ حازمٍ كهذا ليحتمل أية مماطلةٍ أو تمهل. فسارع عصمان باي بجمع ما استطاع من قواتٍ وفرسان، وخرج لملاحقة المتمرد.

في هذه الأثناء كان بن لحرش في واد زهور في وضعيةٍ قويةٍ جداً تحميه الجبال كثيفة الأشجار والهوات التي لا يمكن تجاوزها. وبعد تردده في شن الهجوم في لحظةٍ معينة؛ لم ينصت الباي إلا لشجاعته. وبخداعه بالوعود الكاذبة التي أعطاها إياه بعض قادة القبايل بتسليمه الشريف شخصياً إن هو تقدم بعددٍ قليلٍ من الرجال؛ أبقى عند سفح الجبل جميع الفرسان وكامل العدة، وتوغل على رأس المشاة متبوعاً ببعض القطع في المناطق التي

1. ولكن يمكن لهذه الرؤية أن تتغير منذ نشر عديد الوثائق لزميلنا «فيرو»، ويمكننا أن نصدِّق بأن إنجلترا، كثيرة الهيجان ضدنا، والمستاءة من معاهدة السلام التي أمضاها قنصلنا «دوبوا تانفيل» مع داي الجزائر مؤخراً؛ قد دفعت بثورة الدرقاوي انتقاماً من حلفائنا الجزائريين.

ونوجه القارئ إلى العمل الهام والمتكامل حول هذه الشخصية الذي نشره «فيرو» في المجلة الإفريقية، عدد مايو 1869 (ص211 وما بعدها)؛ وهو العمل الذي يُعتبر، دون شك، الكلمة الأخيرة حول هذه القضية التي شغلت عدداً من المؤرخين بسبب الذكريات الحية التي تركتها في البلاد من خلال نتائجها، غير أن الأسباب الأولى بقيت مجهولةً لدى الجمهور.

2. حسب كاتبٍ آخر، لم يتلق سوى الجواب البسيط: «إما رأسك، وإما رأس بن لحرش».

تخندق فيها العدو. في بادئ الأمر لم يجد أية مقاومة، ولكن بعدما توغل داخل المنطقة الجبلية؛ انطلقت النيران من كل جانب، وامتلأت قمم الجبال بالقبايل، وحام الموت من كل جهةٍ فوق هؤلاء المنكوبين الذين لم يكن لهم أملٌ حتى في الانسحاب. لقد تمَّ احتجاز جميع مجاري المياه قبل إطلاقها؛ فجعل الفيضان الناتج عن ذلك جميع الطرق على سفح الجبل غير سالكةٍ نهائياً. لقد قاتلوا يائسين، ولكنهم هُزموا بالعدد الكبير وبوعورة الأرض؛ فقضى معظمهم، وتم القبض على الباي وقُطع رأسه بأمرٍ من الشريف. لم ينجُ أي واحدٍ من الأتراك الذين كانوا يشكلون الحامية التي قامت بالهجوم من هذه المجزرة، وفقط القُوم الذين بقوا عند سفح الجبل تمكنوا من النجاة، ومع ذلك تعرضوا لخسائر كبيرةٍ لدى فرارهم.

نضيف إلى هذه التفاصيل ما أورده «إيسترهازي» (Esterhazy): «قام القبايل المهدَّدين بجيش الباي بإقامة سدٍ على واد زهور، وبعد امتلائه أغرقوا به السهل الذي استدرجوا إليه الجيش التركي. يسمى هذا السهل، المهراس*، لكونه محاطاً بتلالٍ عالية. ولما أراد الأتراك والقُوم الولوج إلى ذلك المكان؛ توحَّلوا في الغضار المضمَّخ، وقام القبايل من الأعلى بإطلاق النار على كل من يحاول التقدم»[1].

عندما وصل خبر المأساة إلى قسنطينة؛ عمَّ الذهول المدينة. فكل واحدٍ من أهلها كان ينحب أحداً من أقاربه. وبالإضافة إلى الدموع والتأسفات؛ سرعان ما حل الخوف بشكلٍ جدي من هجومٍ جديدٍ من طرف الشريف؛ فلم يكن هناك زعيم، وخيرة المقاتلين قد قضت. وفي خضم هذا الخوف الشديد كان من الضروري جداً اتخاذ قرارٍ سريع. فاجتمعت الشخصيات الأكثر تأثيراً في المدينة، وقرروا مراسلة الباشا فوراً لإبلاغه عن هذه المصيبة، ووصف الوضعية التي آلت إليها المدينة، بشكلٍ دقيق، والمخاوف التي توحي للجميع بهجوم قادم.

*. المهراس: كلمة عامية جزائرية؛ وهو وعاء نحاسي يستعمل لطحن كل ما هو صلب من الطعام. (المترجم)

1. Wlasin Esterhazy, De la domination turque, p.20

لقد حاول أحمد خوجة الذي خلف مصطفى باشا؛ إعادة بناء سلطةٍ تزعزعت أساساتها بالهزات التي كانت العاصمة مسرحاً لها. كما أن شؤون السياسة الخارجية والاضطرابات التي يحدثها له الإنجليز؛ لم تكن تشغله عما حملته الرسالة الخطيرة التي تلقاها من أهالي قسنطينة. فهذه الهزيمة الدموية التي تكبدتها قواته أغضبته إلى درجة أنه أراد في بادئ الأمر أن يسير شخصياً ضد المتمرد. ولكن باستماعه لمستشاريه؛ الذين نصحوه بأنه من واجبه عدم مغادرة منصبه، وبأن يعهد لآخرين بمهمة الانتقام لتلك المواجهة؛ قرر تنصيب التركي عبد الله مع أمرٍ بمطاردة الشريف دون تأخر. وسلّمه، في الوقت نفسه، رسالتين: واحدةٌ للشيخ بن لفقون، وأخرى لأعضاء المخزن. وغادر عبد الله فوراً؛ ليصل إلى قسنطينة بعد بضعة أيام.

لقد حكم عصمان باي الإقليم لمدة ثمانية عشر شهراً قبل أن يُقتل في ميدان الشرف.

عبد الله باي

1219هـ، نوفمبر 1804م

يحمل خاتمه: عبد الله باي بن إسماعيل، ١٢١٩، وأيضاً ١٢٢٠

تمت تحية الباي الجديد على أنه محرِّر؛ فجميع الأهالي خرجوا لملاقاته. وأرجع مجيئه الفرح والأمل من جديد. كما أن رسائل الباشا المتضمنة تهنئة وتشجيع الأهالي على الحزم والشجاعة اللذين أظهروهما في تلك الظروف؛ قد أدت مفعولها في إتمام تهدئة النفوس. ومنذ ذلك الحين أصبح كل شعورٍ بالخوف غير مبرر؛ حيث انتشر خبرٌ حول تخلي أتباع الشريف عنه، وفراره من الإقليم بداعي الخجل بانتصاره الشخصي، أو بداعي الخشية من عمليات انتقام دموية، ولم يُسمع عنه أي شيء حتى شهر فبراير من عام 1806؛ حيث قام بإثارة قبايل جبال بجاية لمحاصرة هذه المدينة، ولكن إنجازه لم يكن أكثر من ذلك الذي حققه في قسنطينة. وفي العام الموالي قضى في الربطة بالقرب من

سطيف في معركةٍ ضد الأتراك وقواتهم المساعدة؛ وذلك في نفس اليوم الذي تولى فيه علي باشا بن محمد الحكم.

وبهذا انتهى دور * هذا المغامر الذي عرَّض سيطرة الأتراك في الإيالة للخطر في لحظةٍ ما، وكبَّد قواتهم إحدى أنكر الهزائم التي ألحقها بهم القبايل. لكن بذور الثورة التي ألقاها ظهور هذا الرجل داخل القبائل؛ كانت تتطلب قمعاً سريعاً إذا أُريدَ تجنب تفاقم الشر. ولم يتأخر ذلك.

مثيرٌ آخر للفوضى، يدعى محمد بن عبد الله [1]، قاد مجموعةً من المتمردين وأراد إزاحة الباي. فخرج الأخير على رأس قواته التي جلبها معه من مدينة الجزائر من أجل قتال بن لحرش، وجاب الإقليم لمدة عشرة أشهر معاقباً القبائل الثائرة ومدعماً القبائل الخاضعة، وناشراً بذلك خشية واحترام سلطته. وعندما تم تعميم السلام في البلاد بشكلٍ كلي، عاد إلى عاصمته.

في السنة الموالية، تعرض الأهالي لنوعٍ آخر من الامتحانات أكثر فتكاً من الحرب. فقد اجتاح المنطقة قحطٌ شديدٌ قلَّل كل أملٍ في الحصاد. ومن جهة أخرى؛ فإن كل التموينات كانت قد استُهلِكت منذ أن تدخل اليهوديان بكري وبوجناح [2] في مسألة تصدير الحبوب. ونظراً لتأثيرهما الكبير على مصطفى باشا؛ قام بناءً على طلبٍ منهما بإرغام البايات على تسليم جميع احتياطات القمح لدى محكوميهم لهذين اليهوديين. لقد حلت المجاعة والقحط بكل بشاعتهما، وامتد فتكهما ليعُمّ كامل تراب الجزائر. يقول أحد الرواة العرب، ويمكننا تصديقه لما شاهدناه بأعيننا سنة 1867، أن الناس صاروا يأكلون جثث إخوانهم. وارتفع عدد الوفيات، ولم تتوقف الآفة عن التفاقم لمدة عام كاملٍ حتى أذن الله بنهايتها. فقد هطلت أمطار الخريف لتروي الأرض اليابسة، وكانت وفرة ذلك الموسم كبيرةً؛ فعوَّضت الفلاحين

*. استعمل الكاتب كلمة دور (rôle) للتعبير ربما عن احتمال استعماله من طرف الإنجليز في خلق الاضطرابات في الجزائر حليفة فرنسا. (المترجم)

1. لتأكيد النبوءة التي تقول بأن الرجل الذي سوف يحرر البلاد من القمع الأجنبي سيحمل نفس اسم النبي؛ يسمي هؤلاء أنفسهم عموماً محمد بن عبد الله، وبعضهم يضيف بن آمنة (إشارةً إلى اسم والدة النبي).

2. لقد لعب أحد أقرباء هذا اليهودي دوراً دبلوماسياً خلال السنوات الأولى من الاحتلال.

عن حرمانهم وخسارتهم.

تحت حكم عبد الله باي اندلعت الحرب بين الجزائر وتونس. فحمودة باشا، كما رأينا آنفاً، كان قد منح اللجوء لباي قسنطينة الأسبق إنجليز باي، ورفض تقديم إتاوة الزيت والصوف والشاشيات* التي كان يدفعها سابقوه منذ سنواتٍ طويلةٍ لإيالة الجزائر. أراد الداي أحمد أن يجبره على دفعها متحججاً بأنه يحتاج للمال؛ فقام حمودة ببعض الإجراءات حتى لا يتضرر السلام، ولكن المبلغ الذي طلبه الداي كان كبيراً لدرجة أنه لم يستطع قبوله، ووجد نفسه مرغماً على تهيئة نفسه للحرب. ومن جانبه، قام أحمد بتحضيراتٍ كثيرةٍ للدخول في حملةٍ ابتداءً من الربيع الموالي.

في هذه الأثناء، قُطع السلام مع فرنسا. فخلافاً لروح المعاهدات؛ قام أحمد بتسليم القالة للإنجليز، وتنازل لهم عن صيد المرجان. لقد أثار هذا التنازل حفيظة سكان إقليم قسنطينة المعتادين منذ فترةٍ طويلةٍ على التعامل تجارياً مع فرنسا. وتبنى عبد الله باي قضية محكوميه، فكتب للباشا حتى يقدّم له توضيحاتٍ حول هذا الموضوع، كما عبّر له عن تخوُّفه من انتفاض الأهالي وإمكانية وقوفهم مع باي تونس في الحرب المرتقبة. لم يتقبل الداي هذه الملاحظات، ودون أن يعير أي اعتبارٍ لشجاعته وخدماته السابقة؛ أمر بضربه مئة ضربة، ثم قطع رقبته. وطال غضبه حتى زوجة هذا المسكين، دايخة بنت حسن باي، التي قضت تحت التعذيب الشديد. لقد كانت هذه المرأة، التي تتمتع بقدرةٍ قلما توجد لدى مثيلاتها، بمثابة المستشار الخاص لزوجها، وشاركت أكثر من مرةٍ في أعماله الإدارية.

بعد تنفيذ هذا الإعدام المزدوج؛ وصل بايٌّ آخر لخلافة عبد الله.

* الشاشيات ومفردها الشاشية؛ وهي نوعٌ من القبعات يستعملها سكان المنطقة. (المترجم)

حسين باي

1221هـ، ديسمبر 1806م

يحمل خاتمه: حسين باي بن صالح باي، ١٢٢١

حسين هو ابن صالح باي، وأمه أهلية؛ فكان بذلك كرغلياً. لقد تم تلقي تسميته بفرحةٍ كبيرةٍ من طرف جميع الأهالي؛ حيث أنهم كانوا يأملون أن ترجع معه أيام حكم أبيه الجميلة.

لم يمر شهران عن تسلمه مقاليد الحكم حتى وجد نفسه مجبراً على الزحف على رأس جيشه لصد الجيش التونسي؛ الذي كان يتقدم نحو قسنطينة بعددٍ يفوق 50000 رجل. فالنجدة المنتظرة من مدينة الجزائر لم تكن قد وصلت بعد؛ لأن تلك القوات كانت منشغلةً بقمع قبائل فليسة التي، باستغلالها للظروف السائدة، رفضت دفع الغرامة، وأظهرت عداءً صريحاً. ولم تكن قلة تعداد جيش حسين تسمح له بمقاومة العدو طويلاً. فبعد هزيمته في مواجهةٍ أولى؛ حيث فقدَ الكثير من الرجال، ولم يستطع مواصلة الحملة، وفرَّ هارباً وسط حمايةٍ ضعيفةٍ ناحية جميلة.

انتصار التونسيين الأول هذا لم يزدهم إلا قوة. واستغل قائدهم، سليمان كياهية، حماس جنوده ليحث الخطى نحو قسنطينة، وبعد بضعة أيامٍ ضرب حصاراً على المدينة، ونصب مدافعه على مرتفعات المنصورة[1].

لمدة ثلاثين يوماً وثلاثين ليلة؛ لم يتوقف التونسيون عن قصف الأسوار، وَرَجْم المدينة بكل أنواع القذائف. ولكن الأهالي، رغم افتقادهم لقائدهم، استطاعوا أن يقاوموا الهجوم؛ فسمحت هذه المقاومة اليائسة لباشا الجزائر بنجدتهم في الوقت المناسب.

1. هذه الهضبة التي تطل على المدينة من ناحية الشرق؛ شكلت دوماً نقطة هجوم لمختلف الأعداء الذين تعاقبوا على حصار قسنطينة. وعلى هذا المرتفع أيضاً أقام الفرنسيون معسكرهم في كلتي حملتيهم. لقد كان يوجد في هذا المكان حصنٌ بناه الأتراك، وقد دُمِّر عن آخره من طرف مراد باي تونس سنة 1700؛ الذي نزع جميع المدافع، ولم يترك سوى الأطلال التي بقيت قائمةً حتى العام الماضي قبل أن تُزال لإنجاز المقر الجديد لفرسان الفرقة الثالثة لقناصي إفريقيا. انظر حول هذه الحملة مقال شيربونو في المجلة الأسيوية Journal asiatique, n°8, année 1851

في الواقع، كان أحمد باشا يتابع أولاً بأول زحف جيش تونس على قسنطينة، والهزيمة التي تعرَّض لها الباي حسين، ومحاصرة المدينة. وفي خضم هذه الظروف الاستثنائية؛ قَبِل عرض السلام الذي قامت به قبائل فليسة نفسها، فتمكن من استخدام جميع قواته بكل حرية. وتم إرسال سِلاَحَيْن عسكريين لنجدة المحاصَرين: سلاح الفرسان بقيادة باش آغا مدينة الجزائر؛ الذي كان عليه السير براً، والذي انضم إليه القبايل أعداء الأمس، وسلاح المشاة؛ الذي ذهب بحراً إلى عنابة لقطع الطريق أمام انسحاب التونسيين. وفي الوقت ذاته؛ أعلم الباي بالإجراءات التي اتخذها، وأمره بالالتحاق مصحوباً بما تبقى معه من قوات ببقية الجيش؛ الذي أوكلت قيادته العامة للباش آغا.

وصلت قوات النجدة بشكلٍ سريعٍ وسريٍ لدرجة أن سليمان كياهية لم يشعر بوصولها إلا عندما قام الجيشان بالالتحام. وتحتم عليه التخلي عن الحصار حتى يوجه جميع قواته ضد هذا العدو غير المنتظر. والتقى الجيشان على السهول الغنية التي يرويها بومرزوق؛ والتي أقيمت عليها اليوم مشتلة الحكومة، وتواجها طيلة ثلاثة أيامٍ بشراسةٍ لا مثيل لها. وفي الأخير كان النصر للجزائريين.

من أجل إنقاذ ما تبقى من جيشه من إبادةٍ جماعية؛ تحتم على القائد التونسي الفرار سريعاً تاركاً أرض المعركة مليئةً بالقتلى، ومخلِّفاً لنهب المنتصرين مقتنيات معسكره وأمتعته وعتاد حربٍ ضخم. وقام حوالي خمسمئةٍ إلى ستمئة تونسي بإلقاء السلاح قبل أن يتم إدماجهم في الجيش الجزائري. وكدليلٍ على الانتصار؛ تم إرسال زهاء أربعين بغلٍ محمَّلٍ بالآذان إلى مدينة الجزائر. ولقد كُوِّمت هذه الغنائم المحزنة على أسوار باب عزون على وقع طلقات مدافع كل الحصون. وبذلك انتهى هذا الحصار لصالح القسنطينيين، ويبقى الأجدر بالذكرى دون غيره من الحصارات التي تحمَّلوها.

يُروى أنه خلال هذا الحصار قام بعض جنود حمودة باشا برحلةٍ قصيرةٍ

ناحية «كدية عتي» حتى وصلوا إلى حُجرة المرابط الجليل سيدي سليمان المجذوب. وبما أنهم جاءوا بنية النهب فقد خاب أملهم؛ حيث أنهم لم يجدوا سوى قدرٍ كبيرةٍ كان الطلبة، الذين يتابعون دروسه، معتادين على إعداد طعامهم فيها. لكن طمع هؤلاء النهابين اكتفى بذلك؛ فأخذ أحدهم الماعون.

في الليلة التي تلت الهزيمة، تقول الأسطورة التي لا تتردد في إقحام الباشا في مجريات الأحداث رغم أنه لم يغادر تونس، إنه رأى في المنام طيف المرابط ماثلاً على رأس سريره في صورةٍ مرعبةٍ ومهدِّدة. وفي الوقت نفسه صاح صوتٌ عظيم في أذنيه يقول: «قِدري! قِدري! أرجع لي قِدري!». واستمر هذا الكابوس المرعب جزءاً من الليل، ولما استيقظ الباشا فزعاً نادى أكبر قادته وسأله إن كان على علمٍ بقِدرٍ كان قد سرقها رجاله من مرابطٍ في ضواحي قسنطينة. وسرعان ما استعلم القائد عن الأمر، فوُجدت القدر عند سارقها الذي أُمر في الحال بإرجاعها إلى صاحبها؛ وهو ما حدث فعلاً.

بينما عادت بقايا الجيش التونسي مسرعةً إلى حدود وطنها؛ كان الباش آغا والباي متبوعَين بأكبر ضباط الجيش بصدد الدخول الاحتفالي إلى قسنطينة وسط تحيات الجماهير السعيدة. وسرعان ما أرسِلت الخطابات إلى أحمد باشا لإخباره بهذا النصر المجيد. وفي الوقت نفسه، طلب منه الباش آغا الإذن بمواصلة النصر حتى أسوار تونس؛ التي، حسبما أضاف، وبعد الهزيمة التي تعرضت لها لن تقاوم كثيراً قبل السقوط تحت ضرباتهم.

شاطر الداي، المفتون بفتح كهذا يجاوز جميع تطلعاته، حماس قائد جيوشه. ولإثبات عرفانه له وللباي؛ أرسل لهما خيولاً ثمينةً وبعض الهدايا المعتبرة الأخرى. وبالإضافة إلى ذلك؛ طلب منهم جمع أكبر عددٍ ممكنٍ من الرجال بأسرع وقت، واستدعاء جميع القُوم، والزحف دون تأخيرٍ على تونس.

لقد كانت همة القائدين عاليةً لدرجة أنهما جمعا الجيش في ظرفٍ وجيز. وانطلق الفرسان والمشاة في اليوم الموعود وصيحات الفرح تعلو في السماء من حناجرهم. ومن شدة حماسهم اختزلوا زمن قطع مراحل السير، فوصلوا

بعد بضعة أيام إلى ضفاف واد سرات قُبيل أول موقع محصن في تونس[1]. كان ذلك في شهر يوليو 1807، وفيه توجَّب القتال؛ حيث أن قسماً من جيش العدو قوامه 18000 رجل بقيادة يوسف صاحب الطابع؛ كان قد قطع الطريق. ورغم تفوقهم العددي؛ كان جهلهم للأرض، وخاصةً تسرعهم؛ السبب في هزيمتهم، كما أنه كان من بينهم خونة. فمصطفى بن عاشور، قايد فرجيوة، كان يراسل باشا تونس سرياً منذ فترة. وقد قبض ثمن خيانته مسبقاً، وأدى تخليه عن الأمر إلى انسحاب معظم رجال القُوم.

وظل من بقي من الجيش يقاتل دون جدوى لعدة أيامٍ قبل أن يتحتم الانسحاب أمام المقاومة التونسية، وتعم الفوضى داخل الصفوف، وأصبح كل واحدٍ يريد الفرار بجلده. أما الذين كانوا أكثر شجاعةً؛ فقد بقوا في ساحة المعركة، وتشتت الفرسان في كل جانب، ولم يتمكن سوى عددٌ قليل من الأتراك من الرجوع إلى قسنطينة[2].

حتى يُبعد عنه غضب الباشا أحمد، الذي لم يكن ليغفل عنه باعتباره المحرِّض الأول على هذه الحملة المجنونة، سارع الباش آغا بإرسال خطابٍ إليه يُحمِّل فيه باي قسنطينة الوزر كله. ولم يتورع عن استعمال الخداع والكذب ليقنع سيِّده بأن كامل مسؤولية الكارثة تقع على حسين باي؛ الذي كان أول من هرب، وبأنه لولا الانسحاب المتسرع لكان النصر حليفهم. صدَّقه الباشا، ودون أن يبحث عن معلوماتٍ أخرى أمر بقتل الباي فوراً. وقضى المسكين مخنوقاً، وتولى الباش آغا قيادة الإقليم في انتظار تسمية حاكمٍ جديد.

---

1. في هذا الموقع دارت، بلا شك، معركة «زاما» (Zama) الشهيرة بين «سيبيون» (Scipion) وحنبعل. وفي الأبحاث الثرية التي قام بها «دورو دو لامال» لتحديد موقع زاما؛ يخبرنا بأن المعركة تكون قد دارت في ضواحي المدينة التي تحمل هذا الاسم نفسه، بالقرب من نهر «بغرادة» (Bagrada) (مجردة حالياً)؛ الذي يأخذ اسم سرات في جزءٍ من مجراه. وإن موقع المكان يجعل هذا الافتراض أقرب للحقيقة. انظر:
– L'Algérie, par Dureau de la Malle, p. 42 et suivantes
– Recherches sur le champ de bataille de Zama, par M. le Capitaine Lewal, 2ème vol. de la revue africaine, p.111

2. لمزيد من التفاصيل حول هذه الحملة الشهيرة؛ ارجع إلى رواية روسو في الحوليات التونسية (Annales tunisiennes)، ص252 وما بعدها.

علي باي

1222هـ، اغسطس 1807م

يحمل خاتمه: علي باي بن يوسف، ١٢٢٢

إن من خَلَفَ حسين بن صالح كان تركياً من عناصر أوجاق مدينة الجزائر، والذي طالما تميّز بشجاعته وبالاحترام الذي يفرضه على زملائه؛ واسمه علي، وكان ضمن الحامية المرسَلة المتواجدة حينئذٍ داخل أسوار قسنطينة.

بتسميته باياً من طرف الباشا؛ فرض عليه شرطاً، وهو السير على تونس وغسل هزيمة سابقه بدماء أهلها.

وعليه، سارع علي بالقيام بكافة التحضيرات اللازمة لهذه الحملة الجديدة؛ فلم يهمل أي شيءٍ مما يمكن أن يضمن له نجاحاً تاماً. فزوّد الرجال بوفرةٍ من الذخيرة والمؤونة، كما جُلبت كامل المدفعية وعتاد الحصار. وبعدما تم الاتفاق على إعطاء الأمر بتحرك الجيش، وعشية الانطلاق؛ وصل رسولٌ خاصٌ بخبرٍ مفاده أن الباش آغا حسين سيصل قادماً من مدينة الجزائر بتعزيزاتٍ وإمداداتٍ معتبرة. وبذلك أُعطي أمرٌ مخالفٌ بتوقيف الانطلاق، وقد كان هذا التأخير غير المناسب سبباً في هزيمة الباي، وفشل هذه الحملة الجديدة.

في هذه الفترة كان يعيش في قسنطينة شاوش بوطرطورة سابق في دار باشا الجزائر[1]؛ يدعى أحمد شاوش بحكم مهنته السابقة، كما أنه كان يُلقَّب بالقبايلي بسبب إقامته الطويلة في جبال القبائل.

في 1802، وبينما كان يشغل وظيفة شاوش؛ حيكت مؤامرةٌ، ونؤكد ذلك، من طرف الأميرال الإنجليزي "كيث" (Keith) ضد الداي مصطفى؛ الذي كان في نظر الإنجليز مرتبطاً جداً بفرنسا. فبينما كان الأمير في المسجد مع وزرائه وبعض أعيان البلاد؛ توجه مئةٌ وستون تركياً إلى مدخل القصر،

1. كان لباشا الجزائر إثنا عشر شاوشاً أو ضباطاً للحرس الخاص. وكان يرتدي هؤلاء الضباط عباءةً طويلةً خضراء غير مُزيَّنة، ويضعون على رؤوسهم قبعةً كبيرةً مُقرَّنةً ومائلةً إلى الوراء تسمى طرطورة؛ ومنها جاءت التسمية شاوش بوطرطورة.

وأمروا النوباجية[1] بفتح الباب. دخل من المتآمرين عشرةٌ فقط، واستولوا على الأسلحة ومخزن البارود وحجرات الباشا. وبعدما رفعوا الراية العثمانية؛ حاولوا من أعلى القصر أن يؤلبوا الجماهير، ولكنهم تعرضوا للخيانة. فالأتراك الذين بقوا في الخارج أحسوا بالخوف الشديد مما تجرؤوا على فعله؛ فابتعدوا شيئاً فشيئاً متخلين عن مشروع قتل مصطفى خلال أدائه للصلاة. وتم القضاء على المتآمرين الذين استولوا على السلطة في لحظةٍ ما، واكتُفِيَ بنفي مساعديهم في هذه العملية التهورية.

من بين هؤلاء كان أحمد شاوش. وبالنسبة لشخصٍ ذي طبيعةٍ دنيئةٍ وطماعةٍ مثله؛ كان النفي ثمناً قليلاً مقابل الحفاظ على حياته. وبذلك ابتعد عن مدينة الجزائر حاملاً معه فكرة البحث في مكانٍ آخر عن مجالٍ يطلق فيه العنان لطبيعته المضطربة ونزواته الجشعة. وفي سياق هذه النية؛ زار بجاية وجيجل والقل تباعاً. وعلى غرار رحلاته البعيدة المتعددة لم يكن النجاح حليفه إلا نادراً؛ فوجَّه نظره إلى قسنطينة. بوصوله إلى هذه المدينة، استقر بالقرب من ثكنة الإنكشارية في رحبة الجمال.

هذه المصادفة التي تبدو عبثيةً في الظاهر؛ كانت هي السبب الأول في ارتقائه مستقبلاً. فاختياره لهذا الحي كان على أساس نوايا مسبقة. إن المخالطة اليومية بحكم الجيرة، وسهولة إيصال الأفكار دون استفزاز الفضول العام؛ تساعدان كثيراً كل من يريد تكوين حزبٍ لنفسه، وخاصةً عندما يجد في محيطه اليومي جميع العناصر الضرورية لنجاح مشاريعه. ولم يكن أحمد شاوش رجلاً لا يهتم بالتفاصيل. فتقديم بعض فناجين القهوة بشكلٍ عفويٍ لمن كان يقول لهم إنه زميلٌ سابقٌ لهم في السلاح، وإسداء بعض الخدمات الصغيرة، والاستطراد في الحديث؛ كفل له ذلك كله ربح ثقة الجميع.

بعد أن حضَّر الأرضية؛ كان من السهل عليه سبر الاستعدادات الداخلية لهؤلاء الرجال الذين صاروا زملاءه أو أصدقاءه، ولم يتأخر في الاقتناع بأنه

1. كان القصر يُحرس من طرف نوبة (أو حامية) بقيادة آغا. حيث كان الرجال (النوباجية) يقفون أمام باب القصر نهاراً، وبإغلاق الأبواب يدخلون ويستقرون أسفل الأروقة الداخلية لقضاء الليل.

من أجل إقحام هذه الميليشيا في مخططاته، وهي التي تتنامى لديها الحاجة للثورة دون انقطاع؛ كان يكفي استفزاز أهوائها. واستُعملت كل أنواع الكذب والوشاية لكسب مُوالين لقضيةٍ هدفها قتل الباي واغتصاب منصبه؛ فحيكت المؤامرة بشكلٍ جيد، وتكتم المتآمرون على السر حتى لا يتناهى أي شيءٍ إلى مسامع علي، وبقي انتظار الفرصة المواتية لتفجير المؤامرة؛ فلم تتأخر.

بوصول خبر قدوم الباش آغا من مدينة الجزائر على رأس قوات التعزيزات لشن حملةٍ جديدةٍ على تونس؛ همَّ الباي لاستقباله، وانضم إليه في معسكر الفسقية بالقرب من جبل قريون بين بلاد السقنية والزمول. ومن هناك انطلق القائدان باتجاه قسنطينة؛ حيث قاما بالاستعدادات الأخيرة، وأبقيا الجيوش معسكرةً خارج المدينة.

اعتقد أحمد شاوش بأن الوقت المناسب لإسقاط القناع والمناداة صراحةً بالثورة قد حان. فتنقل إلى معسكر وادي الرمال (على المصب الجنوب الشرقي لكدية عتي)؛ حيث كان الجيشان متجمعَيْن، وخاطب الحشد بتلك البلاغة العنيفة التي تؤثر دوماً على الجماهير:

«أيها الجنود، ماذا يُراد بكم؟ هل فعلاً جُمعتم بهذا العدد الكبير لغزو تونس؟ أعرف بأن شجاعتكم تسمح بتحقيق هذا الفتح بسهولة. ولكن ألا تخشون الخيانة؟ ألا تعرفون بأنه عندما يكون العدو أمامكم؛ سيكون وراءكم خائنون وجبناء؟ إني أكاد أرى فرسان الزمالة هؤلاء، وغيرهم من القبائل وهم يفتخرون على صهوات خيولهم في مسابقات الفروسية، وخائفون وقت المعركة؛ هاربين كقطيع الغزلان مع أول إطلاقٍ لنيران العدو تاركين لكم وحدكم مهمة الانتقام لشرفكم ولعارهم. ألا تتذكرون التجربة الأخيرة حين اختبرتم نيتهم السيئة وشجاعتهم الضعيفة؛ حيث ضحوا على ضفاف واد سرات بإخوانكم في السلاح الذين إما ذُبحوا بسيوف الجيوش التونسية المنتصرة أو غرقوا في أعماق الوادي؟... إنكم تُساقون إلى الموت، أيها الجنود، وليس إلى النصر. فليذهب هؤلاء الذين يقلبهم قلب امرأة للانضواء خاضعين تحت سوط الأغوات والبايات، أمَّا أنتم رجال السلاح فاتبعوني؛

لأن أقداراً أخرى تنتظركم».

هذه الكلمات النارية الملقاة علناً وسط معسكرٍ مسلح؛ لم تكن إلا لتجد صدى في نفوس المستمعين. وكان على المتواطئين مع أحمد إكمال الباقي؛ حيث أن العصيان انتقل من الأقرب فالأقرب. وتمهيداً للمأساة الدامية التي ستحصل؛ صارت الميليشيا التركية تنتشر كل يوم في الشوارع، تسلب المحلات وتغزو الأسواق مستوليةً على كل شيء. وبلغت الفوضى والاضطراب أوجهما.

أما القُوم وقوات قبائل السهول الذين تلقوا الأمر بالالتحاق بالحامية المرسَلة؛ فقد كانوا يتدفقون من كل جهةٍ في كل وقتٍ لزيادة صفوف الجيش. لقد كانت خيامهم تمتد على مرمى البصر فوق التلال؛ فكان منظراً مدهشاً لتجمع قوات الإقليم تحت أسوار قسنطينة، وكان موعد انطلاق الزحف قريباً.

يوم الجمعة، عشية الموعد المحدد للانطلاق، توجه القائدان في منتصف النهار إلى مسجد سوق الغزل لأداء الصلاة والدعاء بالنصر. وكانت تلك هي اللحظة التي اختارها أحمد ومعاونوه لتنفيذ مخططهم؛ فقد أُعطي الأمر منذ الأمس، ولم يتخلف المتآمرون عن الموعد.

ما إن ولج الباش آغا والباي مع أتباعهما إلى داخل الجامع؛ حتى اجتاحت فرقةٌ من الأتراك المسلحين الباب الرئيسي. ولما بدأ الإمام إلقاء الخطبة من فوق المنبر انطلق دوي الرصاص زارعاً الهلع في قلوب المصلين المجتمعين في بيت الله. وفي لحظةٍ معينةٍ بلغت الفوضى أوجها؛ حيث سارع كل واحدٍ إلى الباب زاحفاً ومختنقاً وسط دخان البارود، وسقط كثيرٌ من الضحايا في الشارع. وحاول الباش آغا الجريح الزحف، ولكنه وقع في أيدي هؤلاء الساخطين؛ فمزقوا رداءه ثم أعادوا إلباسه إياه مرةً أخرى. ولحسن حظه؛ تمكن علي باي، الذي أخطأه الرصاص، من إيجاد منفذٍ وسط الغوغاء بسبب الفوضى العارمة وباستعمال يطغانه، وركض لاجئاً إلى دار سي العبادي في

شارع غدير بلغطاس *، غير بعيدٍ عن المسجد[1].

تلبَّد في زاويةٍ مظلمةٍ من المطبخ، واعتقد للحظةٍ أنه في مأمن؛ ولكن كان هناك من انطلق في ملاحقته في جميع الاتجاهات. وكان أحدهم، ويدعى أحمد بن لطرش، أحسن حظاً منهم؛ حيث وجد ملجأه، وانقض عليه ساحباً إياه بقوةٍ من مخبئه، ثم ساقه إلى سيده الجديد. وبعد لحظاتٍ تدحرجت رأسه على الأرض.

نعتقد بأن القارئ سيكون ممتناً إذا أضفنا إلى ما سبق الرواية التالية المأخوذة عن مقالٍ لشيربونو حول الحكومة العابرة للمغتصب أحمد شاوش[2]. وإذا كانت روايتنا تختلف في بعض التفاصيل عن تلك المأخوذة عن العالِم الأستاذ؛ فإن ذلك يرجع للمصادر المختلفة التي اعتمدنا عليها. وبما أنه لم يُكتب شيءٌ أو تقريباً عن أحداث هذه الفترة الأخيرة؛ فعلى المهتم بالتاريخ المحلي أن يرجع إلى روايات المعاصرين الذين نادراً ما يكونون دقيقين في سردهم للأحداث؛ حيث أنهم يخلطون، دون أدنى اهتمام، أسماء الأماكن والشخصيات والتواريخ. ولا يمكننا اكتشاف الحقيقة إلا بمراقبة بعضهم ببعض؛ وبهذا تفسر الاختلافات التي نجدها بين الروايتين مع أن المضمون يبقى نفسه.

«اعتقَدَ علي باي في بادئ الأمر أنه ضحية خيانةٍ من الباش آغا. انقض على أحد الشواش الجزائريين الواقفين على الباب الشرقي وقتله، ولكنه عندما وجد الجنود راصدين ومستعدين لإطلاق النار؛ طأطأ رأسه واختفى وسط الحشود حتى وجد مخرجاً؛ وهو باب الدروج (باب الدرَج). ثم دخل إلى دار نعمون متوسلاً النساء والخدم بأن يخبئوه.

غير أن أحمد القبايلي لم يضيع الوقت. فبينما اجتاح المتواطئون معه المسجد؛ استولى هو على دار الباي بسهولة. والتحق به مصطفى خوجة؛ الذي أصبح لاحقاً آغا في مدينة الجزائر، فوجده جالساً على الدكانة؛ وهو

---

*. ورد اسم هذا الشارع خاطئاً عند فايسات، وأخذنا تصحيحه عن مولود ڤايد. (المترجم)

1. يضم هذا الشارع حالياً القصر والبنايات التي حوله. ولقد دارت هذه الأحداث في المكان الذي بُني فيه لاحقاً بيت السيدة أرملة «ڤاند» (Guende). Mouloud Gaïd, Op. Cit., p.61

2. انظر Revue orientale, décembre 1852, p.398.

كرسي الشرف أو العرش، فقبَّل يديه بحرارةٍ مفرطةٍ، وهنَّأه على حظه السعيد الجديد، كما أسرع بإخباره بفرار علي باي.

وسرعان ما اتُّخذت إجراءاتٌ للقبض على شخص الأمير المسكين. حيث انتشر الأتراك حول دار نعمون وفي الشوارع المجاورة. وفي الوقت نفسه، جاء مصطفى خوجة؛ العدو السري لعلي باي، ينصحه بالخروج من بيت صهره (كان مصطفى متزوجاً من إحدى بنات نعمون).

ما إن وطأت قدم علي باي مدخل السقيفة حتى انقض عليه الرجال، ورغم كونه مجروحاً؛ كان له حظ الوصول إلى فرن الخباز مسعود. وبقوة ذراعه؛ استطاع أن يبعد المعتدين عنه، ويجد الوقت الكافي للتملص بالانسحاب على طول الجدار داخل المنزل. ولكن رجالاً كثراً كانوا قد تسلقوا الجدار وصولاً إلى السقف، وقام أحدهم؛ وهو قبائلي من زواوة يدعى أحمد بن لطرش كان قد انضم إلى الميليشيا التركية؛ بخلع بعض القرميدات، وقفز على علي باي الذي تكبكب تحت السقف المنهار". لم تكن جريمته لتفيده؛ حيث فقدَ بصره لاحقاً، وقضى بقية أيام حياته في قسنطينة معدماً يعيش على صدقات المارة.

أحمد شاوش، المدعو القبايلي

1223هـ، سبتمبر 1808م

دام حكمه خمسة عشر يوماً

بموت علي باي؛ امتطى المغتصب صهوة فرس ضحيته وتوجَّه معلناً نصره في دار الباي التي استولى عليها لتوه. وبينما كان رعاع المداهنين والمتملقين يسارعون لتهنئته وتحيته؛ كان العسكر الذين رفعوه إلى المجد لا يتنفسون إلا القتل والنهب منتشرين كسيلٍ مدمرٍ في كافة شوارع المدينة، مطلقين لتهديدات رهيبة، وموقفين المارة المتأخرين، وسارقين للمحلات. ومع إطلاق أول صيحة إنذارٍ؛ كان الأهالي يتحصنون داخل بيوتهم لتبقى الشوارع والأسواق مهجورة. فكلٌّ كان يرتعد خوفاً على حياته وأملاكه.

وسط هذا الهلع العام؛ كان بعض أعضاء المخزن السابقين يتأوه في غياهب زنزانات سجن القصبة، واستغلالاً للفوضى السائدة؛ كسروا قيودهم واسترجعوا حريتهم. ومن بين هؤلاء كان مصطفى بن عاشور وسي محمد بن القُربة.

لقد كان الأخير قايد عزيب البقر، وسُجن لأنه قام ببيع عجولٍ تابعةٍ للبايلك لحسابه الخاص. أما مصطفى بن عاشور، وبعد خيانته لقضية حسين باي في معركة واد سرات، كما رأينا سابقاً، كان قد هرب إلى قيادته في فرجيوة للإفلات من عقوبة الخونة. وهناك كان في حالة عداءٍ صريحٍ لمدة عام تقريباً، ولكنه أراد أن ينال عفو الباي الذي خلف حسين، واستغل مرور الباش آغا بمنطقته في طريقه للانضمام بحامية قسنطينة؛ ليعلن خضوعه بين يديه ويطلب الأمان. دار الحديث بينهما في قصر الطير؛ حيث تأثر الباش آغا وعفا عن التائب، ووعده بالتدخل لدى الباي حتى يصفح عنه.

لم يتردد بن عاشور، المعتمد أكثر من اللازم على هذه الحماية السامية، في المثول أمام الباي؛ الذي أمر بتوقيفه وإلقائه في السجن فوراً. ولما زعق الباش آغا احتجاجاً على الطريقة التي تم التعامل بها إزاء هذا الرجل الذي أعطاه الأمان، رد عليه علي: «هذا الرجل الذي تجيره خائنٌ معتاد، لا يتردد عن انتهاز أول فرصةٍ تتاح إليه ليتحالف مع العدو، ويكرر لعب الدور الذي قام به في الحملة السابقة. لا تثق بوعوده؛ فوَعْدُه لا يستحق أي تصديق». فعاد الباش آغا إلى صوابه، وترك له مستجيره. وفي الوقت نفسه؛ كتب علي باي للباشا ليخبره بالإجراءات التي اتخذها بخصوص بن عاشور وأحمد خوجة. وفي رسالةٍ مكتوبةٍ بأسلوب المدح والإطراء؛ دَعَمَ تصرفه بشكلٍ كلي، وهذا نصها:

«الحمد لله،

إلى الذي تنمو جذوره وأغصانه دون توقف، الذي بقي أصله نقياً عبر الأزمان، الذي بلغ كرمه أوجه؛ إلى الذي ارتوى بماء العلم، السلطة الرائعة والمنيرة، الكنز الثمين الذي لا مثيل له؛ إلى ابننا البار، صديقنا الغالي والمحبوب، إلى سي علي باي قسنطينة، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لقد تلقينا كتابكم الذي أحببنا دقته وظرافته. كان الله في عونكم لبلوغ مقاصدكم، وأطال أيام حكمكم وجازاكم خيراً عن سجنكم لهذا الخائن الفاسد المسمى مصطفى بن عاشور؛ الذي نشر الاضطراب في الإقليم، وأثار الحرب الأهلية، وأشعل نار الثورة بكل المآسي التي تجرها معها. فمنذ أن وضعتم الحديد في قدميه استرجع الإقليم، كما تقولون، هدوء ه المعتاد. جازاكم الله خيراً وأعانكم على أعمالكم.

لا تنسوا، ابني العزيز، أنتم الرجل الكريم، الصادق، الخدوم والمتحمس؛ بأنكم قائد الإقليم، وبيَدكم حياة ناسكم، وليس لأحدٍ أن يخرج عن قيادتكم أو يعترض عما ترونه لائقاً. وتذكروا أيضاً بأننا إذ أعطيناكم هذه السلطة الرفيعة؛ ليس إلا لتستعملوها لنشر الهدوء التام في البلاد. فإذا وضعنا على رأسكم جميع أمور الدولة، وإذا سمحنا لكم بالقيام بالإصلاحات التي يمليها عليكم ضميركم؛ فإننا بدورنا نرجو بألا تخونوا أبداً الثقة التي نضعها في حكمتكم وصواب قراركم.

اعلموا أيضاً، أيها السيد البارز والابن المحبوب، بأن ما نريده منكم، وما ننصحكم به خاصة، بعد الدعاء بعون الله ربنا ورب العالمين، أن تسيروا دون تأخيرٍ لغزو هذه البلاد (تونس). أشعلوا بحماسكم شجاعة جيوشكم، وأن يحرك الحماس المقدس كافة جنودكم.

عيشوا سالمين مع أخيكم حسين آغا، وكونا روحين في جسدٍ واحد، وتشاورا في كل ما تقومان به. تقبلا في مجالسكما الرجال المعروفين بقدرتهم، وعلمهم، وصرامتهم، وجرأتهم وخبرتهم الطويلة للأمور. احرصا على ألاَّ ينقص الجنود والقُوم والرجال أي شيء. كونا حريصين على كل شيء، وبخاصة قادة الجنود العرب؛ فتلك الوسيلة الأكيدة لربطهم جيداً بكم.

إذا حققتم آمالكم قريباً، وهزمتم أعداءكم وهربوا في كل جانب؛ فذلك بجاه سيدنا محمد الذي أُنزل عليه القرآن العظيم، والسلام عليكم وعلى مجلسكم ورحمة الله وبركاته.

كُتب بأمر العظيم الكريم الشريف، سي أحمد باشا، أنعم الله عليه بكل ما يريد»*. بدون تاريخ

*. نص الرسالة ليس أصلياً؛ فهو مترجم من النسخة الفرنسية المنقولة من الأصل.

وبذلك أُبقي على الأمر بتوقيف بن عاشور، وظل منذ ذلك الحين في الأغلال حتى جاءت الأحداث التي ساعدته على الهروب من سجنه. وسوف نراه لاحقاً يهلك بدوره ضحيةً للخيانة. ولنعُد إلى أحمد شاوش.

بعد أن تربع على العرش الذي وضع هو نفسه قاعدته؛ عمل المغتصب على إعادة الهدوء للمدينة. فبعض الأتراك المتزوجين، والذين كانت أسَرُهم في قسنطينة؛ جاءوا ينقلون إليه حالة الذعر التي سادت المدينة، قائلين:

ـ أعلنوا بأن النظام قد عاد، وبأنه يمكن لكل واحدٍ أن يخرج من بيته ويفتح محله دون خوف. وفي الوقت نفسه، تحذير الجنود بأن يوقفوا العداء، وبأن كل تصرفٍ عنيفٍ سيُواجه بعقابٍ شديد.

أخذ الباي بهذه النصيحة، وكلف فوراً البراح بالخروج. فقال الأخير: ـ ماذا أقول؟ فأجابه الباي: ـ قل إنه بأمرٍ من الله وبإرادة سيدنا أحمد باشا حدث كل هذا. (لقد كان يحب أن يطلق على نفسه لقب باشا).

بينما كان البرَّاح يعلن للأهالي المذعورين تنصيب سيدهم الجديد؛ كان المدفع يدوي من فوق الأسوار. وتنقل المغتصب شخصياً إلى المكان الذي عسكرت فيه القوات الجزائرية للاستحواذ على الكنز الذي جلبه الباش آغا من مدينة الجزائر. وبعد نقله لهذا الحمل الثمين؛ دخل إلى قصره وسط دوي المدفعية متبوعاً بحشدٍ من الجنود الذين يريدون، هم أيضاً، الحصول على حصتهم من النهب. وكُسرت الصناديق، وتبعاً للوعد الذي قطعه لهم؛ تحصل كل واحدٍ على سلطاني من الذهب. ولم يتوقف سخاؤه عند هذا الحد؛ فقد كان يسأل كل عربيٍ يمثل أمامه: ـ ماذا يُقال في المدينة عن مجيئي؟ وتبعاً للجواب غير المتغير للزائر بأن الجميع تغمره السعادة والفرح؛ تتهاطل عليه قِطَعُ المحبوب. وكان كل من يُستقبَل في شأنٍ خاص؛ يخرج محملاً بالهدايا. فللبعض المال، وللبعض الآخر الخيول، ولهذا برنوساً، ولذاك أسلحة: لقد كان يمنح كل شيء.

هذا الإسراف الذي لو استمر كان سيجعله يكسب، ولو شكلياً، مودة جميع تلك النفوس المرتزقة التي كانت تحيط، دون انقطاعٍ، بدرجات عرشه.

ولكن بهذه الوتيرة، أي خزينةٍ عامةٍ يمكنها أن تصمد أمام مثل هذا التبذير؟! فالأموال التي جمعها سابقه؛ كانت تتناقص يوماً عن يوم بسرعةٍ مخيفة، وويلٌ للمغتصب عندما تحين ساعةٌ لا يجد فيها شيءٌ ليقدمه. غير أن اشتهاء الطموح الذي دفعه للاستيلاء على السلطة؛ لم يكن ليشبع بعد. فرغم الغيوم المتراكمة يوماً بعد يوم فوق رأسه، والتي منعه جنونه الأعمى من رؤيتها؛ تطلّع إلى الارتقاء أكثر، وعزم جدياً على الذهاب إلى مدينة الجزائر ليفرض نفسه باشا على هذه العاصمة. ولكن قبل مغادرته؛ كان من الضروري أن يشكّل المخزن، فعيّن أحمد طوبال في منصب خليفة مكان بن اسماعيل، واستبدل الباش كاتب سي حمو بن نعمون بعباس بن جلول، كما عيّن الشيخ الطاهر الورازي مفتياً للمالكية، ومصطفى بن باش تارزي مفتياً للحنفية. أما القاضيان الجديدان فكانا سي أحمد بن العلمي للمالكية، والشيخ فتح الله للحنفية الذي لم يدم طويلاً في وظيفته؛ حيث أنه بعد أن أسمع المغتصب كلماتٍ قاسيةٍ في حديثٍ دار بينهما؛ نفاه الأخير إلى عنابة، واغتاله في الطريق إليها.

لم تتوقف إجراءات الباي عند هذا الحد. فقبل مغادرة المدينة؛ قام بتعيين الأعضاء الذين سوف يشكلون ديوانه في المستقبل، ووقع اختياره التفضيلي على الأتراك الذين أحسنوا مساعدته في عمليته. فعيّن واحداً يسمى غنجو في منصب باش آغا، كما عيّن خزناجياً وباش شاوشاً، وحتى وكيلاً للحَرَج لدار البحرية. وتلقت المدفعية أمراً بمرافقة الحامية التي أُسندَت قيادتها لتركي.

جاء يوم الانطلاق، ولكن قبل المغادرة كان يجب سفك الدم. وكان آغا الدايرة والباش حمّار، بن القندوسي، الضحيتين المعينتين؛ فقطع رأسيهما وغادر الموكب.

في اليوم الأول، توقف الركب في بير البقيرات؛ وهو المكان الذي من المفترض أن تجتمع فيه دايرات واد بوصلاح، والمراوية، والزناتي بالإضافة الى مجندي التلاغمة، وعبد النور والزمول؛ للانضمام لحامية الحملة. فنُصبت الخيام، واتخذ كل واحدٍ مكانه للراحة في هدوء.

وعلى صعيدٍ آخر؛ فإن خليفة علي باي كان قد فرَّ يوم مقتل الأخير، وتمكن من الوصول سالماً إلى مدينة الجزائر؛ حيث أعلم الباشا بما حدث، دون أن ينسى إخباره بأن جزءاً كبيراً من الميليشيا أصبح وفياً لأحمد شاوش. وبسماعه هذه الأخبار؛ خشي الباشا، وكانت خشيته في محلها، أن يزحف المغتصب على مدينة الجزائر؛ فأسرع بتسليح باب عزون، وأمر باي التيطري بالتوجه إلى أبواب الحديد لغلق الطريق أمام المتمردين. وفي الوقت ذاته؛ بعث إلى قسنطينة رسُلاً على وجه السرعة يحملون كتباً لآغا النوبة، وشيخ البلاد، والعلماء، والميليشيا وأهم الدايرات. وصل الرُسُل إلى معسكر البقيرات خلال الليل، وسلَّموا الكُتب وسط أكبر قدرٍ ممكنٍ من السرية. وفيما يلي محتوى الرسالة المكتوبة للآغا شعبان بن المعطي باختصار:

«لقد بَلَغنا بأن أحمد شاوش قد سعى إلى الخروج عن الطاعة، واستعمل اسمنا لتنصيب نفسه باياً؛ فلا تصدقوه. إنه مغتصبٌ ادَّعى السلطة ليس إلا لزرع الفتنة في الأرض، ونشر الموت والخراب.

وعليه، فهذه أوامرنا، وعليكم تنفيذها بصرامة. فعلى كل واحدٍ منكم النهوض والتسلح للمعركة. طاردوا، في كل مكانٍ ودون هوادة، هذا الكذاب ومواليه؛ دعاة الفوضى والظلم. لا ترحموهم، وليحل عليهم الموت سريعاً، حتى يعم العدل.

إن من ننصبه بسلطتنا؛ والذي ستعترفون به باياً؛ هو ابننا المحترم أحمد طوبال حماه الله!».

وإلى جنود الأوجاق، أرسل التعليمة نفسها، حيث قال لهم: «إني أسامحكم على تمردكم، لأني أعلم بأنكم بهذا الفعل لم تقوموا إلا بالاستجابة للتحريضات الكاذبة لماكرٍ لم يتورع عن استعمالكم ليلطخكم بدم الآغا والباي علي. فماذا تنتظرون من رجلٍ كهذا؟ إنه فاقدٌ للصواب وخبيث. فأسرعوا بالتخلي عن هذا العار، وابتعدوا عنه، وسلموه للعرب.

ولكن إن أصررتم على اتباع حزب هذا المتمرد؛ فسأترككم دون رحمةٍ لانتقام أعدائكم. وسوف لن تسلموا، مثله، من ضرباتهم؛ فسيفترسونكم دفعةً واحدة. فاقطعوا إذاً علاقتكم به مادام الوقت في صالحكم؛ فهذا أضمن لكم».

قُرئت الرسالة في المعسكر كله، فزرعت الريبة حتى في نفوس الأكثر حزماً. لقد أدركوا فداحة خطئهم، بالإضافة إلى خشيتهم من التهديدات، ودون شك، توقهم للتغيير أيضاً. كما أن الرسائل الأخرى، المسلَّمة في الوقت المناسب، قد فعلت مفعولها. وعليه فقد حُذِّر الجميع، ماعدا الباي بثقته الغبية ومخططاته الحمقاء؛ كان يجهل ما يجري.

مع طلوع النهار؛ بُدئ في قرع الطبول ونفخ المزامير، وشُرع في المسير. وفي هذا الوقت امتلأت المرتفعات المجاورة بفرسان القُوم والدواير؛ الذين جاءوا حاملين راياتهم لتحية الباي والانضمام إلى الحامية، وبدأوا بتنفيذ استعراضٍ للفروسية وهُم مدججون بأسلحتهم. ثم نطق البارود، ووسط الدخان الكثيف والغبار؛ انطلقت أكثر من رصاصةٍ لتخرق سمع أحد.

- ماذا يعني هذا النوع من الاستعراض؟ خاطب الباي الآغا متسائلاً.

- إنه تقليدٌ قديمٌ يقضي بأنه لدى مرور الباي بهذا الموقع يعبِّر القُوم عن فرحتهم بإطلاق البارود، رد الآغا مجيباً.

لم تكن الإجابة مقنعةً بالنسبة للباي. وعلى أية حال، ولما كان حريصاً، منذ بداية الحملة، على ألاَّ يُظهر خشيته؛ لم يطلب تفسيراتٍ أخرى، وواصل طريقه.

في هذه الأثناء كان صدامٌ وشيكٌ يبعث على الخشية. فالعرب الذين لم يكونوا يعلمون بأن الميليشيا التركية قد صارت تتفق معهم في الرأي؛ بادروا بالتقدم نحوها عازمين على قتالها، ولكن الأتراك تفطنوا لهذه الحركة وأسرعوا بإرسال وسيط صلح يطلب منهم العدول عن فكرة القتال، وبأنهم تلقوا هم أيضاً تعليماتٍ من مدينة الجزائر، وقد قرروا التقيُّد بها. وقال على لسانهم: «لقد أقسمنا على طاعة السلطان؛ فإننا مثلكم خدم الأوجاق. قضيتنا واحدة، وعلينا أن نحمل رايةً واحدة. سيروا من جهةٍ، ونسير من الجهة الأخرى، وخلف الكراهية الظاهرة سنُخفي صداقةً صريحةً وسرية».

بسماع هذا؛ غيَّر العرب مناورتهم، وتراجعوا إلى مؤخرة الحامية. أما الباي الذي لم يتفطن لهذه الحركة؛ فقد بدأ يساوره شكٌّ حول المؤامرة التي

تُحاك ضده رغم ثقته المفرطة، وطرح استفساراتٍ لدى أتباعه.

ولإبعاد أي فكرة خيانةٍ من جانبهم عن ذهنه؛ أجابه هؤلاء بأن تصرف رجال القُوم في هذه الظروف يبدو غريباً، ويُحتمل حتى أن لديهم نوايا عدائية، وفي حالة مواجهتهم يخشون أن يهزموهم بكثرة عددهم. واقترحوا عليه، إن رأى ذلك مناسباً، أن يعودوا معه إلى المدينة، وفيها يتخذ الإجراءات التي يراها ناجعةً كي يمنع تكرار مثل تلك التجاوزات.

استساغ الباي هذا الرأي، فأعطى أمراً للجيش بالانسحاب إلى قسنطينة. وتمَّ ما يشبه التراجع هذا دون إشكالٍ، وتابع العرب حركة الحامية عن بُعدٍ قبل أن يتوقفوا معها على ضفاف وادي الرمال، في المكان المخصص لمحلة الشتاء. وسرعان ما تمَّ نصب المعسكر، ودون شك؛ لم يتجرأ أحمد أبداً على الدخول إلى المدينة التي أُغلقت أبوابها بعد مغادرته، فلجأ إلى خيمة الملجأ[1].

بينما شُرع في تنظيم المعسكر؛ توجه الآغا مصحوباً ببعض رجال القُوم سرياً إلى قسنطينة لتحية الباي الجديد أحمد طوبال، وإخباره بالوضعية الحرجة التي يوجد بها المغتصِب.

كان أحمد طوبال يريد أن يتخلص من الأخير بسرعة، فأرسل إليه شوّاشاً مكلفين بالقبض عليه. وكدليلٍ رسميٍ على مهمتهم؛ أعطاهم فرمان التعيين الذي تلقاه من مدينة الجزائر؛ لإظهاره حين الضرورة. ولم يكن هذا الاحتياط غير ذي جدوى، فنظراً للوضع الخاص الذي أوجده أحمد شاوش لنفسه؛ عارض الجنود في بداية الأمر فكرة توقيفه في ملجئه المنيع الذي اختاره. وبعد محادثاتٍ طويلةٍ، وبتلقي أوامر الباشا الصريحة؛ تم التخلي عن هذا التقليد، وسُمح للمبعوثين بالدخول إلى خيمة الملجأ (خيمة الجراح)،

1. كان في عهد الأتراك تقليدٌ غريبٌ نوعاً ما. حيث أنه كلما تنقلت الحامية وتوقفت للراحة، يتم نصب خيمتين متقابلتين؛ تسمى إحداهما خيمة الجِراح؛ وهي خيمة الملجأ التي إذا لجأ إليها من كان محظوظاً فإنه ينجو بحياته ولا يمكن المساس به. وتسمى الثانية خيمة الباشودة؛ وهي خيمة الهلاك، وسيِّء الحظ الذي يدخلها يلقى حتفه لتوه. وبما أنه لا توجد علامةٌ خاصة تميز الخيمتين عن بعضهما؛ فإنه من السهل الخلط بينهما، وبالتالي كان الملجأ يعتمد على الحظ. فكثيراً ما فَقَدَ سيئو الحظ حياتهم باعتقادهم أنهم يهربون من الموت! إن الطالع فقط هو الذي يقود الناس في هذا الاختيار.

ليتم جر هذا البائس، الذي ظن نفسه في مأمن، خارج ملجئه وقُطعت رقبته فوراً. حُملت رأسه إلى قسنطينة، ليُطاف بها في شوارعها وسط ارتياح الأهالي.

وبهذا انتهى هذا المغامر الذي دام حكمه خمسة عشر يوماً؛ ميَّزها التبديد الكامل للخزينة العامة، وسلسلةٍ من التصرفات المعتوهة. ودُفن في مقبرة الوزناجي على المنحدر الجنوب الغربي لكدية عتي، وصار الأهالي يلقبونه في حكاياتهم بـ «باي راسو»، و«باي ذراعو»، و«باي روحو» *.

لم يُخفِ أحمد باشا سعادته بموت المتمرد، فوزَّع جوائز عديدة؛ نذكر من بينها مبلغ مئة قرشٍ منحها لأحد الأتراك الذي تنبأ فقط بأن هذه القضية ستنتهي نهايةً سعيدة. وفي الوقت نفسه؛ لم يكن ليغفل عن المجاملة غير المقبولة التي تعامل بها القسنطينيون إزاء تعسف المغتصِب، فعاتبهم بشدة، ليس على مساعدته في تصرفاته، بل على الأقل على عدم فِعْل أي شيءٍ لمنع نجاحها. حيث قال لهم في رسالته: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [1].

وأنهى رسالته بتسليط غرامةٍ عليهم قدرها مئتي ألف سلطاني، بالإضافة إلى أربعمئة ألف سلطاني التي يجب عليهم دفعها كقيمةٍ للدنوش.

هذا اللوم والعتاب اللذان أحس كل واحدٍ أنهما مستحقين؛ وخاصةً العقوبة التي صحبتهما، أدخلوا الأهالي في حالةٍ من الحزن والخوف. وبتوسط شيخ البلاد، سيدي محمد بن لفقون، كتبوا رسالة اعتذارٍ وتوبةٍ للباشا. وبتأثره بتوسلاتهم؛ كظم أحمد غيظه، فرفع عنهم الغرامة، وصفح عنهم.

---

*. «راسو» بمعنى رأسه، و«ذراعو» بمعنى ذراعه، و«روحو» بمعنى روحه أو نفسه؛ وهي ألفاظ عامية جزائرية. وقد أطلقت عليه هذه الألقاب تعبيراً عن أنانيته وجشعه. (المترجم)

1. سورة النحل، الآية 112.

أحمد طوبال

1223هـ، أكتوبر 1808م

يحمل خاتمه: أحمد باي بن علي، ١٢٢٣

كان أحمد طوبال تركي المولد، وكان يقيم في قسنطينة منذ فترةٍ طويلةٍ قبل أن يضع فيه الباشا ثقته ويعيِّنه على رأس الإقليم. لقد كانت الظروف حينذاك حرجة؛ فخمسة عشر يوماً من حكمٍ تميَّز بالفساد وتبديد الأموال أحدثا عجزاً كبيراً في المالية، كما أن المخزن كان سيء التشكيل، وحصل إفلاتٌ في الانضباط العسكري، وأخيراً فإن أفكاراً بالتمرد كانت تتبلور سراً داخل القبائل. واستطاع الباي الجديد بذكائه ونشاطه وصرامته أن يصلح كل ذلك.

رغم أن الميليشيا وضعت بنفسها تحت حد السيف رقبة المغتصب الذي كان السبب الأول لكل هذه الفوضى؛ فإنها لم تكن أقل رغبةً في الاستقلالية، وكان يُخشى إذا لم تُتخذ إجراءاتٌ صارمةٌ لقمع هذه الميول للثورة؛ فإنه سيبلغ مستوياتٍ جديدة. ورغم العفو الشامل؛ فإن الباشا أعطى أمراً سرياً لأحمد طوبال، وهو أمرٌ لم يكن غريباً عنه كما نعتقد، بقتل عددٍ من الجنود المتبقين في الإقليم؛ الذين كانوا أبرز مدبري المؤامرة. وتم تنفيذ الأمر بسرعة، فكان السبب في موت الباشا أحمد[1]؛ الذي لم تغفر له الميليشيا الجزائرية قتل إخوانها في السلاح، ولكن يجب الاعتراف بأنه كان يمارس أحسن التأثير على مصير الإقليم.

بعدما أن ارتاح في هذا الجانب؛ اهتم أحمد طوبال بإعادة تنظيم المخزن، وذلك باستبدال الموظفين الذين كانوا أكثر اعتدالاً خلال الأحداث الأخيرة.

---

1. بتسرب خبر هذا الأمر؛ هرع خمسمئة عنصر من ميليشيا مدينة الجزائر إلى القصر آمرين النوبة بفتح الأبواب، وانتشروا مطلقين في جميع الطوابق صيحاتٍ تنذر بالموت. اختبأ الداي في دار زوجته التي كانت ملحقةً للقصر، وأراد الهروب من السطح. ولكن أحد الجنود لمحه وأطلق عليه طلقةً أصابته في صدره وأسقطته. ثم قُطع رأسه، وألقي بجسده في الشارع. حدث هذا في 7 نوفمبر 1808. وخلفه علي خوجة الغازول، أو الغسال، نسبةً لمهنته القديمة.

كما وجّه أنظاره أيضاً إلى الجانب المالي، فبفضل إدارةٍ حكيمةٍ ومراقبةٍ فعّالةٍ طُبِّقت على جميع الموظفين؛ امتلأت صناديق الخزينة بسرعة. وفي 17 مايو 1810م (1225هـ) وصل خليفته إلى مدينة الجزائر محمَّلاً بالدنوش والكثير من الهدايا لكافة أعضاء الديوان.

كان الخلاف الذي أدى إلى حمل السلاح بين بلاطي الجزائر وتونس ما يزال قائماً، وسلسلة الانتصارات والهزائم التي تداولها الخصمان؛ لم تحقق لأي واحدٍ منهما الهيمنة النهائية. ومع هذا فإن أياً منهما لم يكن مهيئاً لحمل السلاح من جديد. وفُتحت مفاوضاتٌ بهذا الشأن؛ حيث أرسل باي تونس يطلب السلام، واقترح دفع المستحقات كما في السابق. أما أحمد باشا الذي كانت له تطلعاتٌ أكبر؛ فقد رضخ للظروف، ووافق على ما طُلب منه؛ مرجئاً أية حملةٍ إلى وقتٍ لاحق، ولكن الموت حال دون تحقيقه لهذا المشروع.

بهذا هدأت، لبعض الوقت، حرب التنافس هذه؛ والتي بحلول فرنسا محل أحد الطرفين سوف تضع حداً نهائياً لها يوماً ما.

استمر أحمد طوبال في إدارة الإقليم بكثيرٍ من الحكمة، وبعد عامين ونصف العام من الحكم جاء من مدينة الجزائر أمرٌ بإعدامه. لقد زوَّد، قبل فترةٍ، اليهودي داوود بكري بثلاث شحناتٍ من القمح، والحاج علي، خليفة علي خوجة، كان من الدايات الأكثر حذراً والأكثر دمويةً الذين عرفتهم الإيالة. فبعد قطعه لرأس بكري هذا؛ حكم بنفس المصير على جميع من كانت لهم علاقاتٌ بهذا اليهودي. وأحمد طوبال، ورغم الخدمات التي قدمها، لم ينجُ من هذه الإدانة الظالمة؛ فتمَّ خنقه، وخلفه نعمان باي.

نعمان باي

1226هـ، فبراير 1811م

يحمل خاتمه: محمد نعمان باي بن علي، ١٢٢٦

محمد نعمان، الخليفة السابق لعبد الله باي، وصهر زرڤ عينو، استمر في السياسة الصارمة والعادلة التي اتبعها سابقه. واستطاع، مثله، أن يحافظ على هدوء الإقليم. استغل الهدوء الداخلي لدفع الديوان إلى المطالبة بالحقوق القديمة على إيالة تونس، ولم تتأخر العداءات المعلقة مؤقتاً بين البلدين في الظهور مجدداً، وكان حدثٌ غير منتظرٍ سبباً في تسريع وقوعها.

الرايس حميدو[1] الذي يُعتبر من البحارة المشهورين بشجاعته ومهارته في أعمال القرصنة؛ كان قد دخل إلى ميناء الجزائر على رأس كتيبته، وقد زادت بفرقاطةٍ ذات ثمانيةٍ وثلاثين مدفعاً أخذها من التونسيين. ولقد أثارت هذه العملية حماس الجزائريين، وسارع الباشا بإعلان الحرب على تونس بعد أن قام بإشعار جميع القوى الصديقة. في هذه الأثناء؛ وصل «قابجي باشي»* فجأةً من القسطنطينية يحمل أمراً بعدم إهمال أي شيءٍ لإعادة الانسجام بين الإيالتين. وأضاف القبجي بأنه إذا لم تتم الاستجابة لإرادة الصدر الأعظم؛ فإنه سيعتبر الجزائريين كمتمردين، ويغلق لهم موانئ الشرق.

تحت هذا التهديد؛ قرر الحاج علي إرسال شخصٍ من الديوان إلى تونس ليعرض على حمودة باشا مهلته. وطلب منه الاستمرار في دفع الضريبة السابقة، وتحطيم قلعة الكاف، كما اشترط عليه أيضاً ألا تُرفع راية تونس إلا إلى نصف السارية كما في السابق. لكن الباي لم يوافق على هذه الشروط

1. كان حميدو من أصلٍ موركي، وكان يحمل لقب أميرال. تمت مهاجمته في 17 يونيو 1815 من طرف سفينةٍ أمريكية كان يقودها «الكومودور ديكاتور» (Commodore Décature)، وتلقى قذيفةً أردته قتيلاً قبالة «رأس غايت» (Gate)، وتم الاستيلاء على الفرقاطة ذات الستة والأربعين مدفعاً بكل طاقمها. لقد سبب مقتل هذا الرايس حزناً عاماً في مدينة الجزائر. أنظر سيرة هذا القرصان لـ «دوفولكس».

*. قابجي باشي: رئيس البوابين في القصر السلطاني، وكان يعد منصباً قيماً من مناصب القصر الهمايوني. (المترجم)

المهينة، وانصرف القابجي دون أن يحصل على شيء.

واستمرت الحرب. ففي شهر يوليو 1813؛ خرج الرايس حميدو على رأس أسطولٍ عظيمٍ لمحاصرة تونس من البحر، بينما استعدت القوات البرية للدخول في الحملة. ومن جانبه، استغل حمودة باشا تمرد باي وهران، وقام بهجمةٍ على إقليم قسنطينة، في حين أن نعمان باي كان قد بدأ الزحف على رأس جيشه قبل أن يتنازل عن القيادة لعُمر، آغا مدينة الجزائر، الذي لم يتأخر في الوصول مصحوباً بقواته.

لم تكن العمليات الأولى موفقةً، فكتب القائد الجزائري للداي يخبره بوجود الكثير من الفرنسيين بين التونسيين، وقد ساعدوهم بالسلاح والرجال. وبعد أن حاول إيجاد اتفاقٍ مع الباشا الذي رأى بأن اقتراحاته غير ممكنة؛ فضل الآغا مواصلة الحرب وأراد مهاجمة الكاف. لقد تم نصب معسكرٍ مؤلفٍ من مئة خيمةٍ أمام الحصن للدفاع عنه، وهُزم الجزائريون وفقدوا الكثير من الرجال. وقد طلب أفراد الجيش وقادتهم الذين تثبطت عزيمتهم؛ الرجوع إلى مدينة الجزائر. وسار الآغا نحو العاصمة، ولكنه باقتناعه بأن الهزيمة كانت بسبب خيانة بعض الشيوخ العرب؛ قام بقتلِ عددٍ منهم مع 260 قبائلي أو عربي آخرين كانوا في انتظار مروره، وكان مُرتاباً منهم. وانتهت بذلك هذه الحملة التي لم تُشرِّف القوات الجزائرية.

في العام الموالي، وبتاريخ 15 سبتمبر 1814، توفي حمودة باشا تاركاً العرش لأخيه عصمان باي؛ والذي بعد ثلاثة أشهرٍ من الحكم أُزيح من طرف ابن عمه محمود باشا. هذا الأخير الراغب في إحلال السلام مع الجزائر؛ قام بإرسال مندوبين لمناقشة الموضوع، ولكن الداي اشترط تهديم الكاف، وطلب مرةً أخرى بألا تُرفع رايات تونس أعلى من نصف السارية. لقد كان الباشا الجديد يريد فعلاً القبول بدفع ضريبةٍ مالية، ولكنه رفض كسابقه هذه الشروط المهينة. واستمرت الحرب ولو بشكلٍ ضعيف.

في 1816 وصل إلى مدينة الجزائر قابجي الصدر الأعظم قادماً من تونس، في مهمةٍ لإحلال السلام بين الإيالتين، ونجح فيها. فقد تخلى الداي عُمر عن

نواياه بتهديم قلعة الكاف، ومن جانبه؛ قبِل محمود باشا بدفع ضريبة زيتٍ سنويةٍ كما في السابق[1].

لقد استبقنا الأحداث ببعض السنوات، وذلك لعرض الحروب التي كانت تدور رحاها بين الجزائر وتونس بشكلٍ عام؛ وهي الحروب التي كان يتدخل فيها دوماً بايات قسنطينة بأي شكلٍ من الأشكال. ولنعد إلى نعمان باي.

كدليلٍ على ازدهار حكمه؛ قام نعمان في 15 شوال 1227هـ (16 مايو 1812م) بإرسال خليفته إلى الباشا محملاً بمجموعةٍ من الهدايا كانت كالآتي: 200 قطعة محبوب، 125 بوجو، برنوسان، 2 حِيَّاك من بسكرة، حمولتا تمر، حمولتا كسكس، قفتان من الزيتون، 15 خروف، بغلة، قارورة عطر ودزينة شاشيات.

ولقد عبَّر له الباشا عن امتنانه في رسالة شكرٍ طمأنه فيها أيضاً عن تطلعاته الطيبة تجاهه. واعتقد نعمان بأنه صار مدعماً في سلطته، ولكن كان له داخل بلاط الجزائر عدوٌّ قويٌّ مستعدٌّ دوماً لإزعاجه؛ هو عُمر آغا.

نذكر أنه في إحدى الحملات السابقة ضد تونس توجَّب على نعمان التنازل عن قيادة الجيش لصالح عُمر آغا؛ باش آغا الجزائر. ومن هنا وُلد بين الشخصيتين تنافسٌ سرعان ما تحوَّل إلى عداءٍ صريح. وكان تركيٌّ ينحدر من سميرن، ويقيم منذ فترةٍ طويلةٍ في قسنطينة؛ استغل استعدادات القائدين لصالح طموحه الشخصي، وتمكن بالوشاية بنعمان باي من استهواء رضا الآغا؛ الذي وعده بأنه سوف لن يتجاهل أي شيءٍ لدى الباشا من أجل تسميته باياً مكان غريمه. لكن نعمان كان يدير الإقليم بامتياز، ولم يكن من الوارد أبداً أن يوافق الداي على تنحيته دون أسبابٍ واضحة. الوشاية والمكر فقط من شأنهما تسريع هذه اللحظة؛ فلم يُدخر أيٌّ منهما. وتوالت الشكاوى، وتتالت الكذبات والتقارير المزيفة بشكلٍ مستمر حتى انتهى الحاج علي المتعب من تكرار على مسامعه كل يومٍ الاحتجاجات نفسها؛ بإصدار أمرٍ

1. لمزيد من التفاصيل حول هذا التنافس الطويل بين إيالتي الجزائر وتونس، انظر Annales tunisiennes, par A. Rousseau

بتوقيف نعمان وتنصيب مكانه المفضل لدى عُمر آغا، وكان هذا المفضل هو احمد تشاكر.

بالرغم من كون الأمر صادراً عن الباشا؛ فإن تطبيقه يتطلب التصرف بكثير من الحذر، لأنه كان يُخشى إن عُلم بسحب الثقة من الباي أن ينتفض الأهالي من أجله. فتم تصوُّر هذه الحيلة.

في بداية العام 1229هـ (يناير 1814م) اندلعت ثورةٌ عند أهالي بوسعادة وأولاد ماضي، الذين بعد أن أغاروا على أولاد سلامة والعذوارة؛ هزموا جلأل، باي المدية، وهددوا بغزو إقليمه. فكتب الباشا لنعمان باي يُلزمه بالتنقل فوراً إلى مكان التمرد مهما كان عدد القوات التي بحوزته؛ واعداً إياه بأن تعزيزاتٍ يقودها الباش آغا لن تتأخر في الوصول إليه من مدينة الجزائر.

خرج نعمان، المستعد دوماً لأوامر مولاه، بسرعة من قسنطينة على رأس القوات المتوفرة لديه، وتوجَّه يحث الخطى نحو المكان المتفق عليه. وفي الطريق تلقى عدة رسائل من الباش آغا يخبره فيها بأنه انطلق للالتحاق به. وعندما لم يبق يفصل بينهما أكثر من مرحلةٍ واحدة؛ أرسل نعمان الباش سيار، الهادف بن علي، الذي كان والده آغا الدايرة؛ إلى القائد الجزائري لتحيته وتسليمه بعض الهدايا. وفي منتصف الطريق تمت محاصرة الهادف من طرف عصابةٍ من المتمردين، فقتلوه واستولوا على الهدايا الثمينة التي كانت معه.

انزعج الباي كثيراً لدى سماعه هذا الخبر، ولكنه واصل سيره. وفي اليوم الموالي التقى الجيشان في بوسعادة. وبعد تبادل الطرفين للتحيات وعبارات الصداقة التي كانت تبدو غير محدودة؛ استعد الجميع لمعاقبة المتمردين. وتم تقسيم الجيش إلى قسمين: واحدٌ ضد أولاد ماضي، والآخر يتولى مهاجمة أولاد سيدي إبراهيم؛ القبيلة المرابطية المتواجدة في المكان المسمى الدبس، على بُعد بضع مراحل شمال بوسعادة. ولكن، وبعد يومين من الهجمات غير المجدية على أراضي هذه القبائل، ولأن الفصل كان متقدماً، وكان الباش آغا متلهفاً لتجسيد مقاصده المخادعة؛ تم إعطاء الأمر للقوات بالدخول إلى بوسعادة.

هناك حاصرتها الثلوج والرياح العاتية، وأرغمتها على المكوث لمدة أربعة أيام. ولما تحسن الطقس قليلاً؛ بدأت في السير نحو المسيلة، حيث كان من المفترض الانفصال، ووصلت إلى هناك في المساء. وفي صباح اليوم الموالي، لـمّا همَّ نعمان بالخروج من خيمته؛ تم توقيفه من طرف رجال عُمر آغا الذين أخبروه بأنه سجينهم. لقد فاجأه هذا الكلام أكثر من أي تصرف آخر وجده من عدوه حتى تلك اللحظة، ولكنه لم يكن يتصور أبداً أنه يمكن أن يهدد حياته.

لم يكن لوهمه، إن مازال، ليدوم كثيراً؛ فقَبْل حتى أن يستفسر عما يجري، انقض عليه الشواش وخنقوه بعمامته.

بعد قرابة ثلاث سنواتٍ من الحكم؛ هلك هذا الباي الذي بقيت ذكراه عالقةً في الذاكرة الشعبية. يرقد جثمانه في المسيلة، ولا يحمل قبره أية كتابة عكس ما درج عليه المسلمون عندما يتعلق الأمر بشخصيةٍ مرموقة. أما خليفته، مصطفى خوجة، فقد تم سجنه هو أيضاً، ولكنه كان أوفر حظاً من سيده؛ حيث نجا بحياته، وأخذه الباش آغا إلى مدينة الجزائر، ليصبح لاحقاً آغا فيها.

امحمد تشاكر باي

1229هـ، مارس 1814م

ويحمل خاتمه: محمد باي بن عبد الله، ١٢٢٩

ما إن قضى نعمان باي بالخنقة القاتلة حتى ظهر الفرح على مُحيَّا تشاكر بعد أن أخفاه نفاقاً. فباعتباره عنصراً من الحامية برتبة ضابط؛ كان قد تابع بعين الجشع كل مجريات المأساة المحزنة التي سوف تفضي قريباً إلى منحه القيادة. وفي الأخير تم إرضاء طموحه؛ لتصير السلطة في يديه سلاحاً رهيباً يستعمله دون رحمةٍ ودون ندم.

لقد كان حاميه وشريكه عمر آغا عند وعده. فقبل أن ينفصل عن

تشاكر؛ أراد أن يُلبسه قفطان التولية بنفسه، وتمت المراسم بدرجةٍ من الأبهة التي تسمح بها الموارد المحدودة لمدينةٍ صغيرةٍ مثل المسيلة. أما الميليشيا التركية المبتهجة كعادتها بالوافدين الجدد؛ فقد تحملت معظم المصاريف، واستمرت الاحتفالات ثلاثة أيام؛ ليتم الوداع بعدها. توجه الباش آغا مع رجاله إلى مدينة الجزائر، وهرع تشاكر باي مسرعاً ليستلم مقاليد حكم عاصمته الجديدة؛ التي سبق وأن بعث إليها عدة رسلٍ ليخبر سكانها بقدومه القريب. وكتمهيدٍ لحكمٍ تميز كل يومٍ فيه بالظلم والقتل؛ كتب في الوقت نفسه ليوسف الذي كان قايد الدار:

«بمجرد وصول أوامري؛ أوقفوا نائبكم، سي أحمد بن السايح، وأخاه الطيب، قايد عزيب البقر، وأختهما عائشة وجميع أقاربهم؛ باعتبارهم كانوا خدماً لنعمان باي».

بالإضافة إلى هذه الأوامر؛ أصدر تعليماتٍ بمصادرة ممتلكاتهم المنقولة وغير المنقولة، وانتهى بتوصيته بالسهر على حراسة قصر البايات ودار الخليفة السابق مصطفى خوجة.

لم يفاجئ هذا التصرف الجائر الأول الصادر عن تشاكر أي أحد؛ حيث أن خبر تسميته نزل كالصاعقة على الأهالي. لقد كان الجميع يدرك الكراهية التي يكنها للعرب، ولم يكن لأحدٍ أن يتذكر تصريحاته المعلَنة عندما كان قايداً لعامر الشراقة دون أن يرتعش؛ حيث كان يردد: «إذا كنت باياً؛ سأعرف كيف أنتقم من العرب. كنت سأقتل كل يومٍ ما يرضي الله». وبالأحرى كان يقصد أنه سوف يقتل بالقدر الذي يرضيه.

هذه الأقوال وأخرى أكثر تهديداً؛ التي كانت تتردد بين الأفواه، ويُعلَّق عليها بالخوف؛ لم تكن توحي بالثقة في السيد الجديد. وكانت تلك الخشية في محلها أكثر مما كان متوقعاً.

بعد مغادرته المسيلة؛ خيَّم تشاكر باي في «بير سريات» في اليوم الأول، وفي اليوم الثاني في حمام قصر الطير، ومكث في سطيف في اليوم الثالث. ومن هناك واصل سيره، دون توقف، حتى قسنطينة. وكان دخوله وسط موكبٍ رسميٍ كبير، كما حتمت الظروف ذلك، ولكن دون أبهةٍ ولا حماس.

فالنفوس كانت منشغلةً بالمستقبل الغامض الذي يهدد وجودهم أكثر من اهتمامها بفرحةٍ عابرة. ولقد كانت مسيرته من أسفل كدية عتي إلى دار الباي أشبه بموكبٍ جنائزي منها بانتصار؛ حيث خيَّم هدوءٌ حزينٌ حتى على صفوف الحاشية، وكان صوت المدفع المدوي على فتراتٍ يرن في آذان الجميع كصوتٍ للموت؛ لأن كل واحدٍ لاحظ النظرة الخبيثة للمستبد الباحث عن ضحايا مِن حَولِه في انتظار أن يُعيِّنهم بإشارةٍ من أصبعه لفأس الجلاد.

انتقاماً للاستقبال الأكثر من بارد الذي لقيه من الأهالي، وتأكيداً للمخاوف التي أحدثها ذكر اسمه؛ قام في ذلك اليوم نفسه بانتزاع عيني المدعو بن هني؛ الباش سايس، ثم أمر بإلقائه من أعلى القصر ليقع في الفناء، ويتفرق مخه على الأرضية الرخامية ويموت من فوره. وبعد عشرة أيام؛ اختُطف بن عزوز، نائب آغا زواوة، من وسط أسرته (حيث كان له ثمانية أبناءٍ صغار)، وتم شنقه من فوق أسوار باب الواد.

كان هذان الحادثان أبرز ما ميَّز بداية حكم هذا الوحش. ولكن قبل المضي في مواصلة سرد هذه السلسلة من الجرائم والانتهاكات في حق الإنسانية؛ لنحاول التعريف بهذه الشخصية نفسها.

امحمد تشاكر، كما سبق وأن ذكرنا، ينحدر من سميرن. وبعد التحاقه المبكر بالميليشيا التركية؛ استطاع بشجاعته وبعض المواهب الطبيعية أن يكسب بسرعةٍ حظوة قَادَتِه، ما مكَّنه من الوصول في وقتٍ قصيرٍ إلى المراتب الأولى في السُّلَّم العسكري. وبشرائه على حساب مرؤوسيه؛ تقاعد واستقر في قسنطينة؛ حيث تحالف مع إحدى أكبر الأسر فيها. تقلد عدة مناصب في المخزن، وبدأ يطلق العنان لغرائزه الوضيعة والقاسية. مدفوعاً بكرهه الشديد للشعب المهزوم، وجشعه المبالغ فيه؛ لم يستعمل سلطته إلا لنهب ممتلكات محكوميه، ولتغريمهم دون مبرر، وللتنكيل بهم بمئة طريقةٍ مختلفة؛ في انتظار أن يسلبهم حياتهم يوماً ما. وكثيراً ما كان يتفوَّه بالتهديدات الأكثر ترهيباً، وسُمع أكثر من مرةٍ يردد أمنيته الكُفرية إذا ما صار باياً؛ فإنه لن يمر يومٌ دون أن يقطع خمسة عشر أو عشرين رقبة.

إن مظهر هذا الرجل كان يعكس بدقةٍ صورته النفسية. فقد كان بديناً ومربوع القامة، ولوصفه بدقة؛ فإنه اكتسب مع السنوات بدانةً ظاهرة. فكان رأسه ملتصقاً بكتفيه برقبةٍ قصيرةٍ وغليظة، وكان يغطي وجهه شعرٌ طويلٌ وأحرش. كان يتعاطى التبغ بكثرةٍ لدرجة أنه كان يلطخ شواربه الرمادية ولحيته المبيَضَّة؛ مما يضفي عليه مظهراً مقززاً. وتحت حاجبيه السوداوين الغليظين شديدي التقويس، والمنفصلين عن بعضهما بفراغ بسيط؛ تختفي عينان كامدتان محمرتان ينطلق منهما بريقٌ مرعب. لقد كان يوحي تعبير وجهه هذا بقساوةٍ باردةٍ تُترجمها ضحكةٌ استهزائيةٌ وحادة. لكن بعض نوبات الحنق المتدفقة من القلب إلى الرأس؛ كانت تحمّر وجنتيه عديمتي اللون في العادة، فيفقد إنسانيته ويستحيل نمراً أصابته رصاصة صيادٍ متهور فهيَّجته. وينطلق الشرر من عينيه، وينتفخ منخاراه، ويرغو فمه، ولا تنفتح شفتاه الملتصقتان إلا للتفوُّه بعبارات الموت.

لقد كان يهمل هندامه إهمالاً تاماً. فملابسه المخاطة من أقمشةٍ خشنة؛ كانت مضمخةً بالأوساخ، ما يجعله أكثر قبحاً. كان متطيراً لحد المبالغة؛ مثل الأشخاص الذين تقتضي ممارسة القتل لديهم ذلك للتهرب من صيحات ضميرٍ لم يُخمَد تماماً. وبخروجه عن تعاليم الدين؛ كان يحمل معه الكثير من الحروز، كما كانت لا تفارق يده مسبحةٌ ذات حباتٍ كبيرة.

لقد كان يتجاوز الستين من عمره عندما وصل إلى الحكم، ولم تترك الأهواء، التي عبثت بشبابه قبل أن تذهب عنه بمرور السنوات، في قلبه الفاسد؛ سوى الاهتمام بالقتل والشهية الدموية للوحش الضاري.

بعد أن استهل فترة حكمه بالإعدامات؛ باشر في تشكيل مخزنه الجديد. يمكن أن نتصور بأنه في جهازٍ استبدادي تكون المناصب قليلة الرغبة فيها، ولكن لأنه توجد دوماً وفي كل مكانٍ نفوسٌ مستعدةٌ لبيع نفسها، أو لا تعرف بأنها لا تستطيع أن تقاوم إرادة أسيادٍ مثله دون أن تتعرض للعقاب؛ كان من السهل عليه إيجاد أعضاء، وكان أهمهم: عصمان خوجة؛ خليفة، يوسف، المعتوق السابق لصالح باي؛ قايد الدار، الطاهر بن عون؛ آغا الدايرة، معمر

بن لحرش؛ باش سراج، محمد بن الساسي؛ باش كاتب، سليمان بن دالي؛ قايد الزمالة، وأحمد بن زكري؛ باش سيار.

بعد الانتهاء من هذه الإجراءات الإدارية؛ استأنف بحدةٍ جديدةٍ سير الإعدامات المتوقفة في لحظةٍ ما، ولكن استبداده تجاوز هذه المرة المجال الضيق لقسنطينة؛ لينسدل كستارٍ حزينٍ على كامل الإقليم. فقد أحصى معاصروه أكثر من مئة غارةٍ شنّها خلال الأربع سنواتٍ التي استغرقها حكمه، ولكننا لن نذكر إلا أهمها حتى لا نبالغ في سرد التفاصيل التي لا تثير سوى الرعب والاشمئزاز. ورغم هذا، فسنشير إلى الطريقة التي يتعامل بها في حملاته. سوف تكون صفةً أخرى تضاف إلى هذه الشخصية الملطخة بالحثالة والدماء؛ التي تدعى تشاكر.

كان المستبد كلما خرج من أسوار عاصمته مع قتلته لمحاربة رعاياه؛ يُخلِّف في كل محطةٍ رجلاً مبعوجاً كذكرى عن مروره. فباستخدام سكينٍ؛ كان الشاوش يشق، بشكلٍ متقاطع، بطن المسكين الذي تختاره وحشية السيد، وبينما تقع أحشاؤه على الأرض يستمتع الباي بمتابعة هذا المشهد المروّع؛ وهو يَبرُم مسبحةً بين يديه. ثم تترك الضحية التي لا تهلك غالباً إلا بعد بضعة أيامٍ من الآلام القاسية؛ والتي تضاف إليها عذابات الجوع والعطش. وتصبح الجثة طعاماً لأبناء آوى والجوارح إذا لم تفترسها إحدى الوحوش الضارية.

لقد كانت جميع خرجات تشاكر معلَّمَةً بمحطاتٍ دموية، وإذا حدث وأن بقي سيف الجلاد، الشاوش سليمان البسكري، في غمده يوماً واحداً؛ يقول له:

ـ يا سليمان، ألم يُفطِر سكينك اليوم؟ ثم يلتفت إلى شاوشه الأول:

ـ ويطغانك أيضاً لم يُفطر يا إسماعيل؟

فيجيبان: ـ أنت تعرف ذلك جيداً يا سلطان.

ـ أجل، أعرف. وأنا سلطانكما وأبوكما، لن أترك هذا النهار يمر دون أن أُطعِم أداتيكما الخاصتين بالموت، وسيكون اللحم العربي طعامهما.

ويجيبان مع بعضهما: ـ حفظك الله!

إن القلم، في حقيقة الأمر، يأبى أن يخط هذه الفظاعات المرتكبة ببرودةٍ دون أي مبررٍ سوى التلذذ بقطع الرقاب لممارسة السيادة. ذلك التلذذ الذي كان قاعدةً عامةً في تلك الفترة، ويمكن القول أنه صار حالة نظام؛ لأنه لا يجب تجاهل أن الأتراك بحفنةٍ من الجنود (ستة عشر أو ثمانية عشر رجل على أكثر تقدير) استطاعوا، لأكثر من ثلاثمئة سنةٍ، السيطرة على الأهالي، الذين ضاقوا ذرعاً من استعباد الأجنبي، ليس إلا بالترهيب الذي يوحي به السيف المسلط دوماً عليهم. صحيحٌ أن الحكام الكثيرين الذين تعاقبوا على مدينة الجزائر وفي الأقاليم بشكلٍ سريع لدرجة أن التاريخ بالكاد سجل أسماءهم؛ لم يستعملوا جميعهم القسوة، مثلما فعل تشاكر لدرجة البحث عن متعتهم في أحشاء ضحاياهم، ولكن يجب أن نعترف بأن جميعهم، من الباشا وحتى البايات، اعتبروا القمع والاستبداد الأساس الأضمن، وتقريباً الأوحد، لسلطتهم الحكومية.

الحملة الأولى التي شنها تشاكر في الإقليم كانت ضد أولاد بورنان وأولاد مقران سادة مجانة. حيث انطلق من قسنطينة مع محلة الشتاء، وخيَّم في اليوم الأول في بير البقيرات على طريق سطيف. وفي صباح اليوم الموالي بَقَر بطن رجل، وواصل سيره. وفي المساء توقف في ذراع الطبال؛ حيث مُزِقت ضحيةٌ أخرى، وتُركت مثل الأولى. وفي اليوم الثالث، نصب خيامه في قارب على ضفاف النهر الذي يحمل الاسم نفسه، وأخذ رجلين من أولاد عبد النور؛ فشق بطن أحدهما، وضرب عنق الآخر. وفي المعسكر لقي اثنان من أولاد سعيد بن سلامة المصير نفسه. حتى تلك اللحظة لم تَطَل ضراوته سوى الأبرياء، وفي سطيف طالت من كان يستحقها. لقد كان المدعو لخضر بن سعدون من أولاد نابت، وهو لصٌ وقاطع طرق خطير، حيث بُقرت بطنه؛ فكان العقاب هذه المرة عادلاً.

من سطيف انتقل الباي إلى تاغروت؛ حيث قضى يومين، وفيها ربط علاقةً مع أولاد مقران الذين كان يخطط لخيانةٍ ضدهم. ولاستدراجهم إلى الفخ؛ كتب لهم يدعوهم إلى مُخيَّمه لمناقشة بعض القضايا الإدارية المتعلقة

بالبلاد. ودون تحرز؛ قَبِل هؤلاء الدعوة، وأرسلوا اثني عشر من الذواودة مصحوبين بجميع خدمهم. وما إن ترجلوا لتحية الباي؛ حتى صدر الأمر بمحاصرتهم. ثم تم سجنهم قبل أن تُقطع رؤوسهم أمام خيمة تشاكر. كان واحدٌ فقط من أولاد مقران محظوظاً؛ حيث ركب حصاناً وفرَّ من المجزرة، فيما أُرسلت رؤوس إخوانه إلى قسنطينة؛ حيث طِيف بها على الحراب في الشوارع، بينما كان البراح يتقدم الموكب الدموي مُطلعاً العامة، المتعطشة دوماً لمثل هذه العروض، على قصة هذه التذكارات المرعبة. وبعد إرضاء الفضول العام؛ تم تثبيتها على الأسوار لتأكل منها الطيور الجارحة.

وعلى إثر هذا الكمين الذي كان الجشع الحافز الوحيد له؛ ركب الباي حصانه وانطلق لنهب دواوير الضحايا، ولكن الإنذار كان قد أُطلق في القبائل لدى وصوله؛ فقرر كل واحدٍ الانتقام للخيانة ولمقتل أبٍ أو أخٍ، والدفاع ببسالةٍ عن حياته. لقد استُقبل جنود المستبد بطلقاتٍ ناريةٍ، وبينما كان الرجال يجدون صعوبةً في الذود عن أرضهم؛ تمكنت النساء والأطفال من الهروب إلى الجبال ومعهم ماشيتهم وخيامهم دون أن يتعرضوا لأية خسائر.

هكذا انتهت الحملة على أولاد مقران؛ التي أشبع فيها الباي شغفه الدموي دون أن يجد ما يرضي جشعه. ورجع إلى قسنطينة خالي الوفاض عازماً على البحث عن هدفٍ آخر.

لا يمكن أن نتتبع جميع خرجاته لتجنيب القارئ تفاصيل الكثير من الفظاعات. للأسف لم يكن حكم هذا الرجل سوى بقعة دم كبيرة؛ فحيثما وَلَّيْنا نَظَرَنا لا نجد حولنا غير الخيانة والقتل والنهب. ولقد وجد في انتقاماته التعسفية والحقودة عوناً من طرف القتلة المحيطين به، وحتى داخل أسرته وَجَدَ الدعم المستمر لضرواته. فقد اقتدى به ابنه؛ حيث أن التاريخ المنصف يحمل العار نفسه لذكرى كليهما. فلنتعرَّف على هذا الابن.

عُيِّن محمود بن تشاكر قايداً للعواسي من طرف والده؛ وهو المنصب الأهم في قبيلة الحراكتة الكبيرة، رغم سنه الصغيرة التي كان من المفروض أن

تبقيه بعيداً عن السلطة. وبما أنه تقلد القيادة وهو ما يزال فتياً (كان عمره ثمانية عشر عاماً)؛ فإنه لم يستغل سلطته إلا لإخماد فوران أهوائه. ولعدم اكتراثه بمخالفة تعاليم النبي؛ كان يدمن الخمر، ولما كان السكر يتمكن من عقله لم يكن يقدِّس أية حرمة؛ لا الأملاك، ولا الأشخاص، ولا الشرف، وكانت حياة محكوميه تخضع لسلطة نزواته وغضبه. ولتنفيذ رغباته الاستبدادية؛ كانت تحيط به مجموعةٌ من الأتراك المتعودين على الرذيلة، فكانوا يشاركونه مسرّاته وفسوقه. ومن بين تلك المجموعة برز خادمه العقون؛ وهو من أصلٍ متواضع، وينحدر من قبيلة السفنية؛ الذي صار لاحقاً باش خزناجي.

هكذا كان ابن تشاكر. وبهذه اللمحة القصيرة يمكننا أن نلاحظ أنه أهلٌ لينافس أباه في عدة مجالات، وإذا لم تكن غريزة القسوة تظهر جلياً في شخصيته بشكلٍ محسوس؛ فلأنه كان مهتماً في تلك الفترة بإشباع أهواءٍ أخرى، وكأس الملذاتِ، بالنسبة إليه، لم تكن قد نفدت بعد؛ فالخمر والنساء لم يتركوا له وقتاً طويلاً للراحة. ومن جهةٍ أخرى؛ فإن القسوة الباردة تُكتسب مع تقدم العمر، وبقية هذه الرواية ستبيِّن لنا بأنه على هذا الصعيد أيضاً لم يكن أقل من أبيه. ولكن، لنعد إلى هذا الأخير.

في شهر مايو من عام 1816، قام عمر باشا، الحاكم حينئذٍ في مدينة الجزائر، بشتم اللورد «إيكسماوث» (Lord Exmouth) ممثل لإنجلترا، واعتقد أنه لا مناص من الحرب معها؛ فكلف باي قسنطينة بتوقيف الإنجليز المتواجدين في مؤسسات عنابة. وتشاكر، كما نعتقد جيداً، سارع بتنفيذ الأوامر التي تسمح له بممارسة قسوته على الأجانب. وحسب بعض الوثائق؛ فقد قُتل مئة عامل مرجان إنجليزي، وجُرح مثلهم تقريباً، وأُسر ثمانمئة، ونُهبت المؤسسات.

أدى هذا الاعتداء المخالف لحقوق الإنسان إلى قصف مدينة الجزائر من طرف اللورد إيكسماوث نفسه، وإننا نعرف كم عانت المدينة من الخسائر التي أحدثتها مدافع الأسطول الإنجليزي.

بعدما تعب من الإغارة؛ انزوى تشاكر باي في قصره. ولأنه يجب أن يجد ما يغذي به نفسه القلقة والعنيفة؛ فكر بأنه لا يمكن شغل وقت فراغه إلا

يبسط يده الفتاكة على أعضاء المخزن.

لقد كانت الضحية الأولى التي اختارها ممثلةً في شخص عمار بن الحملاوي؛ قايد جابري الغرابة. فقال له يوماً:

- قايد عمار، إن سنك المتقدمة وخدماتك المتعددة تجعلك غالياً في أعيننا. إنك اليوم أقدم خادم للمخزن. لماذا لا تأتي، مع زملائك الأقل سناً، تقضي السهرات عندنا؟ فهكذا يمكن لكل واحدٍ أن يستفيد من نصائحك وخبرتك.

اعتذر الشيخ عن ضعفه وعِلَلِه التي لا تسمح له بالخروج مساءً. ولكن، بما أن رغبةً كهذه كانت بمثابة أمر؛ أدرك بأنه يجب تنفيذها. ومع اقتراب الليل؛ تنقل إلى القصر متكئاً على خادمٍ له، وهناك وجد زملاءه مجتمعين. كانوا يتحدثون، ويدخنون، ويرتشفون بعض القهوة، وكان الباي يعامل مَدعوِّيه بلطافةٍ كبيرة. وفي منتصف السهرة اقترب من القايد قائلاً له: «قايد عمار، إن النعاس يأخذك. اذهب لترتاح في بيتك، ولتصحبك السلامة».

نهض الشيخ وحيَّا سيِّده، ثم خرج. وبعد بضع دقائق؛ سُمع ما يشبه صيحةً تبعتها حشرجةٌ مختنقة، ولكن لم ينتبه أحدٌ من الموجودين في القاعة لما يمكن أن وقع. وسرت رعشةٌ باردةٌ في أبدان الأعضاء الحاضرين، صاحبها شحوبٌ شديدٌ على وجوههم؛ فضحك تشاكر مقهقهاً.

بعد إغلاق الباب وراءه؛ وجد الشيخ عمار نفسه وجهاً لوجهٍ مع قايد القصبة، ذلك العون المخيف المكلف بالإعدامات الليلية. وبمسكه من حزامه؛ أطلق صيحةً كدَّر صداها جلسة المدعوِّين، ثم انقض عليه يهوديان وخنقاه في صمت. وفي الغد أطل من النوافذ المشبَّكة لذلك البيت المظلم وجهٌ تُقطِّبه ضحكةٌ شيطانيةٌ عند رؤية الجثة الممددة على أرض الزاوية الملحَقة بالقصر. لقد كان تشاكر يتأمل ضحيته.

بعد اقتراف الجريمة مباشرةً؛ توجه قايد القصبة وقايد الدار إلى بيت الهالك وشمَّعا أبوابه، ووضعا خفراً عند المدخل قبل أن يَزُجَّا بجميع قاطنيه في السجن. وفي تلك الأثناء كان يتم نهب الدواوير التابعة لسلطته؛ حيث أخذت ماشيته وتلك التي يملكها محكوموه، فكانت غزوةً شاملة. ومع

طلوع نهار اليوم الموالي كان كل شيءٍ قد انتهى.

لقد كانت هذه المحاولة الأولى ناجحةً بالنسبة لهذا الوحش؛ فلم يكن هناك داعٍ للمحاولة مجدداً. أما عائلة ابن السايح القابعة منذ سنتين في السجن؛ فقد صودرت جميع ممتلكاتها هي أيضاً، ولم يُطلق سراح كبيرها أحمد إلا ليموت بعد فترةٍ قصيرةٍ من جراء العذابات الرهيبة التي كابدها خلال فترة سجنه.

لقي الباش كاتب سي محمد المكي نفس مصير القايد عمار. فبعد خروجه من سهرةٍ قضاها عند الباي؛ تم خنقه في الظلام. أُلقي أبناؤه في السجن، ولم يُطلق سراحهم إلا بعد دفع غرامةٍ ضخمة. لقد كان ابن الساسي هذا رجلاً طاعناً في السن، وكان ضليعاً في الإفتاء، وموقَّراً من طرف معاصريه. ولكن مزاياه وسمعته لم تجنبه وحشية المستبد، فهلك بالعقاب المخصص للمجرمين[1].

كما تم أيضاً اغتيال الشيخ أحمد العشي؛ القاضي الحنفي. وعلى غرار سابقيه؛ فقد هلك خنقاً، وتمت مصادرة أملاكه، ووجد أبناؤه أنفسهم مرغمين على الهرب للنجاة من السجن.

هكذا كان تشاكر يملأ أوقات فراغه التي تتيحها له فترات الراحة بين الحملات المتجددة باستمرار. وفي بعض الأحيان؛ كان يتظاهر بفعل الخير سواءً بداعي الندم أو بداعي التطيُّر. فكان يبسط يده دوماً للمرابطين والعرافين والرجال الصالحين؛ حيث كان يمنحهم كل ما يطلبون من بغالٍ وخيولٍ ومال. وبذلك؛ كان، بلا شك، يأمل أن يبتعد عنه غضب السماء الذي سوف لن يخطئه يوماً ما. ولكنه، يضيف المؤرخ العربي الذي نقلنا عنه معظم هذه القصة، كان مخطئاً؛ لأن الله لا يرضى أن يُغتصب مال أحدهم ليُمنح لآخر حتى ولو كان من أوليائه، ولا يمكن أن يرضى بالتكفير عن جريمةٍ بظلم. إن استيقاظ هذا الضمير المليء بالأدران؛ لم يكن إلا عابراً،

1. كان نازلاً بالقرب من سيدي علي العجل؛ المرابط الشهير الذي يرقد جثمانه في المسجد الذي يحمل اسمه، والذي كان يقع بجانب فرن الآجر في المكان المسمى المنشار بين باردو وباب الجابية. مازال أحفاده أحياء، ولكن المسجد لم يبق منه إلا الأطلال.

وسرعان ما عادت غريزة الرذيلة إلى الواجهة.

وفي الواقع؛ ما كادت ضحاياه تهلك حتى يبدأ يفكر في خياناتٍ جديدة. فالشيخ مصطفى بن عاشور، الذي رأيناه آنفاً يفر من السجن في اليوم الذي دفع فيه علي باي وآغا مدينة الجزائر رأسيهما ثمناً لنزوة معتوه؛ كان منذ ذلك الحين في حالة تمردٍ صريحٍ في جبال فرجيوة. وفي الأخير، بعدما تعب من الصراع الذي سيخسره دون شكٍ عاجلاً أم آجلاً، وبقدوم تشاكر؛ قرر الاستسلام وطلب الأمان. وكان ذلك عن طريق صهر الباي نفسه؛ سي عصمان بن شاوش. وافق تشاكر على ذلك فوراً بإعطائه الأمان قائلاً له: «يمكنك المجيء إلي، فقد سُوِّيَت قضيتك».

كان من شأن جوابٍ مقتضبٍ ومبهم كهذا أن يفتح عيني بن عاشور، ويجعله يستشف المصير المشؤوم الذي ينتظره، ولكن مهما يفعل الإنسان في هذه الحياة؛ فإنه لا يأخذ إلا ما كُتب له. ولا يجب أن ننسى أيضاً بأن بن عاشور كان قد خان وطنه عندما كان مال الأجنبي قوياً بالقدر الذي يبقي السيف داخل غمده بدل أن يُرفع ليضرب، وللخيانة أن تلقى عقابها عاجلاً أو آجلاً؛ حتى في هذه الدنيا.

غادر مصطفى بن عاشور، إذاً، نحو قسنطينة. وبوصوله إلى المكان المسمى سيدي امحمد الغراب (جنان صالح باي حالياً)؛ وجد صهر الباي في انتظاره. فإذا كان قد أحس ببعض الريبة في نفسه خلال الطريق؛ فإن هذا اللقاء قد أزالها تماماً. ومنذ تلك اللحظة ذهب كل تردد، وبسرعةٍ قطع الإثنان معاً المسافة القصيرة التي كانت تفصلهما عن قسنطينة. وبعد بضع دقائق أدخلهما الحراس إلى دار الباي، وفي تلك اللحظة برز تشاكر. ولما تقدم مصطفى بن عاشور لتحيته؛ صاح منادياً: «يا قايد القصبة، اقبضوا على هذا الخائن، واخنقوه في الساحة العامة على مرأى جميع أعضاء المخزن هذا الصباح على الساعة الثامنة»، وتم تنفيذ الحكم فوراً. وبموت مصطفى؛ مُنح برنوس فرجيوة لأخيه مقورة بن عاشور، الذي هلك لاحقاً مقتولاً هو أيضاً[1].

1. شيخ فرجيوة السابق، الحاج أحمد بوعكاز بن عاشور، هو ابن مصطفى نفسه. ونحن

في نهاية حياته؛ دارت الدوائر على تشاكر. فالنجاح الذي كلل تقريباً، حتى ذلك الوقت، جميع حملاته وحتى الأكثر شناعةً منها؛ كان قد بدأ يخونه. لقد باءت معظم غزواته الأخيرة بالفشل، حيث أنه بدل الغنائم التي كان يريد؛ لم يجنِ سوى عار الهزيمة، وغيظ خيبة آماله. كان ذلك حاله مع أولاد بورنان وبني عجاب؛ الذين هرَّبوا ماشيتهم، واستولوا على خيامه وأمتعته وبغاله، وتلك التابعة لجيشه.

وبعد ذلك؛ كانت هزيمةٌ أخرى أقل فداحةً في انتظاره عند النهامشة، وقد كانت يد الله ظاهرةً فيها. فبعد أن ذهب لقتال قبائل مركز فج طراد؛ لم يجد هناك لا عدواً لمحاربته، ولا خياماً لنهبها: لقد هرب الجميع لدى اقترابه. وحاول عبثاً ملاحقة هؤلاء الجبليين في أماكن تمركزهم؛ فلم يدركهم. وبما أنه لم يكن يريد أن يرجع خالي الوفاض، وبمروره على أراضي أولاد سيدي عبيد؛ قام بسلب جمالهم ومواشيهم، وواصل طريقه غير مكترثٍ للخسائر التي ألحقها بهؤلاء المساكين.

بحلول المساء؛ تم نصب المعسكر على السهل ليرتاح الرجال والماشية في هدوء. وفي منتصف الليل هبت عاصفةٌ هوجاءٌ؛ حيث كان شهر فبراير من السنة، وتهاطلت الثلوج، وسقطت الأمطار والبَرَد، وهبَّت رياحٌ شماليةٌ شديدة لدرجة أنها أسقطت الكثير من الخيول، واقتلعت معظم الخيام تاركةً الرجال الذين كانوا بداخلها في العراء؛ مما جعلهم ينتشرون في كل اتجاهٍ بحثاً عن مأوى لهم. أما الذين كانوا تحت الخيام التي صمدت؛ فلم يكونوا أوفر حظاً، حيث تراكمت الثلوج حولها مكوِّنةً جداراً لا يمكن اختراقه. وبذلك بقي تشاكر باي محتجزاً هناك خلال اليومين اللذين استغرقتهما العاصفة. وفي اليوم الثالث، وعندما صفت السماء وسطعت الشمس على ساحة الكارثة؛

نعرف الصرامة التي حكم بها لمدةٍ تزيد عن ثلاثين سنةٍ هذه البلاد؛ التي كانت إقطاعة أجداده ردحاً من الزمن، ونعرف أيضاً الدعم الذي طالما قدمه لجيوشنا كلما ذهبت للعمل في القبائل الصغرى.

يمكن أن نقرأ في رسائل الماريشال «سانت آرنو» (Lettres du maréchal Saint-Arnaud)، ما فعل بهذا الزعيم الأهلي القائد الأعلى السابق لقاطعة قسنطينة.

لم يجد الباي حوله سوى بعض الأتراك وخدمه الأكثر وفاءً، فقد بعثرت العاصفة كل شيء.

أمام هذه النكبة؛ لم يستطع أن ينكر تبعات الغضب السماوي المسلط عليه بسبب ما فعله بأولاد سيدي عبيد؛ القبيلة المرابطية. وأخذاً بنصائح سي الطاهر بن عون آغا الدايرة؛ سارع بإعادة جميع القطعان التي سلبها. وعلاوةً على ذلك؛ منح رايةً لشيخهم، وأعطاهم مالاً ليبنوا مزاراً على ضريح جدهم، ثم عاد إلى قسنطينة.

وفي الأخير، كانت لأولاد دراج الفرصة لإلحاق به آخر عارٍ يمكن أن يتعرض له قائدٌ عسكري؛ حيث لم ينجُ من الموت إلا ليخضع للشروط التي يسليها عليه المنتصر.

في شهر فبراير من عام 1817؛ كان الباي معسكراً في ذراع القبور بين "تارة" و"زانة". والتحق به سي أحمد بن الشريف، قايد الزمالة، مصحوباً بكافة رجاله، وشكّلا جيشاً كبيراً. ولقد نقلت العيون المرسَلة بأن أولاد دراج قد نصبوا خيامهم في المكان المسمى "المتكوَّك" التابع لإقليمهم.

لقد كان الوقت مواتياً لمباغتتهم بينما هم آمنون، ولأن عدداً كبيراً من القوات كان سيلفت الانتباه؛ قرر الباي ألا يأخذ معه إلا قُومه وفرقةً صغيرةً من محلة الشتاء.

مع حلول الليل؛ انطلق مع رجاله يحثون الخطى. وبعد مسيرة اثني عشرة ساعة؛ وصلوا مع طلوع النهار إلى المكان الذي يخيم فيه أولاد دراج. وبرؤية كل تلك الخيام المتراصة على شكل دائرة، وقطعان الماشية تخرج من وسطها للرعي؛ تهيّج طمع فرسان القُوم، فانطلقوا على خيولهم باتجاه وسط الدوار كالسيل الجارف دون أن يمنعهم شيء. ولكن العدو كان في انتظارهم، فما إن وصل آخر رجلٍ إلى وسط الدوار؛ حتى خرج من وراء كل خيمةٍ رجالٌ مسلحون ببنادق وسيوف ومعاول وعصي وسِنّات المحاريث؛ فطوّقوهم بشكلٍ لا يمَكّنهم من الفرار، ولا حتى من الدفاع عن أنفسهم.

لقد قُتل منهم من قُتل، وأُسر الباقي. وكان من بينهم أعضاءٌ من المخزن؛

وهم مصطفى بن لحرش، ومحمد بن الزموري، وحمادي بن عون شقيق الآغا، والحفصي بن عون. أما الذين تأخروا في الوصول إلى الدوار؛ فقد نجوا من الكمين، وعادوا لإخبار الباي بالمصيبة التي حلت بطلائع قواته. وما كادوا يكملون تقريرهم؛ حتى وجد تشاكر نفسه محاصراً من طرف أولاد دراج المصرِّين على ملاحقة الهاربين. كانت الطلقات قد بدأت تدوي على مسامعه، وصارت أية محاولةٍ للدفاع مستحيلة؛ لأن حرسه كانوا أضعف من أن يحموه أو حتى يدافعوا عن أنفسهم، فلم يحاولوا المستحيل. لقد كانوا جميعاً مهددين بموتٍ محققٍ إن أراد المنتصر أو عرف كيف يستغل تفوقه. ولكن انبهارهم بتحقيق نصرٍ سهل، أو ما تبقى من احترامٍ لشخص قائدٍ رفيع المستوى؛ يكون قد جعل أولاد دراج يضعون سلاحهم، ويدخلون في محادثات؛ حيث قالوا للباي: «عليك بإخلاء أراضينا فوراً، وإلا فإنك ستهلك هنا أنت وأتباعك».

إن أمراً مستبداً صادراً بفظاظةٍ كهذا؛ كان وَقــعُــه شديداً على الذي لم يتعود إلا على القيادة. ولكن بما أنه لم يُترك له خيارٌ آخر غير الموت؛ رأى الباي أنه من الأحوَط أن ينفذه؛ تاركاً، بلا شك، لوقتٍ آخر أمر الانتقام لهزيمته. ولم يطلب سوى استرجاع الأسرى وجثامين الذين قُتلوا في المواجهة. ولما أظهر أولاد دراج بعض الصعوبات في الموافقة على هذه الشروط؛ تدخل مرابطوهم، وتمت الموافقة.

تم إطلاق سراح الأسرى، أما القتلى فقد قام المرابطون أنفسهم بنقل جثامينهم إلى المعسكر؛ حيث دفنوا بطريقةٍ محترمة. وبعد ذلك عاد تشاكر إلى ذراع القبور؛ حيث كانت في انتظاره غالبية الجيش، ونفسه جريحةٌ وقلبه يتألم، وقفل راجعاً إلى عاصمته خجلاً.

إن هذه السلسلة من الانتكاسات التي اختُتمت بهذا الفشل المذل؛ كان من شأنها أن تخلق لديه ردود فعلٍ للتكفير عن ذنوبه. لقد اعتقد لويس العاشر الجديد هذا؛ أنه يمكن أن يُكفِّر عن جرائم الماضي بالصدقات، وببناء المؤسسات الدينية، كما أنه كان يوزع مبالغ ماليةً كبيرةً على الفقراء والمكفوفين، وكانت تُذبح العجول في كدية عتي على شرف الشيوخ الذين كانوا ينعزلون

في هذه التلة للتصوف، وكانت تُنحر الذبائح أيضاً أمام ضريح الشيخ سليمان المجذوب[1]؛ الذي ترقد رفاته على هضبة شطابة. وفي هذا الإطار أيضاً؛ قام بتأسيس المقبرة الواقعة في المكان المسمى سيدي عبد القادر. ولكن كل ما استطاع القيام به للتكفير عن ماضيه من صدقاتٍ وهباتٍ ومؤسسات دينية؛ لم يمنعه من النزول إلى أدنى درجات الازدراء. فعندما كان سيفه منتصراً، وطالما كان النجاح يحالفه في حملاته؛ كان الاحترام الذي تفرضه الرهبة يصاحبه دوماً. وبعد كسر شوكته؛ كان الكل يتلهف لرفع رأسه والتخلص من نير الحديد والدم الذي أثقل كاهله.

وما زاد الطين بلة؛ هو أنه في تلك الفترة، وبالتحديد في 8 أكتوبر 1817، قُتل عمر باشا خنقاً من طرف الميليشيا التركية؛ وهو الذي كان قد عيَّن تشاكر باياً على قسنطينة. وما إن تسلم خَلَفَهُ علي خوجة السلطة؛ حتى انتهج سياسةً معاكسةً تماماً لتلك التي اتبعها عمر، ما يعني أن نزع الثقة سيطال جميع محظيي الأمس؛ وكان تشاكر من أوائل هؤلاء.

اقترب موعد دنوش الخريف. وبينما كان الباي يستعد كعادته لإرسال خليفته، عصمان خوجة، إلى مدينة الجزائر لدفع الضريبة؛ تلقى كتاباً من

1. ينحدر هذا الرجل الصالح من مدينة الجزائر. وبعد أن جال عدداً من البلدان وقضى فترة طويلةً في مكة والمدينة، عاد إلى موطنه واستقر في قسنطينة. وسرعان ما جعله علمه الغزير وزهده يشتهر بين الأهالي، وأصبح عدد زائريه يتزايد يوماً بعد يوم؛ وذلك طلباً للشفاء من الأمراض الجسدية والأسقام الروحية؛ مما أرغمه على مغادرة بيته المتواضع بالقرب من زاوية سيدي ياسمين، والبحث عن معزلٍ في كدية عتي بالقرب من المرابطين سيدي علي بن مخلوف، وسيدي عبد الله بوالكلب. وهناك، بصحبة أولياء الله الصالحين، كرس نفسه لتعليم الشباب ولأعمال الخير. وكان يأتيه، من كل أنحاء الإقليم، طَلَبةٌ لمتابعة دروسه، ودراسة القرآن، والاقتداء به في أفعاله كما في أقواله. ولم يكن الأثرياء يزورونه دون أن يقدموا له هدايا. ومن بين القبائل التي التزمت بدفع مستحقاتٍ عينيةٍ له من أجل إطعام الطَلَبة نذكر زواغة، وأولاد حية، وأولاد عراس، وبني خطاب، وبني والبان، وبني صبيح، وأولاد الحاج، وأولاد عيدون. وبهذا يمكن أن نلاحظ بأن سمعته كانت كبيرةً وواسعة.

يرقد جثمانه في شطابة، وحتى اليوم مازال مزاراً لسكان قسنطينة وما جاورها. فالكل ينتقل إلى هناك خلال بعض الفترات من العام للتبرك بكرامات الرجل الصالح. وتتم هذه الطقوس على وقع طبول وصنوج الزنوج الحاضرين دوماً في الأفراح والأتراح؛ لأن الأحزان في هذه البلاد لها موسيقاها كما الأفراح.

الديوان جاء فيه: «ما لي حاجة إلى خليفتك وتحياته؛ فهو لا يحظى لا بتقديرنا ولا بثقتنا. وإننا نأمر بعزله فوراً، وتعيين بكير خوجة مكانه». لقد كانت الأوامر دقيقةً، ويجب الالتزام بها؛ فانطلق بكير في اليوم نفسه إلى مدينة الجزائر بصفته خليفة.

وابتداءً من هذه اللحظة أصاب تشاكر اضطرابٌ عنيف. فبخدش كرامته في أفضلياته؛ أدرك من خلال اللهجة الشديدة لهذه الرسالة بأن اسمه لم يَعُد مرغوباً فيه داخل الديوان. وإن بقي بعض الشك حول هذا الموضوع؛ فإنه سرعان ما سيزول بقراءة الرسالة الثانية التي كتبها له الباشا الجديد، والتي يلزمه فيها بقتل عصمان؛ وهو المقرب لديه وذراعه الأيمن. لقد كان هذا الحكم على الرجل الذي كان أكبر مساعديه في إدارته، بالنسبة إليه، بمثابة إنذارٍ بالمصير المشؤوم الذي ينتظره، بلا شك، منذ ذلك اليوم؛ فوجد نفسه ضائعاً.

لقد كانت تطارده مخاوف الموت؛ فصار يقضي أيامه في الصلاة، وضاعف من الصدقات وأعمال الخير. ولما كان يجنُّ عليه الليل بهواجسه المرعبة؛ كانت تتراءى أمام عينيه قافلة ضحايا جشعه وبربريته، فلم يكن نومه إلا أرقاً متعباً وأليماً. وإذا ما تلقى خطاباً من مدينة الجزائر؛ كان يعتقد بأنه سيقرأ حكم إعدامه، فيتحير فِكره، ويصبح كالمجنون. ومع هذا لم يجد بالقرب منه صديقاً يخفف عنه ويسليه؛ بل كان الكل يفر منه، ولا يقترب منه إلا ليزيد من الارتباك في نفسه. فلقد أتاه تركياً يوماً، وأخبره بأن قارة مصطفى، قايد المسيلة، يشيع بأنه سوف يُعيَّن باياً على قسنطينة، فثارت ثائرة تشاكر مطلقاً تهديداتٍ مخيفة؛ حيث أقسم أن يقضي على هذا المتعجرف الذي تجرأ على قول شيءٍ كهذا. وغادر التركي راكضاً إلى قارة مصطفى (حيث كان في قسنطينة في تلك الفترة)، وقال له: «انهض، واهرب. فإن الباي قد قرر أن يقتلك»؛ فهمَّ قارة مصطفى بالفرار، ولجأ عند «مول الشقفة»[1]. أرسل تشاكر فرساناً

1. لقد كان شريفاً يقيم في بلاد القبائل بالقرب من جيجل، وكان بيته يعتبر ملجأً منيعاً. وفي 1839 قام الفرنسيون، بقيادة الجنرال «غالبوا» (Galbois) بأسر أخيه. وتم نقله إلى جزر «سانت مارغريت» (Sainte-Marguerite)؛ حيث مات بها.

لمطاردته، ولكنهم لم يلحقوا به؛ فلما وصلوا إلى جيجل، كان قد ركب البحر متجهاً نحو مدينة الجزائر.

بوصوله إلى هذه المدينة؛ توجه الهارب إلى الباشا مقدماً له شكاوى لا حصر لها ضد تشاكر. ولما فرغ قال له:

-يا مولاي، إنه يريد اليوم قتلي. وإني بين يديكم الآن لإنقاذ رأسي من سيف هذا الوحش. إن جرائمه واغتصاباته جعلت مدننا وأريافنا خاوية على عروشها، وسيكون هذا حال إقليمكم الشرقي إذا لم تتدخل عدالتكم لإصلاح الأمر.

فسأله الباشا: ـ هل ترى نفسك قادراً على خلافته؟

فأجاب قارة مصطفى: ـ نعم، أستطيع.

استناداً إلى هذا التأكيد البسيط؛ منحه الداي قفطان التولية فوراً، مع رسائل اعتمادٍ لأعيان قسنطينة، وأمره بالالتحاق بمنصبه دون إبطاء.

من جهته، لم يدخر تشاكر أي جهدٍ لإبطال مفعول الاتهامات التي رفعها عدوه ضده. حيث كتب الرسائل تلو الرسائل للأعضاء الأكثر تأثيراً في الديوان، ولكن بما أن هؤلاء كانوا يدركون جيداً بأن قضيته ميؤوسٌ منها؛ لم يعيروه حتى شرف الرد. وقام فقط بعض ضباط الميليشيا التركية القادمين من مدينة الجزائر بإخباره بأن قارة مصطفى قد عُيِّن باياً مكانه.

رغم أن هذا الخبر لم يحمل ما يفاجئه؛ إلا أنه زرع فيه الذعر. ففي لحظةٍ معينة؛ تردد بين الاختباء أو المكوث صامداً في منصبه، كما أن الفرار كان لا يزال ممكناً. ولكن، إلى أين سيلجأ؟ أي بابٍ مضيافٍ يمكن أن تُفتح له؟ وربما تكون المقاومة أفضل؟ أفليس الموت بشرف أفضل من الموت دفاعاً الحياة؟ وهل سيكون بهذه الشجاعة حتى النهاية؟

لقد استدعى جميع جنود محلة الشتاء، وتحصن معهم في دار الباي، ثم أعطى تعليماتٍ للقادة بعدم السماح لأي أحدٍ بالخروج تحت أي مبرر. وصار الطبخ يتم داخل القصر. ومنذ ذلك الحين؛ أصبح الباي يتناول الطعام مع جنده. لقد كانت المساواة التامة تسود بينه وبين مرؤوسيه؛ فبقدر ما كان يظهر بالأمس متكبراً ومعتداً؛ بقدر ما أصبح اليوم متواضعاً وودوداً مع الجميع.

في هذه الأثناء؛ سلَك غريمه طريقاً غير المعتادة لئلا يلفت الانتباه، حيث تقدم عبر بلاد زواوة والقبائل العليا، حتى وصل إلى هضاب فرجيوة؛ فعرَّف بنفسه صراحةً. ومن أجل منعه من التقدم حتى قسنطينة؛ كلَّف تشاكر ابنه محمود بالذهاب مع جميع رجاله إلى مركز بير البڤيرات، والكمن له. وقال له: «إن قُتل قارة مصطفى في الاشتباك؛ فلتُقطع رأسه ويؤتى بها إلي. وإن أُسر، وذلك أفضل، فأتوني به حياً حتى أجعل منه عبرةً للأهالي».

نلاحظ، من خلال هذه العبارات، أن تشاكر لم يكن يرى بعدُ بأن قضيته كانت خاسرةً، ولكن كل بصيص أملٍ كان سيزول حالاً. فمع أول نداءٍ لقارة مصطفى؛ جاءت جميع الدايرات وكافة القياد بڤومهم تباعاً للانضواء تحت رايته؛ مشكلين تجمعاً ضخماً رأى محمود أنه من الصعب الوقوف أمامه، ووجد أنه من الأحوط العودة إلى قسنطينة، والانزواء مع أبيه في دار الباي. هناك، في ما يشبه الحصن، كان يمكن للمقاومة أن تكون طويلةً إذا لم يقع الانشقاق وسط الميليشيا، ويطل حتى حراس القصر. وفي هذه الساعات الأخيرة؛ حاول المستبد عبثاً اختبار شعبيةٍ أنكرها ماضيه كله؛ لتحين لحظة الخطر، وتخلى عنه كافة جنوده ليفصلوا قضيتهم عن قضيته، وسارعوا باللجوء إلى القصبة.

ومن جهتهم؛ تجمع أهالي المدينة الذين أدركوا بأن ساعة خلاصهم قد حانت، والتحقوا بموالي الباي الجديد، ونصبوا مُخَيَّمَين خارج الأسوار؛ واحدٌ أعلى القرية (مشتلة الحكومة حالياً)، على الضفة اليمنى لبومرزوق، والثاني أعلى وادي الرمال في معسكر الزيتون. لم يبق مع تشاكر سوى خادمٍ عجوزٍ يدعى عبد الله الصغير؛ الذي أراد أن يشارك سيده مصيره. ماذا يمكن فعله أمام هذا التخلي العام؟ لم يتبق له إلا حل واحد؛ وهو طلب الرحمة الإلهية، والبحث عن جوارٍ، بجاه النبي، لدى الشيخ بن لفڤون؛ وكان ذلك ما فعل. حيث أرسل خادمه إلى الشيخ سيدي امحمد، رئيس تلك العائلة، يتوسله للاهتمام بمصيره، مدافعاً عن براءته ومؤكداً له أنه في كافة تصرفاته لم تكن له نيةٌ سوى فعل الخير لمحكوميه. فكانت احتجاجاتٌ باطلة، وندامةٌ متأخرة لا

يمكنها أن تخدع أحداً.

لم يصدق سيدي امحمد تلك الادعاءات، ومع ذلك أجاب المبعوث قائلاً: «قل لسيدك بأني سآويه في داري؛ فسيجد فيها ملجأً آمناً. وليترك قصر البايات لصاحبه الجديد، ولْيَدَعِ الله يتصرف في ملكه كما يشاء».

رغم الضمان الذي تلقاه؛ استغرق تشاكر أكثر من ساعة ليقرر الخروج من ذلك القصر الذي سوف لن يدخله أبداً. وأخيراً تغلب على تردده ونهض، والدموع تنهمر من عينيه، كما قال أحدهم. متبوعاً بخادمه الوحيد؛ وصل إلى بيت الشيخ ببطءٍ شديد، ولكن ما إن تخطى عتبة الباب؛ حتى قام مجيره بإرسال مبعوثٍ على وجه السرعة إلى قارة مصطفى يخبره بأن عدوه أصبح بين يديه. ولقد فعل هذا معتقداً، بلا شك، بأنه بإمكانه خداع من كان يخلف وعده دوماً. وسرعان ما وصل الشواش، وقبضوا على الباي البائس رغم احتجاجاته، وساقوه مكبلاً بالسلاسل إلى القصبة؛ حيث توجد دار الآغا التي سُجن بها. وفي الوقت نفسه، وبعد أن بقوا في بيوتهم بداعي الخوف؛ خرج السكان واحتشدوا في المدينة من أجل الذهاب للتعرف على الباي الجديد والترحيب به.

كانت مسيرة قارة مصطفى إلى دار الباي بمثابة نصرٍ عظيم، وكان قراره الأول حكماً بالإعدام. وبعد بضع ساعاتٍ انتهى امحمد تشاكر باي؛ حيث انقطع حبل حياته بين قبضتي الجلاد الخسيس. لقد كان حكماً عادلاً، ولكن جاء متأخراً لإنهاء وجودٍ ملطخٍ بالجرائم.

لقد حكم لمدة أربع سنواتٍ. ودُفن في خلوة سيدي عبد القادر، بالقرب من مقبرة سيدي مسعود الصُحَيِّح. ولقد استحق تشاكر ألا يُذكر بخيرٍ من طرف جميع الناس الخيِّرين.

قارة مصطفى باي

1233هـ، يناير 1818م

لم يدم حكمه سوى شهراً واحداً

بعد إسهام المساعي الحثيثة التي قام بها قايد المسيلة السابق في إسقاط الباي، وما إن تسلم مقاليد الحكم؛ حتى استعمل سلطته ليس إلا لإشباع أهوائه إلى أقصى درجة. فالوصف الذي قدمه شيربونو عن آخر أمراء الأغالبة ينطبق عليه تماماً: «دون الاكتراث لشؤون الإقليم، ولا لمصالح رعيته؛ انغمس في الملذات والخمر والمجون، وأحاط نفسه بالندماء والمغنين والرجال الأكثر حقارةً؛ الذين لم يكونوا يفارقوه ليلاً ولا نهاراً»[1].

لقد كانت جميع تصرفاته تتميز بالسفاهة والغرابة. وكان محاطاً دوماً بمجموعةٍ من اليهود؛ الذين كان قد استدان منهم مبالغ مالية عدة مرات. وكان ينزوي معهم في دار الباي، وبصحبة نساءٍ من تلك الملة؛ كانوا يمارسون هناك جميعهم الدعارة الأكثر إثارة. وإذا كان يترك أحياناً حياة الفجور هذه ليهتم بشؤون الحكم؛ فليس إلا لإصدار أحكامٍ بالموت، أو لابتزاز أموال محكوميه.

لقد برهن غداة تنصيبه مباشرةً على طبعه الانتقامي. فلم تُنسِه غمرة الانتصار أنه عندما مرَّ عبر أراضي بني عامر في طريقه من مدينة الجزائر، وحاصرته الأمطار والثلوج؛ طرق أول بابٍ وجدها أمامه لطلب الاستضافة، فرُفض طلبه بفظاظة.

وفي الغد، وبعد أن كظم غيظه وأخفى شعوره بالإهانة؛ اكتفى بمعرفة اسم صاحب البيت الذي لم تكن هذه المقابلة في صالحه، ثم واصل طريقه. وبعد بضعة أيام، وأمام تلك الباب نفسها؛ وقف أربعة فرسان توحي هيئتهم بأنهم جاءوا لتنفيذ أوامر سيدٍ نافذ. ودون إعادة الأمر هذه المرة؛ فُتحت باب الكوخ المتواضع، وأُخذ الذباح، وهو اسم صاحبه، من بين زوجته وأبنائه بشكلٍ عنيف، قبل أن يُقيَّد ويُساق إلى قسنطينة.

1. Revue de l'Orient, Décembre 1853, p.430

بمثوله في حضرة الباي ذهب ذهوله عندما وجد في شخص القاضي ذلك المسافر الذي رفض استقباله بطريقةٍ تخلو من اللطافة؛ والذي ينظر إليه الآن بعيني نمرٍ مستعدٍ للانقضاء على فريسته؛ قائلاً له بصوتٍ مخيف:

- هل تعرَّفت عليَّ؟ هل تعرف بأني ذلك الرجل نفسه الذي رفضتَ استضافته قبل بضعة أيام؟

حاول المسكين عبثاً أن يتمتم بعذرٍ؛ وهو يرتجف، قبل أن يصيح الباي:

- فلتُقطع رقبته! وتم تنفيذ الأمر فوراً.

بعد بضعة أيام أمر بتوقيف أولاد بن العطار أعضاء المخزن، وخصَّهم بطريقة موتٍ غريبة. وتبعاً لأوامره أيضاً؛ قام نجارٌ بصنع أوتادٍ بطولٍ معتبر، وعندما جُهِّزت أدوات التعذيب؛ أُقتيد السجناء إلى ساحة السوق، وتمت خوزقتهم بحضور حشدٍ كبيرٍ من الفضوليين الذين شدتهم غرابة المشهد. ولفظ هؤلاء المساكين أنفاسهم الأخيرة تحت العذابات الأكثر فظاعة. لم يستعمل أي بايٍ هذا النوع من التعذيب منذ عهد صالح باي، ولكن حكمه كان يشرف على الانتهاء.

قادمَين من مدينة الجزائر؛ وصل إلى قسنطينة سي محمد بن مالك، صهر الباشا، والباش آغا من أجل معاينة الوضعية المالية التي تركها تشاكر بعد وفاته، فوجدوا صناديق الخزينة خاوية تقريباً؛ لأن ابنه محمود قد بدد الجزء الأكبر منها. وبعد القبض عليه، تلقى ضرباً مبرحاً بالعصا من أجل انتزاع اعترافاتٍ منه. لقد أنكر في البداية، ولكن من شدة الألم؛ اعترف بأن بحوزته اثنتي عشر جرةٍ مليئةٍ بالذهب والفضة. وبتشجعهم بعد هذه المحاولة الموفقة؛ أعاد محاكموه الكرَّة لأيام متتالية، واعتماداً على مؤشراتٍ جديدةٍ منه؛ وُجد في أسفل الوادي كيساً مليئاً بالذهب والفضة أيضاً. وأخيراً، وبعد أن أشبعوا جسده من كل ألوان العذاب، وتأكدوا بأنه لن يأخذوا منه أي اعترافٍ آخر؛ أطلقوا سراحه.

لقد بقي الباي بعيداً تماماً عن هذا التحقيق. وظل قابعاً في حرمه غير آبه إلا بإشباع نزواته الوحشية؛ كما لو أنه أحس بأن الموت سيضع لها حداً عما قريب.

وفي الواقع، فإن مبعوثي الباشا تأكدا بنفسيهما بأن رجلاً مثله ليس كفءاً للمنصب الذي رُفع إليه؛ فكتبا لسيدهما يخبرانه بما جرى. وفي رسالتهما عدّدا كل ما يعيب تصرفات الباي من ضعفٍ وطيش، وعلى رأس ذلك كله، الأفضلية التي يبديها لليهود الذين جعل منهم جماعته الوحيدة.

سرعان ما أصدر علي خوجة قرار عزله. وفي لحظة نفورٍ من الأتراك؛ عيّن مكانه مملوكاً من أصلٍ إيطالي يدعى أحمد؛ معلقاً على ذلك بأنه إذا لم يفِ بغرض القسنطينيين فإنه سيعيّن سودانياً أسوداً باياً عليهم.

ما إن بلغ خبر عزل قارة مصطفى إلى قسنطينة؛ حتى قام الجنود باجتياح القصر، فوجدوا الباي الجبان مختبئاً في إحدى الزوايا؛ فقتلوه دون شفقة.

لم يدم حكمه سوى شهرٍ واحد.

أحمد باي المملوك

1233هـ، فبراير 1818م

يحمل خاتمه: أحمد باي بن عبد الله، ١٢٣٣

قام مبعوثا بلاط مدينة الجزائر بتنصيب الباي الجديد، ومكثا شهراً لمساعدته في بسط سلطته ولإصلاح الفوضى التي انتشرت في الإدارة خلال السنوات الماضية. ثم غادرا الإقليم حاملَين معهما أموال الخزينة وسبعة عشر فتاةٍ يهوديةٍ أهدوها لسيدهما علي خوجة[1].

يوم تسلّم أحمد المملوك لقفطان التولية كان طريح الفراش بسبب كسرٍ في ساقه جراء سقوطه من جواده. لقد كان رجلاً مثقفاً، ماهراً في تسيير الأمور، متلهفاً لإعادة العدالة، وجريئاً وسريعاً في اتخاذ القرارات.

كان المخزن في عهده يتشكل كالآتي: الحاج أحمد بن محمد الشريف؛ خليفة، بن العلمي؛ آغا الدايرة، بلقاسم بن زكري؛ باش سراج، عبد الله

1. عادت هذه الفتيات لاحقاً بعفوٍ من طرف الباشا حسين داي. وفي عام 1858 كان عددٌ منهن لا يزال على قيد الحياة.

بن زكري؛ باش سيار، مصطفى بن لبيض؛ قايد الدار، والحاج عبد الرحمن بن نعمون؛ باش كاتب. ولقد أراد أن يبقي جميع موظفيه بجانبه حتى يهتموا بواجباتهم بشكل جدي.

في هذه الأثناء، توفي باشا الجزائر، علي خوجة، في الفاتح من مارس 1818؛ حيث هلك بالطاعون الذي اجتاح المدينة. وقام خلفه، حسين داي، الذي تسبب في كارثة 1830؛ بمراسلة الباي يأمره بتوقيف أولاد بن زكري من وظائفهم، وإرغامهم على الذهاب فوراً لأداء فريضة الحج. فغادروا المدينة سريعاً باتجاه عنابة بصحبة عبد الرحمن بن نعمون، والشيخ محمد بن بودرهم؛ الذي كلفه الباي بحمل إيرادات حبوس الإقليم المخصصة لمكة والمدينة.

وتبعاً لسياسة سابقيه، وبسبب شكوك بسيطة؛ قام بإعدام محمد بورقعة، وإبراهيم بن تواتي، وسي محمد بوالقربة وآخرين. كما أدخل بعض التغييرات على تشكيلة المخزن؛ فعيّن عمار بن عون آغا للدايرة، والعربي بن العلمي باش سراج، وعلي المملوك قايد عزيب الجمال، والحيوني قايد التلاغمة، وسليمان قايد عبد النور، وسي مصطفى بن كوتشوك علي؛ باشا كاتب، والحاج عبد الكريم المملوك قايد للدار.

بحلول فصل الصيف؛ خرج الباي على رأس قوةٍ لتأديب بني عامر، ولكن ما إن شرع في المسير؛ حتى وصل إلى معسكره رسلٌ يحملون خطاباً للآغا الذي يقود جيش الحملة. لقد كان أمراً بتوقيف الباي لم يتأخر الآغا في تنفيذه؛ حيث تم تسليم أحمد المملوك مقيّداً إلى المبعوثين الذين أخذوه معهم إلى مدينة الجزائر، ومنها تم نفيه إلى مازونة. لقد دام حكمه ستة أشهر، ولكننا سوف نراه يتقلد قيادة الإقليم للمرة الثانية.

امحمد باي الميلي

1233هـ، نهاية أغسطس 1818م

يحمل خاتمه: امحمد باي بن داود

عُيِّن امحمد الميلي قايداً للعواسي، وقبل أن يلتحق بمنصبه تمت ترقيته على رأس إقليم قسنطينة. لقد كان رجلاً فظاً وجاهلاً، وإدارياً سيئاً لا يستعمل إلا القوة الهمجية والابتزاز؛ الذي كان التجار واليهود أكثر من عانوا منه. حيث أرهقهم بالإتاوات، وأرغمهم أكثر من مرةٍ على استبدال نقودهم السليمة بقطع نقديةٍ منقوصة عن الوزن القانوني. وعندما كان يتقدم الغارمون لسداد ضرائبهم؛ كان هو من يستلم المال شخصياً. فكان يعدُّه ويتقصَّد الخطأ، ويتظاهر بعدم تحصله على المبلغ المطلوب. ولم يكن ضحايا هذه الحيلة الخسيسة المساكين يتجرؤون على القول له بأنه قد أخطأ العد، فيختارون التصرف الأسلم بالنسبة لهم؛ وهو السكوت والدفع مرةً ثانية.

كان الموظفون في عهده هم: الحاج أحمد الشريف؛ خليفة، ويوسف؛ قايداً للدار، ومعمر بن لحرش؛ آغا للدايرة، ونعمة الله شقيق الباي؛ قايداً للعواسي، وسي بن بلقاسم بن المزهود؛ باش سراج، وسي محمد بن الزواوي بن جلول؛ باش كاتب، وسي علي بن مريخي؛ باش سيار.

مع نهاية فصل الصيف؛ شن حملةً على سكان أورلال، وهي قريةٌ في الزاب، الذين انتفضوا بإيعازٍ من المدعو ذباح بن بوعقار. لم يكن هجومه الأول موفقاً؛ فتعيَّن عليه التراجع أمام قوات العدو الكبيرة، وانتظار التعزيزات قبل استئناف العاداءات. ثم انقض عليه بقوةٍ فكان النصر حليفه، ولكنه تكبَّد خسائر كبيرة. لقد كان من بين القتلى معمر بن لحرش آغا الدايرة، وتم دفنه في طولقة، بالمكان الذي يرقد فيه جثمان سيدي علي بن عمر.

مقتنعاً بهذا النجاح، وبعد تغريم المهزومين وإتلاف جزءٍ كبيرٍ من نخيلهم؛ سلك الباي طريقه نحو قسنطينة، وفيها قام بإعداماتٍ دموية.

في أوقات فراغه؛ تخيَّل استعاضة اليطغان، وهو السلاح الناجع في يدي

الشاوش، بما يشبه المِعْوَل (الشطابية) ذا شفرةٍ عريضةٍ وحادةٍ كان يُزيِّن مقهى الشواش؛ حيث كان يُعلَّق دوماً ليكون بمثابة فزاعةٍ للمارة، وكان يُستَعمل كما يلي.

يوضع الرجل جاثياً، وينهال الحديد على عنقه مثلما ينهال معول حفار القبور على التراب؛ بشكلٍ يوحي بأن هذه الأداة تحفر الرقاب، مثلما قيل على حد السيف أنه يحصدها. وبابتكاره لشفرة المقصلة هذه؛ أُطلق على الباي الميلي لقب «بوشطابية» الذي صار يُعرف به منذئذٍ.

كان قايد الدريبة مرجان؛ ذلك الأسود المكلف بحراسة نساء الحرم، وسي الطاهر الزموري، نائب قايد الدار، أوّل ضحايا أداة الموت هذه؛ التي سقطت بها أيضاً رؤوس الباش سيار، وسليمان بن دالي؛ الذي كان آغا للدايرة وقايداً للزمالة في آنٍ واحد، وعددٌ كبيرٌ من عرب الخارج.

في ربيع السنة الموالية، 1819، تنقل إلى مدينة الجزائر ليدفع الضريبة شخصياً، وقام بتقديم هدايا معتبرةً لأعضاء الديوان من أجل كسب دعمهم. وبعد قضاء ثمانية أيام في المدينة، كما جرت العادة، قفل راجعاً إلى إقليمه. ولكن، وقبل أن ينهي المرحلة الأولى من الطريق؛ تم توقيفه من طرف شواش الباشا، واقتادوه إلى مليانة أو ربما إلى شرشال؛ حيث بقي معتقلاً حتى قدوم الفرنسيين[1]. لقد دام حكمه عاماً واحداً.

---

1. عاد إلى قسنطينة تحت حكم الحاج أحمد، ولم يغادرها إلا بعد سقوط هذا الباي في 1837، وأصبح فيما بعد وكيلاً لعبد القادر. ونضيف هذه الملاحظة المنقولة عن بربروغر: «يتعلق الأمر بقبة سيدي عبد القادر الجيلاني، المرابط الشهير في مدينة الجزائر. ولقد رأينا المعول الشهير بين يدي الباي الأسبق؛ الذي كان يظهره طواعيةً بنوعٍ من الكبرياء. لقد كان مُزيَّناً بنقوشٍ وكتاباتٍ مطعَّمةٍ بالفضة، وكان الميلي يشرح طريقة استعماله باعتدادٍ كبير».

براهم باي الغربي

1234هـ، يوليو 1819م

يحمل خاتمه: براهم باي بن علي، ١٢٣٤

كان براهم الغربي باياً للمدية، وكان متواجداً في مدينة الجزائر تزامناً مع تواجد بوشطابية فيها. وبمناسبة هذا الظرف عُيِّن باياً لقسنطينة، وظل وجوده بالعاصمة سراً. وبعد توقيف بوشطابية؛ التحق بالمحلة المغادرة إلى قسنطينة لقضاء الصيف هناك. وقد صحب معه قوةً كبيرةً مؤلفةً من ستين خيمة. وابتداءً من ريغة؛ أخذ ضريبة الصيف من جميع القبائل التي وجدها على طول طريقه، الأمر الذي أطال رحلته بشكلٍ معتبر. فلم يصل إلى قسنطينة إلا بعد شهرين من مغادرته مدينة الجزائر، وخرج لاستقباله الأهالي المتشوّقون محتشدين لرؤية سيدهم الجديد.

لم تكن التغييرات التي أحدثها في تشكيلة المخزن كبيرة؛ حيث عيَّن قريبه علي بربار قايداً للعواسي، وسليمان بيج المملوك قايداً للدار؛ فيما أبقى على الموظفين الآخرين في مناصبهم.

كان الباي الجديد ذا طبع متراخ، ولم يكن يفقه كثيراً في الشؤون الإدارية، ولكنه كان يتمتع بروح العدل؛ فكان عدوًّا للظلم يعرف كيف يبقي موظفيه في إطار حدود الواجب. وكان نادراً ما يذهب إلى المحكمة؛ فكان يقضي أغلب أوقاته في ديوانه حيث كان يستقبل زائريه.

كان ينشغل بشخصه أكثر مما ينشغل بمصالح رعيته؛ فلم يكن يهتم سوى بالمأكل الجيد والملبس الجميل. وكانت تقع على عاتق الخليفة، الحاج أحمد، مهمة تسيير جميع الشؤون؛ فحتى لو لم يصبح باياً بعد بشكلٍ رسمي إلا أنه كان كذلك فعلياً. ولكن التأثير الذي كان يمارسه على الباي لم يكن ليتغلب على المنافسات الحسودة التي أثارتها ضده سلطته المطلقة. وللنجاة من الموت الذي كان يتهدده؛ تعيَّن عليه الفرار من قسنطينة ليلاً عبر المنحدرات الوعرة خلف شارع الطابية (حي البلدية حالياً)، ولجأ إلى مدينة الجزائر. وعُيِّن محمود بن تشاكر خليفةً مكانه.

في منصبه الجديد؛ كان محمود كعادته ظالماً وقاسياً ومحتالاً وفاجراً ومتغطرساً، على الرغم من أن سوابقه كانت من شأنها إبعاده عن السلطة نهائياً. وبإفراطه في استغلال ضعف سيده وتأثير منصبه؛ كان يسلط، بمحض إرادته الشخصية، الإتاوات والضرائب على الغارمين، وينهب الخزينة؛ فيؤمِّن بذلك لنفسه مداخيلاً تفوق تلك التي تعود للباي نفسه: لقد كان تسيير المالية برمتها بين يديه. كما وصلت به جرأته حتى إلى عزل أعضاء المخزن الذين كانوا يقلقونه، واستبدالهم برجاله. وعليه، قام بتوقيف قايد الدار الجديد الذي خلف سليمان بيج، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن غرَّمه ثلاثة آلاف ريال، ثم خلفه بمُفضَّله؛ علي المملوك.

باستغراقه في لامبالاته المعتادة، ووهنه من ملذات الحرم؛ ظل براهم باي بعيداً عن جميع تصرفات خليفته، وأحس بأن إرادته كانت أضعف من أن توقف تعسفاته. ولكن الشكاوى كانت قد وصلت إلى بلاط الجزائر، وإذا كان سلوك ابن تشاكر قد وُصف هناك بالمقيت؛ فإن الباي تعرض أيضاً للانتقاد بسبب سماحه بهكذا تصرفات.

إلى جانب أسباب الاستياء هذه، أُضيف سببٌ آخر أكثر خطورة. فمن جراء الاختلاسات اليومية التي كان يقوم بها محمود وأعوانه؛ أصبحت الخزينة شبه خاويةٍ مع وصول موعد دنوش الربيع. ورغم الإسراع بإدخال بعض الضرائب باستنزاف الغارمين؛ بقي العجز كبيراً. كما أنه لا يمكن إرجاء تخليص هذا الواجب الذي لا تتساهل الحكومة التركية إزاءه أبداً.

بصفته خليفة؛ غادر محمود حاملاً معه كل ما استطاع أن يجمعه نقداً وعيناً. وبوصوله إلى مدينة الجزائر؛ تم إنذاره بأن الحصيلة لم تكن كافية، فأجاب بأن ذلك كان كل ما أعطاه الباي. ثار الباشا، وكتب للأخير يلزمه باستكمال الضريبة فوراً، وأفهمه بعباراتٍ شديدة اللهجة بأنه لم يكن راضياً على تسييره. لم يرسل الباي أي جواب؛ فقام الديوان، الفاقد لصبره والمعترف بعدم قدرة ممثله على الحكم، بعزله وتنصيب مكانه أحمد باي المملوك؛ الذي رأيناه يشغل هذا المنصب قبل عامين، وكان مُذَّاك منفياً في مازونة.

أحمد باي المملوك

للمرة الثانية: 1235هـ، أغسطس 1820م

يحمل خاتمه: أحمد باي بن عبد الله، ١٢٣٥

عندما عُيِّن أحمد المملوك باياً لقسنطينة للمرة الثانية كان براهم باي مُعسكراً مع حاميته على أراضي السقنية. وهناك اعتُقل بأمرٍ من الباشا، واقتيد إلى قسنطينة لينتظر في سجون القصبة المصير الذي سيخصصه له خلفه.

وفي الغد وصل الباي الجديد إلى أبواب المدينة؛ فنُصبت له خيمةٌ شرفيةٌ بالقرب من المصلى غير البعيد عن كدية عتي. وخرجت سلطات المدينة، وهيئة العلماء، التي تشكل أعيان الأهالي، لاستقباله وتقديم التمنيات له بالقدوم السعيد. وبحضور هذا الجمع تمت قراءة الفرمان الذي يعيِّنه الباشا بموجبه ممثلاً له في الإقليم. وردَّ جمع الأهالي على هذه القراءة بهتافات الفرح، وفي الوقت نفسه دوى صوت المدافع. وسط هذه الرشقات النارية وذلك الحشد الغفير؛ تم دخول أحمد باي الاحتفالي للمرة الثانية إلى قسنطينة. وبينما كان يستحوذ على القصر الذي أقام فيه من قبل؛ فُتحت أبواب القصبة أمام الشواش، وتدحرجت رأس الباي السابق على الأرض.

لقد كانت إشارة انتقام؛ حيث أن الذين فرحوا بعزله قبل عامين قد أُضرُّوا في ممتلكاتهم أو شخوصهم. فسي بربار علي، ڤايد العواسي، وصهره أحمد بن نوة، وجميع خدمهما زُجَّ بهم في السجن، ولما أُخرجوا منه لاحقاً تم نفيهم إلى المدية. أما محمود بن تشاكر فقد عُزل، ووُضع مكانه أمين خوجة. وفي الوقت نفسه؛ أُدخل إصلاحٌ كاملٌ في تشكيلة المخزن.

عُيِّن أحمد بن الحملاوي آغا للدايرة، وأمين خوجة خليفة، وسي عبد الله بن زكري باش سيار، وعلي بن الحاج رابح باش سراج، والحاج عبد الرحمن بن نعمون باش كاتب، ومصطفى بن لبيض ڤايداً للدار، وبراهم الڤريتلي ڤايداً للعواسي، وفرحات بن سحنون ڤايداً للزمالة.

إن حب أحمد للحرب قد دفعه لشن حملاتٍ كثيرة؛ لم تكن العدالة دوماً

القاعدة الوحيدة فيها. وكان النمامشة، وقبائل الجنوب، وجبليو الأوراس[1]

1. من بين أبرز زعماء الأوراس كان الشيخ الحسناوي بن بلقاسم؛ الذي ينحدر من قبيلة الحنانشة القوية. بعدما فَقَدَ والده في سن مبكرة؛ كفله خاله الحاج مبارك بن أحمد بن علي الذي ينتمي إلى واحدة من أعرق وأغنى عائلات البلاد والأكثر احتراماً.

منذ نعومة أظافره؛ تلقى كل ما من شأنه تكوين الجسد والروح، فبرز من بين جميع أبناء القبيلة بمهارته في ترويض الخيول، وبشجاعته في مواجهة أهوال الحرب. لم يكن يوجد أحدٌ يضاهيه أناقةً في لبس البرنوس، وكانت أبهة لباسه تتناغم مع نبل تقاسيم وجهه وكبرياء مشيته. وبلوغه سن الرجولة؛ تلقى من خاله قيادة قبائل العيايشة وبني مزلين، فتميز بعدالة أحكامه وصواب نصائحه لدرجة أن الشيوخ أنفسهم كانوا يأخذون عنه دروساً في الحكمة. وانتشرت سمعته مع تقدمه في السن، فصار اسمه يتردد في كامل المنطقة.

عندما عزم الباي أحمد على تأديب الحنانشة الذين يقودهم الشيخ الرزقي، وباقترابه فروا إلى الأراضي التونسية. ولما عجز الباي عن اللحاق بهم خارج الحدود؛ فضل استعمال الخديعة معهم. حيث أرسل مبعوثاً إلى الحاج مبارك يمنحه الأمان له ولعائلته وخدمه. وبوثوقه في كلام الباي؛ دخل إلى أراضيه على رأس قبيلته، ونصب خيامه غير بعيد عن معسكره. ولم تتأخر أواصر الصداقة في الانعقاد بين الطرفين؛ فكانوا يتناولون الطعام ويقضون السهرات مع بعضهم، وأصبحوا كالإخوة يجمعهم السّلم الذي بدا أنه لن يزول.

في هذه الأثناء؛ عبّر الباي عن نيته في العودة إلى عاصمته. وعشية اليوم المحدد لمغادرته؛ اقترح على الحنانشة المجيء عنده مصحوبين بأبنائهم لقضاء السهرة في معسكره حتى يُودّعهم، وليتفقوا سوياً على التدابير الواجب اتخاذها للمستقبل؛ فتوجهوا إليه جميعهم. وفي منتصف الليل وجدوا أنفسهم وأبناءهم مقيدين ومسجونين من طرف جنود الخائن. لقد كانت المقاومة مستحيلة، وتحتم تقبل الإهانة في صمت. وتم فوراً ضرب أعناق شيخ القبيلة، بوضياف، وأبنائه. أما الحاج مبارك، والمختاري، والشيخ الحسناوي فقد اقتيدوا مكبلين بالأغلال إلى قسنطينة؛ حيث قطعت رأسا الأولين، وعُلّقت جثتاهما على أسوار المدينة. لقد كانا رجلين خيّرين، وظل قتلهما وصمة عارٍ في جبين الباي أحمد، وبكاهما الفقراء واليتامى؛ الذين بفقدهما فقدوا أفضل من يحميهم.

من دون شك أن الجلاد شحذ فأسه أيضاً لضرب عنق الشيخ الحسناوي؛ الذي كان محظوظاً بمخادعة يقظة حراسه والفرار من السجن. وسلك طريقه في الجبال؛ فلم يتمكن الفرسان الذين خرجوا لملاحقته من الإمساك به. وتحتم عليه الاختباء نهاراً والمسير ليلاً، وهام على وجهه لفترةٍ في البلاد طالباً استضافة البعض، واللجوء لدى البعض الآخر؛ رافضاً دائماً عروض العفو من طرف الباي. لقد كان يستذكر تجربة الماضي فلم يتراجع عن قراره.

وأخيراً تعب من حياة التسكع هذه؛ فلجأ إلى الكاف في الحدود مع تونس، وعاش في هدوء؛ حتى وصل نبؤه إلى الرائد يوسف في عنابة؛ فحثه على الدخول في خدمة فرنسا، وقرّبه إليه مستفيداً، أكثر من مرة، من نصائحه وخدماته. وفيما بعد، ظهر مرة أخرى عند الحنانشة؛ حيث أراد أن يكوّن لنفسه حزباً، ولكن بعد بعض النجاحات؛ هُزم على يد منافسه الشيخ الرزقي، ففرّ مرة ثانية إلى الشرق. ومنذ ذلك الحين تحالف مع فرنسا، وهو اليوم يستخدم تأثيره لتأطير

المعتزون أول من أصابتهم أسلحته المنتصرة. ومن هناك هجم تباعاً على أهالي ريغة، وعرب ساحل البابور، وأولاد تبان، وأولاد سي أحمد الذين كانوا يقيمون في الطَّبَقة على أعالي ريغة. وبينما كان النجاح حليفه في كل حملاته؛ لم يكن قايد عبد النور، سيدي سليمان، أقل حظاً منه ضد قبائل أولاد سلاَّم، وأولاد علي بن صابر القبائلية. لكن الحملة التي حقق فيها أكبر نجاح وانتصار كانت تلك التي شنها ضد بلاد سوف؛ وهي مجموعة واحاتٍ على حدود الصحراء.

باعتمادهم على بعدهم وعلى الرمال المتحركة المحيطة بواحاتهم؛ لم يكن سكان سوف يعترفون أبداً بسلطة البايات إلا اسمياً، وبذلك لم يكونوا يدفعون الضريبة إلا إذا أُرغموا على ذلك بالقوة؛ فعزم أحمد باي على تأديبهم كما فعل صالح باي من قبل.

لم تكن صعوبات حملةٍ بعيدةٍ كهذه، ولا المقاومة اليائسة للعدو توقف شجاعته للحظة؛ فدخل إلى عاصمة سوف منتصراً، واستُبيحت المدينة للنهب. لقد كانت الغنائم كبيرةً؛ من ذهبٍ وفضةٍ وتبرٍ (مسحوق الذهب)، وأقمشة الجريد وتقرت والزيبان؛ حيث وقع كل شيءٍ في يد الجند، ووجد الأهالي المساكين أنفسهم، خلال ساعاتٍ، مجردين من كل ممتلكاتهم. واستُعملت جمالهم لنقل حمولات التمر العديدة المستخرجَة من المخازن.

في طريق عودته؛ تلقى الباي استسلام شيخ تقرت الذي كان يخشى، دون شك، أن تتعرض مدينته لنفس مصير سوف؛ فلم يكتفِ فقط بدفع الضريبة المفروضة عليه، بل أضاف إليها هدايا معتبرةً تشكلت من أقمشةٍ محليةٍ، ومسحوق الذهب، وريش النعام الأسوَد، ونقوداً نُقشت عليها صور بايات تونس. كما أخذ الجنود معهم نعاماً وغزلاناً ووعولاً وحتى صغار الطاووس. كما لوحظ معهم جملان من سلالة المهاري[1] على ظهريهما سرجان خاصان مغطيان بقماشٍ أحمر وقطيفة. امتطى الباي أحدهما، وسيق الآخر

قبيلة أولاد يحيى بن طالب القوية؛ التي عُيِّن قايداً عليها سنة 1857.

1. نعرف جيداً كم هي ثمينةٌ هذه الحيوانات في الصحراء، وكم هو سريعٌ تقدمها؛ حيث تستطيع قطع من 60 إلى 80 مرحلة في اليوم الواحد.

أمامه، وضُمّ إلى خيوله المُسرجة بأبهى السروج.

عندما وصل هذا الموكب الكبير إلى مشارف قسنطينة؛ خرج الأهالي، الذين وصلتهم أخبار النجاحات التي حققها الباي، من أسوار المدينة محتشدين لتهنئته والاحتفال بهذا المشهد الجديد. واستقبل الجيش بالهتافات، وضاقت الشوارع بالحشد الممتد من سيدي سعيد الصفراوي (هرم «دامريمون» pyramide Damrémont) حتى دار الباي.

وسط هذا الحشد ودوي المدافع وقرع الطبول وعزف الموسيقى؛ دخل أحمد إلى المدينة ممتطياً مهاريه ومحاطاً بجميع ضباطه. ووراءهم كان يسير، في انضباطٍ واعتزازٍ، الجنود الذين بعد أن تقاسموا الأخطار تلقوا في هذا اليوم حصتهم من النصر. ثم جاء الرجال والنساء والأطفال مطلقين هتافات الفرح.

عندما دخل الباي إلى قصره؛ توجه الحشد ناحية الباردو (حي الفرسان حالياً)؛ حيث تم تنظيم استعراضٍ للخيالة من أروع ما يكون، وقد حضره جميع أعضاء المخزن مرتدين أحسن الثياب وممتطين خيولاً أصيلة. ومع حلول المساء؛ التحق كلٌ بمنزله سعيداً بالنهار الذي قضاه في المتعة دون أن يتدخل سيف الشاوش بأي شكلٍ من الأشكال.

من أجل تجنب الازدحام؛ تُركت الجمال والبغال المحمّلة بالغنائم خارج المدينة على ضفاف وادي الرمال. وفي الغد تم إدخال البغال التي تحمل الذهب والفضة، والزرابي والأقمشة، ووُضعت كل هذه الثروات في القصر. وخلال اليومين المواليين؛ تم تفريغ أكياس التمر في المخازن العمومية، فيما وُزّع قسمٌ منها على سكان دار الباي وخدم عائلاتهم.

تلقى الباشا نبأ هذا النصر بارتياحٍ كبير؛ فعبّر عن سروره برسائل تهنئة للباي.

بعد أن قضى أسبوعاً في الراحة؛ قام أحمد باي ببعض الاعتقالات، وقدّم لأيدي الجلادين رؤوس فرحات بن مراد، وسيدي خالد الشاوش، وعدداً من الأشخاص الأقل أهمية في المدينة. وفي الوقت نفسه؛ حلّت مِنّته على عائلتي بن زكري وبن نعمون لتعويضهما، دون شك، عن الظلم الذي أرغم

على إلحاقه بها بأمرٍ من الباشا خلال فترة حكمه الأولى.

وقام معظم أفراد هاتين العائلتين؛ المعتدّتين بالحظوة التي أولاها لهم سيدهم بانتهاز الظرف لسلب ممتلكات محكوميهم، ولم يكن جشعهم يعرف حدوداً ماداموا يحظون بحمايةٍ ساميةٍ كهذه.

من بين جميع محظييه؛ كان الباش مكاحلي منصور البايلي أكثر من استفاد من أفضاله. ولقد اندهش هو نفسه من المكانة التي شغلها في نفس الباي؛ فاعتبر نفسه أرفع شأناً من أعضاء المخزن الآخرين. وإذا كان كبرياؤه يجعله مضحكاً؛ فإن استبداده قد جعله مقيتاً.

حذا مصطفى بن زكري حذوه، ولكن الحاج عبد الرحمن بن نعمون لم يفعل ذلك. فوراء مظهره المتواضع؛ كان يوجد نبلٌ في المشاعر يجعله ينزل عند الحاجة ليكون في خدمة الجميع، وتتحول صرامته وكبرياؤه مع نظرائه إلى رفقٍ بمن هم أقل شأناً. وكان حديثه هادئاً لدرجة أنه كان يمكن التقرب منه دون خوفٍ؛ لأنه كان طيباً ورؤوفاً بالجميع، وكانت يده المبسوطة مستعدةً دوماً للعطاء لفك كُرب المحتاجين.

وكذلك كان حال عبد الله بن زكري أيضاً. فدون تكبرٍ، ورغم اسمه ومكانته الرفيعة؛ كان يهتم بسعادة محكوميه، ولم يكن يستعمل تأثيره إلا لإنقاذ الأبرياء من أيدي القضاة القاسية؛ الذين غالباً ما يكونون قليلي النزاهة. وكان طموحه الأكبر هو تعميم العدالة بين الضعيف والقوي.

هناك شخصيةٌ أخرى معروفةٌ لدى القارئ يجب الحديث عنها في هذا الموضع. إنه محمود، ابن تشاكر باي الذي نجده خليفةً مرةً أخرى رغم ابتزازاته المستمرة ونوازع حياته غير المنضبطة، ولكن ساعة نزع الثقة منه لم تكن بعيدةً، وكان سبب ذلك ما يلي.

بينما كان الباي يقاتل في الجنوب؛ كان محمود في قسنطينة ممثلاً للسلطة، فقرر يوماً الخروج على رأس طابورٍ مؤلفٍ من معطوبي أتراك الحامية لشن غارةٍ ناحية الساحل. ولما كانت تدفعه روح أبيه الشيطانية؛ أحسَّ فجأةً بتعطشٍ جامحٍ للقتل. ولأنه كان جباناً بقدر قسوته؛ فبدل أن يهاجم العدو

وجهاً لوجهٍ فضَّل اللجوء إلى الغدر.

بحجة طلب قواتٍ مساعدةٍ؛ استدعى إلى معسكره أولاد براهم، وهُم بطنٌ من بطون قبيلة الوندادية الكبيرة التي كان يتزعمها قايداً تمتد سلطته حتى بني ولبان وبعض القبائل القبائلية. فأتى أربعون منهم بأسلحتهم وخيولهم، واستقبلهم الخليفة بحفاوةٍ كبيرة، ثم أطلعهم على نيته بشن غارةٍ، اعتباراً من اليوم الموالي، على سكان الساحل. وبما أنهم لم يجلبوا خياماً معهم؛ فقد آواهم في خيام جنوده التي كان عددها عشرون. ولقد قام بفصلهم عن بعضهم بتقسيمهم عليها مثنى مثنى، وفي الخارج كانت خيولهم ترعى في هدوءٍ مع خيول فرسان المخزن. وسرعان ما استسلم الجميع للنوم أو تظاهر بذلك؛ حيث أن الاستيقاظ سيكون رهيباً بالنسبة لكثيرٍ منهم.

وفعلاً، ومع طلوع فجر الغد؛ أُخرج من الخيام العشرين رجالٌ مقيدي الأيدي والأرجل، يسحبهم الجنود، وكأنهم منتصرون، أمام خيمة سيدهم المحترم. تم اصطفاف هؤلاء الأربعين تعيساً، وفي حضرة ابن تشاكر؛ تم ضرب أعناقهم بكل برودةٍ من طرف سفاحيه. لم يُرحم أي واحدٍ من هؤلاء الأربعين بريئاً أمام هذا الوحش، ولم يتمكن أي واحدٍ من الهرب من هذا الكمين.

لم يكن لذلك الغدر المرفق بالوحشية أن يظل دون عقاب. فما إن بلغ نبأ هذه الفظاعة المقيتة مسامع أحمد؛ حتى استنكرها بشدة، ليس لفداحة الجريمة في نظره؛ لأنه كان قد تعامل هو نفسه بهذا الأسلوب عند النمامشة، بل لأن أولاد براهم كانوا خدماً مخلصين له يقومون بمراقبةٍ نشيطةٍ للطرق، وأن خسارتهم ستفسح المجال واسعاً لقُطَّاع الطرق. ومن جهتهم؛ تقدم أعضاء المخزن في وفدٍ بشكاواهم لديه؛ قائلين: «تعرفون جيداً الجريمة التي اقترفها الخليفة. من تجرأ قبله على القيام بمؤامرةٍ كهذه؟ بالتأكيد، لا أحد قبله. ولكن، من يكون هو؟ وأية سلطةٍ يتمتع بها؟ أليس، مثلنا جميعاً، خادمك ومنفذ أوامرك؟ وإنه يُخشى أيضاً بأن يُحمِّلك بلاط الجزائر مسؤولية هذه التصرفات، ويُقال بأن خليفتك لم يقم إلا بتطبيق أوامر سيده. فأسرعوا، إذاً،

باستباق الشكوك التي يمكن أن تحيط بكم؛ وبلِّغوا بالـمُدان الذي سيحل به العار والعقاب، ولتظهر براءتكم في اليوم المشرق».

أخذ الباي بهذا الرأي الحكيم؛ فأرسل تقريراً مُطولاً إلى ديوان الجزائر حول جريمة أولاد براهم، وسرعان ما تلقى الأمر بعزل الخليفة. لم يكن العقاب أكثر من هذا، ومن الطبيعي أن يستدعي ذلك الدهشة إذا لم يكن القاتل تركياً والضحايا عرباً؛ فالطغيان التركي قد أصبح مضرب المثل عند هؤلاء، كما يقال عندنا، إن الذئاب لا تأكل بعضها. وعُيِّن القايد سليمان مكانه.

خلال حكم أحمد باي عانت المدينة من مجاعةٍ كبيرة. فلم تكن تُموَّن الأسواق، ونقص القمح والشعير في كل مكان. وتلقى الشواش، عبثاً، الأمر بالقيام بحملاتٍ لأخذ الحبوب التي يجدونها في المخازن ودياً أو عنوةً؛ فكانت الكميات التي جمعوها غير كافية، وعانى السكان من جوعٍ شديد. لقد كان الناس يسارعون إلى محيط السوق، كل صباح، يتنازعون بشراسةٍ بعض حمولات القمح القادمة من مسافاتٍ بعيدة، وغالباً ما كانت تحدث مشاجراتٌ داميةٌ وسط العامة الجائعة؛ تعجز الشرطة على فضها. ولقد كان الحس الأخلاقي عالياً أيضاً في تلك السنة، 1822.

مع نهاية فصل شتاء ذلك العام؛ شن الباي حملةً على المعامرة، القبيلة المستقرة في جبال الأوراس، ولكن النجاح لم يكن حليفه هذه المرة. فبهزيمته؛ تعيَّن عليه التراجع دون تحقيق آماله. وما زاد من مأساته أنه لدى عودته قفز جواده وسقطا معاً؛ فكُسرت ساق الباي. وحُمل إلى قسنطينة وهو يعاني من الوهن والألم.

اقترب فصل الصيف، واقترب معه موعد الدنوش. وكان من الضروري هذه المرة أن يتنقل الباي شخصياً إلى مدينة الجزائر لدفع الضريبة. ورغم أنه لم يُشفَ تماماً من الإصابة؛ فإنه لم يتردد في السير، حيث قضى الليلة الأولى في بئر بفيرات، وفي اليوم الموالي خيَّم في ذراع الطبال، وفي اليوم الثالث نصب خيامه بالقرب من قارب.

هناك؛ هبَّت عاصفةٌ محمَّلةٌ بالبَرَد، وكانت شديدةً لدرجة أن معظم الخيول والبغال التي تشكل القافلة ضاعت. وقد أوشك الرجال على الهلاك إن طالت الأنواء أكثر؛ لأن الرياح اقتلعت خيامهم، ولم تكن الأماكن القليلة التي لجؤوا إليها في تلك الهضاب الخالية لتبقيهم في منأى عن العاصفة لمدةٍ طويلة. ولكن الله كان رحيماً بهم؛ فالغيوم المتراكمة فوق رؤوسهم بدأت بالانقشاع، وصفت السماء، وبدأ التفكير في محاولة إصلاح ما تخرَّب. لقد كانت الخسائر كبيرة؛ حيث أن زَادَ الطريق وأمتعة السفر فسدت أو ضاعت كلها تقريباً، ومعظم الدواب تاه أو قُتل، وأصبحت جميع الخيام غير صالحةٍ للاستعمال. كتب الباي لقايد الدار يأمره بأن يرسل له، على وجه السرعة، كل ما يحتاجه لمواصلة رحلته؛ فسارع قايد الدار بتلبية طلبه. وفي الوقت نفسه؛ أرسل يهوداً من أجل إصلاح الخيام الأقل تضرراً. ولقد أُنجزت الأشغال بنشاطٍ مكَّنهم خلال بضعة أيامٍ من إصلاح الأضرار؛ ليواصل الموكب طريقه بعد وقتٍ قصير.

باقترابه من مجانة؛ خرج أولاد مقران لتحية الباي، حيث كانوا يركبون خيولاً مسرجةً بسروجٍ فاخرةٍ. ثم اختلطت صيحات فرحهم بدوي إطلاق النار، ونظِّم استعراضٌ رائعٌ للخيول؛ أراد الباي أن يعبِّر فيه عن سعادته بهذا الاستقبال الذي يشبه احتفالاً بالانتصار، وقد انطلقت غرائزه القتالية؛ حيث أراد المشاركة في الاستعراض ليظهر قدرته وبراعته وسط مجموعات المتسابقين. ومن مساوئ الصدف الغريبة أن رصاصةً طائشةً انطلقت من بندقية أحد الفرسان كان بجانبه، والذي كان الباي متزوجاً من أخته، فأصابت يده وهشَّمتها، وسقط أرضاً مغمياً عليه؛ فاعتُقد للحظةٍ أنه مات. ترجل الجميع مسرعين إليه وحملوه، ولما استرجع وعيه؛ وضعوه على «الميسان» -وهو ما يشبه الهودج المصنوع من الحيَّاك يُحمل على ظهر بغل- حتى أوصلوه إلى خيمته. ومع أن الإصابة لم تكن خطيرةً؛ فإنها كانت تستدعي الراحة التامة لبضعة أيام، ولكن أحد لم يكن يود الانتظار؛ فأمر الحامية في اليوم الموالي بمواصلة المسير.

وأخيراً وصلوا إلى مدينة الجزائر، ودفع الباي الضرية في صناديق الخزينة العامة، كما أنه لم ينسَ تقديم الهدايا للشخصيات الفاعلة في البلاط. ورغم كل هذا، ولما كان يستعد في اليوم الثامن من وصوله للرحيل إلى عاصمته؛ وصل أمرٌ من الباشا بعزله واحتجازه للمرة الثانية في مازونة. فمكث فيها حتى وافته المنية.

دامت فترة حكمه الثانية سنتين اثنتين، وخلفه براهام باي.

براهم باي القريتلي

1237هـ، شهر أوت 1822م

يحمل خاتمه: براهم باي بن علي، ١٢٣٧

كان الباي الجديد، القايد السابق للحراكتة، متواجداً في جبال القبائل عندما وصل إلى قسنطينة خبر تسميته. وسرعان ما أرسلت إليه الخطابات الصريحة التي رُفع بموجبها إلى هذا المنصب السامي؛ فانطلق مباشرةً من المكان الذي كان متواجداً به إلى مدينة الجزائر لتلقي قفطان التولية من يدي الباشا. وبعد الانتهاء من هذه المراسم؛ غادر المدينة ليتسلم قيادته الجديدة. وفي الطريق التقى بالفرقة التي ستشكل حامية قسنطينة؛ فاتخذها موكباً وحرساً له. بوصوله إلى قصر الطير؛ ساق معه إلى سجن قسنطينة أبناء بن زكري وأبناء خدمهم الذين كانوا محظيين عند الباي السابق، والذين بعد مرافقته إلى مدينة الجزائر؛ اقتسموا معه ما لحق به فسُجنوا.

تمهَّل في السير قليلاً حتى يعرِّف قبائل الغرب بسلطته، ولم يستأنف تقدمه نحو عاصمة الإقليم إلا بعد أن زار كل المراكز الأساسية المأهولة الموجودة في طريقه.

لقد تم استقباله بفرح شديد، ولم تكن مظاهر الحبور والسرور التي تلقاها من طرف الأهالي بداعي المناسبة. فلقد كان، في الواقع، واحداً من قدماء سكان المدينة، ورغم أصله التركي؛ فإن العلاقات الطيبة التي كانت تربطه دائماً بالعلماء وعامة الناس جعلته منذ فترةٍ يكسب محبة الجميع.

لقد كان كريماً، بشوشاً، صادقاً، محباً للخير لرعيته، رفيقاً ورؤوفاً بالناس الخيرين، وصارماً وعديم الشفقة مع المجرمين ومثيري الفوضى مهما كانوا. وتحت حكمه لم يكن يحدث أن يقوم كبار القوم بتلك الممارساتِ التعسفيةِ التي تجعل سلطتهم ثقيلةً ومقيتة. لقد قُمع الاستبداد والتعسف بشكلٍ صارم، وللاحتفاظ بحظوة سيدهم؛ تعيَّن عليهم التقيد بحدود واجباتهم، فعاش الأهالي في هدوءٍ وسعادة.

كانت تشكيلة مخزنه كما يلي: الحاج حسين؛ خليفة، بوزيان بن العلمي؛ آغا الدايرة، سي محمد الزواوي بن جلول؛ باش كاتب، سي براهم بن قارة علي، صهر الباي؛ ڤايد الدار، أحمد بن الحملاوي؛ ڤايد الزمالة، وحملاوي بن معطي؛ باش سراج.

الغارتان المشهورتان الوحيدتان اللتان حصلتا في عهد براهم باي كانتا بهدف إخضاع الثائرين. فكانت الأولى ضد النمامشة الذين رفضوا دفع الضريبة؛ حيث فاجأهم الباي وقواته بهجوم مباغت، وسلبهم ستين ألف رأس ماشية؛ بيعت لاحقاً لأعضاء المخزن وللقبائل، ما حقق للخزينة إيراداً بمئتي ألف فرنك. أما الغارة الثانية فكانت ضد العمامرة وبني وجانة، ساكني الأوراس الذين كانوا يعيشون في ثورةٍ دائمة، وقبل فترةٍ صاروا يقومون بالسطو على أموال الغير وقطع الطرق. فتعرضوا لعقابٍ شديد، ولم تكن خسائرهم أقل من خسائر النمامشة.

في هذه الأثناء كان منصب ڤايد العواسي شاغراً؛ فعيَّن الباي في هذه الوظيفة الهامة ابنه إسماعيل، ولكن لأنه كان فتياً جداً على أن يؤدي مهام وظيفةٍ ثقيلةٍ كهذه على أكمل وجه[1]؛ ألحق به الشيخ سي أحمد المعايلي كمعلم ومستشار. لقد كان رجل علمٍ وتُقى نادرين، وكان خبيراً في تسيير الأمور، كما أنه أدى مهامه على أكملِ وجهٍ بالنسبة للتلميذ الفتي؛ الذي أدرك أنه قبل القيادة يجب تعلم الطاعة، وأنه على السيد ألا يسيء استعمال سلطته.

---

1. لا يزال هذا الابن على قيد الحياة؛ وهو اليوم ملازم أول في فرقة الصبايحية الثالثة، ويقيم بقسنطينة (1857).

وما يزال الحراكتة يحتفظون بذكرى طيبةٍ عن تلك الأوقات السعيدة، ولكنها كانت قصيرةً جداً.

لم تكن كل تصرفات براهم باي عادلة. ففي أحد الأيام كان يقوم بجولةٍ في ناحية المعذر، بالقرب من بلاد أولاد شليح، فتلقى في خيمته زيارةً من ابن المرابط سيدي إبراهيم بن أحمد بن السعيد؛ الذي كان والده صاحب كرامات. وبعد حديثٍ لم يُكشف سره أبداً؛ ضرب عنقه، ولكنه ندم على هذه الجريمة فيما بعد.

بعد أيام جاء لملاقاته في عين ياقوت، بين أم الأصناب وباتنة، رجُلان من الصحراء؛ الرباطي وبو حفص. وكان وجهاهما متغيرين، ودل صوتاهما على إثارةٍ كبيرة. استمع الباي لشكاواهما بهدوءٍ في بادئ الأمر، ولكن أحدهما؛ وهو الرباطي، انفعل لدرجة أنه وجه له عباراتٍ مهينة. لم يتمكن الباي من السيطرة على غضبه، فثار وانهال عليه لقتله. ومن حسن حظ الرباطي أنه تجنب ضربته، والتجأ إلى خيمة ابنه إسماعيل. ركض الباي وراءه حاملاً سيفه، ولما أدركه ضربه فقضى عليه. لقد كان الرباطي رجلاً فظاً، سيء السمعة، يزرع الرعب في بلاده بسرقاته وقطعه للطرق؛ فلم يلق إلا العقاب العادل عن جرائمه ووقاحته.

سرعان ما وقع حدثٌ جسيمٌ كان له من النتائج الوخيمة ما غطت على هذا الحادث الصغير. فقد رفض أولاد سي علي تاحمامت دفع الضريبة، ولم يريدوا، بأي حالٍ من الأحوال، أن يعترفوا بسلطة أعضاء المخزن. فكتب قايد الزمالة؛ أحمد بن الحملاوي، الذي كان يشرف عليهم، يطلع الباي على وضعية الأمور. حتى أنه تعهد بتقديم استقالته في حالة ما إذا رفض الباي تأديب هؤلاء المتمردين، وأضاف بأنهم لم يكونوا كثيري العدد، ولكنه من الصعب اللحاق بهم في الجبال التي يتخذونها مخبأً لهم. أخذ براهم باي شكوى مساعده بعين الاعتبار؛ فأرسل طابوراً لإخضاع المتمردين، وكان على رأسه الخليفة الحاج حسين، وقايد الدار بن قارة علي.

بوصولهم إلى أراضي أولاد سي علي؛ ترك القائدان أغلبية القوات في

المؤخرة، واصطحبا معهما القُوم وقوّةً صغيرة، وانتشروا منذ الصباح في المنطقة للاستيلاء على الماشية. ولكن العدو الذي علم بقدومهم؛ قام خلال الليل بإخلاء السهل والصعود إلى الجبال، فلم يجد جنود القُوم أمامهم مقاتلين يحاربونهم، ولا غنائم يأخذونها. ورغم عددهم الصغير؛ لم يترددوا في اللحاق بالهاربين، ولكنهم سرعان ما ندموا على مجازفتهم هذه. فحالما توغلوا بين الخوانق الضيقة؛ برز من فوق رؤوسهم فجأةً آلاف المقاتلين الذين استقبلوهم بالبنادق، وهاجموهم هجوماً مميتاً.

في هذه اللحظة؛ انقلبت فرس الخليفة بصاحبها في أسفل الهاوية، واستغل الجبليون حالة الفوضى الظرفية التي عمت بين صفوف المحاصِرين؛ فغادروا المرتفعات التي كانوا محاصَرين فيها، وانقضوا عليهم بعنفٍ شديدٍ لدرجة أنهم لم يجدوا حتى الفرصة للفرار؛ فهلك معظمهم وهم يدافعون عبثاً عن حياتهم. أما الخليفة المصاب من جراء السقطة؛ فقد أُمسك وقُتل، وأما الباش شاوش إسماعيل فقُطِّع أرباً، وأما قايد الدار وقايد الزمالة اللذين تمكنا من النجاة؛ فقد جمعا من نجوا من المجزرة، وسارعوا بالالتحاق ببقية الطابور ليجتمع الفريقان مساء ذلك اليوم. وفي الغد أحضر مرابطو أولاد سي علي إلى المعسكر جثمان الخليفة[1] وجثامين بعض القادة الآخرين الذين قضوا في الصراع؛ فحملها قايد الدار بعناية، وأخذها معه متجهاً نحو قسنطينة. لقد حدث هذا في بداية عام 1823.

تأثر الباي بهذا الحادث تأثراً شديداً، فقام بتوبيخ قايد الدار عندما وقف بين يديه؛ حيث حمّله مسؤولية مقتل خليفته والرجال الذين كانوا معه. وحتى بلاط مدينة الجزائر لم يقف متجاهلاً لهذه الكارثة؛ فكتب إلى براهم يعبّر عن استيائه الشديد، مضيفاً بأنه من المشين أن يحدث تحت إدارته أن تشتت حفنةٌ من العرب كتيبةً من القوات النظامية. وعُزل قايد الدار وخَلَفَه براهم خوجة، وأُسند منصب الخليفة إلى بكير خوجة. وبعد أيام عُين أحمد

1. دُفن جثمانه في جامع الباي؛ وهو المزار الذي لا يبعد كثيراً عن المكان الذي أقيم فيه هرم الجنرال دامريمون. ولم يبق للمزار أي أثر اليوم.

بن الحملاوي آغا للدايرة خلفاً لبوزيان بن العلمي؛ الذي تم عزله.

ولكن عزاءً كان في انتظار براهم باي. فبينما كان لا يزال تحت تأثير ذلك الفشل المغيظ الذي كدّر نفسه؛ بلغه بأن أخاه، مصطفى، الذي تركه صغيراً في تركيا قد وصل إلى مدينة الجزائر، وأنه ينوي أن يأتي إلى قسنطينة لزيارته. لقد أدخل هذا الخبر السعادة إلى نفسه؛ فأنسته الحزن الذي حل به منذ يوم أولاد سي علي المشهود، فعزم منذ تلك اللحظة على تحضير استقبالٍ لضيفه المرتقب يليق بمقامه الرفيع، وبالمحبة التي يكنها للأخ الغائب منذ سنواتٍ طوال.

لقد دعته ضرورة الواجب في هذه الفترة إلى قبائل أولاد سلام القبايلية؛ التي اجتاحت أراضي التلاغمة. ولأن المكان الذي ستُجرى فيه العمليات يقع في الطريق التي سيمر عليها أخوه؛ فقد سارع بالتنقل إليه على رأس قوةٍ كبيرة. وهناك التقى الأخوان.

بعدما قضيا ثلاثة أيام معاً، وبما أن الباي لم يكن يرغب في أن يدع مرةً أخرى قيادة الحملات لأشخاصٍ آخرين؛ فقد ترك مصطفى يغادر وحده إلى قسنطينة في موكب مشرّف، مانحاً له قصره الخاص ليقيم فيه، ومُطَمْئِناً إياه بأنه سيلتحق به عما قريب. وبعد انتهاء العمليات، عاد مع حاميته وتفرّغ لأخيه، فنُظِّمت الحفلات، وتنوعت الترفيهات. وبعد قضاء شهرٍ في هذه المدينة؛ غادر مصطفى مفعماً بالتشريفات ومغدَقاً بالهدايا. ولدى مروره، وبفضل توسلاته؛ استطاع قايد الدار المعزول وأبناء بن زكري الحصول على عفو الباي[1].

لقد كان فصل الصيف على وشك الانتهاء، وتوجب الاستعداد لدفع دنوش الخريف؛ فسارع الباي بتحصيل الضرائب المتأخرة. ولقد فعل ذلك

1. بعد هروبهم من السجن؛ لجأ هؤلاء عند مفورة بن عاشور في فرجيوة، حيث كانوا يعيشون منذ ذلك الحين في حالة تمرد. ولقد وجدوا في وصول أخ سيدهم مناسبةً جيدةً للحصول على عفو الباي، فذهبوا لملاقاته في المكان المسمى سدرة الغابة؛ حيث أحسنوا ضيافته، وعرضوا عليه موقفهم صراحةً، ورغبتهم في العدول عنه. تأثر مصطفى بندمهم وحسن استقبالهم، ووعدهم بالتوسط لهم؛ فلم يكن وعده عبثاً، لأن الباي وافق على طلبهم.

بهمةٍ كبيرةٍ مكّنته من إرسال خليفته حاملاً الضريبة إلى مدينة الجزائر في الوقت المحدد. وبعد أن أكمل الأخير مهمته عاد إلى قسنطينة، غير أن الدسائس قد فعلت فعلها في أثناء غيابه من خلال واحدةٍ من التقلبات المعروفة في السياسة التركية؛ فوجد منصب الخليفة مشغولاً من طرف قايد الدار الذي أرغم على الاضطلاع بهذه الوظيفة. ولم يتأخر الباي أيضاً في اختبار تقلبات الدهر؛ حيث أن بلاط الجزائر لم يستطع أن يغفر له الهزيمة التي مني بها الأتراك على يد أولاد سي علي. فمن خلال الاستقبال البارد الذي حظي به الخليفة في رحلته الأخيرة؛ أدرك بأن نجمه قد أفل، وبأنه قد حانت لحظة التخلي عن القيادة التي كان يمارسها منذ عامين ونصف العام. ولقد كان إحساسه في محله.

حدث هذا في أول شهرٍ من شتاء 1824. وفي يوم جمعة، ومع ارتفاع صوت الآذان؛ ترجّل رجُلان غريبان يظهر عليهما التكتم أمام قصر الباي، وتقدما إلى قايد الدار؛ الذي كان يتوضأ من أجل الذهاب للصلاة، وسألاه بشكلٍ مهذبٍ ومتحفظ عما إذا كان براهم باي ما يزال في حجراته.

من مظهرهما أدرك قايد الدار بأن المسافرَيْن اللذين يقفان أمامه هما بالتأكيد شخصيتان رفيعتا المستوى. وأجابهما بأن الباي قد ذهب لتوه إلى المسجد، وأمر بحمل أمتعتهما إلى غرفةٍ من غرف القصر، قبل أن يتجه إلى جامع سوق الغزل، حيث يتواجد الباي، حتى يخبره بقدوم هذين الغريبين، ويعبِّر له عما أوحى به كلامهما المتحفظ وهيأتهما المريبة.

في هذه الأثناء؛ أسرع أحد الفارسين، وهو الحاج بوعلام، إلى آغا النوبة، وسلمه كتاباً مختوماً بختم باشا الجزائر. لقد كان أمراً بتوقيف الباي.

وفوراً قام آغا النوبة بتسليح مجموعةٍ من الجنود، وتنقل معها إلى مدخل سوق الغزل. كان الباي، في هذه اللحظات، يستعد للخروج؛ وقد أمر بتقريب فرسه إليه، عندما أمسكت بكتفيه أيادٍ عنيفة، وأُخذ مُقيّداً إلى القصبة. وفي هذه الأثناء؛ كلف الآغا قايد الدار بالذهاب إلى بيت منماني، وأن يأخذ له فرس الباي السابق. لم يصدّق منماني آذانه عندما سمعه يناديه

بالباي؛ حيث لم يكن ينتظر أبداً أن يحظى بشرفٍ كهذا. ولما فتح فرمان الباشا وتأكد بأم عينه من تلك الحقيقة؛ لم يتمالك نفسه من الفرح، وسارع بمغادرة بيت أجداده نحو إقامة البايات الفخمة والخطيرة جداً.

مكث القريتلي ثلاثة أيامٍ أخرى في سجون القصبة، قبل أن يُساق إلى مدينة الجزائر ومنها إلى المدية. وسوف نراه لاحقاً ينازع الحاج أحمد سلطته. لقد دام حكمه عامين ونصف العام.

امحمد باي منماني

1240هـ، ديسمبر 1824م

يحمل خاتمه: امحمد باي بن خان

لقد كان عجوزاً هرِماً ذا نظرةٍ ضيقة، منهك القوى وعديم الذكاء. ولدى تقلده مناصب قايد جلاب الغنم، وقايد الشعير، وحتى منصب الخليفة؛ اشتهر بعدم كفاءته. كان تركي المولد، ورغم استقراره في قسنطينة منذ سنواتٍ طويلة؛ فإنه لم يكن يتكلم العربية إلا بصعوبةٍ كبيرة، الأمر الذي جعله يحظى بقبولٍ لدى أبناء جلدته، ولكن ذلك لم يسهم في كسب احترام محكوميه الحقيقيين.

يبدو أن هذه المرتبة غير المنتظرة التي رُفع إليها، دون شك، عن طريق بعض الدسائس داخل البلاط قد أثرت على قدراته العقلية. وبانبهاره ببهرج التشريفات؛ كان يعيش نشوة مراءاةٍ زيَّنها له المتملقون والمداهنون من أفراد حاشيته، فترك لهم وحدهم تسيير شؤون الإقليم. إن عماه، أو حتى يمكن القول جنونه؛ وصل به إلى درجة أنه في يوم تنصيبه في دار البـاي، ولما حضر العلماء وأعيان المدينة وأعضاء المخزن للترحيب به وتحيته؛ همَّ بضمهم إلى صدره واحداً تلو الآخر؛ وهو يقول: ـ هل عرفتموني على الأقل؟ هل تعلمون أني مولاكم وسيدكم الباي منماني؟ فأجابوه: ـ أجل، نحن نعلم بأنك سيدنا ونحن خدمك. ثم وقف في وضعياتٍ للسلطان بوضع يده

اليمنى على مقبض سيفه، وراح يلقي عليهم خطباً لا معنى لها؛ أثبتت كل كلمةٍ منها ضعف نفسه، وحب ظهوره الأحمق.

كانت تشكيلة المخزن الجديدة في عهده كما يلي:

بكير خوجة؛ خليفة، مصطفى بن لبيض؛ قايد الدار، عبد الله بن زكري؛ باش سراج، السماري؛ باش مكاحلي، بوزيان بن العلمي؛ آغا الدايرة، الحاج عبد الرحمن بن نعمون؛ باش كاتب، محمد سدراتي؛ شاوش، ومحمود بن تشاكر؛ قايد العواسي.

بعد أن نصب رجاله؛ تجهز الباي الجديد للتنقل خارج المدينة. فذهب على رأس طابورٍ إلى سدراتة الشراقة، بين قالمة وسوق اهراس، ولكنه لم يتوقف حتى خيَّم، لدى عودته، على ضفاف سيبوس في ضواحي قالمة. وهناك قام بتوقيف أحمد بن الحملاوي؛ الذي أصبح لاحقاً خليفةً للحاج أحمد، كما ضرب عنق بن عامر؛ الذي كان واحداً من عناصر الحملة، ثم رجع إلى قسنطينة.

لقد كانت هذه خرجته الأولى والأخيرة. ولكن الغارات كانت متعددة في عهده؛ والتي كانت من بينها تلك التي شنها ضد أولاد دراج وأولاد نايل في الصحراء؛ الذين خسروا خيامهم وأربعين ألف رأس غنمٍ في مواجهةٍ واحدةٍ جرت في وادي اللحم، لم يشارك فيها الباي شخصياً.

بعد فترةٍ من حملته الأولى؛ وجد نفسه خاضعاً لحتميةٍ لم يستطع سابقوه التخلص منها، حيث عيَّن في منصب الخليفة محمود تشاكر، وقد أفضى هذا التصرف إلى خسارة كل شيء.

محمود الذي لم يصلح الزمن ولا النكبات منه شيئاً؛ لم يكن يقدم لسيده سوى النصائح السيئة. فباستغلاله مرةً أخرى لمركزه الرفيع الذي لم يشرفه أبداً بتجاوزاته؛ لم يكن يريد سوى إشباع جشعه بالاغتراف من الخزينة العامة. ولكن لأنه كان يتوق لتلبية رغباته الجشعة وحبه للمال؛ كان يقوم بشتى أشكال الابتزاز في حق الأهالي. وكان للعدالة ثمنها نقداً؛ فكانت تُسلَّط الغرامات على البريء والـمُدان على حدٍ سواء، وتعددت التوقيفات

التعسفية، ولم يكن المساجين ليحصلوا على حريتهم إلا بدفع فدياتٍ كبيرة. ولقد وصلت به الجرأة حتى إلى استعمال سلطته الخاصة لاعتقال سي حمو بن كوتشوك علي؛ أحد أبرز شخصيات المدينة. وعبثاً حاول أخوه، الذي كان كاتباً، الاحتجاج على هذا الاعتقال، وعبثاً لقي الباي ليشرح له شكواه، ويطلب منه إحقاق الحق. حيث أجابه العجوز الضعيف: ـ لا أملك شيئاً، فمحمودُ هذا مجنون. ماذا تريدني أن أفعل له؟

هذا فقط ما أخذه هذا الأخ من الباي، وتنامت سلطة الخليفة مع عدم تعرضه للعقاب.

تأثر أعضاء المخزن لهذا التهاون الذي يضع أملاكهم وأرواحهم تحت رحمة هذا الأحمق. وبتغلبهم على الخوف الذي كان يربط ألسنتهم حتى ذلك الوقت؛ ذهبوا بدورهم إلى الباي يطلبون منه إصلاح كل ما أفسده الظلم الذي يحدث كل يومٍ باسمه. ولكن كلامهم كان صرخةً في واد، ولم ينجحوا في مهمتهم.

وعليه، فقد قرروا أن يرفعوا شكواهم أعلى من ذلك، وتنقلوا جميعاً إلى مدينة الجزائر. وفي مقابلةٍ خاصةٍ لدى بلاط الباشا، عرضوا، بلهجةٍ حادةٍ وبشكلٍ مطولٍ، شكاواهم المتعددة ضد الخليفة، وفي الأخير طلبوا عزله. أصغى لهم القضاة جيداً، ووعدوهم بأن تتحقق العدالة التامة. ومع ذلك، فإن هيئة القضاء لم تكن تريد إصدار أي حكم قبل سماع الطرفين؛ فقررت مراسلة الخليفة فوراً، واستدعائه للمثول أمامها والدفاع عن قضيته.

إن هكذا إجراء، وهكذا إبطاءٌ من طرف العدالة العثمانية قليلة الحرص عادةً على تحري الحقيقة، والسريعة في أحكامها؛ من شأنها أن يدعُوَا للاستغراب إذا علمنا بأن هذا قد حدث تحت حكم حسين داي؛ ذلك الرجل الخيِّر والمقتدر الذي تم انتخابه بإجماع كافة الأطراف، وهو ما كان نادر الحدوث ومثالاً للنزاهة، وربما كان الوحيد في تاريخ الإيالة.

فغداة تعيينه من طرف سابقه المحتضِر لخلافته، وبعد إبداء الجميع للموافقة على هذا الاختيار؛ سأل الميليشيا إن لم يكن اختياره يناسبها فإنه

مستعدٌّ للتنازل عن السلطة والرجوع إلى مرتبته السابقة.

إنه الداي نفسه الذي أدت إهانته لقنصلنا «دوفال» (Deval) إلى سقوط الجزائر تحت غزونا. ولكن إذا كانت مثل هذه الإهانة يمكن أن تجد لها عذراً لدى قانون الناس؛ فإنه يجب التذكير بأن حسين داي لم ينفك يكرر بأن الإهانة التي وجهها إلى القنصل لم تكن إلا بنية إهانة فرنسا[1].

ولكن، لنعد إلى الخليفة محمود.

فتطبيقاً للأمر الصارم الصادر عن بلاط الجزائر؛ وصل إلى هذه المدينة وهو متهيءٌ للدفاع عن نفسه. ومع ذلك، فإن كل ما استطاع قوله وفعله ليحظى بالصفح عن تصرفاته، وكل المساعي التي جرَّبها ليهدئ نفوس القضاة؛ لم تكن لتضحد الاتهامات الموجهة إليه، فتمَّ عزله فوراً، وعُيِّن مكانه القايد سليمان. وفي الوقت نفسه وُجِّه توبيخٌ قاسٍ لإدارة الباي منماني؛ حيث كتب له الباشا: «**إنكم، لحد الآن، لم تثبتوا سوى تكاسلكم وضعفكم. لقد عينّاكم ممثلاً لنا في إقليم الشرق، ولقد خوّلنا لكم سلطةً تضاهي سلطتنا؛ فتنازلتم عن تلك السلطة، بطريقةٍ جبانةٍ، لتضعوها بين يدي أحمقٍ مخالفٍ للواجبات لا يصغي إلا لجشعه ونزواته، فينهب الخزينة، ويحاكم ويدين ويلقي في السجن من يريد. كل هذا يجري تحت أعينكم، وتركتموه دون عقاب! إن سلوكاً كهذا من طرفكم لا يُغتَفَر، ولا يمكننا إلا أن نشجبه**».

كان من شأن تلك التوبيخات أن تُربك الباي، وتُرجع له ما تبقى له من طاقةٍ كانت ضروريةً لمركز قيادةٍ كهذا. ولكن ماذا يستطيع عجوزٌ غبيٌّ لم يَكِلْهُ ضعف النفس إلا لجسدٍ أنهكه الدهر والملذات؟ ومنذ ذلك الحين زال كل تقديرٍ لشخصه، وتلاشى النفوذ المرتبط بمنصبه، وصارت سلطته غير معترفٍ بها تماماً. تعددت السرقات والاغتيالات حول المدينة وحتى داخلها، وأصبحت الجرائم تُرتكب في وضح النهار ووسط الشوارع. وفي كل يومٍ كانت توجد جثثٌ مقطَّعةٌ في سوق الحبوب، وفي المقبرة اليهودية

---

1. انظر المذكرة الموجهة إلى الملك وغرفتي البرلمان حول الأسباب الحقيقية للقطيعة مع الجزائر، ص73، لصاحبها «دولابورد» (Delaborde)

أو في باب القنطرة. وافتقد المسافرون الأمان، فما أن كانت الشمس تشرف على الغروب؛ حتى تنتشر عصابات اللصوص في الضواحي لتترصد الطرق المؤدية إلى قسنطينة، فتسلب عابري السبيل، وغالباً ما تتركهم مقتولين هناك، وصار مركز بير بقيرات مقصداً لهؤلاء الناهبين.

بعيداً عن الوقوف أمام هذه الفوضى؛ لم يقم أعضاء المخزن إلا بتهييجها، وذلك بسبب كراهية الباي وخاصةً مفضّله محمود بن تشاكر؛ الذي لم يبتعد عنه رغم كل التحذيرات التي تلقاها، وأصبح موقف الباي موضوع انتقادٍ يوماً بعد يوم. وبمكوثه في قصره بداعي الخوف وخذلان موثوقيه ومقرّبيه، وبتلقيه آراء ونصائح متضاربة؛ شعر بفقدان صوابه، وصار يبدي إشاراتٍ واضحةٍ عن اختلالٍ عقلي.

فبينما كان ذات يومٍ يعقد مجلسه في المحكمة؛ قام فجأةً وألقى بطغانه المربوط في حزامه، وغادر القاعة، واتجه حافي القدمين كالأحمق إلى حجرةٍ مجاورةٍ يوجد بها من صدرت في حقهم أحكامه. ولما رأوه يتخذ مكاناً بينهم، اعتقدوا، في بادئ الأمر، أن ذلك كان واحدةٌ من التقلبات المفاجئة التي عوّدتهم عليها السياسة التركية منذ فترة. ولكن من خلال حركاته وأقواله؛ أدركوا فوراً بأنه مجنونٌ أفسد عقلَه تنكيدُ وتمرد رعيته.

لحق به خادمه حاملاً له نعله، ثم دخل إلى قاعة المحاكمة دون أن يقول شيئاً، وبعد لحظاتٍ ذهب إلى حجراته. وهناك جمع كافة «فقيرات»* المدينة، وأمَرَهُن بالرقص أمامه مع الغناء والقرع على الطبلات، ثم خلع ملابسه وارتدى ملابساً نسائية، وبدأ بالرقص مع الراقصات مؤدياً عروضاً شديدة الغرابة.

لم يتأخر خبر هذا التصرف الجنوني في الانتشار في كامل المدينة. فإلى جانب عدم الاحترام السائد تجاه شخصه؛ أضيف شعورٌ عميقٌ بالاحتقار. وفي غمرة هذه الانشغالات؛ فاجأه موعد دنوش الربيع لسنة 1826.

*. الفُقيرات: كلمة عامية جزائرية مفردها «فقيرة»؛ وهن النسوة اللاتي يغنين ويرقصن في الأفراح. (المترجم)

وكان عليه الذهاب إلى مدينة الجزائر، ولكن صناديق الخزينة كانت فارغةً تقريباً؛ ما لم يجعله يتجرؤ على المثول شخصياً، فكتب رسائل اعتذارٍ للديوان متحججاً فيها بعدم سماح وضعيته الصحية، في تلك الفترة، بتحمل عناء سفرٍ طويلٍ كهذا، وبأنه يأمل بأن يؤديه في العام الموالي. ومن المؤسف أن تلك المبررات لن تُقبَل، وتلقى أمراً بالقدوم شخصياً ودون تأخير.

من جهةٍ ثانية، وصلته خطاباتٌ استثنائيةٌ من طرف عددٍ من الشخصيات المرموقة في بلاط مدينة الجزائر تخبره بأنه في حالة عدم اكتمال المبلغ المطلوب؛ فإنهم يلتزمون بدفع التسبيقات اللازمة على أن يقوم بسدادها لاحقاً. وعليه؛ فليس له أن ينشغل بالمسألة المالية، ويستطيع أن يأتي مطمئناً.

لم تكن تلك الوعود المعسولة سوى طُعماً مُغرياً لاستقدامه إلى مدينة الجزائر. وقد التقطه الباي الضعيف، وغادر بقليل المال الذي كان موجوداً في صناديق الخزينة، ولكن بوصوله إلى العاصمة؛ لم يجد من يرغب في استكمال المبلغ المطلوب. وللحفاظ فقط على ما تبقى في نفسه من وهم؛ تمت الموافقة على تقييد ما تبقى من الضريبة في سجل الديون العامة باسمه؛ شرط أن يقوم بتخليصه في الأيام الأولى من عودته إلى قسنطينة.

ولكنه سرعان ما تم تخليصه من هذا القلق. فبعد قضاء الأيام الثمانية النظامية في العاصمة؛ سلك طريق العودة، وبوصوله إلى حمزة على بُعد ثلاثة مراكز من مدينة الجزائر؛ تمَّ توقيفه وتقييده، وسيق تحت الحراسة إلى القليعة؛ التي أُجبر على الإقامة بها. مكث هناك حتى سقوط مدينة الجزائر على يد الفرنسيين، وتوفي في الأخيرة بعد عشر سنواتٍ من الاحتلال. دام حكمه عاماً وثمانية أشهر، من ديسمبر 1824 إلى نهاية يوليو 1826[1].

1. نحوز عن هذا الباي عقداً مؤرخاً في بداية شهر ديسمبر 1825 ينص على هبةٍ لصالح المدعو عمر بن خالد للملكية المسماة «تادرارت وسفرينة» الواقعة في جبل القراسطة التابع للبابور؛ الذي تستخرج منه الحكومة التركية، حسب هذا العقد، الأخشاب اللازمة لصناعة سفنها. لقد ارتأينا أنه من المناسب ذكر هذا؛ لأنه مبررٌ إضافيٌ بأن تكون ثروات الجزائر الغابية تحت تصرف بَحْريتنا يوماً ما، ويجب أن نأمل هذا عندما تصبح الجبال التي تحتوي عليها سهلة البلوغ عبر طرقٍ سالكةٍ للعربات.





الحاج أحمد باي

آخر بايات قسنطينة

دام حكمه من أغسطس 1826 إلى 13 أكتوبر 1837

يحمل خاتمه الأول: الحاج أحمد باي بن محمد الشريف، ١٢٤٢

وعلى خاتمه الثاني نقرأ: الحاج أحمد باشا بن محمد الشريف، ١٢٤٦ .

بسقوط منماني وقع الإقليم فريسةً للنزاعات والاضطرابات. فكان الأهالي يرزحون تحت نير الأقوياء، وشيئاً فشيئاً صار القمع الذي يمارسه الأتراك غير مقبول.

ولتنظيم الفوضى وإعادة الهدوء إلى البلاد؛ توجب تعيين رجلٍ حازم وقادرٍ على رأسها. ولقد وضع حسين باشا نظره على الحاج أحمد؛ الذي كانَ قد شغل منصب الخليفة تحت حكم إبراهيم الغربي، والذي منذ فراره من قسنطينة سنة 1819، كما ذكرنا سابقاً، صار يقيم في مدينة الجزائر تارةً، وتارةً في البليدة؛ التي كان بها حين ضربها زلزال 1825. وخلال مكوثه الطويل في العاصمة، استطاع أن يكسب احترام وحتى صداقة الباشا الذي كان يحب أن يدعوه ابني، ولأنه لم يكن يفتقد لموالين مستعدين لخدمته؛ وقع الاختيار النهائي عليه.

ولكن قبل القيام بتنصيبه؛ أراد حسين، إما شخصياً أو على الأقل بوساطة أحد معاونيه، دراسة موارد واحتياجات الإقليم، والبحث عن الوسائل الناجعة لإخماد تلك الثورات غير المنقطعة التي تتخذ منه بؤرةً دائمةً للصراعات والحروب. ومن أجل هذا؛ كلف الآغا يحيى بمرافقة الباي الجديد على رأس طابورٍ ليجوبوا مختلف المراكز السكانية التي توجد في طريقهما.

فانطلقا إذاً من مدينة الجزائر. وبعد أن قطعا بلاد عقبة عمّال في وادي الزيتون؛ وصلا إلى ونوغة أول مركز يقع في إقليم قسنطينة. وهناك بدأت مهمتهما؛ حيث خُصصت عدة أيامٍ لمعاينة حالة البلاد، وللوقوف على

التجاوزات التي يجب إصلاحها بشكلٍ مستعجل، والتعديلات التي كان من الأنسب إدخالها. وفي الوقت ذاته؛ شُرع في تحصيل الضرائب. وبعد الفروغ من ذلك؛ واصل القائدان سيرهما، فزارا على التوالي بلدان زمورة وريغة وسطيف وأولاد عبد النور وأولاد سلطان دون أن يلقيا ما يعيقهما. ولكن عند وصولهما إلى بلزمة؛ توقفا بفعل مقاومة أهلها الذين كانت تحركهم روح الاستقلال، وكانت تحميهم الجبال المحيطة بهم التي تكاد تكون مستحيلة الاجتياز. ورغم هذا؛ فإنهم أُجبروا على الاستسلام أمام نيران الأتراك، ورضوا بالسلام وفق الشروط التي أملاها عليهم المنتصر.

وباستعادة النظام، واصلا جولتهما التفتيشية، حيث صعدا نحو الشمال؛ فوصلا إلى عنابة دون عوائق.

لقد كانت مهمتهما على وشك الانتهاء؛ حيث أنهما جابا الإقليم عبر أكبر مسافةٍ عرضاً. وفي طريقهما جمعا شكاوى الناس ومطالب الأعيان. أما التجاوزات الـمُرتكبة في السنوات الأخيرة من طرف الميليشيا التركية؛ فقد قُمعت بصرامة، وأما التحسينات التي بدت لهما تستدعي تطبيقاً فورياً؛ فقد وُضعت حيز التنفيذ، كما وجدا أنه ليس من الخطر إرجاء الإصلاحات الأخرى التي تستوجب إدارةً حكيمةً ومحتاطةً إلى الوقت المناسب. ثم توجها نحو قسنطينة التي كان الحاج أحمد يتلهف للوصول إليها حتى يتسلم قيادتها بشكلٍ نهائي.

كان دخوله إلى عاصمة الشرق احتفائياً، ليس لأن الأهالي كانوا مجمعين على الباي الجديد؛ حيث أنه سيجد معارضةً شديدةً داخل حزب الأتراك، ولكنه كان من التهور إبداء مشاعر عدائيةً في هكذا مناسبة. فاتخذ كل واحدٍ إذاً قناعاً يتناسب مع هذا الظرف، واعتقد الحاج أحمد بأن الفرحة عامة.

قضى أولى الأيام من تنصيبه في دراسة حالة الأهالي، واحتياجاتهم، وشكاواهم، وأسباب الاضطرابات التي كان الإقليم مسرحاً لها مؤخراً، والوسائل التي من شأنها منع تجددها. ولاجتثاث الشر من جذوره؛ كان من الضروري تنفيذ بعض الإعدامات، فلم يتردد الحاج أحمد في ضرب أعناق

الأتراك الأكثر تورطاً في الأحداث الأخيرة، كما طال العقاب نفسه العربَ الذين أجمع الرأي العام على سوء تصرفاتهم، وتآمرهم وفسوقهم. إضافةً إلى هذا؛ نظم في كامل الإقليم ضريبة العشور التي تتمثل في عشر غلة الحبوب، وتأسست هذه الضريبة دون عائق يذكر مادام الباي عرف، منذ وصوله، كيف يوحي برهبةٍ مُؤَمِّنة.

بعد اتخاذ هذه الإجراءات واستعادة الهدوء؛ استعد الآغا للرجوع إلى العاصمة. لقد كان اقتراب فصل الشتاء لا يسمح بزيارة باقي الإقليم، وبذلك عاد إلى مدينة الجزائر وهو في تمام الرضا على زيارته التفتيشية، ولم يزد التقرير المفصل الذي قدمه للباشا إلا في قناعة الأخير بحسن ظنه تجاه محظيّه.

لقد بدا الحاج أحمد أهلاً للثقة، وعلى هذا الأساس، وبعد بضع سنوات؛ قال حسين باشا هذا، الذي صار أسير فرنسا، لدوبورمون (De Bourmont): «إن أحمد باي يستحق ثقتكم إذا استسلم، وسيكون وفياً لكم». وللأسف، فإنه لم يستسلم، أو أننا لم نعرف كيف نجعله يستسلم. وإن المقاومة اليائسة التي قام بها ضدنا لمدة سبع سنوات؛ قد كلفت جيوشنا دماءً كثيرة، كما قاد سلسلةً من الفظاعات غير المعقولة التي ميَّزت أواخر فترة حكمه.

ما إن تسلم مقاليد الحكم؛ حتى أدار الإقليم بحزم واستقامةٍ نَدَر حدوثها لدى سابقيه. لقد كان صارماً ولكن عادلاً في أحكامه؛ فاستطاع أن يضع حداً لقمع واستبداد بعض العائلات دون أن تلقى عقاباً تحت حكم سابقه الضعيف، وأُرغم مثيرو الفوضى والعنف على الاختباء أو الفرار.

أُدخلت تعديلاتٌ هامةٌ في جباية الضرائب. فبعد أن كانت الوضعية المالية سيئةً جداً؛ صارت الأموال تدخل بسرعةٍ سمحت للخزينة العامة أن تمتلئ بإيراداتها.

مع مطلع عام 1827، ومع أن موعد دنوش الربيع لم يكن قد حان بعد؛ طلب الحاج أحمد الإذن من الباشا بالقدوم شخصياً إلى مدينة الجزائر حتى يدفع الضريبة مسبقاً. وكما كان متوقعاً؛ فقد تمت الموافقة على ذلك دون حرج، ووصل الى بلاط الباشا مصحوباً بأبرز شخصيات الإقليم، ومحمَّلاً بأروع

الهدايا لمولاه ووزرائه. فأعرب له حسين مندهشاً عن سعادته ورضاه بأكثر العبارات إطراءً، وجدد له التثبيت الكامل لجميع سلطاته التي يتمتع بها.

استغل الحاج أحمد تطلعات سيده الطيبة تُجاهه لطلب إذنٍ بمعاقبة بعض العائلات المؤثرة في قسنطينة؛ التي عملت على إعاقة سير إدارته بمعارضتها المستمرة وبدسائسها السرية، ولكنه لم يتجرأ على تأديبها دون تلقي أمرٍ من سيِّده. فاقتنع الباشا بدوافعه، ومنحه كامل الحرية في التصرف. ومنذ ذلك الحين، استأذن منه وعاد إلى قسنطينة ويداه فارغتان من الهدايا، ولكنهما مليئتين بالانتقامات.

بوصوله إلى قصره؛ كان متلهفاً للانتهاء من أعدائه؛ الذين كانوا يعتقدون أنهم كانوا في منأى من ضرباته باعتبار مولدهم وموقعهم. وصدرت أوامرٌ بالقبض على ولدي بن زكري؛ مصطفى وعبد الله، وأولاد بن نعمون وبن لبيض؛ حيث وُجدوا على أراضي الشيخ الزواوي[1]، بالقرب من شطابة التي لجؤوا إليها، وقُطعت رؤوسهم، ولم ينجُ من الموت سوى محمد العربي بن نعمون المتوفى سنة 1856. ولقد أُخذت رؤوسهم إلى قسنطينة؛ حيث كانت فزاعاتٍ لكل من يمكن أن تسوِّل له نفسه تقليدهم.

وبذلك سار كل شيءٍ كما أراد؛ فقد قضى على أعدائه، ورضخ له الأتراك، وصارت سلطته غير محدودة. وخلال أربع سنوات؛ استطاع بفضل هذه السياسة الحكيمة والحازمة، ودون مشاكل، أن يحتفظ بالمنصب الذي فشل العديد من سابقيه في الاستمرار فيه. وفي شهر رجب من عام 1243هـ (يناير 1828م)؛ كتب للباشا يقول: «إن البلاد هادئةٌ والحمد لله»، ولكن في رسالةٍ أخرى مؤرخةٍ في 8 سبتمبر الموالي؛ نجد أنه قام بغاراتٍ متتاليةٍ على أولاد بورنان، وأولاد سلطان، وأولاد سلاَّم.

خلال سنوات السِّلم والفراغ القصيرة هذه؛ استطاع أن يشيِّد بجانب داره، وبمصاريف كبيرة، ذلك القصر الذي يُعتبر الصرح الوحيد للسلطة التركية بالجزائر الجدير باجتذاب أنظار أوروبي؛ حيث ينتشر الرخام بوفرةٍ،

1. طالع حول هذا المرابط الشهير ما أوردناه عنه آنفاً.

وتذكِّر بساتين البرتقال والليمون فيه بالحدائق الساحرة لبغداد مدينة الألف أعجوبةٍ وأعجوبة. فهناك، وبانتشائه بعبق الحرم؛ كان ينسى، في أحضان مئة جاريةٍ، عبء شؤون الحكم الثقيل، وكان يستسلم، دون قيد، إلى هيجان أهوائه الشهوانية. ورغم هذا؛ فإن ملذات الحب المهيِّجة لم تكن أبداً تُضعف هذه النفس الفولاذية. فقد كان يقترب من النساء بمزاجٍ عنيف؛ غير أنه لم يكن يحبهن ولا يحترمهن، ولم تكن حياتهن تعني له شيئاً، وكان قلبه لا يحس أبداً بتوسلات ودموع عشيقةٍ ناحبةٍ قد جعله مزاجه أو نزوته يعذبها أو يقتلها[1].

لكن الأحداث الجسيمة التي كانت تتحضر وراء البحار؛ سرعان ما كانت ستأتي لتغيِّر مسار أفكاره، وتَصرِفه لفترةٍ عن إصلاحاته الداخلية، وتنتزعه من ملذات الحرم.

إن بأخذ فرنسا على عاتقها قضية الإنسانية المغتصَبة والـمُهانة في ما لا ينبغي المساس به، وهو حقوق الأمم، قد قررت معاقبة الجزائر؛ آخر معاقل القرصنة الحديثة. فالإهانة التي وجهها الداي لممثلنا دوفال كانت بمثابة الشرارة التي وضعت النار في البارود. فقد تبع ذلك إعلانٌ للحرب، وبعد ثلاث سنواتٍ تراءى الماريشال بورمون على سواحل مدينة الجزائر على رأس الأسطول الفرنسي. وفي 14 يونيو 1830 تم إنزال الجيوش في سيدي فرج. لقد كان الخطر داهماً؛ فأُرسلت خطاباتٌ على وجه السرعة إلى بايات الأقاليم الثلاث مع أمرٍ بالقدوم بكل المجندين لصد جيش الكفار.

ولكن رغم الجهود المتظافرة للأتراك والعرب الذين جاءوا من كل مناطق الإيالة؛ رفرف العلم الفرنسي في يوم 5 يوليو من العام نفسه على قصبة الجزائر، ليشير لأوروبا المتفاجئة بنهاية القرصنة البربرية، وللشعب المهزوم بقدوم حضارةٍ جديدةٍ على هذه الأرض.

بعد أن قاتل الحاج أحمد ببسالةٍ على رأس قومه، ولما وجد بأن كل مقاومةٍ

1. أنظر حول هذا القصر والفظاعات غير المسبوقة التي كان مسرحاً لها، العمل الكامل الذي قام به فيرو تحت عنوان: Monographie du palais de Constantine

أضحت عديمة الجدوى؛ سارع بالرجوع إلى إقليمه. ولكن نبأ سقوط مدينة الجزائر كان قد سبقه إلى عاصمته، والأتراك أعضاء الحامية كانوا قد استغلوا غيابه لرفع راية الثورة، وباتباعهم لمحمود بن تشاكر الذي نصب نفسه قائداً عليهم؛ خرجوا إلى راس الحامة لقطع الطريق على الباي وقتله.

ومن جهة ثانية؛ اجتمع أعيان المدينة عند شيخ البلاد، سي محمد بن لفقون، للتشاور عما يجب فعله في هذا الظرف. وباختلاف الآراء؛ تقرر عدم الاعتراف بالسيطرة الفرنسية والاستمرار في طاعة الحاج أحمد، على أن يلتزم بقبول الشروط التي يعرضونها عليه حال عودته.

بعد اتفاقهم خرج أعضاء الديوان لمقابلة الباي، وأخذ شيخ البلاد الكلمة قائلاً له: «سيدي، منذ أن حكمت بلدنا استحسَّنا إدارتك الحكيمة، ولهذا نريد أن تبقى زعيمنا. كن باينا كما في السابق، ونحن بدورنا نعدك بالمساعدة والإخلاص والطاعة».

فرح الباي بهذه المبادرة المجامِلة، ووجه لأعضاء هذه الوفادة أجزل التشكرات، ودخل معهم إلى المدينة؛ حيث شكل فرقة زواوة من القبائل الذين تبعوه، وسار نحو الأتراك المتمردين. وبعد قتالٍ عنيف؛ كان النصر حليف الباي، وطلب المتمردون العفو. فوافق على ذلك بعد أن اشترط عليهم أن يسلموه أولئك الذين كانوا أول من آثار التمرد؛ فقتل من قتل، ونفى من نفى.

دخل الباي إلى قسنطينة، وهناك اهتم بتنظيم سلك الزواوة الجديد بشكلٍ جيد. فالانضباط الصارم والمناورات المستمرة؛ جعلت منه جيشاً من النخبة يمكنه أن يحل محل الميليشيا التركية بجدارة. لم يهمل الباي أي شيء من شأنه أن يضع المدينة في منأى عن الضربات؛ فرُفعت الأسوار وزُوِّدت بالمدافع، وأصبح بإمكان المدينة أن تواجه هجمات العدو.

ولكن إذا كانت قسنطينة قد جعلت بايها زعيماً لها؛ فقد كانت سلطته غير معترفٍ بها في عديد المناطق من الإقليم. فقبائل ضواحي سطيف أرسلت وفادةً إلى باي قسنطينة الأسبق، براهم القريتلي، الذي كان يقيم في

المدية منذ عزله؛ لتقدم له فروض الخضوع، وتطلب منه قيادتها. قَبِل الباي تلك العروض، وسارع بالنزول عند رغبات الذين جاءوا بمحض إرادتهم يقدمون له الوسيلة لاستعادة السلطة التي كان يمارسها في وقتٍ مضى. وتم الاتفاق على موعدٍ على أراضي بن يلس؛ حيث وجد قبائل منطقة سطيف مجتمعةً ومستعدةً لاتباعه حيثما يقودها. وبعد أن تلقى مبايعتها؛ انطلق معها نحو قبيلة أولاد عبد النور الكبيرة التي أصر أن يربطها بقضيته، الأمر الذي لم ينله إلا بعد محادثاتٍ طويلةٍ، وقدم لها وعوداً كبيرة. لقد حدث هذا في نهاية خريف 1830.

من جانبه، عندما علم الحاج أحمد بهذا التمرد؛ لم يدَّخر جهداً لإفشال مؤامرة أعدائه. فجمع، على وجه السرعة، قوةً كبيرةً من الفرسان تشكلت في غالبها من بدو الصحراء، وزحف بنفسه مع مشاته النظاميين لقتال المتمردين في بيار الجداد إلى الجنوب قليلاً من المشيرة. وبخذلان أولاد سحنون لبراهم باي؛ تكبد هزيمةً نكراء، وأما الرجال الذين بقوا موالين له فقد شُتتوا؛ وبذلك تفكك الحلف.

عاد الحاج أحمد إلى قسنطينة منتصراً، ومعه جثث المهزومين. ولإضفاء مزيدٍ من البريق على اسمه؛ اتخذ، منذ ذلك اليوم، لقب باشا؛ حيث نقشه على خاتمه بدل لقب الباي الذي كان يحمله. وبفرمان ثبت له الباب العالي هذا اللقب.

المتبقون من الميليشيا التركية الذين أعطاهم الباي الأمان، ورغم إضعافهم بشكلٍ كبير؛ إلا أنهم كانوا لا يزالون يحدثون له بعض المتاعب. وللتخلص منهم؛ صادر ممتلكاتهم، ووزعهم على القبائل في مجموعاتٍ قبل القضاء عليهم؛ فلم يُسمع عنهم شيءٌ بعدها.

أما براهم باي؛ ذلك المغمور الفاشل الباحث دوماً عن السلطة، فلم يدع الفشل الأول يثبط عزيمته، وذهب إلى الصحراء متبوعاً ببعض المجندين؛ حيث استطاع أن يكسب تحالف عددٍ من القبائل قبل أن يعاود الزحف نحو قسنطينة. لم ينتظر الحاج أحمد وصوله؛ فسار بخطى حثيثةٍ لملاقاة عدوِّه،

وكان ذلك في عين زانة؛ حيث دارت واحدةٌ من أكثر المعارك شراسةً، وكان النصر حليفه مرةً أخرى، وأُرغم منافسه على الفرار وترك مناصريه لغضب المنتصر. بعد أن قطع الباي رؤوس كل الجثث؛ أرسلها إلى قسنطينة كدليل غلبة، وواصل سيره نحو الصحراء؛ حيث تلقى خضوع جميع أهالي الزاب. وبعد غيابٍ دام أربعة أشهرٍ؛ عاد إلى عاصمته محملاً بالغنائم وواثقاً من سلطته أكثر من أي وقتٍ مضى.

بانتصاره على أعدائه، وبرهبته واحترامه من طرف رعيته؛ لم يكن ينقص الحاج أحمد لإثبات لقب الباشا سوى سك العملة باسمه. وذلك ما قام به؛ حيث تم في سنة 1831 إنشاء دارٍ للنقود بجانب قصره سُكَّت فيها كميةٌ من القطع الفضية والنحاسية التي صارت تُتداول في كامل الإقليم. كما أنه اعتنى بالإدارة؛ فأحاط نفسه برجالٍ حكماء ومتمرسين. وازدهرت قوانين العدل والإنصاف في فترةٍ معينةٍ من حكمه؛ غير أن هذا الحال لم يستمر طويلاً. فبانبهاره بسلطته، وبانتشائه بمجده؛ سرعان ما أصبح قاسياً ومستبداً، ولا ينصت إلا لنزواته وغرائزه.

في هذه الأثناء، وبعد أن هام براهم باي على وجهه بين القبائل دون أن يُكوِّن لنفسه حلفاً؛ تمكن فجأةً من الاستيلاء على عنابة، واستقر بها منتصراً؛ حيث أن سكانها كانوا قد طلبوا نجدته مخاطبين إياه: «لقد كنتَ في السابق باي قسنطينة، وكانت عنابة تتبع سلطتك، أما اليوم فقد زال حكم الأتراك، وحلت الحكومة الفرنسية محله. فلمن نعطي اليوم دعمنا؟ من سيكون حامينا وقائدنا؟ فكل وسيلة اتصالٍ بيننا وبين قسنطينة أضحت مستحيلة، وصارت المسالك مرصودة، وامتلأت الطرق باللصوص. فلتكن إذاً زعيمنا، وابقَ معنا؛ فخلاصنا بين يديك». قَبِل براهم باي عرضهم، وصار سيِّد عنابة دون عناء.

عندما تناهى الخبر إلى مسامع الحاج أحمد؛ جمع قسماً من الجيش وزوَّده بالسلاح والذخيرة وعددٍ من المدافع لمحاصرة المدينة، وعين على رأسه الحاج عمار بن زقوطة؛ وهو رجلٌ مسنٌ وذو خبرةٍ كبيرةٍ ومعرفةٍ تامةٍ بالبلاد.

وباقتراب هذا الطابور؛ تملك الخوف سكان عنابة، فاجتمعوا للتشاور حول الموقف الذي عليهم اتخاذه. وبعد مناقشةٍ حادةٍ تقرر الكتابة للباي لطلب عفوه، وكان كتابهم كالآتي:

«الحمد لله،

على مولانا وسيدنا الحاج أحمد باشا قسنطينة السلام،

اسمحوا لنا أن نعرض لكم أسباب سلوكنا وتصرفاتنا. فلما كان الأتراك يحكمون بلادنا؛ كنا نخضع لهم، ولم ننكر أبداً سلطتهم علينا. أما اليوم فقد زالت سلطتهم، وصار الفرنصيص يحكمون مكانهم. ونحن الضعفاء، ماذا يمكن أن نفعل؟ إننا لا نحسن استعمال السلاح والصراعات الدموية في المعارك. ومع رؤية الجيوش التي أرسلتموها؛ تملَّك الذعر أبناءنا وتفطَّرت قلوبنا. وإذا كنتم تشنون الحرب علينا بسبب براهم باي؛ فاعلموا بأنه التجأ إلى أسوارنا، وفرض نفسه علينا؛ ولكنه لا يملك لا سلاحاً ولا جنوداً لمواجهتكم. وإن كانت حملتكم موجهةً ضد الفرنصيص؛ فهم، في الحقيقة، سادة المدينة، ونحن نخضع لقانون المنتصر؛ ولكن هل كنا أقوياء بما يسمح لنا بمقاومتهم؟ وهل باستطاعتنا اليوم أن نتخلص من سيطرتهم؟ ومع ذلك، فإننا نضع قضيتنا بين أيديكم، ونجعلكم حكماً لمصائرنا. فلكم اتخاذ الوسائل الناجعة لإرساء الهدوء في مدينتنا»*.

هذه الرسالة التي لم تكن في مستوى شجاعة وصراحة العنابيين؛ كانت أبعد من أن تهدئ غضب الحاج أحمد، ولم تزد إلا من سخطه. وتم إرسال قواتٍ إضافيةٍ ومزيدٍ من قطع المدفعية على وجه السرعة، وأُسندت القيادة إلى علي بن عيسى؛ الباش حبة والمقرب للحاج أحمد. وكان تحت إمرته الآغا أحمد بن الحملاوي. لقد خرج هذا الجيش الجديد من قسنطينة مسبوقاً بموسيقى الباشا، وقام في طريقه بغاراتٍ لم يسبق أن قام بها بايٌ قبله.

في هذه الأثناء؛ ألمَّ بالحاج عمار بن زفوطة مرضٌ خطيرٌ أجبره على التقليل من العمليات، فتلقى أمراً بالدخول إلى قسنطينة بسبب مرضه. وفي طريق عودته؛ التقى بين عيسى الذي قام بتوقيفه بمحض إرادته. فقد كان

*. نص الرسالة ليس أصلياً؛ فهو مترجم من النسخة الفرنسية المنقولة من الأصل.

بين الرجلين حقدٌ قديم يعود للأسباب التالية.

في العام 1245هـ (1829م)؛ كلف حسين باشا الباي الحاج أحمد باختيار، من بين أعيان قسنطينة، رجل ثقةٍ يستطيع أن يمثله بجدارةٍ لدى بلاط تونس. فكر الباي، أولاً، في بن عيسى؛ خادمه المخلص وصديقه. ولكن أعضاء المخزن نبهوه بأن تلك الشخصية لم تكن خبيرةً بالشؤون الإدارية، ولم تكن لها الخبرة المطلوبة للاضطلاع بهذه الوظيفة على أكمل وجه. وباقتناع الباي بطروحاتهم؛ عين بن زڤوطة وأرسله إلى مدينة الجزائر. وبعد اللقاء الأول الذي جمعه مع هذا المبعوث؛ أعجب الداي حسين بمزاياه ومواهبه، وثبت اختيار الباي؛ فعيَّنه ممثلاً له في بلاط تونس. وبعد أن أعطاه التعليمات، أرسله إلى قسنطينة حتى يمنحه الباي القفطان الخاص بالوظيفة الجديدة حسب العادة المعمول بها[1].

كان ذلك سبب الضغينة بين بن زڤوطة وبن عيسى.

عندما علم الحاج أحمد بتوقيف بن زڤوطة؛ فكر في إصدار أوامره بتحريره على الفور. ولكن بتفكيره بأن بن عيسى كان في ذلك الوقت على رأس قواتٍ كبيرة، وإذا خرج عن طاعته فإنه سيسبب له متاعب خطيرة، فيجب أن يحسن معاملته، وترك إذاً الأسير في قبضته. حاول بن زڤوطة الخلاص بوساطة قريب الباي شيخ العرب محمد بن الحاج بن ڤانة، ولكن محاولته باءت بالفشل؛ حيث وعده الباي ولم يفعل شيئاً.

في تلك الفترة؛ وصل نبأ اندلاع تمردٍ في الصحراء. فشيخ العرب السابق، فرحات بن سعيد، قد قاد مجموعةً من أنصاره وشن عدة غاراتٍ على القبائل المعترفة بسلطة خلفه، محمد بن الحاج بن ڤانة. لقد كان هذا العصيان العسكري عصيباً على الحاج أحمد باعتبار علاقة القرابة التي تربطه بمعظم القبائل المتمردة. ومع ذلك، وبالنشاط الذي كان يظهره في جميع الظروف؛ قام بتجهيز جيشٍ بسرعة. حيث أعطى لكل رجلٍ بغلاً، وانطلق على رأس قوة الفرسان المرتَجلة هذه لملاقاة هذا العدو الجديد. وبعد حث الخطى ليلا

1. تبعاً للعادة المعمول بها، كانت مصاريف تجهيز ممثل الجزائر في تونس تقع على عاتق باي قسنطينة.

ونهاراً؛ وصل الطابور إلى الديس بالقرب من الخنقة؛ حيث كان يعسكر فرحات. وبمفاجأة الأخير؛ بالكاد وجد الوقت للاستعداد للدفاع. وفي أول مواجهة تمت هزيمتهم، ولاذ قائدهم بالفرار حفاظاً على حياته؛ تاركاً للمنتصر معسكره ومتاعه ونساءه اللاتي أخذهن الحاج أحمد تحت حمايته، ولم يستعمل معهن أي عنف. وسارعت القبائل المتمردة بالخضوع له، ثم سلك طريق العودة إلى عاصمته؛ حيث كانت تنتظره متاعب جديدة.

بدافع المكر الذي كان يميز أهالي قسنطينة على مر العصور؛ ذهب بعض أعضاء المخزن للقاء بن قانة، وقالوا له: «كيف يمكن لك أنت شيخ العرب؛ الذي لبست القفطان، ولم تكن تسير، على غرار البايات، إلا على وقع قرع الطبول؛ كيف تسمح أن تُسحب منك هذه التشريفات التي هي من متطلبات منزلتك، وتُمنح لبن عيسى هذا؛ الذي ليس له أي حقٍ فيها بالطبع؟». لقد أيقظت هذه العبارات وأخرى مثلها الغيرة في نفس بن قانة، وسرعان ما لوحظ جفاءٌ كبيرٌ بينه وبين الحاج أحمد. وبعد فترةٍ حدثت قطيعةٌ صريحةٌ بينهما؛ حيث تخلى بن قانة عنه مصطحباً معه كل زمالته، وتبعه في هذا عددٌ من القادة المهمين.

برؤية الباي نفسه وقد تخلى عنه معظم مقربيه؛ فكر في لحظةٍ معينةٍ في أن يضع مصيره بين يدي فرنسا، ولكنه سيخسر الكثير إن هو ضحى بتلك الاستقلالية التي كان يتمتع بها حتى ذلك الحين؛ والتي طالما دافع عنها. فقرر إذاً أن يحاول مرةً أخرى الاحتفاظ بهذه السلطة الزائلة؛ التي كانت تفلت منه كلما اعتقد أنه أمسك بزمامها. ومن أجل هذا؛ كلف بوعزيز بن بولخراز (الذي أصبح لاحقاً شيخاً للعرب) بالذهاب إلى أخيه بن قانة حاملاً هذه الكلمات: «كيف يمكنك، يا ابن خالي، أن تتخلى عني وتتخذ قضيةً مشتركةً مع أعدائي؟ وتفعل أكثر من هذا، تريد أن تثير الناس، وتجر إلى ثورتك حتى أعضاء المخزن. لماذا تفعل هذا؟». وأجابه بن قانة: «ما أؤاخذك عليه هو أنك قلّلت من امتيازاتي، وجرحت كبريائي بمنحك لغيري التشريفات التي كانت لي وحدي. وأيضاً، لأنك لم تعطِ اعتباراً لرجائي عندما طلبت منك

تحرير بن زقوطة. ولذلك فإني أفصل قضيتي عن قضيتك».

غضب الحاج أحمد كثيراً من هذه الإجابة؛ فقام فوراً بقتل بن زقوطة، وكانت رأس البريء فدية للمُدان. أما معظم أعضاء المخزن الذين تخلوا عن الباي؛ فقد أدركوا بأن الصراع إذا اندلع فإنه لا يخدم في النهاية إلا فرنسا، لأنها ستجني نتيجة تشتت قواهم، وعليه فإنهم اتخذوا تدابيراً للحصول على عفوٍ منه. ووحده بن قانة رفض أي تقاربٍ، ولكنه، بعد حوالي ستة أشهر، رضخ لإلحاحات أصدقائه وتوسلات أخيه بوعزيز؛ فقرر الذهاب إلى قسنطينة. لقد كانت المقابلة التي جمعته مع الباي تبادلاً للاحتجاجات والملامات، وعلى كل حال؛ فقد انتهيا بالاتفاق وتفرَّقا وكلاهما راضٍ عن الآخر في الظاهر. وبعد أيامٍ سلك شيخ العرب طريقه إلى الصحراء؛ حيث إقامته المعتادة.

بفك الرابطة؛ اعتقد الحاج أحمد أنه يستطيع إطلاق العنان لمشاعر الانتقام التي كانت تغذي قلبه منذ فترة. فقبض على جميع أعضاء المخزن الذين تورطوا في مؤامرة بن قانة وقتلهم. ولم يلق عفوه سوى اثنين هما أحمد التونسي، قايد الدريدي؛ لأنه كان غريباً، والحفصي بن عون؛ الذي أصبح قايداً للسفينة لاحقاً، والذي زُج به بالقوة في حزب الحرب.

بتلقيه خبر هذه الانتقامات؛ رفع بن قانة راية الثورة مجدداً. وبعد تسعة أشهر، عندما حاصر الحاج أحمد مع قواته مدينة المسيلة الصغيرة في الحضنة؛ جاء إليه لإعلان استسلامه، ولقد قام أخوه بوعزيز بالوساطة مرةً أخرى. فاستقبله الحاج أحمد بحفاوةٍ كبيرةٍ تعبيراً عن سعادته؛ حيث ألبسه قفطان الشرف، وأمر بقرع الطبول لدى مروره. وبعد خمسة عشر يوماً؛ عاد بن قانة إلى قسنطينة في إثر الباي، ثم مرِض وأسلم روحه بعد خمسة أيام، ودُفن في كدية عتي على الجهة المقابلة للمدينة. وقد ثارت ضجةٌ بأن قايد سبسي شيخ العرب قد ارتُشي من طرف الباي ليدُسَّ السم في التبغ الذي يدخنه سيده، أو في القهوة التي يتناولها، حسب آخرين.

لقد حان الوقت للرجوع إلى بن عيسى؛ الذي تركناه مع طابوره في

الطريق إلى عنابة. فبينما كان يستعد لمحاصرة هذه المدينة؛ ذهب أبرز أعيان قسنطينة، وعلى رأسهم شيخ البلاد سي محمد بن لفقون، للقاء الحاج أحمد في قصره، وعرضوا أمامه رؤاهم الصائبة حول الوضعية القائمة؛ حاثين إياه على العدول عن نواياه بخصوص عنابة باعتبار أن المدينة صارت بيد الفرنسيين، وأن كل فكرةٍ بغزوها أضحت مستحيلة. وأضافوا بأن قسنطينة نفسها تعيش في حالة حربٍ منذ عدة سنوات، ولوضع حدٍ لهذه الحالة المزعجة لا يوجد أفضل بالنسبة إليه وإليهم من فتح مفاوضات سلامٍ مع الفرنسيين. وإذا نجح مسعً في هذا الاتجاه؛ فإنه لا يُخشى على سلطته منَ هذا الجانب، بل إنها سوف تتعزز أكثر، وأنه يمكنه بهذه الطريقة أن يستولي على عنابة دون اللجوء إلى متاعب الحرب.

هذه الملاحظات، ورغم الحكمة التي ميزتها؛ لم تكن لتزعزع عناد الباي. فقد استمر في مكابرته لأخذ عنابة، وأرسل أمراً إلى بن عيسى بإطباق الحصار عليها. فأحيطت المنطقة من كل جانب، ولم تتوقف المدافع عن دك أسوارها لدرجة أن ضاق الحال بالمحاصَرين، واحتاجوا للمؤن؛ ففضلوا الاستسلام عن الموت جوعاً أو ببأس العدو. ودخل بن عيسى إلى المدينة منتصراً؛ حيث فُتحت له الأبواب في ليلة الخامس إلى السادس من مارس سنة 1832، ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على القصبة؛ التي دافعت عنها الحامية التركية، والتي كان قد ولج إليها النقيبان «أرماندي» (d'Armandy) ويوسف مع البحارة الذين وضعهم تحت تصرفهما النقيب «فريار» (Fréart) قائد سفينة «بيارنيز» (Béarnaise) الراسية في ميناء عنابة حينها. وبسبب غيظه، أرغم كافة السكان على الخروج من المدينة، قبل أن يستبيحها للنهب والسلب، ثم أضرم النار فيها؛ حيث أراد من خلال هذا ألا يترك للفرنسيين إلا الأطلال.

لقد جلب فشل هذه الحملة إلى الحاج أحمد شكاوى رعيته، كما زاد في إثارة مزاجه العنيف والكئيب بطبيعته. وصار، منذئذ، يرفض كل نصيحةٍ غير مستمعٍ سوى لأهوائه. ورغم كسبه لتعاطف الناس؛ فإنه لم ينجح في أية حملةٍ من حملاته.

في سنة 1834 جمع كل ما استطاع من قوات، وسار نحو المسيلة؛ التي كان سكانها قد اتبعوا ابن ڤانة في ثورته. حيث نهبهم وشتتهم بطريقةٍ وحشيةٍ لم يسبق لها مثيل. وهناك التحق به أحمد بومزراق، ابن الباي الأسبق للتيطري، الذي طُرد لتوِّه من المدية، وجاء لطلب دعمه حتى يسترجع إرث أبيه. افتُتن الحاج أحمد بهذا المسعى؛ فتوجه إلى المدية، ولما اقترب من أسوار المدينة جاءته وفادةٌ عن الأهالي تسأله إن كانت نواياه عدائيةً أم سلمية. فأجابهم بأن نواياه كلها سلمية، وأن ليس له رغبةٌ سوى مساعدتهم وحمايتهم من العدو المشترك المتمثل في الفرنسيين. وباطمئنانهم بهذه الإجابة؛ فتح له المبعوثون أبواب مدينتهم، حيث استُقبل بحفاوةٍ كبيرةٍ وسعادةٍ غامرة. فقُدِّمت له هدايا من المال وخيول السباق، وذهبوا حتى إلى ترجيه لأن يختار لهم باياً يجتمع الأهالي تحت لوائه، ويكون في الوقت نفسه قائداً يستطيعون الاعتماد عليه. لقد أراد الحاج أحمد أن يرتقي فوق مستوى تطلعاتهم؛ لأنه وجد بأنه بصدد تجسيد مشاريع تفوق آماله، فاختار لهم ابن بومزراق باياً عليهم. ولكنه، وفي الوقت نفسه، قام بتنفيذ نواياه الغادرة؛ حيث قبض بطريقةٍ سريةٍ على مئةٍ من الشخصيات الأكثر تأثيراً في المدينة، ثم غادر الإقليم خفيةً مصطحباً معه أسراه. ولدى وصوله إلى قسنطينة قام بإعدامهم جميعاً[1].

لم يكن هذا إلا تمهيداً لسلسلة من عمليات القتل التي أغرقت ساحة الإعدام بالدماء، واستُعمل الغدر والوعود الكاذبة لاستدراج ضحايا مخططه الدموي إلى الفخ ليقعوا فريسةً لسيف الجلاد. ففي أحد الأيام؛ هلك ستون فارساً من قبيلة أولاد مطلة بشفرة الشاوش. وفي اليوم الموالي دفع مئةٌ وعشرة أشخاصٍ من أولاد عامر من منطقة عذاورة رؤوسهم ثمناً لثقتهم الزائدة؛ حيث شُنق أربعون منهم، وقُتل الباقي. ويُحكى أنه عندما أمسك الشاوش بأحد هؤلاء ليضرب عنقه؛ طار من بين يديه دون أن يعرف أحدٌ ماذا كان مصيره. وفي يومٍ آخر قضى ستون رجلاً من بني وجانة في صبيحةٍ واحدة.

1. لا نجد تفسيراً لهذا السلوك من طرف الحاج أحمد باي. غير أنه، في جميع الأحوال، طريقةٌ فريدةٌ لكسب مناصرين لقضيته التي كانت محسومة.

في هذه السنة نفسها، 1835، اجتاح الطاعون قسنطينة وعدة مناطق أخرى من الإقليم. وخلال ثلاثة أيام؛ أحصت المدينة حوالي ألف وخمسمئة ضحية. ولأن المتطوعين لم يتمكنوا من دفن هذا العدد الهائل من الجثث؛ تعيَّن تشكيل اتحاد المسبِّلين (قبارو الموتى) بلغ عدد أعضائه ثمانين عضواً يقبضون رواتبهم من الإدارة؛ حيث كُلفوا بانتشال الجثث من البيوت، ثم إنزالها بالحبال، حتى لا تتعرض للرضوض، في دهاليز عميقة لأكثر من عشرين متر (هي بدون شك أحواضٌ رومانيةٌ قديمة)، كانت تقع بين كدية عتي وباب الواد. وتوجَّب تجديد هذا الاتحاد عدة مراتٍ خلال استمرار الوباء.

خلال هذه السنة نفسها؛ خرج الحاج أحمد مع طابوره لشن غارةٍ على أولاد سعيد؛ وهي قبيلةٌ في الأوراس. فأخذ ماشيتهم وخيامهم، وقطع اليد اليمنى لستين أسيرٍ قبل أن يطلق سراحهم، وأُرسلت تلك الأيادي إلى قسنطينة كدليل انتصار.

مع حلول سنة 1835؛ جمع كل ما استطاع من قواتٍ وسار لمحاربة الحامية الفرنسية في مركز الذرعان. فخيَّم، أولاً، في المكان المسمى عقبة العشاري بالقرب من مجاز عمار، ومكث هناك بضعة أيامٍ متردداً حول القرار الذي كان عليه اتخاذه. ثم تابع سيره حتى الحمّام بالقرب من ڤالمة، وأرسل إلى معسكر الذرعان طابور استطلاعٍ لرصد تحركات العدو. ولما تراءى الرجال المشكلون لتلك القوة من الذرعان؛ خرج الرائد يوسف، الذي أصبح يحمل لقب باي قسنطينة، مع قواته وباغتهم بعنفٍ حتى أجبرهم على الفرار بعد أن خسروا عشرين منهم. ولم تحقق محاولةٌ ثانيةٌ للاستيلاء على هذا الحصن النجاح المطلوب رغم قيادتها من طرف الحاج أحمد شخصياً؛ حيث عاد إلى قسنطينة بعد ذلك.

ما إن استراح من متاعبه؛ حتى علِم بزحف قوةٍ فرنسيةٍ للهجوم عليه في عاصمته. وبسياسةٍ ماكرةٍ ومحتالة؛ قال للأهالي بأن شرفه لا يسمح له بانتظار العدو حتى يحاصر أبواب المدينة ليتواجه معه، وإنه سيخرج مع أحسن مقاتليه. أما الماريشال « كلوزال» (Clauzel)؛ الذي لم يلق إلا مقاومة

بسيطةً في طريقه؛ فسرعان ما وصل إلى مشارف قسنطينة. وفي اليوم الموالي، 22 نوفمبر، فتَحَت المدفعية النار عليها[1].

استمر القتال خلال ليلتين ويومين بنفس الشدة بين الطرفين، وكانت القذائف والقنابل تتقاطع في الهواء قبل أن يقع عددٌ منها في الهاوية. وفي ليلة 23 إلى 24؛ كان الفرنسيون المحتشدون على جسر القنطرة على وشك الدخول إلى المدينة. وكانت البوابة الملغومة من طرف سلاح الهندسة توشك على التحطم بفعل الضربات، ولكن المجال الضيق الذي لا يسمح بمرور أكثر من أربعة أو خمسة رجالٍ دفعةً واحدة؛ لم يُمكّنهم من الهجوم مجتمعين. ولم تتوقف النيران عن السقوط عليهم؛ حيث أحدثت القذائف ثغراتٍ كبيرةٍ في صفوفهم. وسرعان ما شكلت جثث القتلى والمحتضَرون حاجزاً على الجسر لا يمكن اجتيازه؛ فكان ذلك عوناً للمحاصَرين. وإذا كان الموت يحصد جنودنا؛ فإن القلق كان في أوجِه داخل المدينة، حيث كان يعلو من كل جانب: الجهاد! الجهاد! وشُكِّلت المتاريس عند البوابة، وكُدِّست أكياس الصوف فوق بعضها، ووُضعت العوارض، وكان القتال في جوٍ من اليأس.

وعندما طلع النهار؛ تخلى المحاصِرون عن هذه النقطة، ووجهوا هجوماتهم ناحية باب الواد. ولكن، هناك أيضاً، فشلت محاولاتهم أمام المقاومة الشرسة للأهالي. لقد كان الفصل شتاءً، ولم يسمح البرد والثلج واستحالة التموين بضرب حصارٍ بالشكل المطلوب؛ والذي يمكن أن يستمر أطول من المتوقع. فاستعد الجيش الفرنسي للانسحاب؛ مرجئاً الأخذ بثأره إلى أوقاتٍ أفضل.

في هذه الأثناء؛ قام أعيان الأهالي بتحرير خطابٍ إلى يوسف ليناقشوا السلام معه؛ كان مفاده: «سوف نستسلم بشرط أن تحترم ممتلكاتنا ونساءنا

---

1. للاطلاع على تفاصيل هذا الجزء من تاريخنا، والتي هي معروفةٌ لدى الجميع؛ فقد اعتمدنا على رواية صالح العنتري في مؤلفه تاريخ قسنطينة، مع تصحيح بعض الأخطاء المتعلقة بالتواريخ والأسماء التي ضمتها. فبالنسبة لعرب قسنطينة؛ فإن القائد الأعلى للحملة الأولى كان يوسف، وأن الماريشال كلوزال كان مجهولاً تماماً بالنسبة إليهم. وأما فيما يتعلق بالجزء المتبقي؛ فقد اختصرناه قدر الإمكان باعتبار أن التاريخ معاصرٌ جداً.

وأبناءنا، وأن تحافظ على الهدوء في البلاد. وإذا لم يكن كذلك؛ فنحن عازمون على القتال حتى الموت". وكان الموقعون على هذه الرسالة كل من سي محمد بن لفقون؛ شيخ البلاد، ومحمد بن لبجاوي؛ قايد الدار، والحاج المكي بن زقوطة، وعمر بن القشي، وعلي بن حجوج، وحسين بن سليمان، والمرابط العربي ومحمد بن العنتري؛ الذي كتب نصها. ولكن هذه الرسالة لم تصل أبداً إلى وجهتها. وفي الغد كان كل الجيش الفرنسي قد اختفى مخلفاً وراءه قافلة كبيرة من القتلى وعتاداً حربياً معتبراً. أما الحاج أحمد الذي كان قد ابتعد بحذر خلال الحصار؛ فقد عاد إلى قسنطينة بعد بضعة أيام.

إن أول ما قام به هو شنق المرابط العربي وسي الحسين بحجة تفاوضهما مع العدو، ومحاولتهما تسليمه المدينة. غضب سيدي الشيخ بن لفقون من هذا الحكم الجائر، فذهب للقاء الباي، وخاطبه قائلاً:

«أيها الحاج أحمد؛ أنت أميرنا، ويجدر بك أن تدافع عن بلدنا، وأن تدفع الشر الذي يمكن أن يصيب رعيتك. ولكن لما حل الخطر؛ تَركتَنا لقوتنا الخاصة، فتحتم علينا، بدونك، حماية حياتنا وحياة أبنائنا. وهكذا، ظهرتَ بأنك منافسٌ حقاً للكثير من سابقيك. فلما اقترب الشريف من قسنطينة، منذ ثلاثين عاماً تقريباً، يقود جيشاً من القبايل؛ تعيَّن علينا مقاومة هجوماته، وكبَّدناه خسائر لا حصر لها، ولم يكن معنا حينها لا باينا ولا خليفته. وكذلك عندما جاء باشا تونس، في عهد حسين باي، لمحاصرة المدينة، وقام لمدة ثلاثين يوماً بإمطار بيوتنا بالقذائف والقنابل؛ من كان يقودنا؟ لا أحد. فلم يكن خلاصنا إلا بفضل شجاعتنا والنجدة التي أرسلها إلينا باشا الجزائر.

أما اليوم، فإلى أية جهةٍ نوجِّه أملنا؟ فمدينة الجزائر؛ التي كانت عاصمة البلاد ومقر باشواتنا، هي الآن تحت سيطرة الفرنصيص. فهل يمكننا أن نأمل في الاستمرار طويلاً في مقاومة هجومات عدوٍ قويٍ كهذا؟ ألا يحسن بنا وبعائلاتنا أن نستسلم ونطلب الأمان؟ فكُفَّ إذاً، أيها الحاج أحمد، عن ظلمك وجرائمك؛ لأننا عَزَمنا على مقاومة جبروتك».

لم تكن سوى الحصانة التي يتمتع بها شخص شيخ الإسلام هي التي

منعت سيف المستبد من قطع رأس هذا المتهور الذي تجرأ على مخاطبته بهذا الشكل. فأمام هذه الشخصية الوقورة؛ تحتم على الحاج أحمد كظم غيظه. وبتحكيم عقله؛ أدرك بأنه إذا نشبت ثورةٌ في المدينة فسيكون هو أول ضحاياها. فانطوى على نفسه في قصره، ولم يهتم بأي شيءٍ لفترةٍ من الوقت.

لكن نفسه القلقة لم تسمح له بالبقاء ساكناً لمدةٍ طويلة، فقرر إرسال جميع قواته لمهاجمة مركز قالمة، وطرد الفرنسيين الموجودين فيه، وحرق حقول القمح التابعة للقبائل الخاضعة. ورغم النصائح التي قُدِّمت له؛ لم يتراجع عن خططه. فخرجت إذاً القوات التي قادها الآغا بن الحملاوي وبوزيان بن العلمي لمحاصرة قالمة؛ فاستطاعت أن تنشر الموت والحرق في الأرياف المحيطة، ولكنها كلما اقتربت من المركز وجدت مقاومةً ألحقت بها خسائر. ففي إحدى الخرجات التي قام بها المحاصَرون؛ جُرح بوزيان جرحاً بليغاً. وبعد ثلاثين يوماً من الفشل وفقدان الكثير من الرجال؛ رجعت القوات النظامية إلى قسنطينة، وتم تسريح القُوم.

في هذه الأثناء؛ كانت تتحضر حملةٌ جديدةٌ ضد قسنطينة. لقد كان جزءٌ من جيشٍ عظيمٍ بقيادة الجنرال «دامريمون» (Damrémont) ومعه دوق «نومور» (duc de Nemours) معسكراً في عنابة منذ شهر أغسطس، ثم تنقل إلى مجاز عمار لينتظر وصول التعزيزات حتى يبدأ الزحف.

ما إن علِم الحاج أحمد بهذا الخبر حتى جمع كل قواته النظامية، وخرج معها من المدينة ليعسكر في فج سيلة في بلاد السقنية. وهناك وجَّه نداءً لجميع قبائل الإقليم لترسل مجنديها. وفي الوقت نفسه؛ أرسل مبعوثين سريين وجواسيساً لمعاينة قوات العدو والطريق التي يسلكها، ولكنه لم يتلق إلا تقاريراً متضاربة. فحسب البعض؛ كانت قوات العدو كثيرة الرجال والسلاح، وحسب أقوال البعض الآخر؛ لم تكن إلا قواتاً بسيطةً يستطيع أن يتغلب عليها بسهولة.

بينما كان الحاج أحمد غارقاً في الحيرة والارتباك؛ تلقى رسالةً من القائد الأعلى للجيش الفرنسي يحثه فيها على الاستسلام إن كان لا يريد أن يرى

قواته تُباد، وعاصمته تُنهب.

لقد سلمه الرسالة ابن بوجناح؛ وهو ثريٌ من مدينة الجزائر كان في خدمة فرنسا. وبعد أن قرأ الرسالة؛ تحادث مع هذا المبعوث على انفرادٍ، ثم سرحه دون أن يعطيه أية رسالة. وجرت عدة مقابلاتٍ من هذا النوع بعد ذلك، ولربح الوقت؛ لم يعطِ لأسئلة الجنرال إلا إجاباتٍ غامضة. فقد كان يريد، قبل كل شيء، أن يعرف التعداد الحقيقي لقوات العدو. وعلى غرار ما جاء في كل التقارير التي كانت تُرفع له يومياً؛ فإنه لم يتوصل إلى الحقيقة، فعزم على تكليف كاتبه سي محمد بن العنتري[1]، وهو الرجل الذكي، بمهمةٍ سريةٍ لدراسة تشكيلة جيش العدو، وإخبار الجنرال والأمير بأنه مستعدٌ لإبرام السلام شرط أن يغادر الفرنسيون عنابة وقالمة، ويعترفوا به قائداً للإقليم. وحسب اعتقادنا؛ فقد رُفضت هذه الشروط، وتقرر حصار قسنطينة.

عاد ابن العنتري للقاء سيده ناقلاً له ما سمعه وما رآه بكل أمانة. وفي الوقت نفسه؛ أشار عليه بالعدول عن أية فكرةٍ للمقاومة، وأن يستسلم. فكلفه الباي بإخبار أعيان المدينة بجواب الجنرال بنفسه، وبأن يسألهم عن رأيهم؛ فأجمعوا على الاستسلام ماعدا بن عيسى الذي أيّد خيار المقاومة، وزعم بأن ابن العنتري قد باع ذمته للفرنسيين مقابل أن يقدم تقارير كاذبة حول قواتهم، وبأنه لا يجب تصديق كلامه. وثار القوم على المبعوث، فتحتّم عليه مغادرة المدينة في ذلك اليوم ليلتحق بالحاج أحمد. ولكن ما إن وصل إلى المعسكر؛ حتى جاء موفدٌ من بن عيسى يحمل للباي كتاباً يفضح ابن العنتري ويصفه بالخائن. استشاط الباي غضباً، ودون أن يسأل عن معلوماتٍ أخرى، أوقف كاتبه الذي قضى بعد ثمانية أيامٍ بشرب فنجانٍ من القهوة؛ قيل إنه كان مسموماً.

لقد صارت أية فكرةٍ للتقارب مستحيلة؛ حيث غادر الفرنسيون معسكرهم في مجاز عمار، وفي 6 أكتوبر وصلوا أمام قسنطينة دون أن يعيق الحاج أحمد سيرهم بشكلٍ جدي. أخذ الجيش مواقعه على هضبة المنصورة

1. هو والد صالح بن العنتري مؤلف كتاب تاريخ قسنطينة.

وفي كدية عتي، وخلال اليومين الأولين؛ تعرض لتحرشاتٍ مستمرةٍ من طرف مجموعاتٍ من الفرسان والقبايل التي أرسلها الحاج أحمد من معسكره المقام خلف هضبة العيفور ما وراء وادي الرمال.

وأخيراً تم تنصيب بطاريات الحصار، وفُتحت النار على المدينة. ومنذ ذلك الحين؛ لم تتوقف المدافع عن قصف الأسوار ليلاً ونهاراً حتى مساء 11 أكتوبر؛ حيث أُحدثت ثغرةٌ يمكن اختراقها، فأرسل القائد العام دامريمون جندياً شاباً من الفيلق التركي لينذر الأهالي بالاستسلام؛ واعداً إياهم مقابل هذا بالحفاظ على حياتهم واحترام بيوتهم وممتلكاتهم. ولما وصل هذا المبعوث الشاب أمام أسوار المدينة تحت وابلٍ من النار؛ تم رفعه بحبلٍ إلى الأعلى، وسلم لبن عيسى وبن لبجاوي الشروط التي كان يحملها. وسرعان ما أعلما جميع الأهالي بذلك، وأضافا بأن ذلك لم يكن إلا حيلةً للمحاصِرين حتى يأخذوا المدينة دون قتال. وفكَّر بن عيسى في أن يحتجز المبعوث حتى يتم إصلاح الثغرات، وبعد ذلك أطلقه وحمَّله هذا الجواب:

«من أهالي قسنطينة إلى الجنرال القائد الأعلى للجيوش الفرنسية. ردأ على رسالتكم التي قرأناها وفهمناها؛ نعلمكم بأنه ليس لنا اليوم أن نجري محادثاتٍ معكم. وإن كنتم تريدون التفاوض فافعلوا ذلك مع سيد البلاد، الباي الحاج أحمد، الذي ليس بعيداً عنكم. هذا كل ما لدينا نقوله لكم، والسلام» [1].

واستمر الحصار. وفي صباح اليوم الموالي، 12 أكتوبر، سقط الجنرال دامريمون بقذيفةٍ اخترقت جسده بينما كان يفتش البطاريات في عين المكان، وخلفه الجنرال «فالي» (Valée) على رأس القيادة. هذه الحادثة، التي لم تؤثر على شجاعة الجنود، لم تزد إلا في إلهابها. فخلال الليل؛ استطاع سلاح المدفعية أن ينصِّب بطاريةً بالقرب من منارة سيدي بوقصية على بعد 160 متراً من المدينة، واستؤنف القصف بعنفٍ؛ لدرجة أن الأسوار لم تصمد كثيراً قبل أن تنهار تحت الضربات المتكررة للقذائف والقنابل. لقد أصبحت الفتحة سهلة العبور؛ ولكن الأهالي استمروا في المقاومة، وقرروا أن يُدفنوا تحت أطلال

---

1. نص الرسالة ليس أصلياً؛ فهو مترجم من النسخة الفرنسية المنقولة من الأصل.

مدينتهم دون أن يستسلموا. وتقرر الاقتحام في اليوم الموالي.

مع طلوع النهار؛ تمكن طابور الهجوم الأول بقيادة المقدم «دولاموريسيار» (De Lamoricière) من اجتياز الخنادق، ووصل بسرعةٍ على جامع سيدي بركات العروسي؛ الذي يقع على بعد خطواتٍ من الفتحة. أمام هذا المشهد؛ تملّك الخوف واليأس بعض المحاصَرين. وتخلى بن عيسى عن موقعه هارباً إلى ناحية الطابية، ومعه حشدٌ من الناس. أما بن لبجاوي فقد ظل مرابطاً، وتجمع حوله الرجال المؤمنون؛ ولكن تظافر جهودهم لم يمكّنهم من إيقاف اندفاع جيوشنا. واشتبك المحاصِرون والمحاصَرون بأجسادهم متقاتلين بالسيوف والحراب، وفي تلك الأثناء انفجر لغمٌ في المكان الذي كان به أكبر عددٍ من الرجال؛ فامتلأت الأرض بالجثث والأطراف المتناثرة. وأخيراً، وبعد مقاومةٍ بطوليةٍ ومجيدةٍ؛ سقطت قسنطينة في أيدينا، وفي ذلك اليوم نفسه، 13 أكتوبر، رفرف العلم الفرنسي فوق قصر آخر باياتها.

لم يستطع الحاج أحمد أن يحبس دموعه أمام مشهد سقوط عاصمته في سلطة الفرنسيين، وظل لمدة ثلاثة أيام في ضواحي قسنطينة غير مستقرٍ على موقفٍ محدد. وبأخذه بنصائح قريبه، بوعزيز بن قانة، جمع كل مناصريه واتجه نحو بسكرة؛ فدخلها بعد أن طرد منها عدوه وغريمه، فرحات بن سعيد. وفي شهر مايو من السنة الموالية؛ طُرد بدوره أيضاً من طرف البركاني، خليفة عبد القادر. ومنذ ذلك الحين بدأت بالنسبة للباي السابق حياة الترحال والاضطراب؛ التي سوف تدوم لعشر سنوات، ولم تكن سوى سلسلةٍ من المتاعب والخيبات. وسنتعرض باختصارٍ لأهم المحطات فيها.

في شهر مايو 1839 أثار التلاغمة؛ فهزمه الجنرال «نيغريي» (Negrier) الذي أرغمه على الفرار عند الحنانشة. وفي الشهر الموالي ذهب إلى الحراكتة، ومن هناك انسحب إلى جبال الأوراس، وتحديداً في جبل أحمر خدو؛ وهو

الموقع المنيع، حيث اتخذ منه ملجأً له ولعائلته وكل ما استطاع أن يحمل من ثروات*. وفي ربيع 1840؛ أشعل ثورةً عند الحراكتة، الأمر الذي أوجب تجريد حملةٍ ضدهم قادها الجنرال «غالبوا» (Galbois) الذي سلبهم ثمانين ألف رأسٍ من الماشية. وفي شهر أغسطس من السنة الموالية؛ ظهر في الحضنة، حيث استقطب بعض المناصرين، وتمت هزيمته على يد الجنرال «سياغ» (Sillègue) في عين الرمل جنوب سطيف.

بشعوره ببعض الإحباط جراء هزائمه المتتالية؛ لم يُسمع عنه أي شيء لمدة عامين، حيث كان يتنقل بين الحضنة تارةً وأولاد سلطان تارةً أخرى، وفيها فَقَدَ والدته الحاجة رقية؛ التي طالما كانت معه في السراء والضراء، وكان يكنُّ لها حباً واحتراماً كبيرين. وبما أنه لم يحقق آماله، واستسلامه لفرنسا كان متأخراً بعض الشيء؛ كان حريٌّ به أن يستسلم حتى يتجنب الأسف الذي أحس به لاحقاً، وكان بإمكانه أن يستفيد من رحمة المنتصر الذي طالما قاومه؛ ولكن طبعه القلِق لم يستسغ طويلاً حياة الركود.

في شهر فبراير 1844؛ حضَّر لاستعراضٍ حتى يعيق سير حملة دوق «دومال» (Duc d'Aumale) ضد بسكرة، فطارده العقيد «بوتافيوكو» (Buttafuoco). وفي شهر مايو الموالي؛ قاد دوق دومال شخصياً طابوراً إلى أولاد سلطان؛ حيث أراد مهاجمتهم في جبالهم. وجاء الحاج أحمد لنجدتهم مع تسعمئة رجلٍ بين فرسانٍ ومشاة، ودام القتال يومين وليلةٍ دون هوادة. وتمكنت قواتنا، المندحرة في اليوم الأول، من الاستيلاء على جميع المواقع في النهاية، وخربت كل شيءٍ وحتى خيمة الباي السابق، وكل ما يمتلكه وقع في يد المنتصر، ولم يتمكن هو من الفرار إلا بصعوبةٍ؛ حيث كان مريضاً، وانسحب إلى المانع؛ وهو تحصينٌ صغيرٌ في جبال الأوراس.

في السنة الموالية، 1845، وفي شهر مايو اقتضت تحركاته في الأوراس تنظيم حملةٍ جديدةٍ بقيادة الجنرال «بيدو» (Bedeau). وفي المواجهة الأولى مع

1. فيما يخص الثروات؛ فإن الكاتب يشير ربما إلى الكنوز التي كانت موجودةً في القصر ثم اختفت، على حد قول فيرو في بحثه حول قصر باي قسنطينة. (المترجم) أنظر
Charles Féraud, Visite au palais de Constantine, Paris, 1877

فواتنا تخلى عنه رجاله؛ فعاد وحيداً مع قومه إلى المانع؛ الذي سرعان ما غادره للاستقرار نهائياً في أحمر خدو.

وهناك، ومع حلول العام 1848، فُتحت محادثاتٌ بينه وبين حاكم بسكرة حول استسلامه لفرنسا. وبعد ترددٍ وافق على ذلك؛ حيث وضع سيفه بين يدي الرائد «دو سان جيرمان» (De Saint-Germain). وبعد بضعة أيام رأى عاصمته السابقة بتأثرٍ كبير؛ حيث تلقى فيها من أهاليها علامات الاُحترام والخشية التي طالما أحسوا بها زمن سيادته.

بعد قضائه ثلاثة أيامٍ في قسنطينة؛ تم اقتياده إلى فيليبفيل ليُحمل على متن سفينةٍ تابعةٍ للدولة نقلته إلى مدينة الجزائر؛ حيث أعطته الحكومة منحةً قدرها 12000 فرنك إلى أن وافته المنية في 30 أغسطس 1850. وتم دفنه في جامع سيدي عبد الرحمن أعلى حديقة «مارينغو» (Marengo)، وقد ناهز عمره الثلاثة والستين.

وبوفاته انتهى آخر بايات قسنطينة؛ الذي كان أيضاً آخر ممثلٍ للسيطرة التركية في الجزائر.

الفهارس

فهرس الأعلام

أ

ب

ج

ح

خ

د

ذ

ر

ص

ط

ع

ن

فهرس الفِرَق والقبائل والشعوب

أ

فهرس الأماكن والبلدان

ق

فهرس الموضوعات

الفترة الثالثة والأخيرة: من 1792 إلى 1837

طبع هذا الكتاب
بمطبعة موقان - البليدة
أكتوبر 2019

هذا الكتاب

توثيقٌ لمرحلةٍ هامةٍ من تاريخ إقليم بايلك الشرق وعاصمته قسنطينة خلال الفترة العثمانية؛ التي استمرت لما يزيد عن ثلاثة قرون، ابتداءً بوصول الإخوة بربروس إلى الجزائر عام 1516؛ إلى غاية انتهاء حكم العثمانيين بسقوط مدينة قسنطينة في يد الغزاة الفرنسيين يوم الجمعة 13 أكتوبر 1837.

يتضمن الكتاب، في بدايته، تشريحاً لنظام الحكم العثماني في الجزائر؛ المعروف بنظام البايلك، وذلك من خلال شرح مختلف أجهزته ومؤسساته الإدارية والاقتصادية والاجتماعية، وتوضيح العلاقة العضوية التي تربط بينها، ومدى تأثيرها على المجتمع آنذاك. وبعد ذلك، سردٌ دقيقٌ للأحداث التي رافقت دخول الأتراك إلى قسنطينة، والظروف العصيبة التي مرت بها المنطقة إلى حين استقرارهم فيها بشكلٍ نهائي.

ويتعرض الجزء الأكبر من الكتاب إلى سرد سيرة البايات الذين تتابعوا على حكم إقليم قسنطينة باسم السلطة العثمانية على امتداد حكمها للبلاد.

نظراً لأهمية هذا العمل؛ باعتباره مصدراً من المصادر القيِّمة لدراسة تاريخ بايلك الشرق بصفةٍ خاصة، وتاريخ الجزائر بشكلٍ عام؛ عكف المؤرخ الأستاذ أحمد سيساوي -رحمه الله- على ترجمته وتحقيقه، ولكن المنية حالت دون أن يرى النور في حياته؛ فأخذت على عاتقي مهمة مراجعته وإخراجه إلى القارئ تحقيقاً لمبتغى الفقيد، ووفاءً لذكراه الطيبة، واستكمالاً لمسيرته النبيلة

هارون حمادو


ISBN: 978-9931-9557-0-2

